كتاب الأغاني

الجزء العاشر

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
حقوق التأليف والاعداد محفوظة لدار ابن الأثير/جامعة الموصل
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN - 978 - 614 - 414 - 599 - 9

أخبار دريد بن الصمة ونسبه

هو دُرَيد بن الصِّمَّة. وٱسم الصِّمَّة، فيما ذكر أَبو عمرو، معاويةُ الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر بن بكر بن عَلَقة، وقيل عَلقمة، بن خُزاعة بن غزيَّة بن جُشَمَ بن معاوية بن بَكر بن هَوازن. وأما أبو عُبيدة فقال: هو دُرَيد بن الصمَّة، وٱسمه معاوية بن الحارث بن بكر بن عَلَقة ولم يذكر معاوية. وقال ٱبن سلَّام: الحارث بن معاوية بن بكر بن عَلَقة.

ودريد بن الصِّمَّة فارسٌ شجاع شاعر فحل، وجعَله محمد بن سلَّام أول شعراء الفرسان. وقد كان أَطولَ الفرسان الشعراءِ غَزواً، وأبعدَهم أَثراً، وأَكثرهم ظَفَراً، وأيمَنْهم نقيبةً عند العرب، وأشعرهم دريد بن ٱلصِّمَّة.

وقال أَبو عبيدة: كان دريد بن الصمَّة سيِّدَ بني جُشم وفارسهم وقائدهم، وكان مظفَّراً ميمون النقيبة، وغزا نحوَ مائة غَزاةٍ ما أَخفق في واحدة منها، وأدرك الإِسلام فلم يُسلِم، وخرج مع قومه في يوم حُنَينٍ مُظاهِراً للمشركين، ولا فضلَ فيه للحرب، وإنما أخرجوه تيمُّناً به وليقتبسوا من رأيه، فمنعهم مالكُ بن عَوف من قبول مَشورته، وخالفه لئلَّا يكون له ذكر، فقُتل دُريد يومئذٍ على شركه. وخبرُه يأتي بعد هذا.

إِخوته:

وكان لدريد إخوةٌ وهم عبد اللَّه الذي قتلتْه غَطَفانُ، وعبدُ يغُوثَ قتله بنو مُرَّة، وقيسٌ قتله بنو أَبي بكر بن كِلَّاب، وخالدٌ قتله بنو الحارث بن كَعب، أمُّهم جميعاً رَيحانةُ بنت مَعْد يكربَ الزبيديّ أخت عمرو بن مَعْد يكرِب كان الصِّمَّة سباها ثم تزوّجها فأولدها بنيه. وإياها يعني أَخوها عمرو بقوله في شعره:

أَمِن رَيحانةَ الدَّاعي السميعُ ... يؤرِّقني وأَصحابي هُجوعُ
إذا لم تَستطع شيئاً فدَعه ... وجاوِزه إلى ما تستطيعُ

[الوافر]

ابنه وبنته شاعران:

وكان لدُرَيدٍ ٱبْنٌ يقال له سَلَمةُ، وكان شاعراً وهو الذي رمى أَبا عامر الأشعريّ بسهمٍ فأصاب ركبته فقتله وٱرتجز فقال:

إن تَـسـألـوا عـنّـي فـإنـي سَـلَـمـهْ إبـنُ سَـمـادِيـرَ[1] لـمـن تـوسَّـمـهْ
أضـرِب بـالـسـيـف رؤوسَ الـمُـسـلِـمـهْ

[الرجز]

وكانت لدُريد أَيضاً بنتٌ يقال لها عَمرةُ وكانت شاعرة، ولها فيه مَراثٍ كثيرة.

أَخبرني بخبره هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال: حدثنا أَبو غسَّان دماذ عن أَبي عُبيدة وأَخبرني به محمد بن الحسن بن دُرَيد عن أَبي حاتم عن أَبي عُبيدة، وأخبرني بأَخبار له مجموعةٍ ومتفرِّقةٍ جماعةٌ من شيوخنا أذكرهم في مواضعهم، وأَخبرني أيضاً بخبره محمد بن خَلَف بن المَرزُبان عن صالح بن محمد عن أَبي عمرو الشيبانيّ وقد بَيَّنتُ رواية كل واحد منهم في موضعها، قال أَبو عُبيدة سمعت أَبا عمرو بن العَلاء يقول: أحسنُ شعرٍ قيل في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِّمَّة حيث يقول:

تـقـول ألا تـبـكـي أخـاك! وقـد أَرى مكـان الـبـكـا لـكـن بُـنِـيتُ عـلـى الـصـبـرِ
لـمـقـتـلِ عـبـدِ الـلَّـه والـهـالـكِ الـذي عـلـى الـشـرف الأعـلـى قـتـيـلِ أَبـي بـكـرِ
وعـبـدِ يَـغـوث أَو خـلـيـلِـيَ خـالـدٍ وعَـزَّ مُـصـابـاً حَـثـوُ قـبـرٍ عـلـى قـبـرِ
أَبـى الـقـتـلَ إلَّا آلُ صِـمَّـةَ إنـهـم أَبَـوْا غـيـره والـقَـدرُ يـجـري إلـى الـقَـدرِ
فـإمَّـا تَـرَيـنـا مـا تـزال دمـاؤنـا لـدى واترٍ[2] يَـشـقـى بـهـا آخـرَ الـدهـرِ
فـإنَّـا لَـلَـحـمُ الـسـيـفِ غـيـرَ نَـكـيـرةٍ ونَـلـحـمُـه حـيـنـاً ولـيـس بـذي نُـكـرِ
يُـغـار عـلـيـنـا واتـريـن فـيُـشـتـفـى بـنـا إن أصِـبـنـا، أَو نُـغـيـر عـلـى وِتـرِ
بـذاك قَـسَـمـنـا الـدَّهـر شَـطـريـنِ قِـسـمـةً فـمـا يـنـقـضـي إلا ونـحـن عـلـى شَـطـرِ

[الطويل]

وأَخبرني ٱبن عمَّار قال: حدثني يعقوب بن إسرائيل قال حدثني محمد بن القاسم الأسديّ عن صاعِدٍ مولى الكُمَيت بن زيد يقول: أحسنُ شعرٍ قيل في الصبر على النوائب قولُ دُرَيد بن الصِّمَّة، وذكر هذه الأبيات.

قال أَبو عُبيدة: فأما عبد اللَّه بن الصمَّة فإن السبب في مقتله أَنه كان غزا غطَفان ومعه بنو جُشمَ وبنو نَصرٍ أبناءُ معاوية فظفِر بهم وساق أموالهم في يوم يقال له يوم اللِّوى ومضى بها. ولما كان منهم غير بعيد قال: انزلوا بنا، فقال له أخوه دُريد: يا أَبا فُرعان ـ وكانت لعبد اللَّه ثلاثُ كُنًى: أَبو فُرعان، وأَبو ذُفافة، وأبو أوفى، وكلُّها قد

(١) سمادير: هو اسم زوجة دريد بن الصِّمة.
(٢) واتر: الواتر هو المتابع.

ذكرها دُريد في شعره ـ: نَشدتُك اللَّه أَلَّا تنزل فإنّ غطَفانَ ليست بغافلةٍ عن أموالها، فأَقسم لا يَريمُ حتى يأخذ مِرباعه[١] وينقَع نقيعه، فيأكلَ ويُطعِمَ ويَقسِمَ البقيَّةَ بين أصحابه، فبيناهم في ذلك وقد سطعتِ الدواخنُ، إذا بغُبارٍ قد ٱرتفع أشدَّ من دُخانهم، وإِذا عَبْسٌ وفَزارةُ وأشجعُ قد أقبلتْ فقالوا لرَبيئتهم[٢]: انظر ماذا ترى؟ فقال أرى قوماً جِعاداً كأن سَرابيلهم قد غُمِست في الجاديّ[٣] قال: تلك أشجعُ، ليست بشيء. ثم نظر فقال: أرى قوماً كأنهم الصِّبيان، أَسنَّتُهم عند آذانِ خيلهم. قال: تلك فَزارةُ. ثم نظر فقال: أرى قوماً أدماناً[٤] كأنما يحمِلون الجبلَ بسوادهم، يخدُّون[٥] الأرضَ بأقدامهم خَدّاً، ويجرُّون رماحَهم جَرّاً، قال: تلك عَبسٌ والموتُ معهم! فتلَاحقوا بالمُنعرَج[٦] من رُمَيلةِ اللِّوى فٱقتتلوا فقتل رجلٌ من بني قاربٍ وهم من بني عَبس عبدَ اللَّه بن الصِّمَّة فتنادَوْا: قُتِل أبو ذُفافة! فعطَف دُريد فذَبَّ عنه فلم يُغنِ شيئاً وجُرِح دُريد فسقط فكفُّوا عنه وهم يرَون أنه قُتِل، وٱستنقذوا المالَ ونجا مَن هرب. فمرّ الزهدمان وهما من بني عبس، وهما زَهدَمٌ وقيسٌ ٱبنا حَزن بن وهب بن رواحة وإنما قيل لهم الزَّهدَمان تَغليباً لأشهر الإسمين عليهما، كما قيل العُمران لأبي بكر وعمر رضي اللَّه عنهما، والقمْران للشمس والقمر. قال دريد: فسمعتُ زَهدَماً العبسيَّ يقول لكَردَم الفَزاريّ إني لأحسب دُريداً حيّاً فٱنزل فأَجهِز عليه، قال: قد مات، قال: أنزل فٱنظر إلى سُبَّته[٧] هل ترمَّزُ؟ قال دريد: فسددتُ من حِتارها أَي من شَرَجها، قال فنظر فقال: هيهات، أَي قد مات، فولى عني، قال ومال بالزُّجِّ في شَرَج دُريد فطعنه فيه فسال دَمٌ كان قد ٱحتقن في جوفه، قال دُريد فعرفت الخِفَّةَ حينئذٍ فأمهلتُ، حتى إذا كان الليلُ مشيت وأَنا ضعيف قد نزَفني الدَّمُ حتى ما أَكاد أبصِر، فجُزتُ بجماعةٍ تسير فدخلتُ فيهم، فوقعتُ بين عُرقوبَيْ بعيرٍ ظَعينة، فنفَر البعيرُ فنادت: نعوذ باللَّه منك، فٱنتسبتُ لها فأَعلَمتِ الحيَّ بمكاني، فغُسِل عنِّي الدم وزُوِّدتُ زاداً وسِقاء فنجوتُ، وزعم بعض الغطَفانيِّين أن المرأة كانت فَزاريَّة وأنّ الحيَّ كانوا علِموا بمكانه فتركوه فداوته المرأةُ حتى برأَ ولحِق بقومه، قال: ثم حجَّ كَرْدَم بعد ذلك في نفرٍ من بني

(١) المِرباع: هو ربع الغنيمة، وهو حظ رئيس القبيلة في الجاهلية.
(٢) الربيئة: الطليعة من الجيش.
(٣) الجاديّ: هو ضرب من الطيب يسمى الزعفران.
(٤) أدمان: مفردها آدم، وهو الذي يضرب لونه إلى السمرة.
(٥) يخدُّون: يشقّون، أي يتركون أخدوداً من شدة السير.
(٦) المنعرج: موضع.
(٧) السُبَّة: الإسْت.

عَبس، فلما قاربوا ديارَ دريد تنكَّروا خوفاً، ومرَّ بهم فأنكرهم، فجعل يمشي فيهم ويسألهم من هم؟ فقال له كَردم: عمَّن تسأل؟ فدفعه دُريد، وقال: أمَّا عنك وعمَّن معك فلا أسأل أبداً، وعانقه، وأهدى إليه فرساً وسلاحاً، وقال له: هذا بما فعلتَ بي يوم اللِّوى.

وقال دريد يرثي أَخاه عبد اللَّه:

أرثَّ جديدُ الحبلِ من أمِّ معبدِ ... بعاقبةٍ وأخلفتْ كلَّ مَوعدِ
وبانت ولم أحمد إليك جِوارها ... ولم تَرجُ منَّا رِدَّة اليوم أو غدِ

[الطويل]

وهي طويلة وفيها يقول:

أعاذِلَتي كلُّ امرئ وابنُ أمِّه ... متاعٌ كزاد الراكب المتزوِّدِ
أعاذل إن الرُّزءَ أَمثالُ خالدٍ ... ولا رُزءَ[1] مما أهلَك المرءُ عن يدِ
نصحتُ لعارضٍ وأصحاب عارض ... ورهَطِ بني السوداء والقومُ شُهَّدي
فقلتُ لهم ظُنُّوا[2] بألفَي مدجَّج[3] ... سَراتهُم[4] في الفارسيّ المُسرَّدِ[5]
أمرتُهمُ أمري بمُنعرَج اللِّوى ... فلم يَستبينوا الرُّشدَ إلَّا ضُحى الغدِ
فلما عَصَوني كنتُ منهم وقد أَرى ... غوايتَهم وأنني غير مهتدِ
وهل أَنا إلَّا من غَزيَّة[6] إن غوت ... غويتُ، وإن ترشُد غَزيّةُ أرشُدِ
دعاني أخي والخيلُ بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بقُعدُدِ[7]
تنادَوْا فقالوا أَردتِ الخيلُ فارساً ... فقلت أعبدُ اللَّه ذلكمُ الرَّدي
فإن يكُ عبدُ اللَّه خلَّى مكانَه ... فلم يكُ وقَّافاً ولا طائشَ اليدِ
ولا بَرِماً[8] إذا الرياحُ تناوحت[9] ... برطبِ العِضاهِ[10] والهشيم[11] المعضَّدِ

(١) رُزء: أصاب منه شيئاً.
(٢) ظنّوا: الظن هنا بمعنى اليقين، أي أيقنوا وتأكدوا.
(٣) المدجج: المسلَّح بشكل تام.
(٤) السراة: الأشراف والسَّادة.
(٥) المستَرد: المخَرَّز.
(٦) غُزيَّة: قبيلة من هوازن.
(٧) القعدد: الجبان اللئيم الذي يقعد عند هبوب رياح المكارم.
(٨) البَرِم: المتضجِّر، المتبرِّم.
(٩) تناوحت: التناوح هو التقابل، وتناوحت تقابلت.
(١٠) العضاه: شجر عظيم الحجم وله شوك.
(١١) الهشيم: النبات اليابس المتكسر.

نظرتُ إليه والرِّماح تنوشُه كوَقع الصَّياصي[١] في النَّسيج المُمدَّدِ
فطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تبدَّدت وحتى عَلاني أشقر اللون مُزبدِ
فما رِمتُ حتى خرَّفتني رماحُهم وغُودِرتُ أَكبو[٢] في القنا المتقصِّدِ[٣]
قِتال ٱمرىءٍ واسى أَخاه بنفسه وأيقن أنّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ
صبور على وقع المصائب حافظ من اليوم أعقابَ الأحاديث في غدِ

[الطويل]

في بعض هذه الأبيات غناء وهو:

صوت

تمثل عليّ عليه السلام بشعره:

أمرتُهُمُ أمري بمنعَرَج اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشدَ إلَّا ضُحى الغدِ
فلما عصَوني كنتُ منهم وقد أَرى غوايتَهم وأنني غير مهتدِ
وهل أَنا إلَّا من غَزيَّةَ إن غوَت غويتُ وإن تَرشُد غَزيَّةُ أَرشُدِ

[الطويل]

الغناء ليحيى المكيّ ثاني ثقيلٍ بالسبَّابة في مجرى البنصر من رواية ابنه أحمد، وذكره إسحاق في هذه الطريقة ولم ينسُبه إلى أَحمد. وهذه الأبيات تمثَّل بها أَمير المؤمنين عليّ بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه عند مُنصرَفه من صِفِّين.

حدثني أَحمد بن عيسى بن أَبي موسى العِجليّ قال حدثنا حسين بن نصر بن مُزاحِم قال حدثنا عمر بن سعيد عن أَبي مِخنَف عن رجاله أن عليّاً عليه السلام لمَّا ٱختلفتْ كلمةُ أصحابه في أمر الحَكَمين وتفرّقت الخوارج وقالوا له: ٱرجع عن أمر الحكَمين وتُب وٱعترِف بأنك كفرتَ إذ حكَّمتَ، ولم يَقبل ذلك منهم، وخالَفوه وفارقوه تمثَّل بقول دريد:

أمرتُهمُ أمري بمُنعرَج اللِّوى فلم يَستبينوا الرُّشدَ إلَّا ضُحى الغدِ

[الطويل]

الأبيات:

قال أَبو عُبيدة: كانت لعبد اللَّه بن الصِّمَّة ثلاثةُ أسماءٍ وثلاثُ كُنًى: عبد اللَّه ومعبد وخالد. ويكنى أَبا ذُفافةَ وأَبا فُرعانَ وأَبا أَوفى.

---

(١) الصياصي: مفردها صيصية وهو شوكة الحائك تصدر صوتاً.
(٢) أكبو: أنكَب على وجهي. (٣) المتقصِّد: المتكسِّر، المتفتِّت.

وقال دُريد:

أَبـا ذُفـافـةَ مَـن لـلـخـيـل إذ طُـرِدت فاضطرَّها الطعنُ في وعَثٍ[١] وإيجافِ[٢]
يا فارس الخَيلِ في الهَيجاء[٣] إذ شُغِلت كـلـتـا الـيـديـن دَروراً[٤] غـيـرَ وَقَّـافِ

[البسيط]

أَخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أَبو حاتم عن أَبي عُبيدة عن يونس أنه كان يقول: أفضلُ بيت قالته العرب في الصبر على النوائب قولُ دريد بن الصمَّة:

قـلـيـل الـتـشـكِّـي لـلـمُـصـيـبـاتِ حـافـظٌ مـن الـيـوم أعـقـابَ الأحـاديـثِ فـي غـدِ

[الطويل]

عاتبته زوجته أم معبد على بكائه أخاه فطلقها:

أَخبرني الحرميّ بن أَبي العلاء عن الزبير عن أَبي المُهاجر، وذكر مثلَه أَبو عمرو الشيبانيّ، أنّ أمّ مَعبد التي ذكرها دريد في شعره هذا كانت امرأتَه فطلَّقها، لأنها رأته شديدَ الجَزَع على أخيه، فعاتبتْه على ذلك وصغَّرتْ شأن أخيّه وسبَّته، فطلَّقها وقال فيها:

أرَثّ جـديـدُ الـحـبـل مـن أم مَـعـبـدٍ بـعـاقِـبـةٍ وأَخـلـفـت كـلَّ مـوعـدِ
وبـانـت ولـم أحـمَـد إلـيـكَ جِـوارَهـا ولـم تـرجُ مـنـا رِدّة الـيـوم أَو غـدِ

[الطويل]

فقالت له أمُّ مَعبد: بئسَ واللَّهِ ما أَثنيتَ عليّ يا أَبا قُرّة! لقد أطعمتُك مأْدومي، وبَثثتُك مكتومي، وأتيتُك باهِلاً[٥] غيرَ ذاتِ صِرار وما استفرَمتُ قبلك إلَّا من حَيض.

وقال أَبو عُبيدة في خبره: بلغ دريد بن الصمَّة أن زوجته سبَّت أَخاه فطلَّقها وألحقها بأهلها وقال في ذلك:

أعـبـدَ الـلَّـه إن سـبَّـتـكَ عِـرْسـي تـقـدَّم بـعـضُ لـحـمـي قـبـل بـعـضِ
إذا عِـرسُ ٱمـرئ شـتـمـتْ أخـاه فـلـيـس فـؤاد شـانـئـه[٦] بـحَـمـضِ
مَـعـاذَ الـلَّـهِ أن يـشـتُـمـنَ رَهـطـي وأن يَـمـلِـكـن إبـرامـي ونَـقـضـي

[الوافر]

---

(١) الوعث: الطريق الوعر الغليظ.
(٢) الإيجاف: هو سرعة السير.
(٣) الهيجاء: الحرب.
(٤) دروراً: كثيرةُ الدَّر أي معطاء.
(٥) الباهل: هي الناقة لا صرار عليها، وقصد بها المرأة التي لا تمنع نفسها.
(٦) الشانئ: المُبغِضُ.

حارب غطفان يوم الغدير طلباً بثأر أخيه:

أخبرنا هاشم بن محمد قال حدثنا أَبو غسَّان دماذ عن أَبي عُبيدة قال:

أغار دريد بن الصمَّة بعد مقتل أخيه عبدِ اللَّه على غطَفان يطالبهم بدمه، فاستقراهم[١] حيّاً حيّاً، وقتل من بني عبسٍ ساعدةَ بن مُرّ، وأسر ذُؤاب بن أسماء بن زيد بن قارِب، أسَره مُرَّةُ بن عَوف الجُشميّ. فقالت بنو جُشم: لو فادیناه[٢]! فأبى ذلك دريد عليهم، وقتله بأخيه عبد اللَّه، وقتل من بني فَزارةَ رجلاً يقال له حِزام وإخوةً له، وأَصاب جماعةً من بني مُرّة ومن بني ثَعلبة بنِ سعد ومن أحياء غَطَفان، وذلك في يوم الغدير. وفي هذا اليوم وفي مَن قُتِل فيه منهم يقول:

تأبَّد[٣] من أهلِه مَعشرُ ... فجرُ سُوَيقةَ فالأصفرُ
فجِزعُ الحُلَيفِ إلى واسِطِ ... فذلك مَبدًى وَذا مَحضرُ
فأَبلِغ سُليمى وأَلفافَها[٤] ... وقد يَعطِف النسَبُ الأكبرُ
بأنّي ثأَرتُ بإِخوانكم ... وكنتُ كأنّي بهم مُخفِرُ[٥]
صبَحنا فَزارةَ سُمْرَ القنا ... فمَهلاً فَزارةُ لا تَضجَروا
وأَبلِغ لدَيك بني مازنٍ ... فكيف الوعيدُ ولم تَقرِروا
فإن تقتُلوا فِتيةً أُفرِدوا ... أصابهمُ الحَينُ أَو تَظفَروا
فإنّ حِزاماً لدى مَعرَكٍ ... وإِخوَته حولهم أنسُرُ
ويومَ يزيد بني ناشِبٍ ... وقبلُ يزيدُكُم الأكبرُ
أَثَرنا صَريخَ بني ناشِبٍ ... ورَهطَ لَقيطٍ فلا تَفخَروا
تجرّ الضِّباعُ بأوصالهم ... ويَلقَحنَ منهم ولم يُقبَروا

[المتقارب]

ويقول في ذلك أيضاً دريد بن الصمَّة في قصيدة له أخرى:

جَزَينا بني عَبسٍ جزاءً موفَّراً ... بمقتل عبد اللَّه يومَ الذنَّائبِ[٦]
ولولا سوادُ الليل أدرَك رَكضُنا ... بذي الرِّمثِ والأرطَى[٧] عِياض بن ناشبِ

(١) استقراهم: تتبَّع أثرهم.
(٢) فاديناه: أطلقناه وقَبِلنَا فديةً مقابل ذلك.
(٣) تأبَّد: أقفر.
(٤) ألفافها: قومها الملتفّون حولها.
(٥) أخفر: نقض العهد وغدر.
(٦) الذنائب: يوم من أيام العرب.
(٧) الأرطى: شجر نوره كنور الخلاف، وثمره كالعنّاب تأكلها الإبل غضَّة، وعروقه حمر، الواحدة: أرطاة.

قـتـلـنـا بـعـبـد الـلّـه خـيـرَ لِـداتِـه ذُؤابَ بـن أسـمـاء بـنِ زيـد بـن قـارِبِ
[الطويل]

قال أَبو عبيدة: أُنشِد عبدُ الملك بن مروان شعر دريد بن الصمَّة هذا فقال: كاد دريد أن ينسُب ذؤاب بنَ أسماء إلى آدم. فلما بلغ المُنشِد قوله:

ولـولا سـوادُ الـلـيـل أَدرك رَكـضُـنـا بذي الرِّمثِ والأرطَى عِياضَ بنَ ناشِبِ
[الطويل]

قال عبد الملك: ليت الشمس كانت بقيتْ له قليلاً حتى يُدرِكَه.

قال أَبو عبيدة وقال دريد. أيضاً في هذه الوقعة:

قـتَـلـنـا بـعـبـد الـلّـه خـيـرَ لِـداتِـه وخـيـرَ شَـبـابِ الـنـاس لـو ضُـمَّ أجـمـعَـا
ذُؤابَ بـنَ أسـمـاءَ بـن زيـد بـنِ قـارِبٍ مـنـيَّـتُـه أَجـرى[1] إلـيـهـا وأَوضَـعـا
فـتـى مـثـل متـنِ الـسـيـف يَـهـتـزُّ لـلـنَّـدى كـعـالـيـة الـرُّمـح الـرُّدَيـنـيّ[2] أروَعـا
[الطويل]

وقال ٱبن الكلبيّ: قالت رَيحانة بنت معدِ يكرِب لدُرَيد بن الصمَّة بعد حولٍ من مَقتل أخيه: يا بنيّ إن كنتَ عجزتَ عن طلب الثأر بأخيك فٱستعِن بخالك وعشيرته من زُبيد، فأنِف من ذلك وحلَف لا يكتحِل ولا يدَّهن ولا يمَسُّ طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يُدرِكَ ثأرَه، فغزا هذه الغَزاة وجاءها بذؤاب بن أسماء فقتله بفِنائها، وقال: هل بلغتُ ما في نفسِك؟! قالت: نعم مُتِّعتُ بك! ورُوي عن ٱبن الكلبيّ لرَيحانةَ في هذا المعنى أبياتٌ لم تَحضُرْني وقد كتبتُ خبرها.

أخوه قيس بن الصمة ومقتله:

وأما قتيل أبي بكرٍ الذي ذكره دريد فإنه أخوه قيس بن الصمَّة، قتله بنو أبي بكر بن كِلاب. وكان السببُ في ذلك، فيما أخبرني به هاشِم بن محمد بن دَماذ عن أَبي عُبيدة، أنَّه غزا في قومه بني خُزاعة من بني جُشم، فأغاروا على إبلٍ لبني كَعب بن أَبي بكر بن كِلاب، فٱنطلقوا بها. وخرج بنو أَبي بكر بن كِلاب في طلبها حتى إذا دنَوْا منهم قال عمرو بن سُفيان الكِلابيّ، وكان حازماً عاقلاً، امكثوا، ومضى هو متنكِّراً حتى لقيَ رجلاً من بني خِزاعةَ فسلَّم عليه وٱستسقاه فسقاه وٱنتسب له هِلاليّاً، فسأله عن قومه وأين مَرعى إبلهم، وأعلمه أنه جاء رائداً لقومه يريد مجاورتهم، فخبَّره

(١) أجرى: قصد، توجَّه.
(٢) الرُّديني: الرّمح نسبة إلى رُدَينة وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح.

الرجل بكلّ ما أراد، فرجع إلى قومه وقد عرف بغيتَه، فصَبح القومَ فظفِرتْ بهم بنو كِلَابٍ وقتلوا قيسَ بن الصمَّة، وذهبوا بإبل بني خُزاعة وٱرتجعوا إبلَهم. وكان يقال لعمرو بن سُفيانَ ذو السيفين، لأنه كان يَلقى الحربَ ومعه سيفان خوفاً من أن يخونه أحدُهما. وإياه عنى دريد بن الصمَّة بقوله:

إنَّ ٱمرأً باتَ عمرٌو بين صِرمَتِه[١] عمرُو بن سُفيان ذو السيفين مغرورُ
يا آلَ سفيانَ ما بالي وبالكُمُ هل تَنتهون وباقي القولِ مأثورُ؟
يا آلَ سُفيانَ ما بالي وبالكُمُ أنتم كبيرٌ وفي الأحلام عُصفورُ
هلَّا نهيتم أخاكم عن سَفاهته إذ تَشربون وغاوي الخمر مدحورُ؟
لا أعرِفَنْ لِمَّةً سَوداءَ دَاجيةً تدعو كِلاباً وفيها الرمحُ مكسورُ
لن تَسبِقوني ولو أمهلتُكم شَرَفاً عُقبى إذا أبطأ الفُحج[٢] المخاصِيرُ[٣]

[الخفيف]

خبر الحرب بين بني عامر وبني جشم وبين أسد وغطفان:

وأخبرنا بخبر ٱبتداء هذه الحروب محمد بن العباس اليزيديّ قال قرأت على أحمد بن يحيى عن ٱبن الأعرابي قال:

أغارت بنو عامر بن صَعصعة وبنو جُشم بن معاوية على أَسَدٍ وغطَفان، وكان دُريد بن الصمَّة وعمرو بن سفيان بن ذي اللِّحية مُتسانِدَين[٤]، فدُرَيد على بني جُشم بن معاوية، وعمرو بن سفيان على بني عامر. فقال عبد اللَّه بن الصمَّة لأخيه: إنِّي غيرُ مُعْطِيكَ الرِّياسة، ولكنّ لي في هذا اليوم شأناً. ثم ٱشترك عبدُ اللَّه وشَراحيلُ بن سفيان، فلما أغار القوم أخذ عبد اللَّه من نَعَم بني أَسدٍ ستِّين وأَصاب القومُ ما شاؤوا. وأدرك رجل من بني جَذيمة عبدَ اللَّه بنَ الصمَّة فقال له عبد اللَّه بن الصمَّة: ٱرجع فإني كنتُ شاركتُ شَراحيلَ بن سُفيان، فإن ٱستطاع دريد فليأتِه وليأخذ مالي منه. وأقام دُرَيدٌ في أواخر الحيّ فقال له عمرو: ٱرتحِل بالناس قبل أَن يأتيك الصُّراخ[٥]، فقال: إني أنتظر أخي عبدَ اللَّه. حتى إذا أطال عليه قال له: إن أخاك قد

(١) الصِّرمة: القطيع من الإبل والغنم ما دون الثلاثين.
(٢) الفحج: مفردها أفحج وفحجاء، وهو عيب عبارة عن تباعد ما بين الساقين من الدابة والإنسان.
(٣) مخاصير: مفردها مخصور، وهو الذي يشتكي ألماً في خصره.
(٤) متساندين: متعاضدين.
(٥) الصُّراخ: صوت نداء الاستغاثة.

أدرك فوارس من الحُلَيفيِّين يسوقون بظعْنِهم[١] فقتلوه. فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيث يفترقون قال دريد لشراحيل: إن عبد اللَّه أنبأني ولم يَكذِبني قَطُّ أن له شَرِكةً مع شراحيل فأدُّوا إلينا شَرِكتَه. فقالوا له: ما شاركناه قطْ. فقال دريد: ما أنا بتارككم حتى استحلِفَكم عند ذي الخلَصَة (وثنٍ من أوثانهم). فأجابوه إلى ذلك وحلَفوا، ثم جاء عبدُ اللَّه بغنيمةٍ عظيمة فجاؤوه يَنشدونه الشِّرك. فقال لهم دريد: ألم أحَلِّفكم حين ظننتم أن عبد اللَّه قد قُتل. فقالوا: ما حلَفنا وجعلوا يُناشدون عبدَ اللَّه أَن يُعطيَهم، فقال: لا، حتى يرضى دريدٌ، فأبى أَن يَرضى فتوعَّدوه أَن يَسرقوا إبلَه. فقال دريد في ذلك:

هل مثلُ قلبِك في الأهواء معذورُ ... والحبُّ بعد مَشيبِ المرءِ مغرورُ

[البسيط]

وذكر الأبياتَ التي تقدَّمتْ في الخبر قبل هذا وزاد فيها:

إذا غلَبتم صديقاً تَبطِشون به ... كما تهدَّم في الماء الجماهيرُ[٢]

وأنتم مَعشرٌ في عِرقكم شَنَجٌ[٣] ... بُزخُ[٤] الظهورِ وفي الأستاهِ تأخيرُ

قد علِم القومُ أنّي من سَراتهمُ[٥] ... إذا تقبَّض في البطن المذاكيرُ

وقد أَرُوعُ سَوامَ القوم ضاحيةً ... بالجُردِ يَركُضُها الشُّعثُ[٦] المَغاوِيرُ[٧]

يَحمِلن كلَّ هِجانٍ[٨] صارِمٍ ذَكَرٍ ... وتحتهم شُزَّبٌ[٩] قُبٌّ[١٠] مضاميرُ[١١]

أَوعَدتُمُ إبلي كلَّا سيمنعُها ... بنو غَزيَّةَ لا مِيلٌ ولا صُورُ[١٢]

[البسيط]

---

(١) الظُّعْن: مفردها الظعينة، وهو الهودج سواء كانت فيه امرأة أم لا.
(٢) الجماهير: مفردها جمهور، وهي الرمال الكثيرة المتراكمة.
(٣) شنج: الانقباض والتقلص.
(٤) بُزخ: تقاعس الظهر وتقوسه عن البطن.
(٥) سراتهم: ساداتهم وأشرافهم.
(٦) الشّعث: مفردها أشعث وهو المغبر الرأس والمتلبد الشعر.
(٧) المغاوير: مفردها مغوار وهو المقاتل الشرس والكثير الغارات.
(٨) هِجان: معطاء كريم.
(٩) شزَّب: مفردها شازب، وهو الضامر.
(١٠) قبٌّ: مفردها أقبّ، وهو الخيل الذي دقَّ خصره وضمر بطنه.
(١١) مضامير: شديدو الهزال.
(١٢) صور: جمع أصور أي المائل.

وأَما عبد يَغوثَ بن الصمَّة وخبرُ مقتله فإنه كان ينزل بين أظهُر بني الصادر فقتلوه. قال أَبو عُبيدة في خبره: قتله مُجتمِع بن مُزاحِم أخو شَجنة بنِ مُزاحِم وهو من بني يَربوع بن غَيظ بن مُرَّة. فقال دريد بن الصمَّة:

أبلِغ نُعيماً وأَوفى إن لقِيتَهما ... إن لم يكن كان في سَمعَيهما صَمَمُ
فما أخي بأخي سَوءٍ فينقُصَه ... إذا تقاربَ بأبن الصادِر القِسمُ
ولن يزالَ شِهاباً يُستضاء به ... يَهدي المَقانب[1] ما لم تَهلِكِ الصِّممُ[2]
عاري الأشاجِع[3] مَعصوبٌ بلِمَّته ... أمرُ الزَّعامة، في عِرنينِه[4] شَمَمُ

[البسيط]

خالد بن الصمة ومقتله:

قال أَبو عُبيدة: أما قوله: «أو نَديميَ خالدٍ»، فإنه يعني خالد بن الصمَّة؛ فإن بني الحارث بن كعب غزت بني جُشمَ بنِ معاوية، فخرجوا إليهم فقاتلوهم فقتلت بنو الحارث خالدَ بن الصمَّة، وإياه عنى. وقال غيرُ أَبي عُبيدة: خالد بن الحارث الذي عناه دريدٌ هو عمُّه خالد بن الحارث أَخو الصمَّة بن الحارث قتلتْه أَحمسُ (بطنٌ من شَنوءة)، وكان دريد بن الصمَّة أغار عليهم في قومه فظفِر بهم وٱستاق إبلَهم وأموالهم وسبى نساءَهم وملأ يديه وأيديَ أصحابه، ولم يُصَب أحدٌ ممن كان معه إلَّا خالد بن الحارث عمَّه، رماه رجل منهم بسهم فقتله؛ فقال دريد بن الصمَّة يرثيه:

يا خالداً خالدَ الأيسارِ والنَّادي ... وخالدَ الرِّيح إذ هبَّت بصُرَّادِ[5]
وخالدَ القولِ والفعل المَعيش به ... وخالدَ الحرب إذ عضَّت بأزرادِ[6]
وخالدَ الرَّكبِ إذ جدّ السِّفارُ بهم ... وخالدَ الحيّ لمَّا ضُنَّ بالزادِ

[البسيط]

وقال أَبو عُبيدة: قال دريد يرثي أَخاه خالداً:

أُمَيمَ أَجدِّي عافِيَ الرُّزءِ[7] وٱجشَمي[8] ... وشُدِّي على رُزْءٍ ضلوعَك وٱبأسِي
حرامٌ عليها أَن ترى في حياتها ... كمثلِ أَبي جَعدٍ فعودي أَوِ ٱجلسي

(١) المقانب: مفردها مقنب وهو الجماعة ما دون الثلاثين من الخيل تجتمع للإغارة.
(٢) الصِّمم: جمع صمَّة وهو الشجاع الباسل. (٣) الأشاجع: مفردها أشجع وهو أصل الإصبع.
(٤) العرنين: الأنف. (٥) صُرَّاد: الغيم الذي لا يحمل الماء.
(٦) أزراد: جمع زرد وهي الدرع. (٧) الرُّزء: المصيبة.
(٨) اجشمي: اسمعي.

أعـفَّ وأَجـدى نـائـلاً لـعـشـيـرةٍ وأكـرمَ مـخـلـود لـدى كـلّ مـجـلِـسِ
وألـيـنَ مـنـه صَـفـحـةً لـعـشـيـرةٍ وخـيـراً أَبـا ضـيـفٍ وخـيـراً لـمـجـلـسِ
تـقـول هِـلالٌ خـارجٌ مـن غَـمـامـةٍ إذا جاء يـجري في شَـلـيـلٍ[١] وقَـونَـسِ[٢]
يـشُـدّ مـتـونَ الأقـرَبـيـن بـهـاؤه ويُـخـبِـث نـفـسَ الـشـانـئِ الـمُـتـعـبِّـسِ
ولـيـس بـمِـكـبـابٍ[٣] إذا الـلـيـلُ جَـنَّـه نـؤوم[٤] إذا مـا أَدلـجـوا فـي الـمُـعـرَّسِ
ولـكـنَّـه مِـدلاجُ لـيـلٍ إذا سَـرى يُـنِـدُّ[٥] سُـراه كـلَّ هـادٍ مُـمـلّـسِ

[الطويل]

هذه روايةُ أَبي عُبيدة.

يوم ثيل:

وأَخبرني محمد بن الحسن بن دريد عن عمه عن العباس بن هشام عن أَبيه أن خالد بن الصمَّة قُتل في غارةٍ أغارتْها بنو الحارث بن كعب على بني نَصر بن معاوية في يوم يقال له يوم ثيل، فأصابوا ناساً من بني نصر. وبلغ الخبر بني جُشمَ فلحِقوهم، ورئيس بني جُشمَ يومئذٍ مالكُ بن حَزن، فاستنقَذوا ما كان في أَيديهم من غنائم بني نصر، فأصابوا ذا القَرن الحارثيّ أسيراً وفقؤُوا عينَ شهاب بن أَبان الحارثيّ بسهم، وقُتل يومئذٍ خالد بن الصمَّة وكان مع مالك بن حزن، وأصابت بنو جُشمَ منهم ناساً، وكان رئيسُ بني الحارث بن كعب يومئذٍ شِهابَ بن أَبان، ولم يشهد دريد بن الصمَّة ذلك اليوم؛ فلما رجعوا قتلوا ذا القرن بخالد بن الصمَّة، ولما قُدِّم لتُضرَبَ عُنُقُه، صاح بأَوس بن الصمَّة، وكان له صديقاً، ولم يكن أوس حاضراً، فلم ينفعه ذلك وقُتل. فلما قَدِم أَوسٌ غضِب وقال: أقتلتم رجلاً استجار باسمي! فقال عَوف بن معاوية في ذلك:

نُـبِّـئـتُ أَوسـاً بـكـى ذا الـقـرنِ إذ شـربـا عـلـى عُـكـاظ بـكـاءً غـالَ مـجـهـودي
إنِّـي حـلَـفـتُ بـمـا جـمَّـعـتُ مـن نَـشَـبٍ ومـا ذبـحـتُ عـلـى أنـصـابـك الـسُّـودِ
لـتـبـكـيـنَّ قـتـيـلاً مـنـك مُـقـتـرِبـاً إنِّـي رأيـتُـك تـبـكـي لـلأبـاعـيـدِ

[البسيط]

---

(١) الشليل: ما يلبس تحت الدرع، أو هو الدرع الصغيرة تحت الكبيرة.
(٢) قونس: جمع قنوس أعلى الرأس.
(٣) مكباب: يطأطئ رأسه نحو الأرض ويكثر النظر إليها.
(٤) نؤوم: جمعها نوَّم وهي المرأة النائمة.
(٥) يُنِدُّ: يشرد.

قصة زواجه بامرأة وجدها ثيّباً:

أَخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال حدثنا أَبو غسان دماذ عن أَبي عُبيدة، وأخبرني عبد اللَّه بن مالك النحويّ الضرير قال حدثنا محمد بن حَبيب عن ٱبن الأعرابيّ قال:

تزوّج دريد بن الصمَّة ٱمرأةً فوجدها ثَيِّباً، وكانوا قالوا له إنها بكر فقام عنها قبل أَن يصل إليها، وأخذ سيفه فأقبل به إليها ليضربها، فتلقَّته أمُّها لتدفعه عنها، فوقف يديها (أي حزَّهما ولم يقطعهما)، فنظر إليها بعد ذلك وهي معصوبة فقال:

أَقرَّ العينَ أَن عَصبَتْ يديها ... وما إِن تُعصَبانِ على خِضابِ
فأبقاهنّ أن لهنّ جَدّاً ... وواقيةً كواقية الكلابِ

[الوافر]

قالوا: يريد أَن الكلب يُصيبه الجُرح فيَلحَس نفسَه فيَبرَأ.

ما جرى بينه وبين عياض الثعلبي:

قال أَبو عُبيدة وٱبن الأعرابيّ جميعاً في هذه الرواية: أَسَر دريد بن الصمَّة عِياضاً الثعلبيّ أحدَ بني ثَعلبة بن سعد بن ذُبيان فأنعم[١] عليه. ثم إن دريداً أَتاه بعد ذلك يَستثيبه[٢]. فقال له: إِيتِ رَحلَك حتى أبعثَ إليك بثوابك؛ فٱنصرف دريد. فبعث إليه بوَطبٍ[٣] نصفُه لبن ونصفُه بول. فغضب دريد ولم يلبث إلا قليلاً حتى أغار على بني ثَعلبة، وٱستاق إبل عِياض، وأَفلتَ عياضٌ منه جريحاً؛ فقال دريد في ذلك من قصيدةٍ:

فإِن تَنجُ يَدمى عارضاكَ فإِنَّنا ... تركنا بنيكَ للضِّباع وللرُّخم[٤]
جزَيتُ عِياضاً كفرَه وعُقوقَه ... وأخرجتُه من المُدَفَّأة[٥] الدُّهمِ[٦]
أَلَا هل أَتاه ما ركِبنا سَراتَهم ... وما قد عقَّرنا من صفِيٍّ[٧] ومن قَرمِ[٨]

[الطويل]

---

(١) أنعم عليه: أطلق سراحه من الأسر. (٢) يستثيبه: يطلب منه الجزاء.
(٣) وطب: سقاء يتخذ من الأدم يجعل اللبن فيه. (قربة).
(٤) الرُخم: مفردها رخمة، وهو طائر مبقع بسواد وبياض على هيئة النسر.
(٥) المدَفَّأة: الإبل المكتنزة اللحم والشحوم كثيرة الأوبار.
(٦) الدهم: الشديدة السواد. (٧) الصفي: الناقة التي تدر ضرعها لبناً بغزارة.
(٨) القرم: الفحل.

هجا عبد اللَّه بن جدعان ثم مدحه:

أَخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال: حدثنا دماذ عن أَبي عُبيدة قال:

هجا دريد بن الصمَّة عبد اللَّه بن جُدعان التَّيميّ تَيم قُرَيش فقال:

هل بالحوادث والأيام من عَجَبِ ... أم بٱبن جُدعانَ عبدِ اللَّه من كَلَبِ

إستٌ حميت[١] وهي في عِكم[٢] وبّته ... في يوم حرٍّ شديد الشرّ والهرَبِ

إذا لقيتَ بني حَرْب وإخوتَهم ... لا يأكلون عَطين[٣] الجلد والأهُبِ

لا يَنكِلُون ولا تُشوي رماحُهمُ ... من الكُماةِ ذوي الأبدان والجُببِ[٤]

فٱقعُد بَطيناً مع الأقوام ما قعدوا ... وإن غزوتَ فلا تُبعِد من النصَبِ[٥]

فلو ثقِفتُك[٦] وَسطَ القوم تَرصُدُني ... إذاً تلبَّس منك العِرضُ بالحقَبِ[٧]

[البسيط]

وما سمعتُ بصقْرٍ ظلّ يرصُده ... من قبل هذا بجنْبِ المَرجَ منَ خَرَبِ[٨]

قال: فلقيه عبد اللَّه بن جُدعان بعُكاظ فحيَّاه وقال له: هل تعرفني يا دريد؟ قال: لا. قال: فلِمَ هجوتَني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أَنا عبد اللَّه بن جُدعان. قال: هجوتك لأنك كنتَ امرأً كريماً، فأحببتُ أن أضع شعري موضعَه. فقال له عبد اللَّه: لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ؛ وكساه وحمله على ناقة برَحلِها. فقال دريد يمدحه:

إليكَ ٱبنَ جُدعانَ أعملتُها ... مخفَّفةً للسُّرى والنَّصَبْ

فلا خَفْضَ حتى تُلاقي ٱمرأً ... جَوادَ الرِّضا وحليمَ الغضَبْ

وجَلداً إذا الحربُ مرَّت به ... يُعينُ عليها بجَزل الحطَبْ

رَحَلتُ البلادَ فما إن أَرى ... شَبيهَ ٱبن جُدعانَ وَسطَ العرَبْ

سوى مِلكٍ شامخٍ ملكُه ... له البحرُ يجري وعينُ الذَّهَبْ

[المتقارب]

---

(١) حميت: متين.

(٢) عكم: ما يجعل فيه المتاع ويربط بالعكام أي الحبل.

(٣) عطين: جلد مدبوغ.

(٤) الجبب: مفردها جُبَّة، وهو ما يلبس فوق الثياب وأراد بها هنا الدروع.

(٥) النَّصب: الهم والتعب.

(٦) ثقفتك: التقيت بك على سبيل المصادفة.

(٧) الحقب: شيء تتخذه المرأة تعلق به حليّها وتشدّه على وسطها للزينة.

(٨) خرب: ذكر الحبارى.

تغزل في الخنساء وخطبها فامتنعت وتهاجيا:

أخبرنا أَبو خليفة عن محمد بن سلَّام موقوفاً عليه لم يتجاوزه إلى غيره، وحدثني حبيبُ بن نَصر المهلَّبيّ وأَحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قالا حدثنا عمر بن شَبَّة عن الأصمعيّ وأَبي عُبيدة، وأَخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال حدثنا أَبو غسَّان دماذ عن أَبي عبيدة، وأَخبرني الحرميّ بن أَبي العلاء قال حدثنا الزبير بن بكَّار قال حدثني عليُّ بن المُغيرة عن أَبي عُبيدة، وأَخبرني محمد بن خلَف بن المرزُبان قال حدثني أَبو بكر العامريّ قال حدثني ابن نوبة عن أَبي عَمرو الشيبانيّ، وأَخبرني عمي قال حدثنا ثَعلب عن ٱبن الأعرابيّ، وقد جمعتُ أخبارهم على اختلاف ألفاظهم في هذا الموضع، أن دُرَيد بن الصمَّة مرّ بالخنساء بنت عمرو بن الشريد، وهي تَهنأ بعيراً لها وقد تبذَّلت حتى فرغت منه، ثم نضت[1] عنها ثيابها فٱغتسلتْ ودُريد بن الصمَّة يراها وهي لا تشعر به فأعجبته؛ فٱنصرف إلى رَحله وأنشأ يقول:

حَيُّوا تُماضِرَ وٱربعوا صَحبي ... وقِفوا فإن وقوفَكم حَسبي
أخُناسُ قد هامَ الفؤادُ بكم ... وأصابه تَبلٌ[2] من الحُبِّ
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طالَيَ أينُقٍ جُرْبِ
متبذِّلاً تبدو محاسنُه ... يضع الهِناءَ[3] مواضعَ النُّقبِ[4]
متحسِّراً نضَح الهِناءُ به ... نَضح العبير بِرَيطةِ[5] العَصبِ
فسَليهمُ عنِّي خُناسُ إذا ... عضَّ الجميعَ الخَطبُ ما خَطبي

[الكامل]

ـ قالوا: وتُماضِرُ اسمُها. والخنساءُ لقبٌ غلَب عليها ـ فلما أصبح غدا على أَبيها فخطبها إليه. فقال له أَبوها: مرحباً بك أَبا قُرَّة! إنك لَلكريمُ لا يُطعَن في حسَبه، والسيِّد لا يُرَدُّ عن حاجته، والفحل لا يُقرَع أنفُه ـ وقال أَبو عبيدة خاصَّة مكانَ «لا يُطعن في حسبه»، «لا يطعن في عيبه» ـ ولكن لهذه المرأَة في نفسها ما ليس لغيرها، وأَنا ذاكرُك لها وهي فاعلةٌ. ثم دخل إليها وقال لها: يا خَنساء، أتاك فارسُ هوازنَ وسيِّدُ بني جُشم دريد بن الصمَّة يخطُبك وهو مَن تعلمين، ودريد يسمع قولهما. فقالت: يا أبتِ، أتُراني تاركة بني عمي مثلَ عَوالِي الرِّماح وناكحةً شيخَ بني جُشم

(١) نضت: وضعت أي خلعت ثيابها.
(٢) التبل: السقم، جمعها تبول.
(٣) الهِناء: القطران.
(٤) النَّقب: القطع الكثيرة المتفرقة من الجرب.
(٥) ريطة: ملاءة غير ذات لفقين، كلها نسيجٌ واحد، وقطعة واحدة.

هامَة[١] اليوم أَو غدٍ! فخرج إليه أَبوها فقال: يا أَبا قُرَّة قد ٱمتنعتْ، ولعلَّها أَن تُجيب فيما بعد. فَقال: قد سمعتُ قولَكما، وٱنصرف. هذه رواية مَن ذكرتُ. وقال ٱبن الكلبيّ: قالت لأبيها: أَنظِرني حتى أُشاوِرَ نفسي، ثم بعثتْ خَلفَ دريد وليدةً فقالت لها: انظري دريداً إذا بال، فإن وجدتِ بولَه قد خرَق الأرضَ ففيه بقيَّة، وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا فضلَ فيه. فٱتَّبعتْه وليدتُها ثم عادت إليها فقالت: وجدتُ بولَه قد ساح على وجه الأرض، فأمسكتْ. وعاود دريد أباها فعاودها فقالت له هذه المقالةَ المذكورة؛ ثم أنشأتْ تقول:

أتخطُبني، هُبِلتَ، على دُرَيدٍ ... وقد أطرَدتَ[٢] سيِّدَ آلِ بَدرِ!
مَعاذَ اللَّهِ يَنكِحُني حَبَرْكى[٣] ... يقال أَبوه من جُشَمَ بنِ بكرِ
ولو أمسيتُ في جُشمٍ هَدِيّاً[٤] ... لقد أمسيتُ في دنسٍ وفَقرِ

[الوافر]

فغضِب دريد من قولها وقال يهجوها:

وقاكِ اللَّهُ يٱبنةَ آلِ عَمرو ... من الفتيانِ أمثالي ونفسي
فلا تَلِدي ولا يَنكِحكِ مثلي ... إذا ما ليلةٌ طرَفتْ بنَحسِ
لقد علِم المَراضِعُ في جُمادى ... إذا استعجَلنَ عن حَزٍ[٥] بنَهسِ[٦]
بأنّي لا أَبيتُ بغير لحمٍ ... وأَبدَأ بالأرامل حين أمسي
وأنّي لا يَنالُ الحيُّ ضَيفي ... ولا جاري يبِيتُ خبيثَ نفسِ
إذا عُقَبُ القُدورِ[٧] تكُنَّ مالاً ... تَحُتُّ[٨] حلائلَ الأبرام[٩] عِرسي
وأصفرَ من قِداح النَّبع صُلبٍ ... خفيٍّ الوَسم في ضَرْسٍ[١٠] ولَمسِ

(١) هامة اليوم: يقال فلان هامة اليوم إذا طعن في السن وأصبح مشرفاً على الموت.
(٢) أطردت: أمرت بطرده.
(٣) حبركه: غليظ، طويل الظهر قصير الرجلين ومؤنثها حبركاء.
(٤) الهدِيّ: العروس.
(٥) الحزّ: القطع.
(٦) النَّهس: يقال نهس اللحم أي أخذه بمقدم أسنانه ونتفه.
(٧) عقب القدور: ما يلتصق بأسفل القدور من البقايا.
(٨) تحتُّ: تسقط وتزول.
(٩) الأبرام: مفردها بَرِم، وهو الرجل الذي لا يدخل مع القوم في الميسر والقمار وهنا بمعنى اللئام.
(١٠) ضرس: العضُّ الشديد بالأضراس.

دَفعتُ إلى المُفيض[١] إذا ٱستقلُّوا ... على الرُّكُباتِ مَطلَعَ كلِّ شَمسِ
فإن أَكدى[٢] فتامِكةٌ[٣] تُؤدَّى ... وإن أَربى فإني غيرُ نِكسِ[٤]
وتزعُم أنني شيخٌ كبيرٌ ... وهل خبَّرتُها أني ٱبنُ أمسِ
تريد شَرَنبَثَ[٥] القدمين[٦] شثناً ... يُبادِر بالجَدائِر[٧] كلَّ كِرسِ[٨]
وما قصُرتْ يدي عن عُظمِ أمر ... أهُمُّ به ولا سَهمي بنِكسِ
وما أَنا بالمُزجّى[٩] حين يسمو ... عظيمٌ في الأمور ولا بوَهسِ[١٠]

[الوافر]

قال: فقيل للخنساء: ألَا تُجيبينَه؟ فقالت: لا أَجمع عليه أن أرُدَّه وأَهجوَه.

آخر أيامه وشعره بعد أن أسن وضعف جسمه:

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثنا دَماذ عن أَبي عُبيدة قال: لمَّا أَسَنّ دُريد جعل له قومه بيتاً مفرداً عن البيوت، ووكّلوا به أَمةً تخدُمه، فكانت إذا أرادت أن تُبعِدَ في حاجة قَيَّدتْه بقيد الفرس. فدخل إليه رجل من قومه فقال له: كيف أنت يا دُريد؟ فأنشأ يقول:

أصبحتُ أقذف أهدافَ المنون كما ... يَرمي الدَّريئةَ[١١] أَدنى فُوقةِ الوَتَرِ
في مَنصَفٍ[١٢] من مدى تسعين من مائة ... كرَمية الكاعبِ[١٣] العَذراء بالحجر
في منزلٍ نازح م الحيِّ مُنتَبَذٍ ... كمَربَط العَيرِ لا أدعى إلى خبر
كأنني خَرَب[١٤] قُصَّت قوادمُه ... أَو جُثَّةٌ من بُغاثٍ[١٥] في يدَيْ خَصِر
يُمضُون أمرهم دوني وما فقدوا ... منّي عزيمةَ أمرٍ ما خلا كِبري
ونومةً لستُ أقضيها وإن مَتُعت[١٦] ... وما مضى قبلُ من شأْوي[١٧] ومن عُمُري

(١) المفيض: الضارب بالقداح.
(٢) أكدى: أخفق في الإصابة فأخطأها.
(٣) التامكة: الناقة العظيمة السنام.
(٤) نكس: مقصّر عن غاية الكرم.
(٥) شرنبث: غليظ الكتفين والرجلين.
(٦) شثن: غليظ الأصابع.
(٧) الجدائر: مفردها جديرة وهي الحظيرة.
(٨) كرس: تكرس أي صار بعضه فوق بعض.
(٩) المزجّى: الملصق بالقوم وليس منهم.
(١٠) وهس: ذليل وضيع الشأن.
(١١) الدريئة: حلقة تتخذ لتعليم الصبية على الرماية.
(١٢) منصف: وسط كل شيء.
(١٣) الكاعب: الناهدة الثديين.
(١٤) خرَب: ذكر الحبارى.
(١٥) بُغاث: طائر أغبر.
(١٦) مَتُعت: أصبحت ممتعة أي طابت.
(١٧) شأوي: سَبْقي.

وأنـنـي رابَـنـي قـيـدٌ حُـبِـسـتُ بـه وقـد أَكـون ومـا يُـمـشـى عـلـى أَثَـري
إن الـسِّـنـيـن إذا قـرَّبـنَ مـن مـائـة لَـوَيـنَ مِـرَّة[1] أحـوالٍ عـلـى مِـرَر
[البسيط]

أَخبرني هاشم بن محمد قال حدثنا دماذ عن أَبي عُبيدة قال: قالت امرأة دريد له: قد أَسننتَ وضعُف جسمك وقُتل أهلك وفَنيَ شبابك، ولا مال لك ولا عُدَّة، فعلى أَيّ شيء تعوّل إن طال بك العمر أَو على أَي شيء تُخلِّف أهلَك إن قُتِلتَ؟ فقال دُرَيد:

صـوت

أعـاذلُ إنـمـا أَفـنـى شَـبـابـي ركـوبـي فـي الـصـريـخ إلـى الـمُـنـادِي
مـع الـفِـتـيـان حـتـى كَـلَّ[2] جـسـمـي وأقـرَح عـاتِـقـي حَـمـلُ الـنِّـجـادِ
أعـاذلُ إنـه مـالٌ طَـريـفٌ أحَـبُّ إلـيَّ مـن مـالٍ تِـلادِ
أعـاذل عُـدَّتـي بَـدَنـي ورُمـحـي وكـلُّ مـقـلِّـص[3] شَـكِـس[4] الـقِـيـادِ
ويـبـقـى بـعـد حِـلـم الـقـوم حِـلـمـي ويـفـنـى قـبـلَ زاد الـقـوم زادي
[الوافر]

هذا الشعر رواه أَبو عُبيدة لدُرَيد، وغيرُه يرويه لعمرو بن معدِ كرِب، وقول أَبي عُبيدة أصحّ. لابن محرز في هذه الأبيات ثاني ثقيلٍ بالخنصر في مجرى البِنصر عن إسحاق. وذكر عمرو بن بانة أن لابن سُرَيج فيها ثانيَ ثقيلٍ بالبنصر. وخلط المغنّون بهذا الشعر قول عمرو بن معدِ كرب في هذين اللّحنين:

أريـد حـيـاتَـه ويـريـد قـتـلـي عَـذِيـرَك مـن خـلـيـلـك مـن مُـرادِ
ولـو لاقـيـتَـنـي ومـعـي سـلاحـي تـكـشَّـف شَـحـمُ قـلـبِـك عـن سـوادِ
[الوافر]

قتلت بنو يربوع الصمة أباه فغزاهم:

وقال أَبو عُبيدة فيما رويناه عن دماذ عنه: قتلتْ بنو يربوع الصمَّة أَبا دريد غَدراً، وأسروا ٱبن عمٍّ له؛ فغزاهم دريد ببني نصر فأوقع ببني يربوع وبني سعدٍ جميعاً، فقتَل فيهم. وكان فيمن قُتل عَمَّار بن كعب؛ وقال فيهم:

دعـوتُ الـحـيَّ نـصـراً فـٱسـتـهـلُّـوا بـشـبَّـانٍ ذوي كـرَمٍ وشِـيـبِ

(١) مِرَّة: طاقة الحبل.
(٢) كلَّ: أصابه الإعياء.
(٣) مقلّص: طويل القوائم ضامر البطن.
(٤) الشكِس: الصعب الخلق.

عـلـى جُـرْدٍ كـأمـثـال الـسَّـعـالِـي[١] ورَجـلٍ مـثـلِ أهـمـيـة الـكـثـيـبِ
فـمـا جَـبُـنـوا ولـكـنَّـا نَـصَـبـنـا صـدورَ الـشـرعـبـيَّـة[٢] لـلـقـلـوبِ
فـكـم غـادرن مـن كـابٍ صَـريـعٍ يـمُـجُّ نَـجـيـعَ جـائـفـةٍ[٣] ذَنـوبِ
وتـلـكـم عـادةٌ لـبـنـي رَبـابٍ إذا مـا كـان مـوتٌ مـن قـريـبِ
فـأَجـلَـوْا والـسَّـوامُ[٤] لـنـا مُـبـاحٌ وكـلُّ كـريـمـةٍ خَـوٌّ عَـرُوبِ
وقـد تُـرك ٱبـنُ كـعـب فـي مَـكـرٍّ حَـبـيـسـاً بـيـن ضِـبـعـانٍ وذيـبِ

[الوافر]

كان أبوه شاعراً:

قال أَبو عبيدة: وكان الصمَّة أَبو دريد شاعراً، وهو الذي يقول في حرب الفُجَّار التي كانت بينهم وبين قُرَيش:

لاقـت قُـرَيـشٌ غَـداةَ الـعـقـيـ ـق أمـراً لـهـا وجـدَتـه وَبـيـلا
وجـئـنـا إلـيـهـم كـمـوج الأتـيِّ[٥] يـعـلـو الـنِّـجـاد ويَـمـلا الـمَـسـيـلا
وأعـددتُ لـلـحـرب خَـيـفـانـة[٦] ورمـحـاً طـويـلاً وسـيـفـاً صـقـيـلا[٧]
ومُـحـكَـمـةً مـن دروع الـقُـيـو ن تـسـمـع لـلـسـيـف فـيـهـا صـلـيـلا

[المتقارب]

قال: وكان أخوه مالك بن الصمَّة شاعراً؛ وهو القائل يَرثي أَخاه خالداً:

أبَـنـي غـزيَّـةَ إنّ شِـلـواً[٨] مـاجـداً وَسـطَ الـبـيـوتِ الـسُّـودِ مَـدفَـعَ كَـركـرِ[٩]
لا تَـسـقِـنـي بـيـديـك إن لـم ألـتـمـس بـالـخـيـل بـيـن هـبـولـة[١٠] فـالـقَـرقَـرِ[١١]

[الكامل]

أَخبرني هاشم بن محمد قال حدثنا أَبو غسَّان دماذ عن أَبي عُبيدة قال:

تحالف دَريد بن الصمَّة ومعاويةُ بن عمرو بن الشريد وتواثقا إن هلك أحدهما

---

(١) السعالي: مفردها سِعْلاة وهي الفول. (٢) الشرعبيَّة: الرماح الطويلة.
(٣) جائفة: طعنة تنفذ إلى الجوف. (٤) السُّوام: المغالاة بالسلع عند بيعها.
(٥) الأتيّ: السيل الذي لا يعرف من أين منبعه. (٦) خَيفانة: فرس.
(٧) الصقيل: المصقول.
(٨) الشلو: الجسد من كل شيء.
(٩) كركر: ١ ـ موضع قرب بيلقان، بناه أنوشروان ٢ ـ وهو منطقة بين بغداد والقفص.
(١٠) هبولة: موضع لبني كلب. (١١) القرقر: موضع.

أن يَرثيَه الباقي بعده، وإن قُتل أن يطلب بثأره. فقُتل معاوية بن عمرو بن الشريد، قتله هاشم بن حَرملة بن الأشعر المُرِّيّ. فرثاه دُريد بقصيدته التي أولها:

ألّا هبَّت تَلوم بغير قَدْرِ ... وقد أحفظتِني ودخلتِ سِتري
وإلَّا تَتركي لَومي سَفاهاً ... تلُمك عليه نفسُك غيرَ عَصرِ

[الوافر]

وفيما يقول:

فإنَّ الرُّزءَ يوم وقفتُ أدعو ... فلم أُسمع معاويةَ بن عمرِو
ولو أسمعتَه لأتاكَ يسعى ... حَثيث السعيِ أَو لأتاكَ يجري
بشِكَّة[1] حازم لا غَمزَ فيه ... إذا لبِس الكُماةُ جلودَ نِمرِ
عرفتُ مكانه فعطَفتُ زَوراً[2] ... وأين مكانُ زَورٍ يا ٱبنَ بكرِ
على إرَم[3] وأَحجار ثِقالٍ ... وأَغصانٍ من السلَماتِ سُمرِ
وبُنيانُ القبورِ أَتى عليها ... طَوالُ الدهرِ شهراً بعد شهرِ

[الوافر]

أَخبرني عبد اللَّه بن مالك النحويّ قال حدثنا محمد بن حبيب عن ٱبن الأعرابيّ قال:

وقف عارضٌ الجُشميّ على دريد وقد خَرِف وهو عُريان وهو يكوِّم كُوَم بَطحاءَ[4] بين رجليه يلعب بذلك؛ فجعل عارضٌ يتعجب مما صار إليه دُريد. فرفع رأسَه دريد إليه وقال:

كأنَّني رأسُ حضَنٍ[5] ... في يوم غَيمٍ ودُجَنْ[6]
يا ليتني عهدَ زمَنْ ... أنفُضُ رأسي وذقَنْ
كأنني فَحلُ حُصُنْ ... أُرسِلَ في حَبلِ عُنُنْ
أُرسلَ كالظَّبيِ الأرِنْ[7] ... أَلصَقَ أذناً بأُذُنْ

[مجزوء الرجز]

قال: ثم سقط؛ فقال له عارضٌ: إنهض دريد! فقال:

(١) الشكة: السلاح يشك على خصر المرء. (٢) الزور: الجمل القوي.
(٣) الإرم: حجارة تنصب علماً في الصحراء. (٤) بطحاء: الحصى الصغيرة.
(٥) حضن: جبل. (٦) الدجن: مفردها دجنة وهي الظلمة الشديدة.
(٧) الأرن: النشيط.

لا نَـهـضَ فـي مـثـل زمـانـي الأولِ مُحنَّبَ[١] الساقِ شديدَ الأعصَلِ[٢]
ضخمَ الكراديسِ[٣] خَميصَ[٤] الأشكل[٥] ذي حَـنـجـرٍ رحـب وصُـلـبٍ أعـدلِ

[الرجز]

حدثنا محمد بن جَرير الطَّبريّ قال حدثنا محمد بن حُمَيد قال حدثنا سَلَمةُ بن الفَضل عن محمد بن إسحاق عن الزُّهريّ عن عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه قال:

لمَّا فتح رسول اللَّه ﷺ وسلم مكةَ أقام بها خمسَ عشرةَ ليلةً يَقصُر[٦]، وكان فتْحُها في عشر ليالٍ بَقينَ من شهر رمضان. قالَ ٱبن إسحاق: وحدثني عمرو بن شُعيب عن أَبيه عن جدِّه قال: لمَّا سمعتْ به هوازِنُ جَمَعها مالك بن عَوف النَّريّ، فٱجتمعت إليه ثَقيف مع هوازن، ولم يجتمع إليه من قيس إلا هوازنُ وناسٌ قليلٌ من بني هِلال، وغابت عنها كعبٌ وكِلاب، فجمعت نَصرٌ وجُشمُ وسَعدٌ وبنو بكر وثَقيف وٱحتشدت، وفي بني جُشم دريد بن الصمَّة شيخٌ كبيرٌ فانٍ ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرَّباً، وفي ثقيف في الأحلاف قارِبُ بن الأسود بن مسعود، وفي بني مالك ذو الخِمار سُبيع بن الحارث، وجِماعُ أمر الناس إلى مالك بن عوف. فلمَّا أجمع مالكٌ المسيرَ حَطَّ مع الناس أَموالهم وأَبناءهم ونساءهم. فلما نزلوا بأَوطاس[٧] ٱجتمع إليه الناسُ وفيهم دريد بن الصمَّة في شِجارٍ[٨] له يُقاد به. فقال لهم دريد: بأيّ وادٍ أَنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعم مجالُ الخيل، ليس بالحَزن الضرِس[٩] ولا السهل الدَّهِس[١٠]. ما لي أَسمع رُغاءَ الإبل ونَهيق الحمير وبكاءَ الصغير وثُغاءَ الشاء؟! قالوا: ساق مالكُ بن عوف مع الناس أَبناءهم ونساءهم وأَموالهم. فقال: أَين مالكٌ؟ فدُعي له به. فقال له: يا مالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنّ هذا اليوم كائن له ما بعده من الأيام! ما لي أَسمع رُغاء البعير ونهيق الحمير وبكاء الصبيان وثغاءَ الشاء؟! قال: سُقتُ مع الناس نساءهم وأَبناءهم وأَموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أَن أَجعل مع كلّ رجل أَهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. قال: فانقضَّ به ووبَّخه ولامه، ثم قال: راعي ضأنٍ واللَّه (أَي أحمق)! وهل يرُدُّ

(١) محنَّب: مصاب باحديداب في يديه. (٢) الأعصل: الإبل المعوجة الصلب.
(٣) الكراديس: مفردها كردوس وهو العظم الضخم.
(٤) خميص: ضامر البطن من شدة الجوع. (٥) الأشكل: مفردها الشاكلة وهي الخاصرة.
(٦) يقصر: يصلي صلاته الرباعية ركعتين بدل الأربع لداعي السفر.
(٧) أوطاس: وادي بأرض هوازن.
(٨) شِجار: مركب حجمه أصغر من حجم الهودج.
(٩) الضرس: الصعب. (١٠) الدَّهس: الليِّن.

المنهزمَ شيء! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أَهلك ومالك. ثم قال: ما فعلتْ كعبٌ وكِلاب؟ قال: لم يشهدها أَحدٌ منهم. قال: غاب الحَدَّ والجِدَّ! لو كان يومَ عَلاءٍ ورفعة لم تغِب عنه كعبٌ وكِلاب! ولوَدِدتُ أَنكم فعلتم مثلَ ما فعلوا. فمَن شَهِدها منهم؟ قالوا: بنو عمرو بن عامر وبنو عوف بن عامر. قال: ذانِك الجَذَعانِ من عامرٍ لا ينفعان ولا يضرَّان. ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة[١] بيضةِ هَوازن إلى نُحور الخيل شيئاً. إرفعهم إلى أَعلى بلادهم وعَلياءِ قومهم ثم ٱلْقَ القومَ بالرجال على مُتونِ الخيل، فإن كانت لك لَحِق بك مَن وراءَك، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزتَ أهلَك ومالَك ولم تُفضح في حريمك. قال: لا واللَّه ما أَفعل ذلك أَبداً! إنك قد خرِفتَ وخَرِفَ رأْيُك وعلمُك. واللَّه لتُطيعنَّني يا معشر هوازن أَو لأتَّكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهري ـ فنفِس على دريد أَن يكون له في ذلك اليوم ذكرٌ ورأيٌ ـ فقالوا له: أَطَعناكَ وخالفنا دُريداً. فقال دريد: هذا يوم لم أشهَده ولم أغِب عنه. ثم قال:

يا ليتني فيها جَذَعْ[٢] أَخُبُّ فيها وأَضَعْ
أَقُود وطَفاءَ[٣] الزَّمَعْ[٤] كأنها شاةٌ صَدَعْ

[مشطور الرجز]

قال: فلما لَقِيهم رسول اللَّه ﷺ ٱنهزم المشركون فأتَوا الطائفَ ومعهم مالك بن عَوف، وعَسكر بعضُهم بأَوطاس وتوجّه بعضُهم نحوَ نَخلةَ، وتبعتْ خيلُ رسول اللَّه ﷺ مَن سَلَك نخلةَ، فأدرك ربيعة بن رُفَيع السُّلَميّ أَحدُ بني يَربوع بن سَمَّال بن عَوف، دريد بن الصمَّة فأخذ بخِطام جمله وهو يظن أَنه امرأَة، وذلك أَنه كان في شِجارٍ له، فأناخ به فإِذا هو برجلٍ شيخ كبير ولم يعرفه الغلام. فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أَقتُلُك. قال: ومن أَنتَ؟ قالَ: أَنا ربيعة بن رُفَيع السُّلَميّ. فأنشأ دريد يقول:

وَيحَ ٱبنَ أَكمةَ ماذا يُريد من المُرعَشِ الذَّاهب الأَردِ[٥]
فأُقسِمُ لو أنّ بي قوَّةً لوَلَّت فرائصُه تُرعَدِ
ويا لَهْفَ نفسيَ أَلّا تكونَ معي قوَّةُ الشارخ[٦] الأَمردِ[٧]

[المتقارب]

(١) بيضة القوم: أصلهم.
(٢) جذع: شاب حدث.
(٣) وطفاء: مسترخية لكثرة مائها.
(٤) الزَّمع: مسايل صغيرة ضيِّقة.
(٥) الأَردد: الساقط الأسنان.
(٦) الشارخ: الشاب في أول شبابه.
(٧) الأمرد: الشاب طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته.

ثم ضربه السُّلَميُّ بسيفه فلم يُغنِ شيئاً. فقال له: بئس ما سلَّحتْك أمُّكَ! خذ سيفي هذا من مؤخّر رحلي في القِراب فٱضرِب به وارفع عن العظام وٱخفِض عن الدّماغ، فإنّي كذلك كنتُ أفعل بالرجال، ثم إذا أتيتَ أُمَّك فأخبِرها أنك قتلتَ دريد بن الصمَّة، فرُبَّ يوم قد منَعتُ فيه نساءَك؟ فزعمتْ بنو سُلَيم أنّ ربيعة قال: لمَّا ضربتُه بالسيف سقط فانكشَف، فإذا عِجانُه[1] وبطن فخِذَيه مثل القراطيس من ركوب الخيل أعراءً. فلما رجع ربيعةُ إلى أمّه أخبرها بقتله إياه؛ فقالت له: لقد أعتَق قتيلُك ثلاثاً من أمهاتك. وبعث رسول اللَّه ﷺ في آثار من توجّه قِبَلَ أوطاس أبا عامر الأشعريّ ابنَ عمِّ أبي موسى الأشعريّ، فهزمَهم اللَّه جلّ وعزّ وفتح عليه. فيزعُمون أنّ سَلَمة بن دريد بن الصمَّة رماه بسهم فأصاب رُكبتَه فقتله (يعني أبا عامر).

فقالت عَمْرةُ بنتُ دريد تَرثيه:

جزى عنَّا الإلٰهُ بني سُلَيمٍ ... وأَعقبهم بما فعلوا عَقاقِ[2]
وأَسقانا إذا سِرنا إليهم ... دماءَ خِيارِهم يومَ التَّلاقي
فرُبَّ مُنوِّهٍ بك من سُلَيمٍ ... أجِيبَ وقد دعاك بلا رِماقِ[3]
ورُبَّ كريمةٍ أعتقتَ منهم ... وأُخرى قد فككتَ من الوَثاقِ

[الوافر]

وقالت عَمْرةُ ترثيه أيضاً:

قالوا قتلنا دُرَيداً قلتُ قد صدَقوا ... وظلَّ دمعي على الخدَّين يَبتدرُ
لولا الذي قهَر الأقوامَ كلَّهمُ ... رأت سُلَيمٌ وكعبٌ كيف تأتمرُ
إذاً لصبَّحهم غِبّاً وظاهرةً ... حيث ٱستقرَّ نواهم جَحفلٌ[4] ذَفِرُ[5]

[البسيط]

استحثه قومه على الأخذ بثأر أخيه:

ونسختُ من كتاب مترجَم بأنه نُسخ من نسخة عمرو بن أبي عمرو الشيباني يأثُره عن أبيه قال: قال محمد بن السّائب الكلبيّ:

كان دريد بن الصمَّة يوماً يشرَب مع نفَرٍ من قومه، فقالوا له: يا أبا ذُفافة ـ وكان يُكنى بأبي ذُفافة وبأبي قُرّة ـ أينجو بنو الحارث بن كعب منك وقد قتَلوا أخاك خالداً!؟

(١) العجان: هو ما بين القبل والدبر.
(٢) عقاق: اسم العقوق.
(٣) رِماق: ضيق العيش.
(٤) جحفل: الجيش العظيم.
(٥) ذفر: منتن ومتغيّر الرائحة.

فقال لهم: إن القوم جَمرةُ مُذحِج، وهم أَكفاءُ جُشم، ولا يَجمُل بي هجاؤهم. فأَحفظُوه بكثرة القول وأغضبوه، فقال:

يا بني الحارث أَنتم مَعشرٌ ... زَندُكم وارٍ وفي الحرب بُهَمْ[١]
ولكم خيلٌ عليها فتيةٌ ... كأُسُودِ الغاب يَحمِين الأَجَمْ[٢]
ليس في الأرض قَبِيلٌ مثلُكم ... حين يَرْفَضُّ العِدا غيرَ جُشمْ
لستُ للصمَّة إن لم آتِكم ... بالخناذيذ[٣] تَبارى في اللُّجُمْ
فتقَرُّ العينُ منكم مرَّةً ... بانبعاث الحُرّ نَوحاً تَلتَدِمْ[٤]
وتُرى نَجرانُ منكم بَلقعاً ... غيرَ شَمطاءَ وطفلٍ قد يَتِمْ
فانظُروها كالسَّعالي شُزَّباً[٥] ... قبل رأس الحَول إن لم أُختَرَمْ

[الرمل]

قال: فنُمِي قولُه إلى عبد اللَّه بن عبد المَدان، فقال يُجيبه:

نُبِّئتُ أَنّ دريداً ظلَّ مُعترِضاً ... يُهدي الوَعيد إلى نَجرانَ من حَضَنِ[٦]
كالكلب يَعوي إلى بيداء مُقفِرةٍ ... من ذا يُواعِدُنا بالحرب لم يَحِنِ[٧]
إن تَلقَ حيَّ بني الدَّيَّانِ تَلقَهمُ ... شُمَّ الأنوف إليهم عِزَّةُ اليمنِ
ما كان في الناس للدَّيَّان من شَبَهٍ ... إلَّا رُعَيْنٌ وإلَّا آلُ ذي يَزَنِ
أَغمِضْ جفونك عمَّا لستَ نائلَه ... نحن الذين سبقنا الناس بالدمنِ[٨]
نحن الذين تركنا خالداً عَطِباً[٩] ... وَسطَ العَجاج[١٠] كأنّ المرءَ لم يكنِ
إن تَهجُنا تَهجُ أنجاداً شَرامِحة[١١] ... بِيضَ الوجوه مَرافيداً على الزمنِ
أوْرى زِيادٌ لنا زَنداً ووالدُنا ... عبدُ المَدان وأَوْرى زندَه قَطَنِ

[البسيط]

---

(١) بُهَم: مفردها بُهمة، وهو الشجاع الذي لا يُهتدى من أين يؤتى.
(٢) الأجم: مفردها أجمة وهي عرين الأسد أو الشجر الكثير الملتف.
(٣) الخناذيذ: مفردها خنذيذ وهو الخيل الجيِّد.
(٤) تلتدم: تضرب صدرها نائحة.
(٥) شُزَّب: مفردها شازب وهو النحيل الضَّامر.
(٦) حضن: موضع بنجد.
(٧) يحين: يهلك، لأن الحين هو الهلاك.
(٨) الدمن: آثار الدار وهي هنا كناية عن آثار الخراب والدمار بعد المعارك.
(٩) عطباً: هالكاً.
(١٠) العجاج: الدّخان والغبار.
(١١) الشرامحة: مفردها الشَّرمح، وهو القوي والطويل.

أَخبرني محمد بن خلف وكيع قال حدثنا أبو بكر العامريّ عن ٱبن الأعرابي قال:

أغار دُرَيد بن الصِّمَّة في نفر من أَصحابه، فمرّوا بأَسماء بن زِنباع الحارثيّ ومعه ظَعينتُه زينب، فأحاطوا به لينتزعوها من يده، فقاتلهم دونَها فقتل منهم وجرَح، ثم ٱختلف هو ودريد طعنتين: فطعنه دُرَيدٌ فأخطأه، وطعنه أسماءُ فأصاب عينه، وٱنهزَم دريدٌ ولحق بأصحابه؛ فقال دريدٌ في ذلك:

شُلَّتْ يميني ولا أشرَبْ معتَّقةً إذ أخطأ الموت أَسماءَ بن زِنباع
[البسيط]

قال: وهي قصيدة.

ونسختُ من كتاب أبي عمرو الشَّيباني الذي ذكرتُه يأثُره عن محمد بن السائب الكلبيّ قال:

جاور رجلٌ من ثُمالةَ عبدَ اللَّه بن الصِّمَّة، فهلك عبدُ اللَّه وأقام الرجل في جِوار دريد. وأغار أَنَسُ بن مُدركةَ الخَثعمي على بني جُشَم، فأصاب مالَ الثُّمالي وأَصاب ناساً من ثُمالة كانوا جيراناً لدُرَيد؛ فكفَّ دريدٌ عن طلب القوم وشُغِل بحرب من يَليه، وقال لجاره ذلك: أمهِلني عامي هذا. فقال الثمالي: قد أمهَلتُك عامين. وخرج دريدٌ ليلةً لحاجته وقد أبطأ في أمر الثمالي، فسمعه يقول:

كساك دُرَيدُ الدهرَ ثوبَ خَزايةٍ وجَدّعك الحامي حقيقتَه أَنَسْ
دَعِ الخيلَ والسُّمرَ الطِّوالَ لخَثْعَم فما أَنت والرُّمحُ الطويل وما الفرس
وما أنت والغَزْوَ المُتابَع للعِدا وهَمُّكَ سَوْقُ العَوْدِ والدَّلوُ والمَرَسْ[1]
فلو كان عبدُ اللَّه حيّاً لردَّها وما أصبحتْ إبلي بنَجران تُحتَبَس
ولا أصبحتْ عِرسي بأشقى معيشةٍ وشيخٌ كبير من ثُمالةَ في تَعَس
يُراعي نجومَ الليل من بعد هَجعةٍ[2] إلى الصبح محزوناً يُطاوله النَّفَس
وكنتُ وعبدُ اللَّه حيٌّ وما أرى أُبالي من الأعداء مَن قام أو جلس
فأصبحتُ مهضوماً[3] حزيناً لفقده وهل من نَكيرٍ بعد حولين تَلتَمِس
[الطويل]

(١) المَرَس: الحبل. (٢) هجعة: النَّومة الخفيفة.
(٣) مهضوماً: الهضم: هو خمصُ البطن، ولطف الكشح وقلَّة انحفار الجبين.

قال: فضاق دُرَيدٌ ذَرعاً بقوله، وشاور أُولي الرأي من قومه؛ فقالوا له: ٱرحَلْ إلى يزيد بنِ عبد المَدان؛ فإنّ أَنَساً قد خلَّف المالَ والعيال بنجرانَ للحرب التي وقعت بين خَثْعَم، وإنّ يزيد يردُّها عليك. فقال دُرَيد: بل أُقدِّم إليه قبل ذلك مِدحةً ثم أنظر ما موقعي من الرجل، فقال هذه القصيدة وبعث بها إلى يزيد:

بـنـي الـدَّيَّـانِ رُدُّوا مـالَ جـاري ... وأَسْـرَى فـي كـبُـولـهـمُ الـثِّـقـالِ
ورُدُّوا الـسَّـبـيَ إن شـئـتـم بـمـنٍّ ... وإن شـئـتـم مُـفـاداةً بـمـالِ
فـأنـتـم أهـلُ عـائـدةٍ وفـضـلٍ ... وأيْـدٍ فـي مـواهـبـكـم طِـوالِ
مـتـى مـا تَـمـنـعـوا شـيـئـاً فـلـيـسـت ... حـبـائـلُ أخـذه غـيـرَ الـسـؤالِ
وحـربُـكُـمُ بـنـي الـدَّيَّـانِ حـربٌ ... يَـغَـصُّ الـمـرءُ مـنـهـا بـالـزُّلالِ
وجـارتُـكـم بـنـي الـدَّيَّـان بَـسـل[1] ... وجـاركـمُ يُـعَـدّ مـع الـعـيـالِ
حَـذَا عـبـدُ الـمَـدان لـكـم حِـذاءً ... مُـخـضَّـرةَ الـصـدور عـلـى مِـثـالِ
بـنـي الـدَّيَّـان إنّ بـنـي زِيـادٍ ... هـمُ أهـلُ الـتـكـرُّم والـفَـعـالِ
فـأَوْلـونـي بـنـي الـدَّيَّـان خـيـراً ... أُقِـرّ لـكـم بـه أخـرَى الـلـيـالـي

[الوافر]

قال: فلما بلَغ يزيدَ شعرُه قال: وجب حقُّ الرجل فبعث إليه أنِ أقدَمْ علينا. فلما قدِم عليه أكرمه وأحسن مَثواه. فقال له دُرَيد يوماً: يا أَبا النَّضْر، إني رأيتُ منكم خِصالاً لم أَرَها بمن أَحد من قومكم: إني رأيتُ أبنِيتكم متفرّقة، ونِتاجَ خيلكم قليلاً، وسَرحَكم يجيء مُعَتِّماً، وصبيانَكم يَتضاغَون[2] من غير جوع. قال: أَجَل! أمَّا قلَّة نِتاجنا فنتاجُ هَوازِنَ يكفينا. وأَمَّا تفرُّق أبنيتنا فللغَيرة على النساء. وأمَّا بكاء صبياننا فإنَّا نبدأ بالخيل قبل العيال. وأمَّا تَمسِّينا بالنَّعَم فإنّ فينا الغرائبَ والأراملَ، تخرج المرأة إلى ما لها حيث لا يراها أحدٌ. قال: وأقبلتْ طلائعُهم على يزيد، فقال شيخ منهم:

أَتَـتـكَ الـسـلامـةُ فـٱرعَ الـنِّـعَـمْ ... ولا تَـقُـلِ الـدَّهـرَ إلَّا نَـعَـمْ
وسَـرِّحْ دُرَيـداً بـنُـعْـمـى جُـشَـمْ ... وإن سـالَـك الـمـرءُ إحـدى الـقُـحَـم[3]

[المتقارب]

فقال له دُرَيد: من أَين جاء هؤلاء؟ فقال: هذه طلائعُنا لا نَسرَحُ ولا نصطبحُ

(١) البسل: الحرام، والحلال، ضدٌ.
(٢) يتضاغون: يشعرون بالألم في المعدة من أثر الجوع، يتضورون جوعاً ويصيحون ألماً.
(٣) القحم: مفردها قحمة، وهو الأمر الشاق العسير.

حتى يرجعوا إليْنا. فقال له: ما ظلمكم مَن جعلكم جَمرةَ مَذحِج. وردّ يزيد عليه الأسارى من قومه وجيرانه، ثم قال له: سَلْني ما شئتَ؛ فلم يسأله شيئاً إلا أعطاه إيَّاه. فقال دريد في ذلك:

مدَحتُ يزيدَ بن عبد المَدان ... فأَكرِمْ به من فتًى مُمتَدَحْ
إذا المدحُ زان فتى مَعشَرٍ ... فإنّ يزيد يَزينُ المِدَحْ
حلَلْتُ به دونَ أصحابه ... فأَوْرى زِناديَ لمَّا قَدَحْ
وردَّ النساءَ بأَطهارها ... ولو كان غيرُ يزيدٍ فضَحْ
وفَكَّ الرجالَ وكلُّ امرىءٍ ... إذا أصلح اللَّهُ يوماً صلَحْ
وقلتُ له بعد عِتق النساء ... وفَكِّ الرّجال ورَدِّ اللِّقَحْ[1]
أَجِرْ لي فوارسَ من عامرٍ ... فأكرمْ بنَفحته إذ نَفَحْ
وما زلتُ أعرف في وجهه ... بكَرّي السؤالَ ظهورَ الفرحْ
رأيتُ أبا النَّضر في مَذحِجٍ ... بمنزلة الفجر حين ٱتّضَحْ
إذا قارَعوا عنه لم يُقرَعوا ... وإن قدَّموه لكَبشٍ نطَحْ
وإن حضَر الناسَ لم يُخزِهم ... وإن وازَنوه بقِرْنٍ رجَحْ
فذاك فتاها وذو فضلها ... وإن نابحٌ بفَخَارٍ نبَحْ

[المتقارب]

قصته مع مسهر بن يزيد الحارثي وشعره:

قال: وقال ابن الكلبيّ: خرج دريد بن الصِّمَّة في فوارس من قومه في غَزاة له، فلَقِيه مُسهر بن يزيد الحارثيّ، الذي فقأ عين عامر بن الطُّفَيل، يقود بامرأته أسماء بنت حَزْن الحارثيَّة. فلما رآه القوم قالوا: الغنيمةَ، هذا فارسٌ واحد يقود ظَعينةً[2]، وخليقٌ أن يكون الرجل قرشيّاً. فقال دريد: هل منكم رجل يمضي إليه فيقتله ويأتينا به وبالظَّعينة؟ فانتدَب إليه رجلٌ من القوم فحمل عليه، فلقيه مُسهر فٱختلفا طعنتين بينهما، فقتله مُسهر بن الحارث. ثم حمل عليه آخر فكانت سبيلُه سبيلَ صاحبه؛ حتى قتلَ منهم أربعةَ نفر. وبقي دريد وحدَه فأقبل إليه؛ فلما رآه ألقى الخِطامَ من يده إلى المرأة وقال: خُذي خِطامَك؛ فقد أقبل

(١) اللِّقح: مفردها لقحة وهي النَّاقة الحلوب.
(٢) ظعينة: الهودج فيه امرأة أو لا.

إليّ فارسٌ ليس كالفرسان الذين تقدَّموه؛ ثم قصد إليه وهو يقول:

أمَـا تـرى الـفـارس بـعـد الـفـارسْ أرْداهُـمُ عـامـلُ رمـح يـابـسْ

[الرجز]

فقال له دريد: من أنت للَّه أبوك؟ قال: رجلٌ من بني الحارث بن كعب. قال: أنت الحُصَين؟ قال: لا. قال: فالمُحجَّل هَوْذَة؟ قال: لا. قال: فمن أنت؟ قال: أنا مُسهر بن يزيد. قال: فانصرف دُرَيد وهو يقول:

أمن ذِكر سَلمى ماءُ عينيك يَهمِلُ كما انهلَّ خَرزٌ من شُعَيبٍ مُشَلْشِلُ[1]

وماذا تُرَجّي بالسلامة بعد ما نأتْ حِقَبٌ وابيضَّ منكَ المُرجَّلُ[2]

وحالت عَوادي الحربِ بيني وبينها وحربٌ تَعِلّ الموتَ صِرفاً وتُنهِلُ

قِراها إذا باتت لَدَيَّ مُفاضَةٌ وذو خُصَلٍ نَهْدُ المَراكِل[3] هَيكلُ[4]

كميشٌ[5] كتَيسِ الرَّمل أخلَص مَتنَه ضَريبُ[6] الخلايا[7] والنَّقيعُ المعجَّلُ

عَتيدٌ لأيام الحروب كأنه إذا انحاب رَيعان العَجاجة[8] أجدَلُ[9]

يُجاوِب جُرداً كالسَّراحين[10] ضُمَّراً تَرود بأبواب البيوت وتَصهَلُ

على كل حَيٍّ قد أطلَّتْ بغارةٍ ولا مثل ما لاقى الحِماسُ وزَعبَلُ[11]

[الطويل]

ـ الحِماس وزَعبَل: قبيلتان من بني الحارث بن كعب ـ:

غَداةَ رأوْنا بالغريف كأنّنا حَبِيٌّ[12] أدرَّته الصَّبَا متهلِّلُ

بمُشْعَلةٍ تدعو هوازنَ، فوقها نسيجٌ من الماذيّ[13] لأْمٌ مُرَفَّلُ[14]

لدى مَعرَكٍ فيها تركنا سَراتَهم يُنادون، منهم مُوثَقٌ ومُجَدَّلُ

(١) مشَلشل: مقطر.
(٢) المرَّجل: الشعر الممشَّط.
(٣) المراكل: مفردها مركل، وهو المكان الذي تصل إليه رجل الرَّاكب على الدابة منها.
(٤) هيكل: ضخم الهامة.
(٥) كميش: شديد السرعة.
(٦) ضريب: اللبن.
(٧) الخلايا: مفردها خلية وهي الناقة المتروكة لموعد حلبها.
(٨) العجاجة: الإبل الكثيرة العظيمة.
(٩) أجدل: الأجدل هو الصقر.
(١٠) السَّراحين: مفردها السرحان وهو الذئب.
(١١) الحِماسُ وزعبلُ: قبيلتان من بني الحارث بن كعب.
(١٢) حبيّ: السحاب الكثيف.
(١٣) الماذيّ: الدروع الليّنة.
(١٤) مرفَّل: كل مُخرَّف من اللباس وغيره.

نَـجُـذّ جـهـاراً بـالـسـيـوف رؤوسـهـم وأرمـاحُـنـا مـنـهـم تَـعُـلّ وتَـنـهَـلُ
تـرى كـلَّ مـسـودِّ الـعِـذارَيـن فـارسٍ يُـطـيـف بـه نَـسـرٌ وعَـرفـاءُ جَـيْـأَلُ[1]

[الطويل]

قال مؤلِّف هذا الكتاب: هذه الأخبار التي ذكرتُها عن ابن الكلبيّ موضوعةٌ كلُّها، والتوليدُ بُيّن فيها وفي أشعارها، وما رأيتُ شيئاً منها في ديوان دريد بن الصِّمَّة على سائر الروايات. وأَعجبُ من ذلك هذا الخبرُ الأخيرُ؛ فإنه ذكر فيه ما لحق دريداً من الهُجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قُتِل معه وٱنصرافه منفرداً، وشعرُ دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفِر ببني الحارث وقتل أَماثِلَهم؛ وهذا من أكاذيب ٱبن الكلبي. وإنما ذكرتُه على ما فيه لئلّا يسقطَ من الكتاب شيء قد رواه الناسُ وتَداوَلُوه.

* * *

(١) جيأل: من أسماء الضبع.

أخبار المعتضد
في صنعة هذا اللحن وغيره من الأغاني

ـ دون أخباره في غير ذلك لأنها كثيرة تخرج عن حدّ الكتاب ـ وشيء من أخباره مع المغنين وغيرهم يصلح لما هاهنا.

حدثني محمد بن خلَف بن المَرزُبان قال حدثني عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر أن المعتضد بعث إليه ـ لما صنعتْ جاريتُه شاجي اللحن الذي يجمع النَّغَم العشرَ ـ بظَبْي وحبيب جاريتيْ أخيه سليمان بن عبد اللَّه بن طاهر حتى أخذَتا اللحنَ عنه ونقلتاه إليه وأَلقَتاه على جواريه. قال: ولم يزل يُراسلني مع عبد اللَّه بن أحمد بن حمدون في أمر النَّغَم العشر ويسألني عنها وأشرحُها له، حتى فهِمها جيِّداً وجمعها في صوتٍ صنعه في شعر دريد بن الصِّمَّة:

يـا لـيـتـنـي فـيـهـا جَـذَعْ أَخَـبّ فـيـهـا وأَضَـعْ

[مشطور الرجز]

وألقاه عليهما حتى أدَّتاه إليَّ مستعلماً بذلك هل هو صحيحُ القسمة والأجزاء أم لا، فعرَّفتُه صحتَه ودللتُه على ذلك حتى تيقَّنه فسُرَّ بذلك؛ وهو لعمري من جيِّد الصنعة ونادرها. وقد صنع المُعتضدُ ألحاناً في عدة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمُحدَثين وعارَضهم بصنعته فأحسن وشاكل وضاهى، فلم يَعجز ولا قصَّر ولا أتى بشيء يُعتذَر منه. فمن ذلك أنه صنع في:

أمَّـا الـقَـطـاةُ فـإِنـي سـوف أنـعـتُـهـا نَـعـتـاً يـوافـق نـعـتـي بـعـضَ مـا فـيـهـا

[البسيط]

لحناً من الثقيل الأول بالبنصر في نهاية الجودة، سمعت إبراهيم بن القاسم بن زُرزور يُغنِّيه، فكان من أحسن ما صُنع في هذا الصوت على كثرة الصنعة فيه واشتراك القدماء والمُحدَثين في صنعته مثل مَعبد ونَشيطٍ ومالك وابن مُحرز وسِنان وعُمَر الوادي وابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاق وعَلَّويه. وأظرفُ من ذلك أنه صنع في:

تَـشَـكَّـى الـكُـمَـيـتُ الـجَـرْيَ لـمَّـا جـهَـدتُـه وبَـيَّـنَ لـو يـسـطـيـع أن يـتـكـلَّـمـا

[الطويل]

لحناً من الثقيل الأوّل بالوسطى، وقد صنع قبله ٱبن سُرَيج لحناً هو من الألحان الثلاثة المختارة من الغناء كلِّه، فما قصَّر في صنعته ولا عجز عن بلوغ الغاية فيها؛ هذا بعد أن صنع إسحاقُ فيها لحناً من الثقيل الثاني عارض ٱبنَ سُرَيج به في لحنه، فما ٱمتنع من أن يتلو مثل هذين ولا نظيرَ لهما في القدماء والمُحدَثين، ثم جوَّد غاية التجويد فيما ٱتّبعهما به وعارضهما فيه. هذا مع أصوات له صنعها تُزاهي[1] المائة صوت، ما فيها ساقطٌ ولا مَرذول، وسأذكر منها ما يصلح ذكرُه في موضعه إن شاء اللَّه تعالى.

صـــوت

أَنــاةً فــإِن لــم تُــغــنِ عــقَّــب بــعــدَهــا وَعــيــداً، فــإِن لــم يُــغــن أغــنــتْ عَــزائــمُــهْ

[الطويل]

الشعر لإِبراهيم بن العبَّاس، والغناء للمعتضد ثقيلٌ أول. هذا بيتٌ قاله إبراهيم وهو لا يعلم أنه شعر، وإنما كتب به في رسالة عن المعتصم إلى بعض أصحاب الأطراف فقال في فصل منه: «وإن عند أمير المؤمنين في أمرك أناةً، فإِن لم تُغنِ عقَّب بعدها وعيداً، فإن لم يُغنِ أَغْنَتْ عزائمه». فلما تأمَّله رأى أنه شعر وأنه بيتٌ نادر فأخرجه في شعره.

* * *

(١) تزاهي: تقارب.

أخبار إبراهيم بن العباس ونسبه

إبراهيم بن العبَّاس بن محمد بن صُولٍ، وكان صُولٌ رجلاً من الأتراك، ففتح يزيد بن المهلَّب بلدَه وأسلم على يديه، فهم موالي يزيدَ. ولما دعا يزيدُ إلى نفسه لحق به صُولٌ لينصرَه فصادفه قد قُتل. وكان يقاتل كلَّ مَن بينه وبين يزيد من جيش بني أميَّة ويكتب على سهامه: صُولٌ يدعوكم إلى كتاب اللَّه وسنَّة نبيِّه. فبلغ ذلك يزيدَ بن عبد الملك، فاغتاظ وجعل يقول: وَيلي على ابن الغَلْفاء[1]! وما له وللدُّعاء إلى كتاب اللَّه وسنَّة نبيّه! ولعلَّه لا يَفقَه صَلاتَه! وكان ٱبنه محمد بن صُول من رجال الدولة العبَّاسيَّة ودُعاتها. وقد كان بعض أهليهم ٱدّعَوْا أنهم عربٌ وأن العباس بن الأحنف خالهم. وأمَّا صول فإن خالد بن خِداش ذكر عن أهله قالوا: كان صولٌ وفَيروزُ أخوين مَلَكا على جُرْجانَ، وكانا تركيَّيْن تمجَّسا وتشبَّها بالفُرْس. فلما حضر يزيدُ بن المُهلَّب جُرْجانَ ٱمّنهما، فأسلم صولٌ على يديه ولم يزل معه حتى قُتِل يومَ العَقْر[2]. وكان محمد بن صُول يُكنى أبا عُمارة، أحد الدُّعاة، وقتله عبد اللَّه بن عليّ لما خالف مع مُقاتل بن حَكيم العَكِّي[3] وعِدَّةٍ آخرين. وأمَّا إبراهيم بن العباس وأخوه عبد اللَّه فإنهما كانا من وجوه الكتَّاب، وكان عبدُ اللَّه أسنَّهما وأشدَّهما تقدُّماً، وكان إبراهيم آدَبهما وأحسنهما شعراً، وكان يقول الشعر ثم يختاره، ويُسقط رَذْله، ثم يُسقط الوسطَ، ثم يسقط ما يُسبَق إليه، فلا يَدَعُ من القصيدة إلا اليسيرَ، وربما لم يَدَعْ منها إلا بيتاً أو بيتين؛ فمن ذلك قوله:

ولـكـنّ الـجـوادَ أبـا هـشـامٍ وفـيُّ الـعـهـدِ مـأمـونُ الـمَـغـيـبِ

[الوافر]

وهذا ٱبتداء يدُلّ على أن قبله غيرَه؛ وقولُه في أخيه:

ولـكـنَّ عـبـدَ الـلَّـه لـمـا حَـوَى الـغـنـى وصـار لـه مـن بـيـن إخـوتـه مـالُ

[الطويل]

(١) الغلفاء: لقب سلمة عم امرئ القيس بن حجر.
(٢) العقر: موضع في العراق عند كربلاء وهو المكان الذي قتل فيه يزيد بن المهلَّب.
(٣) مقاتل بن حكيم: هو أحد قادة أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسيَّة.

وهذا أيضاً ٱبتداء يدلّ على أن قبله غيرَه: وكان إبراهيم وأَخوه عبد اللَّه بن صنائع ذي الرّياستين، ٱتَّصلا به فرفع منهما. وتنقَّل إبراهيمُ في الأعمال الجليلة والدواوين إلى أَن مات وهو يتقلَّد ديوانَ الضِّياع والنفقات بسُرّ مَن رأى في سنة ثلاث وأَربعين ومائتين للنصف من شعبان.

قال محمد بن داود وحدثني أَحمد بن سعيد بن حَسَّان قال حدثني ابن إبراهيم قال سمعت دِعبِلاً يقول:

لو تكسَّب إبراهيم بن العبَّاس بالشعر لتركنا في غير شيء. قال: ثم أنشدَنا له، وكان يستحسن ذلك من قوله:

إنّ امرأ ضنَّ بمعروفه ... عنّي لمبذولٌ له عذري
ما أنا بالراغب في عُرفه ... إن كان لا يرغب في شكري

[السريع]

وكان إبراهيم بن العباس صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيَّات، ثم آذاه وقصده وصارت بينهما شَحناء عظيمة لم يمكن تلافيها، فكان إبراهيم يهجوه؛ فمن قوله فيه:

أَبا جعفرٍ خَفْ خَفضةً بعد رِفعةٍ ... وقصِّرْ قليلاً عن مدى غُلَوائكا[1]
لئن كان هذا اليومُ يوماً حوَيتَه ... فإن رجائي في غدٍ كرجائكا

[الطويل]

وله فيه أَيضاً:

دعوتك في بَلْوَى ألمَّتْ صروفُها ... فأوقدتَ من ضِغْنٍ عليَّ سعيرَها
فإني إذا أدعوك عند مُلِمَّةٍ ... كداعِيةٍ عند القبور نَصيرَها

[الطويل]

وقال فيه لمَّا مات:

لمَّا أَتاني خَبَرُ الزيَّاتِ ... وأنّه قد صار في الأمواتِ

[الرجز]

أَيقنتُ أَنَّ موته حياتي

أَخبرني جَحظة قال حدثني ميمون بن هارون قال: لمَّا ٱنحرف محمد بن عبد الملك الزيَّات عن إبراهيم تحاماه الناس أن يلقَوْه، وكان الحارث بن بُسخُنَّر

(١) الغُلواء: الغلوّ.

صديقاً له مصافياً، فهجره فيمن هجره من إخوانه؛ فكتب إليه:

تَـغـيّـر لـي فـيـمـن تـغـيّـر حـارثُ وكـم مـن أخٍ قـد غـيَّـرتـه الـحـوادثُ
أحـارثُ إن شـوركـتُ فـيـك فـطـالـمـا غَـنِـيـنـا وَمـا بـيـنـي وبـيـنـك ثـالـثُ

[الطويل]

وقد قيل: إن هذه الأبيات لإِسحاق بن إبراهيم الموصلي.

ومن جيِّد قولِ إبراهيم بن العباس وفيه غِناء:

صـوت

خـلِّ الـنِّـفـاقَ لأهـلـه وعـلـيـك فـالـتـمـس الـطَّـرِيـقَـا
وٱذهـبْ بـنـفـسـك أن تُـرى إلَّا عـدوًّا أو صـديـقـا

[مجزوء الكامل]

الغناء لأبي العُبَيس بن حمدون، ثقيلٌ أوّل:

قصة عشقه لقينة وانكماشه لتأخرها:

أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال: كان إبراهيم بن العباس يهوى قَينة بسُرَّ مَن رأى، فكان لا يكاد يفارقها. فجلس يوماً للشرب ومعه إخوان له، ودعا جماعةً من جواري القيان، ودعاها فأبطأت، فتنغَّص عليهم يومُهم لِما رأَوا من شغل قلبه بتأخُّرها، ثم وافتْ فسُرِّيَ عنه وطابت نفسه وشرب وطرِب، ثم دعا بدواة فكتب:

ألـم تَـرنـا يـومَـنـا إذ نـأتْ فـلـم تـأتِ مـن بـيـن أترابِـهـا
وقـد غـمـرتْـنـا دواعـي الـسـرور بـإشـعـالـهـا وبـإِلْـهـابِـهـا
ومَـدَّتْ عـلـيـنـا سـمـاءَ الـنـعـيـم وكـلُّ الـمُـنـى تـحـت أطـنـابـهـا[1]
ونـحـن فُـتـورٌ إلـى أن بـدتْ وبـدرُ الـدُّجـى بـيـن أثـوابِـهـا
فـلـمَّـا نـأتْ كـيـف كـنَّـا بـهـا ولـمَّـا دَنـتْ كـيـف صِـرنـا بِـهـا

[المتقارب]

وأمر من حضر فقرأ عليها الأبيات؛ فتجنَّتْ وقالت: ما القصَّةُ كما وصفتَ، وقد كنتم في قَصفكم مع مَن حضر، وإنما تجمَّلتم لي لمَّا حَضَرتُ. فأنشأ يقول:

(١) أطناب: مفردها طنب، وهو حبل طويل يشدُّ به سرادق البيت، أو الوتد.

يـا مَـن حَـنـيـنـي إلـيـه ومـن فـؤادي لـديـهِ
ومَـن إذا غـاب مـن بـيـن نـهـم أسِـفـتُ عـلـيـهِ
إذا حـضـرتِ فـمـا مِـنـ ـهـمُ مَـنَ ٱصـبُـو إلـيـهِ
مـن غـاب غـيـرُكِ مـنـهـم فـأمـرُه فـي يـديـهِ

[المجتث]

قال: فرضيتْ عنه؛ وأتممنا يومَنا على أحسن حال.

أجازه دعبل في شعر:

وقال محمد بن داود حدثني محمد بن القاسم قال حدثني إبراهيم بن المدبّر قال حدثني إبراهيم بن العباس ـ قال حدثني به دِعبِلٌ أَيضاً فكانا متفقَين في الرواية ـ قال:

كنَّا نطلب جميعاً بالشعر، فخرجنا وكنا في مَحمِل، فابتدأتُ أقول في المطَّلب بن عبد اللَّه بن مالك:

أمـطَّـلِـبٌ أنـت مُـسـتَـعـذِبٌ

فقال دِعبِل:

لـسـمِّ الأفـاعـي ومُـسـتَـقْـتِـلُ

فقلت:

فـإن أَشـفِ مـنـك تـكـن سُـبَّـةً

فقال دِعبِل:

وإن أَعـفُ عـنـك فـمـا تـفـعـلُ

أنشدني الأخفش لإِبراهيم بن العباس وكان يُفضِّلها ويستجيدها:

أمـيـل مـع الـذِّمـام عـلـى ٱبـن أمّـي وآخُـذ لـلـصـديـق مـن الـشـقـيـقِ
وإن ألـفَـيـتَـنـي حُـرّاً مُـطـاعـاً فـإنـك واجـدي عـبـد الـصـديـقِ
أُفـرّق بـيـن مـعـروفـي ومَـنّـي وأجـمـع بـيـن مـالـي والـحـقـوقِ

[الوافر]

أَخبرني عمي قال حدثني أَبو الحسن بن أَبي البَغل قال حدثني عمي قال:

إجتاز محمد بن علي برد الخيار على أبي أَيوب ابن أخت الوزير وهو متولّي

ديار مُضَر فلم يتلقَّه، ونزل الرَّقَّة فلم يصل إليه ولم يَبَرَّه، وخرج عنها فلم يُشيِّعه. فلامه إخوانُه وقالوا: يشكوك إلى إبراهيم بن العباس. فكتب إلى إبراهيم يعتذر مما جرى بعلَّةٍ. فكتب إليه إبراهيم على ظهر كتابه:

أبداً مُعتذِرٌ لا يُعذَرُ ... ورَكُوبٌ للَّتي لا تُغفَرُ
ومُلَقَّى بمساوٍ كلُّها ... منه تبدو وإليه تصدُرُ
هي من كل الورى مُنكَرةٌ ... وهي منه وحده لا تُنكَرُ

[الرمل]

أَخبرني عمي قال حدثني ابن برد الخيار عن أَبيه قال:

كان إبراهيم بن العباس يهوى جارية لبعض المغنين بسُرِّ مَن رأى[1] يقال لها سامر، وشُهِر بها، فكان منزله لا يخلو منها. ثم دُعِيتْ في وليمة لبعض أهلها فغابت عنه أياماً ثم جاءته ومعها جاريتان لمولاتها، وقالت له: قد أَهديتُ صاحبتَيَّ إليك عِوَضاً من مَغيبي عنك، فأنشأ يقول:

صـوت

أقبلن يَحفُفن مثلَ الشمس طالعةً ... قد حسَّن اللَّه أُولاها وأُخراها
ما كنتِ فيهن إلَّا كنتِ واسطةً ... وكنَّ دونكِ يُمناها ويُسراها

[البسيط]

الغناء لِسَلْسَل مولى بني هاشم، ثاني ثقيل بالوسطى مطلقٌ. وليس لِسَلْسَل خبر يُدَوَّن ولا هو من المشهورين ولا ممن خدم الخلفاء أو دوِّن له حديث. وذكر حَبَش أَنه لِسَلْسَل مولاة محمد بن حرب الهِلالي. وسَلسل هذه كانت من أحسن الناس وجهاً وغِناءً، وكانت لبعض المغنِّين بالبَصرة، وكان محمد بن حرب هذا يتعشَّقها ولم تكن مولاته. فأخبرني الحرمي بن أَبي العلاء قال حدثنا إسحاق بن محمد النَّخَعيّ قال حدثني حماد بن إسحاق قال: أَتى أَبانُ بن عبد الحميد الشاعر رجلاً بالبصرة وله قَينة يقال لها سَلْسَل، فصادف عندها محمد بن قَطَن الهلالي وعثمان بن الحَكَم بن صخر الثَّقَفيّ فقال:

فتنتْ سَلْسَلُ قلبَ ٱبنِ قَطنْ ... ثم ثَنَّتْ بابن صخر فٱفتتنْ
فأتيتُ اليومَ كي أُنقِذَهم ... فإذا نحن جميعاً في قَرَنْ

[الرمل]

(١) سُرَّ من رأى: موضع بالعراق يدعى اليوم بسامرَّاء.

فأظُنّ الغَلَطَ وقع على حَبش من هاهنا أَو سمع هذا الخبر فتوهّم أَنها مولاة محمد بن حرب.

أَخبرني عمي ووكيع قالا حدثنا الحسن بن عُلَيل العنزيّ قال حدثني محمد بن عيسى بن عبد الرحمن قال:

خرج إبراهيم بن العباس ودِعبِل بن عليّ وأَخوه رَزين في نُظَرائهم من أَهل الأدب رَجَّالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون، فلقِيَهم قوم من أَهل السواد من أصحاب الشَّوك، فأعطَوْهم شيئاً وركِبوا تلك الحميرَ؛ فأنشأ إبراهيم يقول:

أَعِيضَتْ بعد حَمْل الشَّوْ ... كِ أحمالاً من الحرفِ
نَشاوى لا من الصَّهْبا[1] ... ءِ بل من شدّة الضُّعْفِ

[الهزج]

فقال رَزين:

فلو كنتم على ذاك ... تؤولون إلى قَصفِ
تَساوتْ حالُكم فيه ... ولم تَبقَوْا على خَسْفِ

[الهزج]

فقال دِعبِل:

وإذ فات الذي فات ... فكونوا من بني الظَّرْفِ
ومُرُّوا نَقصِف اليوم ... فإِني بائعٌ خُفِّي

[الهزج]

فانصرفوا معه فباع خُفَّه وأنفقه عليهم.

رثاؤه لابنه:

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويَه قال: قال لي علي بن الحسين الإسكافي:

كان لإِبراهيمَ ابنٌ قد يَفَع وترَعرَعَ، وكان مُعجباً به فاعتلَّ عِلَّة لم تَطُل ومات؛ فرثاه بمراثٍ كثيرة، وجزع عليه جَزَعاً شديداً. فمما رثاه به قوله:

كنتَ السوادَ لمُقلتي ... فبكى عليك الناظرُ
مَن شاء بعدَك فَليَمُتْ ... فعليك كنتُ أُحاذِرُ

[مجزوء الكامل]

(١) الصهباء: اسم للخمر المعصورة من العنب الأبيض.

فيه رملٌ لابن القَصَّار. ومن مراثيه إيَّاه قوله:

وما زلتُ مُذْ لَدُ أُعطِيتُه أُدافع عنه حِمامَ الأجَلْ
أُعوِّذه دائباً بالقُران وأَرمي بطرفي إلى حيث حَلّْ
فأضحت يدي قصدُها واحدٌ إلى حيث حلَّ فلم يَرتَحِلْ

[المتقارب]

وقال أَحمد بن أَبي طاهر حدثني أَبو واثلةَ قال: قلت لإبراهيم بن العبَّاس: قد أَخملتَ نفسك ورضيتَ أَن تكون تابعاً أَبداً لاقتصارك على القَصف[1] واللعب؛ فأنشأ يقول:

إنَّما المرء صورةٌ حيث حلَّتْ تَناهتِ
أَنا مذ كنتُ في التصرُّف لي حالُ ساعتِي

[مجزوء الخفيف]

أَخبرنا محمد بن يحيى الصولي قال حدثني ابن السَّخيّ قال:

وَهب عبد اللَّه بن العباس لأخيه إبراهيم ثُلُثَ ماله، ووهب لأخته الثلث الآخر، فسار مساوياً لهما في الحال؛ فقال إبراهيم:

ولكنَّ عبدَ اللَّه لمَّا حوى الغنى وصار له من بين أخوته مالُ
رأى خَلَّةً منهم تُسَدُّ بماله فساهمهم حتى ٱستوتْ بهمُ الحالُ

[الطويل]

وهذا مما عِيبَ على إبراهيم قولُه ٱبتداءً «ولكنّ عبد اللَّه». وقد كرَّره في شعره فقال:

ولكنَّ الجوادَ أَبا هشام وفيُّ العهد مأمونُ المَغيبِ
بَطيءٌ عنك ما ٱستغنيتَ عنه وطَلَّاعٌ عليك مع الخطوبِ

[الوافر]

والسبب في ذلك اختيارُه شعرَه وإسقاطُه ما لم يَرضَه منه.

وقرأت في بعض الكتب: لمَّا عُزِل إبراهيم بن العبَّاس عن الأهواز في أَيام محمد بن عبد الملك الزيَّات ٱعتُقِل بها وأُوذي، وكان محمد قبل الوزارة صديقه، وكان يؤمّل منه أن يُسامحه ويُطلِقَه، فكتب إليه:

(١) القصف: من اللهو واللفظ غير عربي.

فلو إذ نَبَا دهرٌ وأُنكِر صاحبٌ وسُلِّط أعداءٌ وغاب نصيرُ
تكون عن الأهواز داري بنَجْوةٍ ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمورُ
وإني لأرجو بعد هذا محمداً لأَفضَلِ ما يُرجى أَخٌ ووزيرُ

[الطويل]

فأقام محمد على قصدِه وتكشُّفه والإساءةِ إليه حتى بلغ منه كلَّ مكروه، وٱنفرجت الحال بينهما على ذلك، وهجاه إبراهيم هجاء كثيراً.

أرسل ابن الزيات أبا الجهم للنكاية به:

وأخبرني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني أبو عبد اللَّه الباقْطاني أَو الطَّالقاني قال حدثني علي بن الحسين بن عبد الأعلى قال:

وجَّه محمد بن عبد الملك بأبي الجَهم أَحمد بن سيف إلى الأهواز ليكشِف إبراهيم بنَ العبَّاس، فتحامل عليه تحاملاً شديداً. فكتب إبراهيم إلى محمد بن عبد الملك يُعرّفه ذلك ويشكوه إليه ويقول له: أَبو الجهم كافرٌ لا يُبالي ما عمِل، وهو القائل لمَّا مات غلامُه يخاطب مَلَكَ الموت:

وأَقبلتَ تسعى إلى واحدي ضِراراً كأنّي قتلتُ الرسولا
تركتَ عَبيدَ بني طاهرٍ وقد ملؤوا الأرضَ عَرضاً وطولا
فسوف أَدِين بترك الصلاة وأصطبِح الخمرَ صِرفاً شَمولا

[المتقارب]

فكان محمد لعصبِيَّته على إبراهيم وقصده له يقول: ليس هذا الشعر لأبي الجَهم، إنما إبراهيم قاله ونَسَبَه إليه.

أَخبرني أَحمد بن جعفر بن رفعة قال حدثني أَبي قال دعاني إبراهيم بن العباس وقال: قد مدحتُ أَمير المؤمنين المتوكّل ببيتين، فغنِّ فيهما وأَشعِهما، ودعا لي بطِيب كثير فأعطانيه، وخلَع عليَّ خِلعة سَريَّة، فغنَّيتُ فيهما. والبيتان:

صوت

ما واحدٌ من واحدٍ أولى بفضل أو مُرُوّهْ
من أَبوه وجَدُّه بين الخلافة والنُّبُوَّهْ

[مجزوء الكامل]

وأَشَعْتُهما وغنّى فيهما المتوكِّل فٱستحسنهما ووصله صِلَةً سنيَّة.

لحنُ جعفر بن رفعة في هذين البيتين رمَلٌ بالبنصر.

أَخبرني محمد بن يونس الأنباري قال حدثني أبي:

أَن إبراهيم بن العباس الصولي دخل على الرِّضا لمَّا عقد له المأمون وولاه العهدَ، فأنشده قوله:

أزالـت عَـزاءَ الـقـلـب بـعـد الـتـجـلُّـدِ مـصـارعُ أولاد الـنـبـيِّ مـحـمـدِ

[الطويل]

ـ ﷺ ـ فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضُرِبت باسمه. فلم تزل عند إبراهيم، وجعل منها مُهور نسائه، وخلَّف بعضها لكَفَنه وجَهازه إلى قبره.

أَخبرني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني أَبو العباس بن الفُرات والباقطاني قالا:

كان إسحاق بن إبراهيم ابن أخي زيدان صديقاً لإبراهيم بن العبَّاس، فأَنسخه شعرَه في مدح الرّضا، ثم وليَ إبراهيمُ بن العبَّاس في أَيام المتوكِّل ديوانَ الضِّياع، فعزله عن ضِياع كانت بيده بحُلْوان، وطالبه بمال وجب عليه، وتباعَد بينهما. فقال إسحاق لبعض من يثق به: قل لإبراهيم بن العباس: واللَّه لئن لم يَكفُف عمَّا يفعله فيَّ لأخرجنَّ قصيدته في الرّضا بخطه إلى المتوكِّل. فأحجم عنه إبراهيم وتلافاه، ووجّه من ٱرتجع القصيدةَ منه وجعله على ثقةٍ من أنه لا يُظهرها، ثم أفرج عنه وأزال ما كان يطالبه به.

نادرته في ثقيل:

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدثنا إبراهيم بن المُدبّر قال:

راكبت إبراهيمَ بن العباس، فلَقِيَنا رجلٌ كان إبراهيم يستثقله، فسلَّم عليه. فلمَّا مضى قال: يا أبا إسحاق إنه جَرْمي. فقلت: ما كان عندي إلَّا أنه من أهل السَّواد. فضحك وقال: إنّما أردتُ قولَ الشاعر:

تُـسـائـل عـن أخـي جَـرْم ثـقـيـلٌ والـذي خَـلَـقَـهْ

[مجزوء الوافر]

كتابه في شفاعة لرجل إلى بعض إِخوانه:

أَخبرني الصولي قال حدثني محمد بن السَّخيّ قال حدثني الحسن بن عبد اللَّه الصولي قال:

كتب عمي إبراهيمُ بن العباس شفاعة لرجل إلى بعض إِخوانه: فلان ممن يَزكو شكره، ويحسُن ذكرُه، ويَعني أمرُه، والصنيعةُ عنده واقعةٌ موقِعها، وسالكةٌ طريقَها.

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدِّين والحِجا إصابةُ شكر لم يَضِع مَعَه أجرُ

[الطويل]

أَخبرني عمي عن أَبي العَيناء قال:

مدحه عبيد اللَّه بن يحيى عند المتوكل:

كان عُبيد اللَّه بن يحيى يقول للمتوكِّل: يا أَمير المؤمنين، إن إبراهيم بن العباس فضيلةٌ خَبأها اللَّه لك، وذخيرةٌ ذَخرها لدولتك.

وذُكر عن عليّ بن يحيى:

أنّ المتوكل بعث إلى إبراهيم بن العباس يأمره أَن يصف له القُدورَ الإِبراهيمية، وكان ٱبتدعها؛ فكتب له صِفتَها، وكتب في آخرها في ذكر الأبازِير: «ووزن دانق» ونسيَ أن يكتب من أَيّ شيء. فلمَّا وصلتْ إليه الصفةُ ٱغتاظ ثم قال لعليّ بن يحيى: إحلفْ بحياتي أَن تقول له ما آمُرك به، ففعل. فقال له: قل وزنُ دانق من أي شيء؟ أمِن بظْر أمّك! قال عليّ بن يحيى: فدخلتُ إليه فقلت: إني جئتك في رسالة عزيز عليّ أن أُؤدِّيها؛ فقال: هاتها، فأدّيتُها. قال: فٱرجِع إليه وقل له عني: يا سيِّدي، إن عليّ بن يحيى أَخي وصديقي وقد أَدّى الرسالة؛ فإن رأَيت أَن تجعل وزن الدّانق من بَظر أمّي وبَظر أمّه جميعاً تفضَّلتَ بذلك. فقلت: قبَّحك اللَّه! وأَنا أَيش ذنبي! قال: قد أدّيتَ الرسالة وهذا جوابُها. فدخلتُ إلى المتوكل فقال: إِيهِ ما قال لك؟ فقلتُ: قَبَح اللَّه ما جئتُك به! وأخبرته بالجواب؛ فضحِك حتى فحص برجله وجعل يَشرب عليه بقيَّة يومِه. وإذا لَقِيتُه قال لي: يا عليّ، وزن دانق أَيش! فأقول: لعنة اللَّه على إبراهيم.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني محمد بن موسى بن حمَّاد قال:

دعا الحسنُ بنُ وَهب إبراهيمَ بن العباس؛ فقال له: أَركبُ وأَجِيئك عشيّاً فلا تنتظرني بالغَداة. فأبطأ عليه، وأسرع الحسنُ في شُربه فسكِر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدواة وكتب:

رُحنا إليك وقد راحتْ بك الرَّاحُ وأسرعتْ فيك أوتارٌ وأَقداحُ

[البسيط]

قال: وحدثني محمد بن موسى قال:

نظر إبراهيم بن العباس الحسنَ بنَ وَهْبٍ وهو مخمورٌ فقال له:

عـيـنـاكَ قـد حَـكَـتـا مَـبِـيـ ـتَـك كـيـف كـنـتَ وكـيـف كـانـا
ولـرُبَّ عـيـنٍ قـد أرتـ ـكَ مَـبِـيـتَ صـاحـبـهـا عِـيـانـا

[مجزوء الكامل]

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها؛ فكتب إليه بأربعة أَبيات وطالبه بأربعين بيتاً. وأَبياتُ إبراهيم:

أَأَبـا عـلـيّ خـيـرُ قـولِـك مـا حـصَّـلـتَ أنـجـعَـه ومُـخـتـصـرَهْ
مـا عـنـدنـا فـي الـبـيـع مـن غـبَـنٍ لـلـمُـسـتـقِـلِّ بـواحـدٍ عـشَـرَهْ
أَنـا أَهـلُ ذلـك غـيـرَ مُـحـتـشِـمٍ أَرضـى الـقـديـمَ وأقـتـفـي أثـرَهْ
هـا نـحـن وفَّـيـنـاك أربـعـةً والأربـعـون لـديـك مُـنـتـظَـرَهْ

[الكامل]

أَخبرني الصوليّ قال حدثني القاسم بن إسماعيل قال:

سمعتُ إبراهيم بن العباس وقد لبِس سوادَه يوماً يقول: يا غلامُ هاتِ ذلك السيفَ الذي ما ضرَّ اللَّه به أحداً قطُّ غيري.

كان يستثقل ابن أخيه:

قال: وسأل يوماً عن ابن أَخيه طماس وهو أَحمد بن عبد اللَّه بن العباس فقيل له: هو مشغول بطبيب ومُنجِّم عنده، وكان يستثقله، فقال قل له يا غلام: واللَّه ما لك في الناس طَبعٌ؛ ولا في السماء نجم، فما لك تَكلَّفُ هذا التكلّف.

أَخبرني الصوليّ قال حدثني أَحمد بن السخِيّ قال:

أَمر إبراهيم بن العباس أَن يُجمعَ كلُّ أعور يَمرُّ في الطريق، فجمعوهم ووقفوهم وخرج ومعه طماس، فلما رأَى العُورَ مجتمعين قال لطماس: كلُّهم مثلُك، فاترك هذا الصَّلَف فإنه داعية إلى التَّلف.

أَخبرني الصوليّ قال حدثني مَيمون بن موسى قال:

قال الحسن بن وَهب لإبراهيم بن العباس: تعالَ حتى نَعُدَّ البُغَضاء؛ قال: ابدأ بي أوّلاً من أجل ابن أَخي طماس ثم ثَنِّ بمن شئت.

أَخبرني الصوليّ قال: قال جعفر بن محمود:

ركبتُ بين يدَي إبراهيم بن العباس. فأمرَ الحسنَ بن مُخلَّد بأمر فاستبطأه فيه فنظر إليه فقال:

مُـعـجِـبٌ عـنـد نـفـسـه وهـو لـي غـيـر مُـعـجـبِ
إن أقُـل لا يـقُـل نـعـم عـاتـبٌ غـيـرُ مُـعـتِـبِ
مُـولَـعٌ بـالـخـلاف لـي عـامـداً والـتـجـنُّـبِ
قـلـتُ فـيـه بـضـدّ مـا قـيـل فـي أمّ جُـنـدُبِ

[مجزوء الخفيف]

يريد قولَ امرئ القيس:

«خـلـيـلـيَّ مُـرّا بِـي عـلـى أمِّ جُـنـدُبِ»

أَي فأَنا لا أريد أَن أَمرَّ بك.

قال. وأَخبرني الصوليّ قال حدثنا أحمد بن يزيد المُهلَّبيّ عن أَبيه قال:

كان المتوكل قد ولَّى ابنَ الكلبيّ البريدَ، وأحلَفه بالطَّلاق أَلَّا يَكتُمَه شيئاً من أَمر الناس جميعاً ولا من أَمره هو في نفسه. فكتب إليه يوماً أَن ٱمرأته خرجت مع حُبَّتها في نُزهة، وأن حُبَّتها عَربَدت عليها فجرحتها في صُدغها. فقرأه إبراهيم بن العباس على المتوكل ثم قال له: يا أمير المؤمنين، قد صحَّف ابنُ الكلبيّ، إنما هو: «جرحتْها في سُرمها»، فضحك المتوكل وقال: صدقتَ. ما أظن القصة إلا هكذا. قال: ولم يكن ابن الكلبيّ هذا من العرب، إنما كان أَبوه يُلقَّب «كلب الرَّحل» فقيل له الكلبيّ.

استعطافه محمد بن عبد الملك الزيات:

أَخبرني عمي قال حدثنا ميمون بن هارون قال:

كتب إبراهيم بن العباس إلى محمد بن عبد الملك يستعطفه: كتبت إليك وقد بلغت المُديةُ المَحزَّ، وعَدَتِ الأيامُ بك عليّ، بعد عَدوي بك عليها، وكان أَسوأ ظنّي وأَكثر خوفي، أَن تسكُن في وقت حركتها، وتكُفَّ عند أذاها، فصرتَ عليَّ أضرَّ منها، وكفَّ الصديقُ عن نُصرتي خوفاً منك، وبادر إليَّ العدوُّ تقرُّباً إليك. وكتب تحت ذلك:

أخٌ بـيـنـي وبـيـن الـدَّهـ ـر صـاحَـبَ أيَّـنـا غَـلـبَـا
صـديـقـي مـا ٱسـتـقـام فـإن نَـبَـا دهـرٌ عـلـيَّ نَـبَـا
وثَـبـتُ عـلـى الـزمـان بـه فـعـاد بـه وقـد وثَـبَـا
ولـو عـاد الـزّمـان لـنـا لـعـاد بـه أخـاً حَـدِبَـا

[مجزوء الوافر]

قال وكتب إليه: أمَا واللَّه لو أمِنتُ ودَّك لقلت؛ ولكني أَخاف منك عَتباً لا تُنصفني فيه، وأخشى من نفسي لائمةً لا تحتملها لي. وما قد قُدِّر فهو كائن، وعن كل حادثة أُحدوثة. وما ٱستبدلت بحالةٍ كنتُ فيها مغتبطاً حالةً أنا في مكروهها وألَمِها أشدَّ عليّ من أَنِّي فزِعت إلى ناصري عند ظلم لَحِقني، فوجدتُ من يظلِمني أخفَّ نيَّة في ظُلمي منه، وأَحمد اللَّه كثيراً. ثم كتب فيَ أسفلها:

وكـنـتَ أخـي بـإِخـاء الـزمـانِ فـلـمـا نَـبـا صـرتَ حَـربـاً عَـوانَـا
وكـنـتُ أذُمُّ إلـيـك الـزمـانَ فـأصـبـحـتُ فـيـك أَذُمُّ الـزمـانَـا
وكـنـتُ أعِـدُّك لـلـنـائـبـات فـأصـبـحـتُ أطـلـب مـنـك الأمـانَـا

[المتقارب]

هجا محمد بن عبد الملك:

أَخبرني الصوليّ قال أَخبرني الحسين بن فَهم قال:

كان محمد بن عبد الملك قد أَغرى الواثقَ بإبراهيم بنِ العبَّاس، وكان إبراهيم يُعاتبه على ذلك ويُداريه، ثم وقف الواثق على تحامُله عليه فرفع يدَه عنه وأمر أن يُقبَل منه ما رَفعه، وردَّه إلى الحَضرة مَصوناً، فلما أحسَّ إبراهيمُ بذلك بَسط لسانَه في محمد، وحسُن ما بينه وبين ابن أَبي دُواد. وهجا محمدَ بن عبد الملك هِجاءً كثيراً؛ منه قوله:

قـدَرتَ فـلـم تَـضـرُر عـدوّاً بـقـدرةٍ وسُـمـتَ بـهـا إخـوانَـك الـذُّلَّ والـرِّغـمَـا
وكـنـتَ مـلـيـئـاً بـالـتـي قـد يَـعَـافـهـا مـن الـنـاس مـن يـأبـى الـدَّنـيـئـةَ والـذمَّـا

[الطويل]

تمادح هو وأبو تمام:

أَخبرني الصوليّ قال حدثنا ابن السخيّ قال حدثني الحسين بن عبد اللَّه قال:

سمِعت إبراهيم بن العباس يقول لأبي تمَّام الطائي وقد أنشده شعراً له في المعتصِم: يا أَبا تَمَّام، أُمراءُ الكلام رعيَّةٌ لإحسانك. فقال له أَبو تمَّام: ذلك لأني أستضيء بك وأرِدُ شريعتَك.

أَخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال سمعت إبراهيم بن المُدبّر يقول:

جرى بين إبراهيم بن العبَّاس وبين أَخي أَحمد بن المدبّر شيء، وكان يوَدُّني دون أَخي؛ فلقِيتُه فٱعتذرتُ إليه عنه؛ فقال لي: يا أَبا إسحاق:

صـــوت

خـــلِّ الـــنِّـــفـــاق لأهـــلـــه وعـلـيـكَ فـٱلـتـمـسِ الـطـريـقَـا
وٱذهـــب بـــنـــفـــسـك أَن تُـــرى إلا عـــــدوّاً أَو صـــــديـــــقَـــا

[مجزوء الكامل]

الغناء لأبي العُبَيس.

أَخبرني الصوليّ قال حدثني القاسم بن إِسماعيل قال:

إنصرف إبراهيم بن العباس يوماً من دار المتوكل فقال لنا: أَنا واللَّه مسرورٌ بشيء مغمومٌ منه. فقلنا له: وما ذاك أعزَّك اللَّه؟ قال: كان أَحمد بن المُدبّر رفع إلى أَمير المؤمنين أَن بعض عُمَّالي ٱقتطع مالاً، وصدَق في الذي قاله، وكنتُ قد رأيت هلال الشهر ونحن مع أمير المؤمنين على وجهه فدعوتُ له، وضحِك إليَّ فقال لي: إن أَحمد قد رفع على عاملك كذا وكذا فٱصدُقني عنه؛ فضاقت عليَّ الحُجَّة، وخِفتُ أَن أحقِّق قولَه إن ٱعترفت، ثم لا أرجع منه إلى شيء يعود عليّ الغُرم، فعدَلت عن الحُجَّة إلى الحيلة فقلت: أَنا في هذا يا أَمير المؤمنين كما قلتُ فيك:

صـــوت

رَدّ قـــولـــي وصـــدَّق الأقـــوالَا وأطـــاع الـــوُشـــاةَ والـــعُـــذَّالا
أتُـــراه يـــكـــون شـــهـــرَ صـــدودٍ وعـــلـــى وجـــهـــه رأيـــتُ الـــهـــلالا

[الخفيف]

قال: لا يكون واللَّه ذلك بحياتي يا إبراهيم! رَوِّ هذا الشعر بَناناً حتى يُغنِّيني فيه. فقلت: نعم يا سيِّدي على ألَّا يُطالَبَ صاحبي بقول أَحمد. فقال للوزير: تقبَّل قولَ صاحبه في المال. فسُررتُ بالظَّفَر، وٱغتممتُ لبُطلان هذا المال وذَهابه بمثل هذه الحيلة، ولعله قد جُمع في زمن طويل وتعبٍ شديد.

سرق ابن دريد وابن الرومي من شعره:

أنشدتُ عمي رحمه اللَّه أبياتاً لابن دُريد يمدح رجلاً من أهل البصرة:

يـا مـن يُـقـبِّـل كـفَّ كـلِّ مُـخـرّقٍ هـذا ابـنُ يـحـيـى لـيـس بـالـمِـخـراقِ
قَـبِّـلْ أنـامـلَـه فـلـسـن أنـامـلاً لـكـنَّـهـنّ مَـفـاتـحُ الأرزاقِ

[الكامل]

فقال: يا بُنيَّ هذا سرقَه هو وابنُ الروميّ جميعاً من إبراهيم بن العباس؛ قال إبراهيم بن العباس يمدح الفضلَ بنَ سَهل:

لـفـضـلِ بـن سـهـلٍ يـدٌ تـقـاصَـر عـنـهـا الأمـلْ
فـبـاطِـنُـهـا لـلـنَّـدى وظـاهـرُهـا لـلـقُـبَـلْ
وبَـسـطـتُـهـا لـلـغِـنـى وسـطـوتُـهـا لـلأجـلْ

[مجزوء المتقارب]

وسرقه ابن الروميّ فقال:

أصـبـحـتُ بـيـن خَـصـاصـةٍ[1] ومَـذَلَّـةٍ والـحُـرُّ بـيـنـهـمـا يـمـوت هَـزيـلا
فـأمـدُد إلـيَّ يـداً تـعـوّد بـطـنُـهـا بَـذل الـنَّـدى وظـهـورُهـا الـتَّـقـبـيـلا

[الكامل]

قال ثعلب إنه كان أشعر المحدثين:

أَخبرني الصوليّ قال سمعتُ أحمدَ بن يحيى ثَعلباً يقول:

كان إبراهيم بن العباس أشعر المُحدَثين. قال: وما روى ثعلبٌ شعرَ كاتب قطُّ غيرَه. قال: وكان يستحسنُ كثيراً قولَه:

لـنـا إبِـلٌ كُـومٌ[2] يَـضـيـق بـهـا الـفـضـا ويَـفـتَّـرُ عـنـهـا أرضُـهـا وسـمـاؤهـا
فـمِـن دونـهـا أن تُـسـتـبـاح دمـاؤُنـا ومـن دونـنـا أن تُـسـتـبـاح دمـاؤهـا
حِـمًـى وقِـرًى فـالـمـوتُ دون مَـرامِـهـا وأيـسـرُ خـطـبٍ يـوم حـقَّ فـنـاؤُهـا

[الطويل]

ثم قال: واللَّه لو كان هذا لبعض الأوائل لاستُجِيد له.

مدح الحسن بن سهل:

أَخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال حدثنا محمد بن يزيد قال سمعتُ الحسن بن رَجاء يقول:

كنَّا بفَم الصُّلح أَيامَ بَنى المأمونُ ببُوران بنتِ الحسن بن سَهل؛ فقدِم إبراهيم بن العباس علينا ودخل إلى الحسن بن سَهل فأنشده:

لـيـهـنِـئـكَ أصـهـارٌ أذلَّـت بـعـزِّهـا خـدوداً وجـدَّعـتَ الأنـوفَ الـرَّواغـمـا

(١) خصاصة: الفقر الشديد.
(٢) كُوَمٌ: مفردها للواحد أكوم وللأنثى كوماء وهي الإبل العظيمة السنام.

جمعتَ بها الشملَينِ من آل هاشمٍ وحُزتَ بها للأكرمينَ الأكارما
بَنوك غدَوْا آلَ النبيّ ووارِثو الـ ـخلافةِ والحاوُون كِسرى وهاشما
[الطويل]

فقال له الحسن: «شِنشِنة أعرِفها من أَخزم» أَي إنَّك لم تزل تمدحنا، ثم قال له: أحسنَ اللَّه عنَّا جزاءك يا أَبا إسحاق؛ فما الكثير من فِعلنا بك بجزاءٍ لليسير من حقِّك.

أَخبرني عمي قال حدثنا عبد اللَّه بن أبي سعد قال:

أَنشدني إبراهيم بن العباس لنفسه في قَينة اسمها سامِر كان يهواها فغضبتْ عليه:

وعلَّمتني كيف الهوى وجَهلتِه وعلَّمكم صبري على ظُلمكم ظُلمي
وأعلم ما لي عندكم فيردّني هوايَ إلى جهل فأقصِر عن عِلمي
[الطويل]

شعره في قصر الليل:

أخبرني الصوليّ قال:

سمعتُ عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر يقول: لا يُعلَمُ لقديمٍ ولا لمحدَثٍ في قِصَر الليل أحسن من قول إبراهيم بن العباس:

وليلةٍ من الليالي الزُّهرِ قابلتُ فيها بدرَها ببدرِ
لم تك غير شَفَقٍ وفجرِ حتى تولَّت وهي بِكر الدَّهرِ
[الرجز]

أخبرني أحمد بن عُبيد اللَّه بن عمَّار قال حدثني أَحمد بن بِشر المَرثَديّ قال: كان إبراهيم بن العباس يوماً عند أحمد بن أَبي دُواد، فلمَّا خرج من عنده لَقِيَه محمد ابنُ عبد الملك الزيَّات وهو خارج من داره؛ فتبيّن إبراهيمُ في وجه محمدٍ الغضبَ فلم يخاطبه في العاجل بشيء. فلما انصرف إلى منزله كتب إليه:

دَعني أُواصِل مَن قطعـ ـتَ يراك بي إذ لا يراكا
إنّي متى أهجُر لهجـ ـرك لا أضرّ به سواكا
وإذا قطعتُك في أخيـ ـك قطعتُ فيك غداً أخاكا
حتى أُرى مُتقَسَّماً يومي لذا وغدي لذاكا
[مجزوء الكامل]

مسح المداد بكم ثوبه وشعره في ذلك:

أخبرني الصوليّ قال حدثني أَبو العَيناء قال:

كنت عند إبراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً، فنقَّط من القلم نقطةً مُفسدةً فمسَحها بكمّه؛ فتعجَّبتُ من ذلك؛ فقال: لا تَعجَب، المال فرع والقلم أصل، ومن هذا السَّواد جاءت هذه الثياب، والأصل أحوج إلى المُراعاة من الفرع. ثم فكَّر قليلاً وقال:

إذا مـا الـفـكـر ولَّـد حُـسـنَ لـفـظٍ وأسـلَـمـه الـوجـود إلـى الـعِـيـانِ
ووشَّـاه فـنَـمـنَـمَـه مُـسِـدٌّ! فـصـيـحٌ فـي الـمـقـال بـلا لـسـانِ
تـرى حُـلَـل الـبـيـان مُـنـشَّـرات تـجـلَّـى بـيـنـهـا صُـوَرُ الـمـعـانـي

[الوافر]

إتهمه المأمون بإفشاء سر مقتل الفضل بن سهل:

أَخبرني الصوليّ قال حدثني محمد بن صالح بن النطَّاح قال:

لمَّا عزَم المأمون على الفتك بالفَضل بن سَهل، وندَب له عبدَ العزيز بن عمران الطائيّ، ومُؤنِساً البِصريّ، وخَلَفاً المِصريّ، وعليّ بن أبي سَعد ذا القلمين، وسِراجاً الخادم، نُمِيَ الخبرُ إلى الفضل، فأظهره للمأمون وعاتبه عليه. فلمَّا قُتِل الفضلُ وقتل المأمون قَتلَته، سأل من أين سقط الخبر إلى الفضل؟ فعُرِّف أنه من جهة إبراهيم بن العباس، فطلبه فٱستتر. وكان إبراهيم عرَف هذا الخبرَ من جهة عبد العزيز بن عِمران، وكان الفضل ٱستكتب إبراهيمَ لعبد العزيز بن عِمران، فأخبر به الفضل. قال: وتحمَّل إبراهيمُ بالناس على المأمون، وجرَّد في أمره هشاماً الخطيبَ المعروفَ بالعبَّاسيّ وكان جريئاً على المأمون لأنه ربَّاه، وشخص إليه إلى خُراسان في فتنة إبراهيم بن المهديّ، فلم يُجِبه المأمون إلى ما سأل. فلقِيَه إبراهيم مستتراً وسأله عمَّا عمِل في حاجته. فقال له هشام: قد وعَدني في أمرك بما تُحِبّ. فقال له إبراهيم: أظنّ أَن الأمر على غير هذا! قال: وما تظنّ؟ قال: محلُّك عند أَمير المؤمنين أجلُّ من أن يَعِدك شيئاً فترضى بتأخيره، وهو أَكرم من أن يَعِد مثلَك شيئاً فيؤخِّرَه، ولكنك سمعتَ ما لا تحبّ فيَّ فكرِهت أن تغُمَّني به فقلت لي هذا القول، وأحسَنَ اللَّه على كل الأحوال جزاءك، فمضى هشام إلى المأمون فعرَّفه خبرَ إبراهيم، فعجِب من فِطنته وعفا عنه. قال: وفي هشام يقول إبراهيم بن العباس:

مَـن كـانـت الأمـوال ذُخـراً لـه فـإنّ ذُخـري أمَـلـي فـي هـشـامْ

فتًى يَقي اللَّامةَ عن عِرضِه وأنهَب المالَ قضاءَ الذِّمامْ
[السريع]

مدح الفضل بن سهل:

أَخبرني عمي قال حدثني أبو الحسين بن أبي البَغل قال:

دخل إبراهيم بن العباس على الفضل بن سَهل فٱستأذنه في الإِنشاد، فقال هاتِ، فأنشده:

يُمضي الأمورَ على بديهته وتُريه فكرتُه عواقبَها
فيظَلُّ يُصدِرُها ويورِدُها فيَعُمُّ حاضِرَها وغائبَها
وإذا ألَمَّتْ صَعبَةٌ عظُمتْ فيها الرزيَّةُ كان صاحبَها
ألمستقِلّ بها وقد رسَبتْ ولوتْ على الأيام جانبَها
وعدَلتَها بالحقّ فٱعتدلتْ ووسِعت راغبها وراهبَها
وإذا الحروبُ غَلَتْ بعثتَ لها رأياً تَفُلُّ به كتائبَها
رأياً إذا نبَتِ السيوفُ مضى عزمٌ بها فشفى مَضاربَها
أَجرى إلى فئة بدولتها وأقام في أخرى نَوادبَها[1]
وإذا الخطوبُ تأثّلتْ ورَستْ هَدَّتْ فواصلُه نوائبَها
وإذا جرتْ بضميره يَدُه أبدتْ به الدنيا مناقبَها
[الكامل]

وأنشدني عمي لإِبراهيم بن العباس في الفضل بن سهل وفيه غِناء:

صوت

فلو كان للشكر شخصٌ يَبين إذا ما تأمّله الناظرُ
لمثَّلتُه لك حتى تراه فتعلم أنّي ٱمرؤ شاكرُ
[مجزوء الكامل]

الغناء لأبي العُبَيس ثقيل أَول. وفيه لرَذاذ ثاني ثقيل. حدثني أَبو يعقوب إسحاق بن يعقوب النُّوبَختيّ قال حدثني جماعة من عمومتي وأهلِنا أن رذاذاً صنع في هذين البيتين لحناً أُعجب به الناسُ، وٱستحسنوه، فلما كثُر ذلك صنع فيه أَبو

(١) نوادبها: هي آثار الجروح الباقية.

العُبَيس لحناً آخر، فسقط لحنُ رذاذ واٌختار الناس لحنَ أَبي العبيس.

مدح المتوكل وولاة العهود فأجازوه:

أَخبرني حَنظلة قال حدثني ميمون بن هارون قال:

لمَّا عقد المتوكِّلُ لولاة العهود من ولده ركِب بسُرَّ مَن رأى رَكبةً لم يُرَ أحسنُ منها، وركب ولاةُ العهود بين يديه، والأتراكُ بين أيديهم أولادُهم يمشون بين يدَي المتوكِّل بمناطق الذهب، في أيديهم الطَّبَرْزِيناتُ المُحلَّاةُ بالذهب، ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجوانحيَّات وسائر السفن، وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العروس، وأذِن للناس فدخلوا إليه. فلما تكاملوا بين يديه، مَثَل إبراهيم بن العباس بين الصفَّين، فٱستأذن في الإنشاد فأذِن له، فقال:

ولـمَّـا بـدا جـعـفـرٌ فـي الـخـمـيـ ـس بـيـن الـمـطـلّ وبـيـن الـعـروسِ
بـدا لابـسـاً بـهـمـا حُـلَّـةً أُزيـلـتْ بـهـا طـالـعـاتُ الـنُّـحـوسِ
ولـمَّـا بـدا بـيـن أَحـبـابـه وُلاةِ الـعـهـود وعـزِّ الـنـفـوسِ
غـدا قـمـراً بـيـن أَقـمـاره وشـمـسـاً مُـكـلَّـلـة بـالـشـمـوس
لإِيـقـاد نـارٍ وإِطـفـائـهـا ويـومٍ أنـيـقٍ ويـومٍ عَـبـوسِ

[المتقارب]

ثم أَقبل على ولاة العهود فقال:

أضـحـتْ عُـرى الإِسـلام وهـي مـنـوطـةٌ بـالـنَّـصـر والإِعـزاز والـتـأيـيـدِ
بـخـلـيـفـةِ مـن هـاشـمٍ وثـلاثـةٍ كَـنَـفـوا الـخـلافـةَ مـن وُلاة عـهـودِ
قـمـرٌ تـوافـتْ حـولَـه أقـمـارُه فـخـفَـفْـن مـطـلـعَ سـعـده بـسـعـودِ
رفَـعـتـهـمُ الأيـامُ وٱرتـفـعـوا بـه فـسـعَـوْا بـأكـرمِ أنـفُـسٍ وجـدودِ

[الكامل]

قال: فأمر له المتوكِّل بمائة أَلف درهم، وأمر له وُلاةُ العهود بمثلها.

أَخبرني عمي قال: اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن برد الخيار في مجلس عبيد اللَّه بن سليمان قبل وِزارته، فجعل هارون يُنشد من أَشعار أبيه محاسنها، ويفضلها ويقدّمها. فقال له ابن برد الخيار: إن كان لأبيك مثلُ قول إبراهيم بن العباس:

أسـدٌ ضـارٍ إذا هـيَّـجـتَـه وأبٌ بَـرٌّ إذا مـا قَـدَرا

يعرِف الأبعدَ إن أَثرَى ولا يعرِف الأدنى إذا ما ٱفتقَرَا

[الرمل]

أو مثلُ قوله:

تلِج السنون بيوتَهم وترى لهم عن جار بيتهمُ ٱزورارَ مَناكبِ
وتراهمُ بسيوفهم وشِفارهم مُستَشرفين لراغبٍ أَو راهبِ
حامين أو قارين حيث لقِيتَهم نَهْبَ العُفاة ونُهزَةً للرَّاغبِ

[الكامل]

فٱذكُره وٱفخرْ به، وإلَّا فأقلِلْ من الافتخار والتَّطاول بما لا طائل فيه؛ فخجِل هارون. وقال عبيد اللَّه بن سليمان: لعمري ما في الكُتَّاب أشعر من أَبي إسحاق وأبي علي، (يعني عمه الحسن بن وَهب) ثم أَمر بعضَ كتَّابه بكَتْب المقطوعتين اللتين أنشدهما ابن برد الخيار.

أَنشدني علي بن سليمان الأخفش لإِبراهيم بن العباس يُهنِّئ الحسن بن سهل بصِهر المأمون:

هَنَتْكَ أكرومةٌ جُلِّلتَ نعمتَها أعلتْ وليَّك وٱجتثَّتْ أعاديكا
ما كان يحيا بها إلا الإِمامُ وما كانت إذا قُرنت بالحقّ تعدوكا

[البسيط]

أَخبرني عمي قال حدثني محمد بن داود بن الجَرَّاح قال حدثني أَبو محمد الحسن بن مَخلَد قال:

أودِعَ محمد بن عبد الملك الزيَّات مالاً عظيماً وجوهراً نفيساً، وقد رأى تغيُّراً من الواثق فخافه وفرّق ذلك في ثِقاته من أهل الكَرْخ ومُعامِليه من التِّجار. وكان إبراهيم بن العباس يُعاديه ويَرصُد له بالمكاره لإِساءته إليه، فقال أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثقَ يُغريه به.

نصيحةٌ شانَها وزيرُ مُستَحفَظٌ سارقٌ مُغيرُ
ودائعٌ جَمَّةٌ عِظام قد أُسبِلتْ دونَها السُّتورُ
تسعةُ آلافِ ألفِ ألفٍ خِلالَها جوهرٌ خطيرُ
بجانب الكَرْخ عند قومٍ أنت بما عندهم خبيرُ
والمَلِكُ اليوم في أمورٍ تَحدُث من بعدها أمورُ

قـد شَـغَـلـتـه مُـحَـقَّـراتٌ وصـاحـبُ الـكـارَةِ[١] الـوزيـرُ

[مخلع البسيط]

مدح المعتز بشعر:

أنشدني علي بن سليمان الأخفش لإبراهيم بن العباس يمدح المعتزّ وفيه غناء:

صـوت

سَـحُـورُ[٢] مَـحـاجِـرِ[٣] الـحَـدَقـهْ مـلـيـحٌ والـذي خَـلَـقَـهْ

سَـواءٌ فـي رِعـايـتـه مُـجـانـبُـه ومَـن عَـشِـقَـهْ

لـعـيـنـي فـي مـحـاسـنـه ريـاضُ مـحـاسـنٍ أنِـقَـهْ

فـأحـيـانـاً أُنَـزِّهـهـا وطـوراً فـي دمٍ غَـرِقـهْ

[مجزوء الوافر]

يقول فيها في مدح المعتزّ باللَّه:

فـيـا قـمـراً أضـاء لـنـا يُـلأْلِـئ نـورُه أُفُـقَـهْ

يُـشَـبِّـهـه سـنـا الـمـعـتـزِّ ذو مِـقَـةٍ إذا رَمَـقَـهْ

أمـيـرٌ قـلَّـد الـرحـمـ ـنُ أمـر عـبـاده عُـنُـقَـهْ

وفـضَّـلـه وطـيَّـبـه وطـهَّـر فـي الـورى خُـلُـقَـهْ

[مجزوء الوافر]

في الأربعة الأبيات الأول رمَلٌ ذكر الهشاميّ أنه لابن القصَّار، ووجدتُه في بعض الكتب لعَريب.

أَنشدني الأخفش لإبراهيم بن العباس يقولها لأحمد بن المدبّر وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنِّئاً، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه، وبلغه أَنه كان يحرّض عليه ابن الزيَّات:

وكـنـتَ أَخـي بـالـدّهـر حـتـى إذا نَـبـا نَـبَـوْتَ فـلـمَّـا عـاد عُـدتَ مـع الـدّهـرِ

فـلا يـومَ إِقـبـال عَـدَدتُـك طـائـلاً ولا يـومَ إِدبـارٍ عـددتُـك فـي وِتْـرِ

(١) الكارة: مايكور ويجمع وقصد بها الصرَّة التي يوضع فيها المال.

(٢) سَحور: بها سحر.

(٣) محاجر: مفردها محجر، وقصد محجر العين.

وما كنتَ إلَّا مثلَ أَحلام نائمٍ كِلَا حالَتَيْكَ من وفاءٍ ومن غَدْرِ

[الطويل]

وأَنشدني الصولي له في أَحمد بن المدبر أَيضاً وقد عاتبه أحمد بن المدبّر على شيء بلغه فقال:

هَبِ الزّمانَ رماني ألشأنُ في الخُلَّانِ
فيمَنْ رمانيَ لمَا رأى الزمانَ رماني
ومن ذَخَرتُ لنفسي فصار ذُخرَ الزمانِ
لو قيل لي خُذ أماناً من أعظم الحَدَثانِ
لَمَا أخذتُ أماناً إلَّا من الإِخوانِ

[المجتث]

* * *

ومن أخبار المعتضد باللَّه الجاريةِ مجرى هذا الكتاب

المعتضد وغلامه بدر:

حدثني عمي عن جدي رحمهما الله قال: قال لي عُبيد اللَّه بن سليمان، وكان يأنَس بي أُنساً شديداً لقديم الصُّحبة وٱئتلاف المَنشأ: دعاني المعتضد يوماً فقال: أَلَا تُعاتب بدراً على ما لا يزال يستعمله من التخرّق في النفقات والإِثابات والزيّادات والصِّلات! وجعل يؤكد القول عليّ في ذلك؛ فلم أخرج عن حضرته حتى دخل إليه بدر فجعل يَستأمره في إِطلاقات مُسرفة ونفقات واسعة وصِلات سنيَّة وهو يأذن له في ذلك كلِّه. فلما خرج رأى في وجهي إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بيني وبينه؛ فقال لي: يا عُبيد اللَّه قد عرفتُ ما في نفسك، وأَنا وإيَّاه كما قال الشاعر:

صوت

في وجهه شافعٌ يمحو إساءته من القلوب مطاعٌ حيثما شَفَعَا
مُستَقبلٌ بالذي يَهوى وإن كثُرتْ منه الإِساءةُ مغفورٌ لما صَنَعَا

[البسيط]

وفي هذين البيتين خفيفُ رَملٍ.

حدثني محمد بن إبراهيم قُرَيض قال: حدثني أَحمد بن العلاء قال:

غنَّيتُ المَعتَضِدَ:

كـلِّـلانـي تـوِّجـانـي وبـشـعـري غـنِّـيـانـي
أطـلِـقـانـي مـن وَثـاقـي وٱشـدُدانـي بـعِـنـانـي

[مجزوء الرمل]

فٱستحسنه جدّاً، ثم قال لي: ويحك يا أَحمد! أمَا ترى زَهوَ المُلك في شعره وقوله:

كـلِّـلانـي تـوّجـانـي وبـشـعـري غـنّـيـانـي

[مجزوء الرمل]

وٱستعاده مِراراً، ثم وصلَني كلَّ مرَّة ٱستعاده بعشرة آلاف درهم، وما وصل بها مغنِّياً قبلي ولا بعدي. قال وٱستعاده منّي ستَّ مرَّاتٍ ووهب لي ستِّين ألفاً. وقال النُّوشجاني: بل وصله بعشرة آلاف درهم مرَّةً واحدة.

* * *

صنعة أولاد الخلفاء الذكور منهم والإناث

فأوّلُهم وأتقنهم صنعةً وأشهرهم ذِكراً في الغناءِ إبراهيم بن المهدي، فإنه كان يتحقق به تحقُّقاً شديداً ويبتذِل نفسه ولا يستتر منه ولا يُحاشي أحداً. وكان في أوّل أمره لا يفعل ذلك إلَّا من وراء سِتر وعلى حال تصوُّنٍ عنه وترَفُّع، إلا أن يدعوَه إليه الرشيد في خَلوة والأمين بعدَه. فلمَّا أمَّنه المأمونُ تَهتَّك بالغناء وشُرْبِ النَّبيذ بحضرته والخروج من عنده ثَمِلاً ومع المغنِّين، خوفاً منه وإظهاراً له أَنه قد خلع رِبقَةَ الخلافة من عُنُقه وهتَك سِترَه فيها حتى صار لا يصلُح لها. وكان من أعلم الناس بالنَّغَم والوتَر والإيقاعات وأطبعِهم في الغناء وأحسنِهم صوتاً. وهو من المعدودين في طِيبِ الصوت خاصَّةً؛ فإن المعدودين منهم في الدولة العباسية: ابن جامع وعمرو بن أَبي الكَنَّات وإبراهيم بن المهدي ومُخارق. وهؤلاء من الطبقة الأولى، وإن كان بعضهم يتقدَّم. وكان إبراهيم مع علمه وطبعه مُقَصِّراً عن أَداء الغناء القديم وعن أن ينحوَه في صنعته، فكان يَحذِف نغم الأغاني الكثيرةِ العملِ حذفاً شديداً ويُخفِّفها على قَدْر ما يَصلُح له ويفي بأدائه. فإذا عِيب ذلك عليه قال: أَنا ملكٌ وابن ملك، أُغنّي كما أشتهي وعلى ما ألتذّ. فهو أول من أفسد الغناء القديمَ، وجعل للناس طريقاً إلى الجَسارة على تغييره. فالناس إلى الآنَ صِنفان: من كان منهم على مذهب إسحاق وأصحابه ممن كان يُنكر تغيير الغناء القديم ويُعظِم الإقدام عليه ويَعيب مَن فعله، فهو يغنّي الغناء القديمَ على جهته أَو قريباً منها. ومن أخذ بمذهب إبراهيم بن المهدي أو اقتدى به مثل مخارق وشاريةَ ورَيِّق ومن أخذ عن هؤلاء إنما يغنّي الغناء القديم كما يشتهي هؤلاء لا كما غنَّاه من يُنسَب إليه، ويجد على ذلك مساعدين ممن يشتهي أَن يَقرُبَ عليه مأخذُ الغناء ويكره ما ثقُل وثقُلت أدواره، ويستطيل الزمانَ في أَخذ الغناء الجيِّد على جهته بقِصَر معرفته. وهذا إذا اطّرد فإنما الصنعة لمن غنَّى في هذا الوقت لا للمتقدّمين؛ لأنهم إذا غيّروا ما أخذوه كما يرَون وقد غيّره مَن أَخذوه عنه وأَخذ ذلك أَيضاً عمّن غيّره، حتى يمضي على هذا خمسُ طبقات أو نحوُها، لم يتأدّ إلى الناس في عصرنا هذا من جهة الطبقة غِناء قديم على الحقيقة البتَّة. وممن أفسد هذا الجنسَ خاصَّةً بنو حَمْدون بن إسماعيل فإن أَصلهم فيه مُخارق، وما نفع اللَّه أحداً قطّ بما أخذ عنه، وزِرياب الواثقيَّة

فإنها كانت بهذه الصورة تُغيّر الغناء كما تريد، وجواري شارية ورَيِّق. فهذه الطبقة على ما ذكرتُ. ومَن عداهم من الدُّورِ بمثل دُورِ عَريب ودورِ جواريها والقاسم بن زُرزور وولده ودورِ بَذْل الكبرى ومن أخذ عنها، وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن مُعاذ ودورِ آل الرَّبيع ومن جرى مجراهم ممن تمسَّك بالغناء القديم وحمله كما سمعه، فعسى أن يكون قد بقي ممن أَخذ بذلك المذهب قليلٌ من كثير، وعلى أَن الجميع من الصحيح والمُغَيّر قد انقضى في عصرنا هذا.

فمن مشهور غِناء إبراهيم بن المَهديّ.

صـوت

هل تَطمِسون من السماء نجومَها ... بأكفِّكم أو تَستُرون هلالَهَا
أو تدفعون مقالةً من ربِّكم ... جِبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالَهَا
طرقَتْك زائرةٌ فحيِّ خيالها ... زهراءُ تخلِط بالدّلال جمالَهَا

[الكامل]

الشعر لمروان بن أَبي حَفصة. والغناء لإبراهيم بن المهدي، ثقيلٌ أوّل بالبنصر، وذكر حبش أَن فيه لابن جامع لحناً ماخوريّاً.

* * *

أخبار مروان بن أبي حفصة ونسبه

نسبه وشيء من أخبار آبائه:

هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أَبي حَفصة. ويُكنى أَبا السِّمْط. وٱسم أَبي حَفصة يزيد. وذكر النَّوفلي عن أبيه أَنه كان يهوديّاً، فأسلم على يَدَي مَروانَ بنِ الحَكَم. وأهلُه يُنكرون ذلك ويذكرون أَنه من سَبْي إصْطَخر[١]، وأَن عثمان ٱشتراه فوهبه لمروان بن الحكم. وأَخبرنا يحيى بن علي بن يحيى قال حدثنا محمد بن إدريس بن سليمان بن يحيى بن أَبي حفصة بمثل ذلك. قال: وشهد أَبو حفصة الدَّارَ[٢] مع مولاه مروان بن الحكم، وقاتل قتالاً شديداً وقتل رجلاً من أَسلَمَ يقال له بَنان. وجُرح مروان يومئذٍ، أَصابته ضربة قطعتْ عِلباءه[٣] فسقط، فوثب عليه أَبو حفصة وٱحتمله، فجعل يحمله مرّة على عنقه ومرّة يجرُّه، فيتأوّه؛ فيقول له: اسكت وٱصبِر؛ فإنه إن علموا أَنك حيٌّ قُتِلتَ. فلم يزل به حتى أدخله دار ٱمرأة من عَنزة فَداواه فيها حتى بَرِئ؛ فأعتقه مروان ونزل له عن أمِّ ولدٍ له يقال لها سُكْر كانت له منها بنت يقال لها حَفصة؛ فحضَنَها، فكُنيَ أَبا حَفصة؛ فحفصةُ بنت مروان. قال: وكان مروان إذا وليَ المدينةَ وجّه أَبا حَفصة إلى اليمامة ـ وكانت مُضافةً إلى المدينة ـ ليجمع ما فيها من المال ويحمِله إليه. قال: فمرَّ أبو حفصة بقرية من قُرَى اليمامة يقال لها العِرض، فوقف على باب فٱستسقى ماء، فخرجت إليه جارية مُعْصِرٌ[٤] فسَقَتْه فأعجبته؛ فسأل عنها ليشتريها؛ فقيل له: هي حرّة، وهي مولاةٌ لبني عامر بن حنيفة. فمضى حتى قدِم حَجراً[٥]، ثم تبِعتْها نفسُه فتزوّجها، فلم يخرج من اليمامة حتى حَمَلتْ بيحيى بن أَبي حَفصة، ثم حملتْ بمحمد ثم بعبد اللَّه ثم بعبد العزيز. فلما وقَعَتْ فتنة ابن الزُّبير خرج أَبو حفصة مع مروان إلى الشام.

---

(١) إصطخر: موضع ببلاد فارس.
(٢) الدَّار: يوم الدَّار سمّي كذلك لمحاصرة عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه في داره ولزومه إياها.
(٣) العِلباء: العصبة توضع في صفحة العنق.
(٤) معصِرٌ: يقال امرأة معصرٌ إذا بلغت عصر شبابها أي ريعان شبابها وأدركت.
(٥) حجر: موضع باليمامة.

قال محمد بن إدريس وحدثني أَبي قال كان مروان بن أَبي الجَنوب يقول: أمّ يحيى بن أَبي حفصة لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجَعدي، وإن الشعر أتى آل أَبي حفصة بذلك السبب. قال: وشَهِد أَبو حَفصة مع مَروان يوم الجَمل وقاتل قتالاً شديداً. فلما ظفِر عليّ بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه، لجأ مروانُ إلى مالك بن مِسمَع فدخل دارَه ومعه أَبو حفصة، فقال لمالك: أغلِق بابك. فقال له مالك: إن لم أَمنعك والبابُ مفتوحٌ لم أمنعك والباب مُغلَقٌ. فطلب علي رضي اللَّه عنه مروان منه، فلم يدفعه إليه إلا برهينة، فدفع مالكٌ الرهينةَ إلى أَبي حفصة، ومضى مروان إلى عليّ بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه، وقال لأبي حفصة: إن حدَث حدَثٌ بصاحبك فعليك بالرَّهينة. فلما أَتى مروانُ عليّاً كساه كسوةً، فكساها مروانُ أبا حَفصة، فغدا فيها أَبو حفصة. وبلغ عليّاً رضي اللَّه عنه ذلك فغضب وقال: كسوته كسوةً فكساها عبداً! وشهِد أَبو حفصة مع مروان مَرْجَ راهِط، وكان له بلاء. وكان أبو حفصة شاعراً.

قال أَبو أحمد قال لي محمد بن إدريس أخبرني أَبي أَن أبا السِّمط مروان بن أَبي الجَنوب أَنشده لأبي حَفصة يوم الدَّار:

وما قلتُ يومَ الدَّار للقوم صالِحوا أَجَلْ لا، ولا ٱخترتُ الحياةَ على القتلِ
ولكنني قد قلتُ للقوم جالِدوا بأسيافكم لا يُخلَصَنَّ إلى الكهلِ

[الطويل]

قال: وأنشدني لأبي حَفصة أيضاً:

لستُ على الزّحام بالأصَرِّ إني لَوَرّادٌ حياضَ الشرِّ
مُعاوِدٌ للكرِّ بعدَ الكَرِّ

[الرجز]

قال يحيى وأخبرني محمد بن إدريس قال:

عُكْلٌ تدّعي أَن أَبا حَفصة منهم، يقولون: هو من كِنانةَ بن عَوْف بن عبد مَناةَ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر، وقد كانوا ٱستَعدَوا عليه مروانَ بن الحكم، وقالوا: إنما باعته عمَّتُه لمجاعةٍ؛ فأبى هو أن يُقِرَّ لهم بذلك. ثم ٱستعدوا عليه عبد الملك بن مروان أيضاً؛ فأبى إلَّا أنه رجل من العجم من سَبْي فارس، نشأ في عُكْل وهو صغير. قال محمد بن إدريس: ووَلَدُ السَّمَوأل بن عادِياء يدَّعونه والسموأل من غسَّان. قال محمد: وزعم أهل اليمامة وعُكْلٌ وغيرهم أنّ ثلاثةَ نَفَرٍ أَتَوْا مروانَ بن الحكم وهم أَبو حفصة ورجل من تميم ورجل من سُلَيم، فباعوا أَنفسهم منه في

مجاعة نالتهم؛ فاستعدى أهلُ بيوتاتهم عليهم، فأقرَّ أحدُهم وهو السُّلَميُّ أَنه إنما أَتى مروانَ فباعه نفسه وأنه من العرب؛ فدسَّ إليه مروانُ مَن قتله. فلما رأى ذلك الآخران ثَبَتا على أنهما مَوليان لمروان. فأخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال: زعم المدائني أنه كان لأبي حَفصة ابنٌ يقال له مروان سمَّاه مروانُ بن الحكم باسمه، وليس بالشاعر، وأنه كان شجاعاً مجرّباً، وأمدَّ به عبدُ الملك بن مروان الحجَّاج وقال له: قد بعثنا إليك مولاي ابنَ أَبي حفصة وهو يَعدِل ألف رجل. فشهد معه محاربةَ ابن الأشعث، فأَبلى بلاء حسناً وعُقِرتْ تحته عِدَّةُ خيول، فاحتسب بها الحجَّاج عليه من عطائه. فشكاه إلى عبد الملك وذمَّ الحجَّاجَ عنده؛ فعوّضه مكانَ ما أغرمَه الحجَّاجُ. وكان يحيى جدّ مروان بن سليمان جواداً مُمدَّحاً.

جرير يودع ابنه يحيى بن أبي حفصة:

أَخبرنا محمد العبَّاس اليزيدي قال حدثنا أَبو سعيد السُّكَّري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي قال:

أراد جرير أَن يوجّه ابنه بلالَ بنَ جريرٍ إلى الشام في بعض أمره، فأتى يحيى ابنَ أبي حَفصة فأودعه إيَّاه، ثم بلغ بلالاً أَنّ بعض بني أميَّة يريد الخروج، فقال لأبيه: لو كلَّفتَ هذا القرشيَّ أمري! فقال له جرير:

أزاداً سوى يحيى تريد وصاحباً ... ألَا إنّ يحيى نعم زادُ المسافرِ
وما تأمن الوَجناءُ[1] وقعةَ سيفه ... إذا أنفَضُوا[2] أَو قلَّ ما في الغرائرِ[3]

[الطويل]

أخبرني أَبو الحسن الأسدي قال حدثني الحسن بن عُلَيل العنزيّ قال:

تزوّج يحيى بن أَبي حفصة بنتَ زياد بن هَوذةَ بن شمَّاس بن لأْي بن أَنف الناقة؛ فاستعدى عليه عمَّاها عبدَ الملك بن مروان وقالا: أينكح إبراهيم بن عَدِيّ وهو من كنانة منك وإليك بنتها، وينكِح هذا العبدُ هذه! فقال عبد الملك: بل العبد ابن العبد واللَّه إبراهيم بن عديّ ـ وكان مغمور النسب في الإسلام ـ واللَّه لَهذا أَشرفُ منه، وأن لأبيه من البلاء في الإسلام ما ليس لأبيها ولا لأبيكما، وما أُحِبُّ أنّ لي

(١) الوجناء: الناقة الشديدة.
(٢) انفضوا: أي فني زادهم وذهبت أموالهم وعقرت خيلهم.
(٣) الغرائز: الجوالق وهي كنتية عن الأوعية التي يوضع فيها القمح ونحوه من المؤن.

بيحيى ألفاً منكما. واللَّه لو تزوّج بنتَ قيس بن عاصم ما نزعتُها منه. ومَن زوّجه فقد زوّج ابني هذا، وأشار إلى ابنه سليمان. فخرجا وتخلَّف يحيى بعدهما؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنهما قد أنضَيا رِكابَهما وأخلقا ثيابهما والتزما مؤونة في سفرهما، فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يعوّضهما عوَضاً! فقال: أَبَعْدَ ما قالا فيك!! قال: نعم يا أَمير المؤمنين. قال: بل أُعطيك أنت ما سألتَ لهما وتُعطيهما ما شئتَ. فكساه ووصله[1] وحمله. فخرج يحيى إليهما ففرّق ذلك عليهما، وزوّج ابنه سليمان بنتَ أحدهما، وولدتْ بنتُ زياد منه أولاداً.

يهنئ الوليد بن عبد الملك ويعزيه:

أَخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثنا الفضل اليزيدي قال حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال حدثني مروان بن أَبي حفصة قال:

دخل يحيى بن أبي حفصة على الوليد بن عبد الملك لمَّا بُويع له بالخلافة بعد أَبيه، فهنَّأَه وعزّاه وأنشده:

إنَّ المنايا لا تغادر واحداً ... يمشي ببِزَّته ولا ذا جُنَّهْ
لو كان خَلقٌ للمنايا مُفلِتاً ... كان الخليفةُ مُفلِتاً منهنَّهْ
بكتِ المنابرُ يوم مات وإنما ... بكت المنابرُ فَقْدَ فارسهنَّهْ
لمَّا علاهُنَّ الوليدُ خليفةً ... قلن ابنُه ونظيرُه فسَكَنَّهْ
لو غيرُه قَرَع المنابرَ بعدَه ... لَنَكَرْنَه فطَرَحْنَه عنهنَّهْ

[الكامل]

أَخبرني أَبو الحسن الأسديّ قال حدثنا العنزيّ قال:

خطب يحيى بن أبي حفصة إلى مُقاتل بن طُلبة بن قَيس بن عاصم المِنقَريّ ابنتَه وأُختَيْه فأنعم[2] له بذلك. فبعث يحيى إلى بنيه سليمان وعمر وجميل، فأَتَوْه بالجَفر فزوّجهن بَنيه ثلاثتهم، ودخلوا بهنّ ثم حملوهن إلى حَجر. فقال القُلاحُ بن حَزْن المِنقَري في ذلك:

سلامٌ على أوصال قيسِ بن عاصمٍ ... وإن كُنّ رَمساً[3] في التراب بَوالِيَا

(١) وصله: زوَّده بالعطايا وأغدق عليه.
(٢) أنعم له: أجابه بنعم.
(٣) رمساً: يقال رمس الشيء إذا فني.

أضيَّعتمُ خيلاً عِراباً فأصبحتْ كواسدَ لا يَنكِحن إلَّا المَوالِيا
فلم أر أبراداً أجَرَّ لخزيةٍ وألأمَ مكسُوّاً وألأمَ كاسيَا
من الخَزِّ واللائي بحجرٍ عليكمُ نُشِرْنَ فكنَّ المُخزياتِ البواقيَا
[الطويل]

فقال يحيى يردُّ عليه:

ألَا قَبَح اللَّهُ القُلاحَ ونِسوَةً على البئر يُعطِشنَ الكلابَ من النَّتْنِ
نَكَحنا بناتِ القَرْم قيس بن عاصم وعمداً رغِبنا عن بنات بني حَزْنِ
أباً كان خيراً من أبيك أرُومةً وأوسطَ في سَعدٍ وأرجحَ في الوَزنِ
لِبَيتِ بني حَزْن من الذُّلِّ وَهنةٌ كوهنة بيت العنكبوت التي تَبني
ولم تَرَ حزنيّاً، ولو ضَمَّ أربعاً وأبرَز[1]، في فرج يَعِفُّ ولا بطنِ
وضيفُ بني حَزْنٍ يجوع وجارُهم إذا أمِن الجيرانُ ناءٍ من الأمنِ
[الطويل]

أَخبرنا يحيى بن علي قال أنشدني محمد بن إدريس ليحيى يذكر خروجَ يزيد بن المُهلَّب ويتأسَّف على الحجَّاج:

لا يُصلِح الناس إلَّا السيفُ إذ فُتِنوا لَهْفي عليك ولا حَجَّاجَ للدينِ
لو كان حيّاً غداةَ الأزد إذ نكَثوا لم يُحصِ قتلاهُمُ حسَّابُ ديرينِ
لم تأته الأرْدُ عند الباب تَربُصه[2] مثلَ الجراد تَنزَّى في التَّبابينِ[3]
من كلِّ أَفحَج[4] ذي حَنفٍ[5] مُخالفةً أرفَتْ به السُّفنُ عِلجاً غير مَجنونِ
[البسيط]

قال أَبو أحمد: وأنشدني ليحيى في سفيان بن عمرو والي اليمامة:

لقد عَصاني ابن عمرو إذ نَصَحْتُ له ولو أُطِعتُ لما زلَّتْ به القَدَمُ
لو كنتُ أنفُخ في فحمٍ لقد وقَدتْ ناري ولكن رماد ما له حَمَمُ
[البسيط]

---

(١) أبرز: اتخذ الذهب الخالص أي ازداد غناه.
(٢) تربصه: تنتظره بحذر.
(٣) التبابين: مفردها تبان، وهو السروال الصغير وأصل الكلمة فارسي معرَّب.
(٤) أفحج: هو المتداني صدور القدمين ومتباعد العقبين ويقال للمرأة فحجاء.
(٥) ذي حنف: المصاب باعوجاج الرجل إلى الداخل.

وليحيى أشعارٌ كثيرة؛ وإنما ذكرنا هاهنا منها ما ذكرنا لنعرِف أعراقَ مروان في الشعر. وكان مروان أَبخل الناس على يساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء، لا سيما من بني العباس، فإنه كان رَسْمُهم أن يُعطوه بكل بيت يمدحهم به أَلف درهم.

أَخبرني أحمد بن عمَّار قال حدثنا علي بن محمد النَّوفلي قال سمعت أَبي يقول:

كان المهدي يُعطي مروان وسَلماً الخاسر عطيَّة واحدة، وكان سَلمٌ يأتي بابَ المهدي على البِرذَون قيمتُه عشرةُ آلاف درهم، والسَّرج واللجام المَقذُوذين[١]؛ ولباسُه الخَزُّ والوَشي وما أشبه ذلك من الثياب العالية الأثمان، ورائحةُ المسك والغالية والطِّيب تفوح منه، ويجيء مروان وعليه فَرْوُ كبشٍ، وقميصُ كَرابيس[٢] وعمامةُ كرابيس، وخُفًّا كَبْلٍ[٣] وكساءٌ غليظٌ مُنتنُ الرائحة، وكان لا يأكل اللَّحم بخلاً حتى يَقرَم[٤] إليه، فإذا قَرِم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله. فقيل له: نَراك لا تأكل إلَّا الرؤوسَ في الصَّيف والشتاء، فلم تختار ذلك؟ قال: نعم! الرأس أعرف سعره، ولا يستطيع الغلام أن يغبِنَني فيه، وليس بلحم يطبُخه الغلام فيقدِر أن يأكل منه، إن مسَّ عيناً أو أُذُناً أو خَدّاً وقفتُ عليه فآكل منه ألواناً، آكل عينيه لوناً، وأُذُنَيه لوناً، وغَلْصَمته[٥] لوناً، وأُكفى مؤنة طَبخه، فقد اجتمعتْ لي فيه مرافق.

أَخبرنا يحيى بن عليّ قال أخبرنا أَبو الفضل أَحمد بن أَبي طاهر عن أَبي العلاء المِنقَريّ قال حدثني موسى بن يحيى قال:

أوصَلْنا إلى مروان بن أَبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع إليها مالاً حتى تمَّت مائةَ ألف وخمسين ألف درهم، وأودعها يَزيد بن مَزْيد. قال: فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيد، وكانت فيه دُعابة، فقال: يا أَبا عليّ أَودَعَني مروان خمسين ومائة ألف درهم وهو يشتري الخبز من البقَّال. قال فغضِب يحيى ثم قال: عليَّ بمروان، فأُتِيَ به. فقال له: أَخبرني أَبو خالد بما أَودعتَه من المال وما تبتاعه من البقَّال، واللَّه لَما يُرى من أَثَر البخل عليك أضرُّ من الفقر لو كان بك.

---

(١) المقذوذين: المزينين.
(٢) كرابيس: مفردها كرباس وهو الثوب الغليظ.
(٣) كبل: الكثير الفراء.
(٤) يقرم إليه: تشتدّ شهوته إليه.
(٥) الغلصمة: اللحم ما بين الرأس والعنق.

أَخبرنا يحيى قال وحدثني عمر بن شبَّة عن أَبي العلاء المِنقَريّ عن موسى بهذا الخبر، إلَّا أَنه قال: فقال له يحيى: يا مروان، واللَّه لا البُخلُ أَسوأ عليك أثراً من الفقر لو صرتَ إليه، فلا تَبخَل.

أَخبرنا يحيى قال حدثني عمر بن شبَّة قال:

بلغني أن مروان بن أَبي حفصة قال ما فَرِحتُ بشيء قطّ فَرَحي بمائة ألف وهبها لي أَمير المؤمنين المهديّ، فوزنتُها فزادت درهماً فٱشتريتُ به لحماً.

أَخبرنا يحيى قال حكى أَبو غسان عن أَبي عُبيدة عن جَهم بن خلَف قال:

أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أَبي حفصة، فأطعمنا تمراً، وأرسل غلامَه بفَلس وسُكُرُّجة[1] ليشتري له زيتاً. فلما جاء بالزيت قال لغلامه: خُنتَني! قال: من فَلس كيف أخونك! قال: أخذتَ الفَلس لنفسك وٱستوهبت الزيت.

أَخبرنا يحيى قال أخبرنا أصحاب التَّوَّزيّ عنه قال:

مرَّ مروان بن أبي حفصة في بعض سَفَراته وهو يريد مِنًى بٱمرأة من العرب فأضافته، فقال: للَّه عليّ إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهماً، فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاها أربعة دوانق.

أَخبرنا يحيى قال أخبرني أَبي عن أبي دِعامة قال:

اشترى مروان لحماً بنصف درهم، فلما وضعه في القِدْر وكاد أن ينضَج، دعاه صديق له، فردَّه على القصَّاب بنُقصان دانق. فشكاه القصَّاب وجعل ينادي: هذا لحمُ مروان، وظنّ أنه يأنَف لذلك. فبلغ الرشيدَ ذلك، فقال: ويلك! ما هذا! قال: أكره الإِسراف.

أَخبرنا يحيى قال أخبرني أبي عن أبي دِعامة قال:

أنشِدتُ لرجل من بني بكر بن وائل في مروان:

ولـيـس لـمـروانٍ عـلـى الـعِـرسِ غَـيـرةٌ ولـكـنَّ مـروانـاً يَـغـار عـلـى الـقِـدْرِ

[الطويل]

أَخبرنا يحيى قال أخبرني أبو هِفَّان قال حدثني يحيى بن الجَون العَبديّ قال:

فرَّق المهديُّ على الشعراء جوائزَ، فأعطى مروان ثلاثين ألفاً. فجاءه أَبو

(١) السكرُّجة: الصحفة التي يُوضع فيها الطعام.

الشمَقمق فقال له: أجِزني من الجائزة. فقال له: أَنا وأنتَ نأخذ ولا نُعطِي. قال: فاسمع منّي بيتين. قال: هاتِ. فقال أَبو الشمقمق:

لِحيةِ مروان تَقي عَنبراً خالَط مسكاً خالصاً أَذفَرا[1]
فما يُقيمان بها ساعةً إلّا يَعودان جميعاً خَرا

[السريع]

فأمر له بدرهمين. وأخبرني بهذا الخبر أَحمد بن جعفر جَحظة عن أبي هِفَّان فذكر مثلَ الخبر الماضي وزاد فيه: فأعطاه عشرة دراهم، فقال له خذ هذه ولا تكن راوية الصِّبيان.

أخبرني محمد بن مَزْيد بن أبي الأزهر قال حدثنا الزبير بن بَكَّار قال حدثني عمي مُصعَب عن جدّي عبدِ اللَّه بن مصعب قال:

دخل مروان بن أَبي حفصة على موسى الهادي، فأنشده قولَه فيه:

تَشابه يومَا بأسِه ونوالِه فما أحدٌ يدري لأيِهما الفضلُ

[الطويل]

فقال له الهادي: أيّما أحبّ إليك: أثلاثون ألفاً مُعجَّلةً أم مائةُ ألف تدوَّن في الدواوين؟ فقال له: يا أمير المؤمنين أنت تُحسن ما هو خير من هذا ولكنَّك نسيتَه، أفتأذَن لي أن أذكِّرك؟ قال: نعم. قال: تُعجِّل لي الثلاثين ألفاً وتدوِّن المائة الألف في الدواوين. فضحِك وقال: بل يعجَّلان جميعاً؛ فحُمِل المالُ إليه أجمع.

أخبرني أحمد بن عُبيد اللَّه بن عمَّار قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني سليمان بن جعفر قال حدثني أحمد بن عبد الأعلى قال:

اجتمع مروان بن أبي حَفصة وأبو محمد اليزيديّ عند المهدي؛ فابتدأ مروان يُنشد:

طَرَقَتْكَ زائرةً فحيِّ خيالَهَا

فقال اليزيديّ: لحن واللَّه وأَنا أَبو محمد. فقال له مروان: يا ضعيف الرأي أهذا لي يقال! ثم قال:

بيضاءُ تخلِط بالجمال دلالَهَا

فقال له بعض من حضر: يا أمير المؤمنين أيتكنَّى في مجلسك! (يعني اليزيديّ) فقال: اعذِروا شيخنا، فإن له حُرمة.

(١) الأذفر: المسك الخالص.

أخْبرنا أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ قال حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثني إسحاق الموصليّ قال أخبرني مروان بن أَبي حَفصة قال: قال لي الرشيد: هل دخلتَ على الوليد بن يزيد؟ فقلت: نعم دخلت مع عمومتي إليه. قال: فأخبِرني عنه. قال: فذهبتُ أتَزَحزح. فقال لي: إنّ أَمير المؤمنين لا يكره ما تقول، فقل ما شئتَ. فقلت: يا أَمير المؤمنين، كان من أَجمل الناس وأشدّهم وأشعرهم وأجودهم. دخلتُ عليه مع عُمومتي ولي لِمَّةٌ فَينانة[1]، فجعل يغمِز القضيبَ فيها ويقول: ولَدَتك سُكَّر؟ ـ وهي أمُّ وَلَدٍ لمروان بن الحكم فوهبها لجدّي أبي حفصة فولَدتْ منه ـ فقلت له: نعم. قال لي الرشيد: فهل تحفَظ من شعره شيئاً؟ قلت: نعم، سمعته يُنشد في خلَافته وذكر هشاماً وتَحامُلَه عليه وما كان يريد من نَقض أمره وولايته:

لـيـت هـشـامـاً عـاش حـتـى يـرى ... مِـكـتَـلَـه[2] الأوفـر قـد أُتـرِعَـا[3]
كِـلـنـا لـه الـصـاعَ الـتـي كـالـهـا ... ومـا ظـلَـمـنـاه بـهـا أَصـوُعَـا
ومـا أَتـيـنـا ذاك عـن بِـدعـةٍ ... أحـلَّـه الـفُـرقـانُ لـي أجـمـعَـا

[الكامل]

فقال الرشيد: يا غلامُ، الدواةَ والقرطاسَ، فأُتِيَ بهما، فأمر بالأبيات فكُتبت:

فضّل خلف الأحمر شعراً له على شعر للأعشى:

أَخبرنا أَحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المهلَّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثني خَلَّادٌ الأرقَط قال:

جاءنا مروان بن أَبي حفصة إلى حَلقة يونس، فأخذ بيد خَلَف الأحمر فأقامه، وأخذ خَلَفٌ بيدي فقمنا إلى دار أَبي عُمير فجلسنا في الدهليز. فقال مروان لخلَفٍ: نشدتُك اللَّه يا أَبا مُحرِز إلَّا نصحتني في شعري فإن الناس يُخدَعون في أشعارهم، وأنشده قولَه:

طـرقـتْـك زائـرةً فـحـيِّ خـيـالـهـا ... بـيـضـاءُ تـخـلِـط بـالـجـمـال دلالَـهـا

[الكامل]

فقال له: أنت أشعر من الأعشى في قوله:

رَحَـلـتْ سُـمـيَّـةُ غُـدوةً أجـمـالَـهـا

(١) فينانة: مؤنث الفينان وهو الحسن الشعر الطويلُه.
(٢) المكتل: زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً يوضع فيه التمر وغيره.
(٣) أترِعَ: مُلِئ.

فقال له مروان: أتَبلُغ بيَ الأعشى هكذا! ولا كلّ ذا! قال: ويحك! إنّ الأعشى قال في قصيدته هذه:

فـأصـاب حـبَّـةَ قـلـبـهـا وطِـحـالَـهَـا

والطِّحال ما دخل قطُّ في شيء إلا أفسده، وأَنت قصيدتُك سليمة كلّها. فقال له مروان: إني إذا أردتُ أن أقول القصيدة رفعتُها في حول، أقولها في أربعة أشهر، وأنتحلها في أربعة أشهر، وأَعرِضها في أربعة أشهر.

عرض شعراً له على يونس فمدحه وفضله على شعر للأعشى:

وأخبرني بهذا الخبر هاشم بن محمد الخزاعيّ قال حدثنا عيسى بن إسماعيل عن محمد بن سلَّام قال أَبو دُلَف هاشم بن محمد وحدثني به الرِّياشيّ عن الأصمعي قال:

جاء مروان بن أَبي حفصة إلى حَلقة يونس، فسلَّم ثم قال لنا: أَيُّكم يونس؟ فأَومأنا إليه. فقال له: أصلحك اللَّه! إني أرى قوماً يقولون الشعر، لأن يَكشِفَ أحدهم سوءته ثم يمشيَ كذلك في الطريق أحسنُ له من أن يُظهر مثلَ ذلك الشعر. وقد قلتُ شعراً أَعرِضه عليك، فإن كان جيِّداً أظهرتُه، وإن كان رديئاً سترتُه. فأنشده قولَه:

طـرقـتْـكَ زائـرةً فـحـيِّ خـيـالَـهَـا

فقال له يونس: يا هذا اذهب فأظهِر هذا الشعر فأنت واللَّه فيه أشعر من الأعشى في قوله:

رحَـلـتْ سُـمـيَّـةُ غُـدوةً أجـمـالَـهَـا

فقال له مروان: سررتني وسُؤتني، فأما الذي سررتني به فأرتضاؤك الشعر، وأما الذي ساءني فتقديمُك إياي على الأعشى وأَنت تعرف محلَّه. فقال: إنما قدَّمتُك عليه في تلك القصيدة لا في شعره كلّه لأنه قال فيها:

فـأصـاب حـبَّـة قـلـبـهـا وطِـحـالَـهَـا

والطِّحال لا يدخل في شيء إلَّا أفسده، وقصيدتُك سليمة من هذا وشِبهه.

أخبرني هاشم بن محمد قال حدثني العباس بن ميمون طائع قال:

سمِعتُ الأصمعيّ ذكَر مروان بن أَبي حفصة، فقال: كان مولَّداً[1]، لم يكن له علم باللغة.

(١) مولَّد: المولود بين العرب وليس منهم.

أَخبرني هاشم بن محمد قال حدثني أَحمد بن عُبيد اللَّه عن العُتبيّ قال حدثني بعض أَصحابنا قال:

أنشدَنا مروانُ بن أبي حفصة يوماً شعر زهير ثم قال: زُهير واللَّه أشعر الناس، ثم أنشد للأَعشى فقال: الأَعشى أشعر الناس، ثم أنشد شعراً لامرئ القيس فقال: ٱمرؤ القيس أشعر الناس، ثم قال: والناسُ واللَّهِ أشعرُ الناس. أي إن أشعر الناس من أنشدتُ له فوجدته قد أجاد، حتى يُنْتَقَل إلى شعر غيره.

أَخبرني أحمد بن عُبيد اللَّه بن عمَّار قال حدثني عليّ بن محمد النَّوفليّ قال حدثني أبي قال:

إجتاز مروانُ بن أَبي حَفصة برجل من باهِلةَ من أَهل اليمامة وهو يُنشد قوماً كان جالساً إليهم شعراً مدح به مروان بن محمد، وإنه قُتل قبل أَن يلقاه ويُنشده إياه، أَوَّلُه:

مَـروانُ يـابـنَ مـحـمـدٍ أَنـت الـذي زِيـدَت بـه شَـرَفـاً بـنـو مـروانِ

[الكامل]

فأعجبتْه القصيدة، فأمهل الباهليَّ حتى قام من مجلسه، ثم أَتاه في منزله فقال له: إني سمعتُ قصيدتَك وأعجبتْني، ومروان قد مضى ومضى أهلُه وفاتكَ ما قد رُمته عنده؛ أَتبيعني القصيدةَ حتى أَنتحلَها، فإنه خير لك من أَن تبقى عليك وأَنت فقير؟ قال نعم. قال: بكم؟ قال: بثلثمائة درهم. قال: قد ٱبتعتُها؛ فأعطاه الدراهمَ وحلَّفه بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المُحرجة أَلَّا يَنتحلها أبداً ولا ينسبها إلى نفسه ولا يُنشدَها، وٱنصرف بها إلى منزله، فغيَّر منها أَبياتاً وزاد فيها، وجعلها في مَعن، وقال في ذلك البيت:

مَـعـنُ بـن زائـدةَ الـذي زِيـدت بـه شـرفـاً إلـى شـرف بـنـو شَـيـبـانِ

[الكامل]

ووفَد بها إلى مَعن بن زائدة فملأ يديه، وأَقام عنده مدةً حتى أثرى وٱتّسعت حالُه. فكان معنٌ أول من رفَع ذكره ونَوَّه به. قال: وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومَراثٍ حسنةٌ.

أَخبرني حبيب بن نصر المُهلَّبيُّ قال حدثنا عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني محمد بن نُعيم البَلخيّ أَبو يونس قال حدثني مروان بن أَبي حفصة وكان لي صديقاً قال:

كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً، وجعل فيه مالاً؛ فحدثني

معن بن زائدة باليمن أنه ٱضطُرّ لشدَّة الطلب إلى أن أقام في الشمس حتى لوَّحت وجهَه، وخفَّف عارضيه ولِحيته، ولبس جُبَّةَ صوف غليظة، وركِب جملاً من الجمال النقَّالة ليمضيَ إلى البادية فيُقيم بها، وكان قد أَبلى في حرب يزيد بن عمر بن هُبيرة بلاء حسناً غاظ المنصور وجدَّ في طلبه. قال مَعنٌ: فلما خرجتُ من باب حَرب تَبِعني أسودُ متقلِّداً سيفاً، حتى إذا غِبتُ عن الحرس قبض على خِطام جملي فأناخَه وقبَض عليّ؛ فقلت له: ما لكَ؟ قال: أَنت طَلِبةُ أَمير المؤمنين. قلت: ومن أَنا حتى يطلبني أَمير المؤمنين! قال: مَعنُ بن زائدة. فقلت: يا هذا ٱتّق اللَّه! وأين أَنا من معن! قال: دَعْ هذا عنك فأنا واللَّه أَعرَفُ به منك. فقلت له: فإن كانت القصَّة كما تقول فهذا جوهرٌ حمَلتُه معي يَفي بأضعاف ما بذله المنصورُ لمن جاءه بي، فخُذه ولا تَسفِك دمي. قال: هاتِه فأخرجتُه إليه؛ فنظر إليه ساعة وقال: صدَقتَ في قيمته، ولستُ قابِلَه حتى أسألك عن شيء، فإن صدَقتني أطلقتُك. فقلت: قُل. قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبِرني هل وهبتَ قطّ مالك كلَّه؟ قلت: لا. قال: فنصفَه؟ قلت: لا. قال: فثُلُثَه؟ قلت: لا. حتى بلغ العُشر فٱستحيَيتُ فقلت: أظنّ أنّي قد فعلتُ هذا. فقال: ما أراك فعلتَه! أَنا واللَّه راجل، ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمتُه آلافُ دنانير، وقد وهبتُه لك، ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلمَ أن في الدنيا أجودَ منك، فلا تُعجِبك نفسُك ولتَحقِرَ بعد هذا كلَّ شيء تفعله، ولا تتوقَّف عن مكرمة. ثم رمى بالعقد في حِجري وخلَّى خِطامَ البعير وٱنصرف. فقلت: يا هذا قد واللَّه فضحتَني، ولَسَفكُ دمي أهونُ عليَّ مما فعلتَ، فخذ ما دفعتُه إليك فإنّي غنيٌّ عنه. فضحِك ثم قال: أردتَ أن تكذِّبني في مَقامي هذا، واللَّه لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً أبداً، ومضى. فواللَّه لقد طلبتُه بعد أن أَمِنتُ وبذلتُ لمن جاءني به ما شاء فما عرَفتُ له خبراً، وكأن الأرض ٱبتلعتْه.

قال: وكان سبب رضا المنصور عن مَعن أنه لم يزل مستتراً حتى كان يومُ الهاشميَّة، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثب مَعن وهو متلثِّم فٱنتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاءً حسناً، وذبَّ القومَ عنه حتى نجا وهم يُحاربونه بعدُ، ثم جاء والمنصورُ راكب على بغلة ولجامُها بيد الربيع؛ فقال له: تَنحَّ فإني أحقُّ باللِّجام منك في هذا الوقت وأعظمُ فيه غَناء. فقال له المنصور: صدَق فٱدفعه إليه؛ فأخذه ولم يزل يقاتل حتى ٱنكشفت تلك الحالُ. فقال له المنصور: من أنتَ للَّه أَبوك؟ قال: أَنا طَلِبتُك يا أَمير المؤمنين مَعنُ بن زائدة. قال: قد أمَّنك اللَّه على نفسك ومالك، ومثلُكَ يُصطَنع. ثم أخذه معه وخلَع عليه وحَباه وزيَّنه. ثم دعا به يوماً وقال

له: إنّي قد أمَّلتك لأمر، فكيف تكون فيه؟ قال: كما يحبّ أَمِير المؤمنين ـ قال: قد ولَّيتك اليمن، فابْسُط السيف فيهم حتى يُنقَضَ حِلفُ ربيعةَ واليمن ـ قال: أبلُغُ من ذلك ما يحبّ أَمير المؤمنين. فولَّاه اليمنَ وتوجّه إليها فبسط السيفَ فيهم حتى أسرف.

قال مروان: وقدِمَ مَعن بعقِب ذلك فدخل على المنصور فقال له بعد كلام طويل: قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شيءٌ لولا مكانُك عنده ورأيُه فيك لغضِب عليك. قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فواللَّه ما تعرّضتُ لك منك، قال: إعطاؤك مروان بن أَبي حفصة ألفَ دينار لقوله فيك:

مَعنُ بن زائدةَ الذي زِيدت به ... شرفاً إلى شرف بنو شيبانِ
إن عُدّ أَيامُ الفعالِ فإنَّما ... يومٌ ندًى ويومُ طِعانِ

[الكامل]

فقال: واللَّه يا أَمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بلغك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله:

ما زلتَ يومَ الهاشميَّة مُعلِماً ... بالسيف دون خليفة الرحمنِ
فمنعتَ حَوزتَه وكنتَ وِقاءه ... من وقَع كلِّ مُهنَّدٍ وسنانِ

[الكامل]

فاستحيا المنصور وقال: إنما أعطيتَه ما أعطيته لهذا القول؟ قال: نعم يا أَمير المؤمنين! واللَّه لولا مخافة النِّقمة عندك لأمكَنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته إياها، فقال له المنصور: للَّه درُّك من أعرابيّ! ما أهون عليك ما يَعَزُّ على الرجال وأَهل الحزم!

أَخبرني حبيب بن نصر قال حدثنا عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني عبد اللَّه بن محمد بن موسى قال أَخبرني محمد بن موسى بن حمزة قال أَخبرني الفضل بن الرَّبيع قال:

رأيت مروان بن أبي حفصة وقد دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سَلمٌ الخاسر وغيرُه، فأنشده مديحاً فيه، فقال له: ومن أنت؟ قال: شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروان بن أَبي حفصة. فقال له المهدي: ألست القائل:

أَقمنا باليمامة بعد مَعنٍ ... مُقاماً لا نريد به زَوالا

وقُـلـنـا أيـن نـرحـل بـعـد مَـعـنٍ وقـد ذهـب الـنَّـوالُ فـلا نـوالا

[الوافر]

قد ذهب النَّوالُ فيما زعمتَ، فلِم جئتَ تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا، جُرُّوا برجله؛ فجرّوا برجله حتى أُخرج. قال: فلما كان من العام المقبل تلطَّف حتى دخل مع الشعراء ـ وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في كل عام مرَّة ـ فمثل بين يديه وأنشده بعد رابع أو بعد خامس من الشعراء:

طَـرَقَـتـك زائـرةً فـحـيّ خـيـالَـهـا بـيـضـاءُ تـخـلِـط بـالـجَـمـال دلالَـهَـا

قـادت فـؤادك فـاْسـتـقـاد ومـثـلُـهـا قـاد الـقـلـوبَ إلـى الـصِّـبـا فـأمـالَـهَـا

[الكامل]

قال: فأنصت الناسُ لها حتى بلغ إلى قوله:

هـل تَـطـمِـسـون مـن الـسـمـاء نـجـومَـهـا بـأكُـفِّـكـم أو تـسـتـرون هـلالَـهَـا

أو تَـجـحَـدون مـقـالـةً عـن ربّـكـم جـبـريـلُ بـلَّـغـهـا الـنَّـبـيَّ فـقـالَـهَـا

شَـهـدتْ مـن الأنـفـال آخـرُ آيـة بـتُـراثِـهـم فـأَرَدتـمُ إبـطـالَـهَـا

[الكامل]

قال: فرأيت المهديَّ قد زحف من صدر مُصلَّاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع، ثم قال: كم هي؟ قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم. فكانت أوّل مائةِ ألف درهم أُعطيها شاعرٌ في أيام بني العبَّاس.

قال: ومضت الأيام ووليَ هارون الرشيدُ الخلافةَ، فدخل إليه مروان؛ فرأيته واقفاً مع الشعراء ثم أنشده قصيدة اْمتدحه بها. فقال له: من أنت؟ قال: شاعرُك وعبدُك يا أَمير المؤمنين مروان بن أَبي حفصة. قال له: ألستَ القائل في مَعن بن زائدة! وأنشده البيتين اللَّذَين أنشده إيَّاهما المهديُّ، ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه، لا شيء لك عندنا، فأخرج. فلما كان بعد ذلك بأيام تلطَّف حتى دخل؛ فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

لَـعَـمْـرُك مـا أَنـسـى غَـداةَ الـمُـحَـصَّـب إشـارةَ سَـلـمـى بـالـبـنـان الـمُـخَـضَّـبِ

وقـد صـدَر الـحُـجَّـاجُ إلَّا أَقـلَّـهـم مـصـادر شـتـى مَـوكِـباً بـعـد مـوكـبِ

[الطويل]

قال: فأعجبته، فقال: كم قصيدتُك من بيتٍ؟ فقال: ستون أو سبعون. فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً. فكان ذلك رَسمَ مروانَ عندهم حتى مات.

مدح المهدي في الرصافة فأجازه:

أَخبرني عمي قال حدثني الفضل بن محمد اليزيدي عن إسحاق قال:

دخل مروانُ بن أَبي حفصة على المهدي في أوّل سنة قَدِم عليه. قال: فدخلتُ عليه في قصره بالرّصافة فأنشدته قولي فيه:

أَمَرُّ وأحلى ما بلا الناسُ طعمَه عذابُ أَمير المؤمنين ونائلُهْ
فإنّ طليقَ اللَّه مَن أَنت مُطلِقٌ وإنّ قتيلَ اللَّه مَن أَنت قاتلُهْ
كأنّ أمير المؤمنين محمداً أبو جعفر في كلّ أمر يحاولُهُ

[الطويل]

قال: فأُعجب بها، وأمر لي بمال عظيم؛ فكانت تلك الصلةُ أوّلَ صلة سنيَّة وصلت إليّ في أيام بني هاشم.

مدح المهدي وذم عنده يعقوب بن داود فأجازه من خالص ماله:

أَخبرني الحسن بن علي الخفَّاف قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني محمد بن عبد اللَّه العَبْدي الراوية قال حدثني حسين بن الضحَّاك قال حدثني مروان بن أَبي حفصة قال:

دخلتُ على المهدي في قصر السلام، فلما سلمتُ عليه، وذلك بعَقِب سخطه على يعقوب بن داود، قلت: يا أمير المؤمنين إنَّ يعقوب رجل رافضي وإنه سمعني أقول في الوراثة:

أنَّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبَني البنات وراثةُ الأعمامِ

[الكامل]

فذلك الذي حمله على عداوتي. ثم أنشدته:

كأَنّ أَمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والدُ
على أنه من خالف الحقَّ منهمُ سَقَتْه يدَ الموت الحُتوفُ الرَّواصدُ

[الطويل]

ثم أنشدته:

أحيا أمير المؤمنين محمدٌ سُنَنَ النبيّ حرامَها وحلالَهَا

[الكامل]

قال فقال المهديّ: واللَّه ما أُعطيك إلا من صُلب مالي فاعذِرني، وأمر لي

بثلاثين ألف درهم، وكساني جُبَّةً ومُطرَفاً، وفرَض لي على أَهل بيته ومواليه ثلاثين ألفاً أخرى.

مدح معناً فأعطاه عطايا سنية لم يستكثرها عليه ابن الأعرابي:

أَخبرني عيسى بن الحسين الورّاق قال حدثنا أحمد بن الحارث الخَرّاز قال حدثنا ابن الأعرابي أن مروان بن أبي حفصة أخبره أَنه وفَد على مَعن بن زائدة فأنشده قوله:

بـنـو مـطـرٍ يـومَ الـلِّـقـاء كـأنـهـم ... أسـودٌ لـهـا فـي بَـطـن خَـفَّـان[1] أَشـبُـلُ
هـمُ يَـمـنـعـون الـجـارَ حـتـى كـأنـمـا ... لـجـارهـمُ بـيـن الـسِّـمـاكـيـن[2] مـنـزلُ
لَـهـامِـيـم[3] فـي الإسـلام سـادوا ولـم يكـن ... كـأوَّلـهـم فـي الـجـاهـلـيَّـة أوّلُ
هـم الـقـوم إن قـالـوا أصـابـوا وإن دُعُـوا ... أجـابـوا وإن أعـطَـوْا أطـابـوا وأجـزلُـوا
ولا يـسـتـطـيـع الـفـاعـلـون فـعـالَـهـم ... وإن أحـسـنـوا فـي الـنـائـبـات وأجـمـلُـوا

[الطويل]

قال: فأمر لي بصلة سنيَّة وخَلَع عليَّ وحملني وزوّدني. قال ثم قال لنا ابن الأعرابيّ: لو أَعطاه كلَّ ما يملك لَما وفاه حقَّه. قال: وكان ابن الأعرابي يختم به الشعراءَ، وما دَوَّن لأحدٍ بعدَه شعراً.

أَخبرني حبيب بن نصر قال حدثني عبد اللَّه بن أَبي سعد قال أَخبرني أَحمد بن موسى بن حمزة قال:

رأيت مروان بن أَبي حفصة في أيام محمد بن زُبَيدة في دار الخلافة وهو شيخ كبير، فسألته عن جرير والفرزدق أيُّهما أشعر، فقال لي: قد سُئلتُ عنهما في أيام المهدي وعن الأخطل قبل ذلك، فقلتُ فيهم قولاً عقدتُه في شعر ليَثْبُتَ. فسألته عنه فأنشدني:

ذهـب الـفـرزدقُ بـالـهـجـاء وإنَّـمـا ... حُـلـوُ الـقـريـض ومُـرُّه لـجـريـرِ
ولـقـد هـجـا فـأمـضَّ أخـطـلُ تَـغـلِـبٍ ... وحـوى الـنُّـهـى بـبـيـانـه الـمـشـهـورِ

(١) خفَّان: موضع قرب الكوفة.
(٢) السِّماكان: كوكبان نيِّران يقال لأحدهما السِّماك الرامح وللآخر السِّماك الأعزل، والمعنى هنا علوّ المكانة والمنزلة.
(٣) لهاميم: مفردها لهميم وهو الجواد السابق.

كـلُّ الـثـلاثـة قـد أجـاد فـمـدحُـه وهـجـاؤه قـد سـار كـلَّ مَـسـيـرِ
ولـقـد جَـرَيـتُ فـفُـتُّ غـيـر مُـهَـلِّـلٍ[1] بـجـراء لا قَـرِفٍ[2] ولا مـبـهـورِ[3]
إنـي لآنَـفُ أن أحَـبّـر مِـدحـةً أبـداً لـغـيـر خـلـيـفـة ووزيـرِ
مـا ضـرّنـي حَـسَـد الـلـئـام ولـم يَـزَل ذو الـفـضـل يـحـسُـده ذوو الـتـقـصـيـرِ

[الكامل]

قال: فلم يرَ أن يقدّم على نفسه غيرَها. وكتبتُ الأبيات عن فيه.

أَخبرني محمد بن الحسن بن دُرَيد قال حدثني أَبو حاتم السِّجِستاني قال حدثني العَنسي قال:

لمَّا قدِم مَعن بن زائدة من اليمن، دخل عليه مروان بن أَبي حفصة والمجلس غاصٌّ بأهله، فأخذ بعِضادَتَي[4] الباب وأنشأ يقول:

ومـا أَحـجَـم الأعـداءُ عـنـك بَـقِـيَّـةً عـلـيـك ولـكـن لـم يَـرَوْا فـيـك مَـطْـمَـعـا
لـه راحـتـان الـجـودُ والـحَـتـفُ فـيـهـمـا أَبـى الـلَّـه إلا أن تَـضُـرَّا وتَـنـفَـعـا

[الطويل]

قالَ: فقال له مَعن: احتكم، قال: عشرة آلاف درهم. فقال مَعن: ربِحنا عليك تسعين ألفاً. قال: أقِلني. قال: لا أقال اللَّه من يُقيلك.

رمى محرز معناً بالظلم فرد عليه بما أخجله:

أَخبرني عمي قال حدثني عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني أَبي قال:

لما قدِم مَعن بن زائدة من اليمن ٱستقبله الناس، وتلقَّاه مروان بن أَبي حفصة، فأنشده قصيدةً يهنّئه فيها بقدومه وبرأي المنصور فيه، وتلقَّاه فيمن تلقَّاه أبو القاسم مُحرز فجعل يقول له: سفَكتَ الدماءَ وظلمتَ الناس، وتعدَّيت طَورَك بذلك. فلما أكثر على مَعن ٱلتفت إليه ثم قال له: يا مُحرِز أخبِرني بأي خُفَّيْكَ تضرب اليوم: أبالسُّباعي أم بالثُّماني؟ قال: فٱنقطع وسكت خَجَلاً.

ودخل مَعن على المنصور، فلما سلَّم عليه وسأله قال له: يا مَعنُ، أعطيتَ ابن حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك:

---

(١) مهَلِّل: جبان. (٢) قَرِف: الشديد الحُمرة.
(٣) مبهور: مقطوع النفس من الإعياء أو الخوف.
(٤) عضادتا الباب: حَافتَاه، أو خشبتاه من جانبيه.

مَـعـنُ بـن زائـدةَ الـذي زِيـدَتْ بـه شـرفـاً إلـى شـرفٍ بـنـو شَـيـبـان
[الكامل]

فقال له: كلَّا يا أَمير المؤمنين! بل أعطيتُه لقوله:

مـا زلـتَ يـومَ الـهـاشـمـيَّـة مُـعـلِـمـاً بـالـسـيـف دون خـلـيـفـة الـرحـمـنِ
[الكامل]

فٱستحيا المنصورُ من تَهجينه إيَاه فتبسم وقال: أحسنتَ يا مَعن في فعلك.

أَخبرني الحسن بن علي المصري قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني علي بن ثَوْر قال حدثني أبو العبَّاس العَدَوي قال:

لمَّا وَليَ مَعن بن زائدة اليمنَ كان يحيى بن منصور الذُّهليّ قد تنسَّك وترك الشعر. فلما بلغته أفعال مَعن وفَد إليه ومدحه، فقال مروان بن أَبي حفصة:

لا تَـعـدَمـوا راحـتَـيْ مَـعـنٍ فـإنـهـمـا بـالـجـود أفْـتَـنـتـا يـحـيـى بـنَ مـنـصـورِ
لـمـا رأى راحـتَـيْ مَـعـن تـدفَّـقـتـا بـنـائـلٍ مـن عـطـاءٍ غـيـر مَـنـزُورِ
ألـقـى الـمُـسُـوحَ الـتـي قـد كـان يَـلـبَـسـهـا وظـلَّ لـلـشـعـر ذا رَصـفٍ وتَـحـبـيـرِ
[البسيط]

تزوجت امرأة من أهله في بني مطر فلم يرضهم:

أَخبرني محمد بن مَزيَد وعيسى بن الحسين قالا حدثنا الزُّبير بن بكَّار قال حدثني عبد الملك بن عبد العزيز قال:

ورد على مروان بن أَبي حفصة كتاب وهو بالمدينة أن ٱمرأة من أهله تزوّجت في قوم لم يَرْضَ صِهرَهم يقال لهم بنو مطر؛ فقال في ذلك لأخيها:

لـو كـنـتَ أشـبـهـتَ يـحـيـى فـي مـنـاكـحـه لـمـا تَـنَـقَّـيـتَ فـحـلاً جَـدُّه مَـطَـرُ
لـلَّـه درّ جـيـادٍ كـنـتَ سـائـسَـهـا ضـيَّـعـتـهـا وبـهـا الـتَّـحـجـيـلُ والـغُـرَرُ
نُـبِّـئـتُ خَـولَـةَ قـالـت يـوم أَنـكَـحَـهـا قـد طـالـمـا كـنـتُ مـنـك الـعـارَ أنـتـظـرُ
[البسيط]

تهكم بالجِنِّيّ الشاعر فهجاه:

أَخبرني الحسن بن علي الخَفَّاف قال حدثنا الحسن بن علي المعروف بحدّان عن محمد بن حفص بن عمرو بن الأيهم الحنفيّ قال:

مرَّ مروان بن أَبي حفصة برجل من تَيْم اللَّات بن ثَعلبة يُعرَف بالجِنّيّ؛ فقال له

مروان: زعموا أنك تقول الشعر. فقال له: إن شئتَ عرَّفتُك ذلك. فقال له مروان: ما أَنت والشعر، ما أرى ذلك من طريقتك ولا مذهبك ولا تقوله! فقال الجنِّيّ: ٱجلس وٱسمع فجلس؛ فقال الجنيّ يهجوه.

ثوَى اللؤمُ في العَجلان يوماً وليلةً ... وفي دار مروانٍ ثَوى آخرَ الدَّهرِ
غدا اللؤمُ يبغي مَطرَحاً لرِحاله ... فنقَّب في بَرِّ البلاد وفي البحرِ
فلمَّا أَتى مروانَ خيّم عنده ... وقال رضِينا بالمُقام إلى الحشرِ
وليست لمروانٍ على العِرْس غَيرةٌ ... ولكنّ مروانا يَغار على القِدْرِ

[الطويل]

فقال له مروان: ناشدتُك اللَّه إلَّا كففتَ، فأنت أَشعر الناس. فَحَلَف الجِنِّيّ بالطلاق ثلاثاً أَنه لا يكُفّ حتى يصير إليه بنفر من رؤساء أهل اليمامة ثم يقول بحضرتهم: قاق في إستي بيضة. فجَلَبهم إليه مروان وفعل ذلك بحضرتهم، وكان فيهم جدّي يحيى بن الأيهم، فٱنصرفوا وهم يضحكون من فعله.

أَخبرني أَحمد بن عبيد اللَّه بن عمَّار قال حدثني أبو عبد اللَّه بن سليمان بن زيد الدَّوْسي قال حدثني الفضل بن العباس بن سعيد بن سَلْم بن قُتَيبة الباهلي قال حدثنا محمد بن حرب بن قَطَن بن قَبيصة بن مخارق الهِلالي قال:

لمَّا مات المهديّ وفدت العرب على موسى يهنِّئونه بالخلافة ويعزُّونه عن المهدي؛ فدخل مروانُ بن أَبي حفصة فأخذ بعِضادَتَي الباب ثم قال:

لقد أصبحتْ تختال في كل بلدةٍ ... بقبر أمير المؤمنين المقابرُ
ولو لم تُسَكَّنْ بابنه في مكانه ... لما برَحت تَبكي عليه المنابرُ

[الطويل]

قال فخرج الناس بالبيتين.

مدح عمرو بن مسعدة في مرضه:

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهروَيه قال حدثني إبراهيم بن المُدَبّر قال:

مَرِض عمرو بن مَسعَدَة، فدخل عليه مروان بن أَبي حفصة وقد أبلَّ من مرضه فأَنشأ يقول:

صحَّ الجسمُ يا عمرو ... لك التَّمْحِيصُ والأجرُ

ولـلَّـه عـلـيـنـا الـحـمـ ـدُ والـمِـنَّـةُ والـشـكـرُ
فـقـد كـان شـكـا شـوقـاً إلـيـك الـنَّـهْـيُ والأمـرُ
[الهزج]

قال فنحا نحوَه مُسلِم بن الوليد فقال:

قالوا أبو الفضل محمومٌ فقلت لهم نفسي الفِداءُ له من كل محذورِ
يا ليت عِلَّتَه بي غير أن له أَجْرَ العليل وأنّي غير مأجورِ
[البسيط]

رأى الغول في بعض سفراته ففزع:

أَخبرني حبيب بن نصر المهلَّبي قال حدثنا عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثنا أَبو حُذَيفة قال حدثني رجل من بني سُلَيم في مسجد الرُّصافة قال أَخبرني مروان بن أَبي حفصة قال:

وفدتُ في ركب إلى الرشيد فصِرنا في أرض مُوحشةٍ قَفرٍ، وجَنّ علينا الليل فسِرنا لنقطعها، فلم نشعر إلَّا بِٱمرأة تسوق بنا إبلَنا وتحدو في آثارنا، فإذا هي الغول. فلما لاح الفجر عدلتْ عنَّا وأخذتْ عُرْضاً وجعلت تقول:

يا كوكبَ الصبح إليكَ عنّي فلستُ من صبح وليس مِنّي
[الرجز]

قال: فما أذكر أني فزِعت من شيء قطُّ فزعي ليلتئذٍ.

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني علي بن الحسن الكوفي قال حدثني محمد بن يحيى بن أَبي مُرّة التغلبيّ قال:

مررت بجعفر بن عَفَّان الطائيّ يوماً وهو على باب منزله، فسلَّمت عليه، فقال لي: مرحباً يا أَخا تَغلِب، إجلس فجلست: فقال لي: أَمَا تَعجَب من ابن أَبي حفصة لعنه اللَّه حيث يقول:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البنات وِراثةُ الأعمامِ
[الكامل]

فقلت بلى واللَّه إني لأتعجَّب منه وأُكثِر اللَّعنَ له، فهل قلتَ في ذلك شيئاً؟ فقال: نعم قلت:

لم لا يكون وإنّ ذاك لكائنٌ لبني البنات وِراثة الأعمامِ
للبنت نصفٌ كاملٌ من ماله والعمُّ متروكٌ بغير سِهامِ

مـا لـلـطَّـلـيـق ولـلـتُّـراث وإنَّـمـا صـلـى الـطـلـيـقُ مـخـافـةَ الـصَّـمـصـام[1]
[الكامل]

لازمه صالح بن عطية الأضجم أياماً ثم قتله:

أَخبرني أَحمد بن عبيد اللَّه بن عَمَّار قال حدثني عليّ بن محمد بن سليمان النَّوفليّ قال حدثني صالح بن عطية الأضجَم قال:

لما قال مروان:

أنَّـى يـكـون ولـيـس ذاك بـكـائـنٍ لـبـنـي الـبـنـات وراثـةُ الأعـمـام
[الكامل]

لزمتُه وعاهدتُ اللَّه أن أغتاله فأقتلَه أيَّ وقتٍ أمكَنني ذلك، وما زلت ألاطفُه وأَبِرُّه وأكتب أشعاره، حتى خُصِصتُ به، فأنِس بي جدّاً، وعرفتْ ذلك بنو حَفصة جميعاً فأنِسوا بي، ولم أزل أطلب له غِرَّةً حتى مرِض من حمَّى أصابته، فلم أزل أظهِر له الجزَع عليه وأُلازمه وأُلاطِفه، حتى خلا لي البيت يوماً فوثبتُ عليه فأخذتُ بحَلقه فما فارقتُه حتى مات، فخرجتُ وتركته، فخرج إليه أَهله بعد ساعة فوجوده ميتاً، وٱرتفعت الصَّيحةُ فحضرتُ وتباكيت وأظهرتُ الجزعَ عليه حتى دُفن، وما فطن بما فعلت أحد ولا ٱتهمني به.

* * *

(١) الصمصام: السيف الذي لا ينثني.

بعض أخبار إبراهيم بن المهدي

نشأته ونسب أمه شكلة:

ثم نعود إلى ذكر إبراهيم بن المهدي وأمّه شِكلة. ويكنى أَبا إسحاق. وشكلةُ أمُّه مولَّدة، كان أبوها من أصحاب المازِيار، يقال له شاه أفرَند، فقُتِل مع المازِيار وسُبِيَتْ بنتُه شكلة، فحُمِلت إلى المنصور، فوهبها لمُحيَّاةَ أمِّ ولده فربّتها وبعثتْ بها إلى الطائف فنشأت هناك وتفصَّحت؛ فلما كبِرتْ رُدّت إليها. فرآها المهديّ عندها فأعجبته، فطلَبها من مُحيَّاةَ فأعطته إياها، فولَدت منه إبراهيم. وكان رجلاً عاقلاً فهِماً ديِّناً أديباً شاعراً راويةً للشعر وأيامِ العرب خطيباً فصيحاً حسنَ العارضة. وكان إسحاق الموصليّ يقول: ما ولد العبَّاس بن عبد المطَّلب بعد عبد اللَّه بن العباس رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهديّ. فقيل له: مع ما تبذَّل له من الغِناء؟ فقال: وهل تمَّ فضلُه إلا بذاك! حدثني بذلك محمد بن يزيد عن حمَّاد عن أبيه. وكان أشدّ خلق اللَّه إعظاماً للغِناء، وأحرصهم عليه، وأشدَّهم منافسةً فيه. وكانت صنعته ليِّنةً، فكان إذا صنع شيئاً نسَبه إلى شاريةَ وريِّق، لئلا يقع عليه فيه طعن أَو تقريع، فقلَّت صنعتُه في أيدي الناس مع كثرتها لذلك. وكان إذا قيل له فيها شيء قال: إنما أصنع تَطرُّباً لا تكسُّباً، وأُغنّي لنفسي لا للناس فأعمل ما أشتهي. وكان حُسنُ صوته يستر عَوار ذلك كلِّه. وكان الناس يقولون لم يُرَ في جاهليَّة ولا إسلام أخٌ وأختٌ أحسنُ غِناء من إبراهيم بن المهديّ وأخته عُليَّة. وكان يُماظ[1] إسحاق ويُجادله، فلا يقوم له ولا يفي به، ولا يزال إسحاق يغلِبه ويُغِضُّه بريقه ويغُضُّ منه بما يظهر عليه من السّقَطات ويبيِّنه من خطئه في وقته وعجزِه عن معرفة الخطإ الغامض إذا مرَّ به؛ وقصورِه عن أداء الغناء القديم فيفضَحه بذلك. وقد ذكرتُ قطعةً من هذه الأخبار في أخبار إسحاق وأنا أذكر هاهنا منها ما لم أذكر هناك.

ومما خالف إبراهيمُ بن المهديّ ومَن قال بقوله على إسحاق فيه: الثَّقيلان وخفيفُهما؛ فإنه سمَّى الثقيل الأول وخفيفَه الثقيلَ الثاني وخفيفَه، وسمَّى الثقيلَ الثاني وخفيفه

(١) يماظ: ينازع.

الثقيلَ الأول وخفيفه؛ وجرَت بينهما في ذلك مناظراتٌ ومجادلاتٌ ومراسلة ومكاتبة ومشافهة، وحضرهما الناس، فلم يكن فيهم مَنْ يفي بفصل ما بينهما والحكم لأحدِهما على صاحبه. ووضع لذلك مكاييلَ لتُعرَف بها أقدارُ الطرائق، وأَمسكَ كلّ واحد منهما إلى آخر أقداره، فلم يصحّ شيء يُعمل فيه، إلَّا أَن قول إبراهيم بن المهديّ ٱضمحلَ وبطَل وتُرِك، وعمِل الناس على مذهب إسحاق؛ لأنه كان أعلم الرجلين وأشهرهما. وأوضح إسحاق أَيضاً لذلك وجوهاً فقال: إنَّ الثقيل الأول يجيء منه قَدْران، الثقيل الأول التام، والقَدرُ الأوسط من الثقيل الأول، وجميعاً طريقتُه واحدةٌ لاتّساعه والتمكُّنِ منه، والثقيل الثاني لا يجيء هذا فيه ولا يُقاربه.. والثقيل الأول يمكن الإدراج في ضَربه لثِقَله، والثقيل الثاني لا يندرج لنقصه عن ذلك. ولهما في هذا كلام كثير ومخاطبات قد ذكرتُها في أخبارهما، وشرَحتُ العِلَلَ مبسوطةً في كتابٍ ألَّفتُه في النَّغم شرحاً ليس هذا موضعَه ولا يصلُح فيه. وأما التَّجزئةُ والقسمةُ فإنهما أفنيَا أعمارَهما في تنازعهما فيهما، حتى كان يمضي لهما الزمانُ الطويلُ لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما في قسمةِ وتجزئةِ صوتٍ واحدٍ فيه، وحتى كانا يخرجان إلى كلّ قبيح، وحتى إنهما ماتا جميعاً وبينهما منازعة في هذا الصوت وقِسمَتِه:

حَيِّيا أمَّ يَعمَرا قَبلَ شَحطٍ من النَّوى

[مجزوء الخفيف]

لم يُفصَل بينهما فيها إلى أَن ٱفترقا. ولو ذهبتُ إلى ذكر ذلك وشرح سائر أَخبار إبراهيم بن المهديّ وقِصصه لمَّا وَلِيَ الخلافة وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان، وحسنِ البيان، وجَودةِ الشعر، وروايةِ العلم، والمعرفة بالجدَل، وجزالةِ الرأي، والتصرُّف في الفقه واللغة، وسائر الآداب الشريفة، والعلوم النفيسة، والأدوات الرفيعة، لأطَلتُ. وإنما الغرض في هذا الكتاب الأغاني أَو ما جرى مجراها، لا سيما لمن كثُرت الروايات والحكايات عنه؛ فلذلك ٱقتصرتُ على ما ذكرتُه من أخباره دون ما يستحقّه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل.

كلمة لإبراهيم بن المهدي عن نفسه في صنعة الغناء:

أخبرني عمي رحمه اللَّه قال حدثني عليّ بن محمد بن بكر عن جدّه حَمدون بن إسماعيل قال: قال لي إبراهيم بن المهديّ:

لولا أنّي أَرفَع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يعلم الناس معه أنهم لم يرَوْا قبلي مِثلي.

أَخبرني عمي قال حدثنا عبد اللَّه بن أَبي سَعد قال حدثني أَحمد بن القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال حدثني أحمد بن إبراهيم بن المهديّ عن أَبيه قال:

دخلتُ يوماً إلى الرشيد وفي رأسي فَضلةُ خُمار، وبين يديه ابن جامع وإبراهيم الموصليّ. فقال: بحياتي يا إبراهيم غنِّني. فأخذتُ العُود ولم ألتفت إليهما لما في رأسي من الفَضلة فغنَّيتُ:

أَسـرى بـخـالـدةَ الـخـيـالُ ولا أَرى شـيـئـاً ألـذَّ مـن الـخـيـال الـطـارقِ

[الكامل]

فسمعتُ إبراهيمَ يقول لابن جامع: لو طلَب هذا بهذا الغناء ما نَطلُب لَمَا أَكلنا خبزاً أبداً. فقال ابن جامع: صدقتَ. فلمَّا فرَغتُ من غنائي وضعتُ العودَ ثم قلت: خُذا في حقِّكما ودعا باطلَنا.

نسبة هذا الصوت

صـوت

أسـرى بـخـالـدةَ الـخـيـالُ ولا أَرى شـيـئـاً ألـذَّ مـن الـخـيـال الـطـارقِ
إنّ الـبـلـيَّـةَ مَـن تَـمَـلُّ حـديـثَـه فـأنـقَـع فـؤادَك مـن حـديـث الـوامـقِ[1]
أهـواكِ فـوق هـوى الـنـفـوس ولـم يـزل مُـذ بِـنْـت قـلـبـي كـالـجَـنـاح الـخـافـقِ
طَـرَبـاً إلـيـكِ ولـم تُـبـالـي حـاجـتـي لـيـس الـمُـكـاذِب كـالـخـلـيـل الـصـادقِ

[الكامل]

الشعر لجرير. والغناء لابن عائشة رمَلٌ بالوسطى عن عمرو.

غنّى الرشيد وعنده سليمان بن أبي جعفر وجعفر بن يحيى:

أَخبرني جَحظة قال أَخبرني هِبَةُ اللَّه بن إبراهيم بن المهديّ قال حدثني أَبي، وحدثني الصوليّ قال حدثني عَوْن بن محمد قال حدثني هبة اللَّه ـ ولم يذكر عن أَبيه ـ قال:

كان الرشيد يحبّ أَن يسمع أَبي. وقال جحظة عن هبة اللَّه عن إبراهيم قال: كان الرشيد يحب أن يسمعني، فخلا بي مَرَّاتٍ إلى أن سمعني. ثم حَضَرْتُه مرَّةً وعنده سليمان بن أَبي جعفر؛ فقال لي: عَمُّك وَسيِّد ولدِ المنصور بعد أَبيك وقد أَحبّ أَن

(١) الوامق: المُحبّ.

يَسمعك؛ فلم يتركني حتى غنَّيتُ بين يديه:

إذ أنـتِ فـيـنـا لـمـن يَـنـهـاكِ عـاصـيـةٌ وإذ أَجُـرُّ إلـيـكـم سـادراً رَسَـنِـي

[البسيط]

فأمر لي بألف ألف درهم، ثم قال لي ليلةً ولم يَبق في المجلس إلا جعفر بن يحيى: أنا أحِبّ أن تشرِّفَ جعفراً بأن تغنِّيه صوتاً. فغنَّيتُه لحناً صنعتُه في شعر الدَّارميّ:

كـأنّ صـورتَـهـا فـي الـوصـف إذا وُصِـفَـتْ ديـنـارُ عَـيـنٍ مـن الـمـصـريَّـة الـعُـتُـقِ

[الكامل]

نسبة هذين الصوتين، منهما

صـــوت

سَـقـيـاً لَـرَبـعِـك مـن رَبـع بـذي سَـلَـم ولـلـزمـان بـه إذ ذاك مـن زَمَـنِ

إذ أنـتِ فـيـنـا لـمـن يـنـهـاكِ عـاصـيـةٌ وإذ أَجُـرُّ إلـيـكـم سـادراً رسَـنِـي

[البسيط]

الشعرُ للأحوص. والغناءُ لابن سُرَيج ثقيلٌ أوّلُ بالوسطى عن عمرو.

أخبرني الحسن بن علي قال حدثني أحمد بن زُهَير عن مُصعَب قال: أَنشد منشِدٌ وابنُ أبي عُبيدةَ عندنا قولَ الأحوص:

إذ أنـتِ فـيـنـا لـمـن يَـنـهـاكِ عـاصـيـةٌ وإذ أَجُـرُّ إلـيـكـم سـادراً رسَـنِـي

[البسيط]

فوثب قائماً وألقى طرَف ردائه وجعل يخطو إلى طرَف المجلس ويجرُّه. ثم فعل ذلك حتى عاد إلينا. فقلنا له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: إني سمعتُ هذا الشعرَ مَرَّةً فأطرَبني، فجعلت على نفسي ألّا أسمعه أبداً إلّا جررتُ رسَني.

والآخر من الصوتين:

صـــوت

كـأنَّ صـورتَـهـا فـي الـوصـف إذ وُصِـفَـتْ ديـنـارُ عَـيـنٍ مـن الـمِـصـريّـةِ الـعُـتُـقِ

أو دُرَّةٌ أعْـيَـتِ الـغَـوَّاصَ فـي صَـدَفٍ أو ذَهَـبٌ صـاغـه الـصَّـوَّاغُ فـي وَرِقِ

[الكامل]

الشعرُ للدَّارِميّ. والغناءُ لمرزوق الصَّوَّاف رمَلٌ بالبنصر عن ابن المكيّ. وذكر عمرو أن هذا اللحنَ للدَّارميّ أَيضاً. وذكر الهشاميّ أنه لابن سُرَيج. وفي هذا الخبر أَنه لإبراهيم بن المهديّ. وفيه خفيفُ رمَلٍ يقال إنه لحنُ مرزوق الصَّوَّاف، ويقال إنه لمتيَّمَ ثاني ثقيل عن الهشاميّ وابنِ المعتزّ.

غنّى صوتاً على أربع طبقات:

أَخبرني يحيى بن المنجِّم قال ذكر لي عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر عن إسحاق بن عمر بن بَزِيع قال:

كنتُ أضرب على إبراهيم بن المهديّ صوتاً ذكره فغنَّاه على أربع طبقات، على الطبقة التي كان العود عليها، وعلى ضِعفها، وعلى إسجاحها، وعلى إِسجاح الإِسجاح. قال أَبو أَحمد قال عبيد اللَّه: وهذا شيءٌ ما حُكِيَ لنا عن أَحد غيرِ إبراهيم، وقد تَعاطاه بعضُ الحُذّاق بهذا الشأن، فوجده صعباً متعذِّراً لا يُبلَغ إلَّا بالصوت القويّ وأَشَدِّ ما في إِسجاح الإِسجاح؛ لأن الضِّعف لا يُبلَغ إلَّا بصوت قويّ مائل إلى الدقة، ولا يكاد ما اتّسع مَخرَجُه يبلُغ ذلك. فإذا دَقَّ حتى يبلُغ الإضعاف لم يَقدِر على الإِسجاح فضلاً عن إِسجاح الإِسجاح. فإذا غَلُظ حتى يتمكن من هذين لم يقدر على الضِّعف.

غنّى صوتاً لمبعد:

أَخبرني عمي قال حدثني ابن أَبي سعد قال حدثني أَحمد بن القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال حدثني محمد بن سليمان بن موسى الهادي قال:

دعاني إبراهيم بن المهديّ يوماً فصرت إليه، وغنّى صوتاً لمعبد:

أَفي الحقّ هذا أنّني بكِ مُولَعُ وأنّ فؤادي نحوكِ الدَّهرَ نازعُ

[الطويل]

فقال لي: لمن هذا الغناء؟ فقلت: يا سيدي يقولون إنه لمعبد، ولا غنّى واللَّه معبد كذا قطّ، ولا سمعتُ أحداً يقول كذا، لا واللَّه ما في الدنيا كذا. قال: فضحِك ثم قال: واللَّه يا بُنيّ ما قمتُ بنصف ما كان يقوم به معبد.

نسبة هذا الصوت

أمَّا اللَّحن فمن الثقيل الثاني، وقد ذكر في هذا الخبر أَنه لمعبد، وما وجدتُه في شيء من الكتب له. وذكر الهشامي أَنه لابن المكيّ.

أَخبرني أَحمد بن عُبيد اللَّه بن محمد عَمَّار قال حدثني يعقوب بن نُعَيم قال

حدثني إسحاق بن محمد قال حدثني عيسى بن محمد القُحطُبيّ قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال:

لمَّا قدِم المأمون من خُراسان لم يظهر لمغنٍّ بالمدينة مدينةِ السلام غيري، فكنتُ أُنادمه سرّاً، ولم يظهر للنُّدماء أربعَ سنين، حتى ظفِر بإبراهيم بن المهدي. فلمَّا ظفِر به وعفا عنه ظهر للندماء ثم جمعنا؛ ووجّه إلى إبراهيم فحضر في ثياب مُبتذَلة. فلما رآه المأمون قال: ألقى عمي رِداء الكِبر عن مَنكِبَيه، ثم أمر له بخِلَع فاخرة وقال: يا فَتْح، غَدِّ عمي؛ فتغدّى إبراهيم بحيث يراه المأمون ثم تحوّل إلينا، وكان مُخارق حاضراً، فغنّى مخارق:

هـذا ورُبَّ مُسـوِّفيـن صَـبَـحْـتُـهـم مـن خـمـر بـابِـلَ لـذّةً لـلـشـاربِ

[الكامل]

فقال له إبراهيم: أسأتَ فأعِدْ؛ فأعاده، فقال: قارَبتَ ولم تُصِبْ. فقال له المأمون: إن كان أساء فأَحسِنْ أنت. فغنَّاه إبراهيم ثم قال لمخارق: أَعِدْه فأعاده، فقال: أحسنت. فقال للمأمون: كم بين الأمرين؟ فقال: كثير. فقال لمخارق: إنما مَثَلُك كَمَثل الثوب الفاخر إذ غفل عنه أهلُه وقع عليه الغبار فأحال لونَه، فإذا نُفِض عاد إلى جوهره. ثم غنّى إبراهيمُ:

يـا صـاحِ يـا ذا الـضَّـامـرِ الـعَـنـسِ والـرَّحـلِ ذي الأقـتـادِ والـحِـلْـسِ[1]
أمَّـا الـنَّـهـارُ فـمـا تُـقَـصِّـره رَتـكـاً[2] يـزيـدك كـلـمـا تُـمـسـي

[الكامل]

قال: وكانت لي جائزة قد خرجت، فقلت: يا أَمير المؤمنين، تأمر سيِّدي بإلقاء هذا الصوت عليَّ مكان جائزتي فهو أحبُّ إليّ منها. فقال: يا عمّ أَلقِ هذا الصوتَ على مُخارق، فألقاه عليّ، حتى إذا كدت أن آخذه قال: اذهب فأنت أحذق الناس به فقلت: إنه لم يصلُح لي بعد. قال: فأغدُ عليّ: فغدوت عليه فغنَّاه متلوِّياً؛ فقلت: أيها الأمير، لك في الخلافة ما ليس لأحد، أنت ابن الخليفة وأخو الخليفة وعمُّ الخليفة، تجود بالرّغائب وتبخل عليّ بصوت! فقال: ما أحمقَك! إنّ المأمون لم يَستَبْقِني محبَّةً فيَّ ولا صِلَةً لرَحمي ولا رِباءً للمعروف عندي، ولكنه سمع من هذا الجِرْم ما لم يَسمع من غيره. قال: فأعلمت المأمون مقالتَه؛ فقال: إنّا لا نكدِّر على

(١) الحِلْس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والسرج.
(٢) الرتْك: السير السريع للإبل.

أَبي إسحاق عَفوَنا عنه، فدَعْه. فلما كانت أيّامُ المعتصم نَشِط للصَّبوح يوماً فقال: أحضِروا عمي. فجاء في دُرّاعة من غير طَيلَسان. فأعلمتُ المعتصمَ خبرَ الصَّوت سرّاً. فقال: يا عمّ غنِّني:

يـا صـاحِ يـا ذا الـضَّـامـر الـعَـنْـسِ[1]

فغنَّاه؛ فقال: ألْقِه على مُخارق. فقال: قد فعلتُ، وقد سبق منّي قولٌ ألَّا أعيده عليه. ثم كان يتجنَّب أن يغنِّيَه حيث أَحضُرُه.

نسبة ما في هذا الخبر من الغناء

صـوت

هـذا ورُبَّ مُـسَـوِّفِـيـن صَـبَـحْـتُـهـم ... مـن خـمـر بـابـلَ لَـذَّةً لـلـشـاربِ
بـكَـروا عـلـيّ بـسُـحْـرةٍ فـصـبَـحْـتُـهـم ... بـإِنـاء ذي كَـرَمٍ كـقَـعْـبِ[2] الـحـالـبِ
بـزُجـاجـةٍ مِـلء الـيـديـن كـأنّـهـا ... قِـنـديـلُ فِـصـحٍ فـي كـنـيـسـة راهـبِ

[الكامل]

الشعر لعديّ بن زيد. والغناء لحنَينٍ خفيفُ ثقيلٍ أول بالسبَّابة في مجرى البنصر عن إسحاق.

صـوت

يـا صـاحِ يـا ذا الـضَّـامـر الـعَـنْـسِ ... والـرَّحْـل ذي الأقـتـاد والـحِـلْـسِ
أمَّـا الـنـهـار فـمـا تُـقَـصِّـره ... رَتـكـاً يـزيـدك كـلَّـمـا تُـمـسـي

[الكامل]

الشعرُ لخالد بن المُهاجر بن خالد بن الوليد.

طلبت إليه أخته أسماء سماع غنائه:

وذكر أَحمد بن أَبي طاهر عن أَثِيرَ مولاةِ منصور بن المهديّ عن ذُؤابة مولاته أيضاً قالت: قالت لي أَسماء بنت المهديّ:

قلت لأخي إبراهيم: يا أَخي أشتهي واللَّه أَن أسمع من غنائك شيئاً. فقال: إذاً

(١) العَنَس: الناقة القوية. (٢) القَعْب: القدح الضَّخم الجافي.

واللَّه يا أُختي لا تَسمعين مثلَه، عليَّ وعليَّ، وغلَّظ في اليمين، إن لم يكن إبليسُ ظهر لي وعلَّمني النَّقرَ والنَّغمَ وصافحني وقال لي: اذهَب فأنت منّي وأَنا منك.

غضب عليه الأمين ثم رضي عنه:

أَخبرني عمي قال حدثني عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني هِبَةُ اللَّه بن إبراهيم بن المهديّ عن أَبيه قال:

غَضِب عليَّ محمد الأمين في بعض هَناته، فسلَّمني إلى كَوْثَرٍ، فحبسني في سِرداب وأغلقه عليَّ فمكثت فيه ليلتي. فلما أصبحتُ إذا أَنا بشيخ قد خرج عليَّ من زاوية السِّرداب، ودفع إليّ وسطاً وقال: كُلْ فأكلتُ، ثم أخرج قِنِّينة شراب فقال: ٱشرَبْ فشربت، ثم قال لي: غَنِّ:

لي مُدّةٌ لا بُدَّ أبلُغها ... معلومةٌ فإذا ٱنقضتْ مُتُّ

لو ساورتني الأسْدُ ضاريةً ... لغلَبتُها ما لم يَجِ الوقتُ

[الكامل]

فغنَّيته. وسمعني كوثر فصار إلى محمد وقال: قد جُنّ عمك وهو جالس يغنّي بكيت وكيت. فأمر بإحضاري فأحضِرتُ وأخبرته بالقصَّة، فأمر لي بسبعمائة ألف درهم ورضيَ عنّي.

طارح أخته عليّة فأطربا المأمون وأحمد بن الرشيد:

أَخبرني عمي قال حدثني ابن أَبي سعد قال سمعت يَنشُو يحدِّث عن أَبي أَحمد بن الرشيد قال:

كنتُ يوماً بحضرة المأمون وهو يشرب، فدعا بياسِرٍ وأدخله فسارَّه بشيء ومضى وعاد. فقام المأمونُ وقال لي: قم، فدخل دار الحُرَم ودخلتُ معه، فسمعت غناءً أذهل عقلي ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخَّر. وفطن المأمون لِما بي فضحك ثم قال: هذه عمتك عُليَّة تُطارح عمك إبراهيم:

ما لي أَرى الأبصارَ بي جافِيَهْ

نسبة هذا الصوت

ما لي أَرى الأبصارَ بي جافِيَهْ ... لم تَلتفِت منّي إلى ناحيَهْ

لا ينظر الناسُ إلى المُبتلى ... وإنما الناسُ مع العافيَهْ

وقـد جـفـانـي ظـالـمـاً سـيِّـدي فـأَدمُـعـي مُـنـهـلَّـةٌ هـامِـيَـهْ
صَـحـبـي سَـلـوا ربَّـكـمُ الـعـافـيـه فـقـد دهـتـنـي بـعـدكُـم داهِـيَـهْ

[السريع]

الشعر والغناء لعُلَيّة بنت المهديّ خفيفُ رَمل. وأخبرني ذُكاء وجه الرُّزّة أن لعَريبَ فيه خفيفَ رمل آخر مَزموراً، وأنّ لحن عُلَيّة مُطلَق.

أخبرني يحيى بن عليّ بن يحيى قال حدثني أبي عن إبراهيم عن عليّ بن هشام أنّ إسحاق كتب إلى إبراهيم بن المهديّ بجنس صوت صنَعه وإصبعِه ومَجراه وإجراءِ لحنه؛ فغنَّاه إبراهيم من غير أن يسمعه فأدّى ما صنعه. والصوت:

حَـيِّـيـا أمّ يَـعـمَـرَا قـبـل شَـحـطٍ مـن الـنَّـوى
قـلـت لا تُـعـجِـلـو الـرَّوا حَ فـقـالـوا أَلَا بَـلـى
أجـمـع الـحـيُّ رِحـلـةً فـفـؤادي كـذِي الأسـى

[مجزوء الخفيف]

نسبة هذا الصوت

الشعر لعمر بن أَبي ربيعة. والغناء لابن سُرَيج، ولحنُه من القَدْر الأوسط من الثقيل الأول مطلقٌ في مجرى الوُسطى. وذكر عمرو بن بانة أنه لمالك. وفيه للهُذَليّ خفيفُ ثقيل أول بالبنصر عن ابن المكيّ، وزعم الهشاميّ أنه لحن مالك. وفيه لحنان من الثقيل الثاني أحدُهما لإسحاق وهو الذي كتب به إسحاق إلى إبراهيم بن المهدي. والآخر زعم الهشامي أنه لإبراهيم، وزعم عبد اللَّه بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام أنَّه لابن مُحرِز.

أخبرني عمي قال حدثني الحسين بن يحيى أَبو الجُمان: أنّ إسحاق بن إبراهيم لمَّا صنع صوتَه:

قُـل لِـمَـن صَـدّ عـاتِـبَـا

إتّصل خبرُه بإبراهيم بن المهديّ فكتب يسأله عنه؛ فكتب إليه بشعره وإيقاعِه وبسيطِه ومجراه وإصبعِه وتجزئتِه وأقسامِه ومخارج نَغَمه ومواضع مقاطعه ومقادير أدواره وأوزانه، فغنَّاه. قال: ثم لقِيني فغنَّانيه، ففضَلني فيه بحسن صوته.

نسبة هذا الصوت

قـل لـمـن صَـدّ عـاتِـبَـا ونَـأَى عـنـك جـانِـبَـا

قـــد بـــلـــغـــتَ الـــذي أرد تَ وإِن كـــنـــتَ لاعِـــبَـــا

[مجزوء الخفيف]

الشعر والغناء في هذا اللحن لإِسحاق، ثاني ثقيل بالبنصر في مجراها. وفيه لغيره ألحان.

أخبرني ابن عَمَّار قال حدثني يعقوب بن نُعَيم قال حدثني إسحاق بن محمد عن أبيه قال:

سمعت أَحمد بن أَبي دُواد يقول: كنتُ أَعِيبُ الغِناء وأطعن على أهله، فخرج المعتصم يوماً إلى الشمَّاسيَّة في حَرّاقةٍ يشرب، ووجّه في طلبي فصرت إليه؛ فلما قَرُبتُ منه سمعت غناءً حيّرني وشغلني عن كلّ شيء، فسقط سَوطي من يدي؛ فالْتفتُّ إلى زنقطة غلامي أطلب منه سوطَه، فقال لي: قد واللَّه سقط سوطي. فقلت له: فأيّ شيء كان سبب سقوطه؟ قال: صوت سمعتُه شغلَني عن كلّ شيء فسقط سوطي من يدي؛ فإِذا قِصَّته قِصَّتي. قال: وكنت أنكر أمرَ الطرَب على الغناء وما يستَفِزّ الناسَ منه ويغلِب على عقولهم، وأناظر المعتصمَ فيه. فلما دخلت عليه يومئذٍ أَخبرته بالخبر؛ فضحِك وقال: هذا عمي كان يغنِّيني:

إنَّ هـــذا الـــطـــويـــلَ مـــن آلِ حَـــفـــصٍ نَـــشَـــر الـــمـــجـــدَ بـــعـــد مـــا كـــان مَـــاتَـــا

[الخفيف]

فإن تُبتَ ممَّا كنتَ تناظرنا عليه في ذمّ الغناء سأَلتُه أَن يُعيده. ففعلتُ وفعل، وبلغ بي الطربُ أكثر مما يَبلُغني عن غيري فأُنكره؛ ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليوم. وقد أخبرني بهذا الخبر أبو الحسن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى المنجم عن أبيه عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر فذكر هذه القصة أو قريباً منها لزيادة اللَّفظ ونُقصانه، وذكر أنّ الصوت الذي غنَّاه إبراهيم:

طـرَقَـتـكَ زائـرةً فـحَـيِّ خـيـالَـهَـا بـيـضـاءُ تَـخـلِـط بـالـحـيـاء دلَالَـهَـا

هـل تَـطـمِـسـون مـن الـسـمـاء نـجـومَـهـا بـأَكُـفِّـكـم أَو تَـسـتُـرون هـلالَـهَـا

[الكامل]

إتخذ لنفسه حراقة بحذاء داره:

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني الحسن بن عُلَيل قال:

سمعتُ هِبةَ اللَّه بن إبراهيم بن المهديّ يقول: إتَّخذ أبي حَرّاقةً فأَمر بشدّها في

الجانب الغربي بحذاء داره، فمضيتُ إليها ليلةً فكان أَبي يُخاطبنا من داره بأَمره ونَهْيه، فنسمعه وبَيننا عَرْض دِجلة وما أجهدَ نفسه.

ثناء ابن أبي ظبية عليه:

أَخبرني عمي قال سمعت عبد اللَّه بن مُسلم بن قُتيبة يقول حدثني ابن أَبي ظَبية قال: كنت أسمع إبراهيم بن المهديّ يتنحنح فأطرَبُ.

أَخبرني الحسن بن عليّ قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويَه قال حدثني عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني القَطِراني المُغَنّي عن محمد بن جبر عن عبد اللَّه بن العباس الرَّبيعي قال:

كنَّا عند إبراهيم بن المهدي ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ مُطرِبٍ مُحسِن من المغنين يومئذٍ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشِّطْرَنج. فترنّم بصوت فريدة:

قال لي أحمدٌ ولم يَدْرِ ما بي أَتُحِبّ الغداةَ عُتبةَ حقَّا

[الخفيف]

وهو مُتَّكئ. فلما فرَغ منه ترنّم به مُخارق فأَحسنَ فيه وأطربنا وزاد على إبراهيم، فأَعاده إبراهيم وزاد في صوته فعَفَّى على غناء مُخارق. فلما فرغ ردّه مخارق وغنَّى فيه بصوته كلِّه وتحفَّظ فيه، فكِدنا نَطير سروراً. واستوى إبراهيمُ جالساً وكان مُتَّكئاً فغنَّاه بصوته كلِّه ووفَّاه نَغَمَه وشُذورَه، ونظرتُ إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أَجمع يتحرّك حتى فرغ منه، ومُخارقٌ شاخصٌ نحوَه يُرعَد وقد امتُقِع لونُه وأصابعه تختلج؛ فخُيِّل لي واللَّه أَنّ الإيوان يسير بنا. فلما فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبَّل يده وقال: جعلني اللَّه فِداك أين أَنا منك! ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقيَّة يومه في غنائه، واللَّه لكأَنما كان يتحدّث.

نسبة هذا الصوت

قال لي أحمدٌ ولم يَدْرِ ما بي أَتُحِبّ الغداةَ عُتبةَ حقَّا
فتنفَّستُ ثم قلت نعم حبّاً جرى في العروق عِرْقاً فعِرْقَا
ما لدمعي عَدِمتُه ليس يَرْقَا إنما يَستَهِلّ غَسْقاً فَغَسْقَا
طَرَباً نحوَ ظبيةٍ تركتُ قلبي من الوجد قَرْحةً ما تَفقَّا

[الخفيف]

الشعر لأبي العتاهية. والغناء لفريدة خفيفُ رمل بالوسطى. وفيه لإبراهيم بن

المهدي خفيفُ رملٍ آخر. ولفريدة أيضاً لحنٌ من الثقيل الثاني في أبيات من هذه القصيدة وهي:

قد لَعَمْري ملّ الطبيبُ ومل الأهل مني مما أداوَى وأرْقَى
ليتني مُتّ فٱستريحتُ فإنّي أبداً ما حَييتُ منها مُلَقَّى

[الخفيف]

غنّى الأمين فأطربه:

أخبرني عمي قال حدثني عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني هِبَةُ اللَّه بن إبراهيم بن المهديّ قال حدثني عمي منصور بن المهديّ:

إنه كان عند أَبي في يوم كانت عليه فيه نَوبةٌ لمحمد الأمين، فتشاغَل أَبي بالشُّرب في بيته ولم يَمضِ، وأرسل إليه عِدَّةَ رُسُل فتأخّر. قال منصور: فلما كان من غَدٍ قال: ينبغي أَن تَعمَلَ على الرَّواح إليّ لنمضي إلى أمير المؤمنين فنترضَّاه؛ فما أَشُكّ في غضبه عليّ. ففعلتُ ومضَينا. فسألنا عن خبره فأعلمنا أنه مشرِف على حَير[1] الوحش وهو مخمور[2]، وكان من عادته ألَّا يشرب إذا لحِقه الخُمار. فدخلنا؛ وكان طريقُنا على حجرة تُصنع فيها الملاهي. فقال لي أَخي: اذهب فاختَرْ منها عوداً تَرضاه، وأصلِحه غاية الإصلاح حتى لا تحتاج إلى تغييره البتَّةَ عند الضرب؛ ففعلت وجعلته في كمّي. ودخلنا على الأمين وظهرُه إلينا. فلما بَصُرنا به من بعيد قال: أَخرِج عودك فأخرجتُه، وٱندفع يغنّي.

وكأسٍ شَربتُ على لذَّةٍ وأخرى تداويتُ منها بِهَا
لكي يعلم الناسُ أنّي ٱمرؤٌ أَتيتُ الفُتوَّةَ من بابِهَا
وشاهِدُنا الجُلُّ والياسَمِينُ والمُسمِعاتُ بقُصَّابِهَا
وبَربَطُنا دائمٌ مُعمَلٌ فأيُّ الثلاثة أزرى بِهَا

[المتقارب]

فٱستوى الأمين جالساً وطرِب طرباً شديداً وقال: أحسنتَ واللَّه يا عمّ وأحييتَ لي طرباً، ودعا برطل فشربه على الرِّيق وٱمتدّ في شربه. قال منصور: وغنى إبراهيم يومئذٍ على أشدّ طبقة يُتناهى إليها في العود، وما سمِعتُ مثل غِنائه يومئذٍ قطّ. ولقَد رأيتُ منه شيئاً عجيباً لو حُدِّثت به ما صَدَّقت، كان إذا ابتدأ يغني أصغتِ الوحشُ إليه

(١) حَير: بستان.
(٢) مَخمور: شديد السُّكر.

ومدّت أعناقَها، ولم تزل تدنو منَّا حتى تكاد أَن تضع رؤوسها على الدُّكَّان الذي كنَّا عليه، فإذا سكتَ نَفَرتْ وبعُدت منَّا حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنَّا، وجعل الأمين يَعجَبُ من ذلك، وٱنصرفنا من الجوائز بما لم ننصرف بمثله قطُّ.

أَخبرني عمي والصوليّ قالا حدثنا الحسين بن يحيى الكاتب أَبو الجُمان أنَّ إِسحاق كتب إلى إبراهيم بن المهديّ بصوت صنعه في شعر له وهو:

قـل لِـمَـن صَـدّ عـاتِـبـغـا ونـأَى عـنـك جـانِـبَـا
قـد بـلـغـتَ الـذي أرَد تَ وإن كـنـتَ لاعِـبَـا

[مجزوء الخفيف]

وبيّن له شعرَه وإيقاعَه وبساطَه ومَجراه وإِصبعَه وتجزئتَه وقسمتَه ومخارجَ نَغَمه ومواضعَ مقاطعه ومقاديرَ أوزانه، فغنَّاه إبراهيم، ثم لقيه بعد ذلك فغنَّاه إياه فما خرم منه شَذرةً ولا نغمةً. قال: وفاقني فيه بحسن صوته.

نسبة هذا الصوت

قـل لـمـن صـدَّ عـاتـبَـا ونـأى عـنـك جـانِـبَـا
قـد بـلـغـتَ الـذي أرد تَ وإن كـنـتَ لاعِـبَـا
وٱعـتـرفـنـا بـمـا ٱدّعـيـ ـتَ وإن كـنـتَ كـاذِبَـا
فـٱفـعَـل الآنَ مـا أرد تَ فـقـد جـئـتُ تـائِـبَـا

[مجزوء الخفيف]

يقال: إنّ الشعر لإِسحاق، ولم أجِده في مجموع شعره. ووجدتُ فيه لحناً لحَكَم الواديّ في ديوان أغانِيه ولحنه من الماخوريّ، وهو خفيفٌ من خفيف الثقيل الثاني بالبِنصر. وكذلك ذكرتْ دنانيرُ أنّه لحَكَم الواديّ؛ ويُشبه أن يكون الشعرُ لغيره. ولحن إسحاق الذي كتب به إلى إبراهيم بن المهديّ ثان ثقيل بالبنصر في مجراها. وفيه ثقيلٌ أول مطلق في مجرى البنصر لم يقع إليّ نسبتُه إلى صانعه، وأظنُّه لحن حَكَم.

أَخبرني عمي قال حدثنا أَبو عبد اللَّه المَرزُبان قال حدثني إبراهيم بن أَبي دُلَف العِجليّ قال:

كنَّا مع المعتصم بالقاطُول[1]، وكان إبراهيم بن المهديّ في حَرَّاقته بالجانب

(١) القاطول: موضع قرب نهر دجلة.

الغربيّ وأبي وإسحاقُ الموصليّ في حَرّاقتيهما في الجانب الشرقيّ، فدعاهما يوم جمعة فعبرا إليه في زلال[1] وأَنا معهما وأنا صغير وعليّ أَقبِيةٌ ومِنطقةٌ. فلما دنونا من حَرَّاقة إبراهيم نهض ونهضنا ونهضتْ بنهوضه صبِيَّة له يقال لها غضَّةُ، وإذا في يديه كأسان وفي يديها كأس. فلما صعِدنا إليه ٱندفع فغنّى:

حيَّاكما اللَّهُ خَليليَّا إن ميِّتاً كنتُ وإِنْ حيَّا
إن قلتما خيراً فأهلٌ له أَو قلتما غيّاً فلا غَيَّا

[السريع]

ثم ناول كلًّا منهما كأساً وأخذ هو الكأسَ التي كانت في يد الجارية وقال: ٱشربا على ريقكما، ثم دعا بالطعام فأكلوا وشَرِبوا، ثم أخذوا العيدانَ فغنَّاهما ساعةً وغنَّياه؛ وضرب وضربا معه، وغنَّت الجارية بعدهم. فقال لها أَبي: أَحسنتِ مراراً. فقال له: إن كانت أحسنتْ فخذها إليك، فما أخرجتُها إلَّا إليك.

أَخبرني عمي قال حدثنا عليّ بن محمد بن نصر قال حدثني أَبو العُبَيس بن حمدون قال: لمَّا صنع مخارق لحنه في شعر العَتَّابي:

أَخِضني المُقامَ الغَمرَ إِن كان غرّني سَنا خُلَّبٍ أَو زَلَّتِ القَدَمانِ

[الطويل]

غنَّاه إبراهيمَ بنَ المهديّ؛ فقال له: أحسنت وحياتي ما شئت! فسجد مُخارق سروراً بقول إبراهيم ذلك له.

أَخبرني عمي قال حدثني عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثني القِطرانيّ عن عمرو بن بانة قال: غنّى إبراهيم بن المهديّ يوماً:

أداراً بحُزوى هِجتِ للعين عَبرةً فماءُ الهوى يَرفَضُّ أَو يترقرقُ

[الطويل]

فٱستحسنتُه وسألتُه إعادتَه عليّ حتى آخُذَه عنه ففعل. ثم قال لي: إنّ حديث هذا الصوت أحسن منه. قلت: وما حديثُه أعزَّك اللَّه؟ قال: غنَّانِيه ابنُ جامع والصنعة فيه له، فلما أخذتُه عنه غنَّيته إياه ليسمعه منّي، فٱستحسنه جدّاً وقال: كأنّي واللَّه ما سمعتُه قطُّ إلَّا منك ثم كان صوتُه بعد ذلك على نسبة هذا الصوت.

أخبرني عليّ بن إبراهيم الكاتب قال حدثنا عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن خُرداذْبَه قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال:

(١) زلال: زورق صغير.

وجّه إليّ إبراهيم بن المهديّ يوماً يدعوني، وذلك في أول خلافة المعتصم، فصرتُ إليه وهو جالس وحدَه وشاريةُ جاريتُه خلفَ السِّتارة، فقال: إني قلتُ شعراً وغنَّيت فيه وطرحتُه على شارية فأخذتْه وزعمت أنَّها أحذق به منّي، وأنا أقول إني أحذق به منها، وقد تَراضَينا بك حَكَماً بيننا لموضعك من هذه الصناعة، فٱسمعه منّي ومنها وٱحكم ولا تَعجَل حتى تَسمَعَه ثلاثَ مرَّات. فقلت نعم. فٱندفع يغنّي بهذا الصوت:

أَضنّ بلَيْلى وهي غيرُ سَخِيَّةٍ وتَبخَل ليلى بالهوى وأَجودُ

[الطويل]

فأحسن وأجاد. ثم قال لها: تَغنَّيْ، فغنَّتْه فبرَّزت فيه حتى كأنه كان معها في أَبيجاد، ونظر إليّ فعرف أنّي قد عرفتُ فضلَها عليه، فقال: على رِسلِك! وتحدَّثنا ساعةً وشَرِبنا. ثم ٱندفع فغنَّاه ثانية فأَضعف في الإحسان، ثم قال لها: تغنَّيْ، فغنَّت فبرعت وزادت أضعافَ زيادته، وكدْتُ أَشُقّ ثيابي طرباً. فقال لي: تثبَّتْ ولا تَعجَل. ثم غنَّاه ثالثة فلم يُبْق غايةً في الأحكام، ثم أمرها فغنَّت، فكأنه إنما كان يلعب. ثم قال لي: قل، فقضيتُ لها؛ فقال: أصبتَ، فكم تُساوي عندك؟ فحملني الحسدُ له عليها والنفَاسة بمثلها أن قلتُ: تُساوي مائةَ ألف درهم. فقال: أَوَ ما تُساوي على هذا الإحسان وهذا التفضيل إلَّا مائة ألف! قبَح اللَّه رأيك! واللَّه ما أَجد شيئاً أبلَغ في عقوبتك من أَن أَصرِفك، قم فٱنصرِف إلى منزلك مذموماً. فقلت له: ما لقولك ٱخرُج من منزلي جواب، وقمت وٱنصرفت، وقد أحفَظني كلامُه وأَرمَضني. فلمَّا خطوت خُطُواتٍ التفتُّ إليه فقلت له: يا إبراهيم! أَتَطرُدني من منزلك! فواللَّه ما تُحسن أنت ولا جاريتُك شيئاً. وضرَب الدَّهرُ ضرَبانه، ثم دعانا المعتصمُ بعد ذلك وهو بالوزيريَّة في قصر التلّ، فدخلتُ أنا ومخارق وعلّويه، وإذا أميرُ المؤمنين مُصطبحٌ وبين يديه ثلاثُ جاماتٍ: جامُ فضَّة مملوءةٌ دنانيرَ جُدُداً، وجامُ ذهب مملوءة دراهم جُدُداً، وجامُ قواريرَ مملوءةٌ عنبراً، فظَننَّا أَنها لنا بل لم نَشُكّ في ذلك، فغنَّيناه وأجهدنا أنفسنا، فلم يطرب ولم يتحرّك لشيء من غنائنا. ودخل الحاجبُ فقال: إبراهيم بن المهديّ. فأَذِن له فدخل، فغنَّاه أصواتاً أحسنَ فيها، ثم غنَّاه بصوت من صنعته وهو:

ما بالُ شَمسِ أبي الخَطَّاب قد غَرَبَتْ يا صاحبيَّ أظنّ الساعةَ ٱقتربتْ

[البسيط]

فٱستحسنه المعتصمُ وطرِب له، وقال: أحسنتَ واللَّه! فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين فإِن كنتُ أحسنتُ فهَبْ لي إحدى هذه الجامات؛ فقال: خذ أيّتها شئتَ،

فأخذ التي فيها الدنانير؛ فنظر بعضُنا إلى بعض. ثم غنَّاه إبراهيم بشعر له وهو:

فـمـا مُـزَّةٌ قـهـوةٌ قَـرْقَـفٌ[١] شَـمـولٌ[٢] تَـروق بِـراوُوقِـهـا[٣]

[المتقارب]

فقال: أحسنتَ واللَّه يا عمّ وسَرَرْتَ. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنتُ أحسنتُ فهَب لي جاماً أخرى؛ فقال: خذ أيّتها شئتَ، فأخذ الجامَ التي فيها الدراهم؛ فعند ذلك أنقطع رجاؤنا منها. وغنَّاه بعد ساعة:

أَلَا ليتَ ذات الخال تَلقى من الهوى عَشيرَ[٤] الذي أَلقى فيَلْتَئِمَ الحبُّ

[الطويل]

فارتجّ بنا المجلسُ الذي كنا فيه، وطرب المعتصمُ واستخفَّه الطربُ فقام على رجليه، ثم جلس فقال: أحسنتَ واللَّه يا عمّ ما شئتَ! قال: فإن كنتُ قد أحسنتُ يا أمير المؤمنين فهَب لي الجام الثالثة؛ فقال: خُذها فأخذها. وقام أمير المؤمنين، ودعا إبراهيمُ بمنديل فثناه طاقَتَين ووضع الجامات فيه وشَدَّه، ودعا بطين فخَتَمه ودفَعه إلى غلامه، ونهضنا إلى الانصراف، وقُدِّمتْ دوابُنا. فلما ركِب إبراهيم التفتَ إليّ فقال: يا محمد بن الحارث، زعمتَ أنّي لا أُحسن أنا وجاريتي شيئاً، وقد رأيتَ ثمرة الإحسان. فقلتُ في نفسي: قد رأيتُ، فخُذها لا بارك اللَّه لك فيها! ولم أُجِبْه بشيء.

نسبة هذه الأصوات

صـوت

ما بالُ شمسِ أَبي الخطَّاب قد غَرَبَتْ يا صاحبيّ أظنّ الساعة اقتربتْ

أم لا فما بالُ ريحٍ كنتُ آمُلُها غدتْ عليّ بِصِرٍّ[٥] بعد ما خُبِئتْ

أشكو إليك أبا الخطَّاب جاريةً غريرةً بفؤادي اليوم قد لَعِبتْ

رأيتُ قَيِّمَها يوماً يحدِّثها يا ليتَها قَرُبَتْ منّي وما بَعُدَتْ

[البسيط]

الشعر والغناء لإبراهيم بن المهديّ رمَلٌ بالبنصر: وفيه هزَج بالبنصر، ذكر عمرو بن بانة أنه لإبراهيم الموصلي، وذكر غيرُه أنه لإبراهيم بن المهدي.

---

(١) قرقف: الخمر يرعدُ عنها صاحبها.
(٢) شمول: الخمر التي تعرَّض للشمال فتبرد.
(٣) الراووق: الإناء يوضع فيه الخمر ويحفظ.
(٤) عشير: جزء من العشرة.
(٥) صرّ: ريح شديدة البرد والصوت.

صـوت

أَلَا ليتَ ذاتَ الخال تَلقى من الهوى عَشِيرَ الذي أَلقى فيلتئمَ الحبُّ
وِصالُكُمُ صَدٌّ وقربُكُمُ قِلًى وعطفكُمُ سُخطٌ وسِلمكمُ حَربُ
[الطويل]

الشعر للعباس بن الأخنف، والغناء لإبراهيم.

وقال ابن أَبي طاهر حدثني المؤمّل بن جعفر قال: سمعتُ أَبي يقول: كانت في يد المعتصم باقةُ نرجس فقال لإبراهيم بن المهدي: يا عمّ قل فيها أبياتاً فغنِّ فيها. فنكَت في الأرض بقضيبٍ في يده هنيهةً ثم قال:

صـوت

ثُلاثُ عيونٍ من النَّرجِسِ على قائم أَخضَرٍ أملَسِ
يُذَكِّرنَني طيبَ ريَّا الحبيب فَيَمْنَعْنَني لَذَّةَ المجلسِ
[المتقارب]

وصنع فيه لحناً وغنَّاه به، فأعجبه وأمرَ له بجائزة. لحنُ إبراهيم في هذين البيتين خفيفُ رَمل بالبنصر، ذكر لي ذَكاءُ وغيرُه ذلك.

غضب عليه المأمون وسجنه فاستعطفه حتى عفا عنه:

أَخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد النَّحوي عن الجاحظ، وأخبرني به محمد بن يحيى الصولي قال حدثنا يَموتُ بن المُزَرّع عن الجاحظ قال:

أرسل إليَّ ثُمامةُ يوم جلس المأمونُ لإبراهيمَ بن المهديّ وأمرَ بإحضار الناس على مراتبهم فحضروا فجيء بإبراهيم، وأَخبرني عمي قال حدثنا الحسن بن عُلَيل قال حدثني محمد بن عمرو الأنباري من أبناء خُراسان قال:

لمَّا ظفِر المأمون بإبراهيم بن المهدي أحبَّ أن يوبّخه على رؤوس الناس، قال: فجيءَ بإبراهيم يَحجُل[1] في قيوده، فوقف على طرَف الإيوان وقال؛ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللَّه وبركاتُه. فقال له المأمون: لا سلَّم اللَّه عليك ولا حفِظك ولا رعاك ولا كَلأك يا إبراهيم. فقال له إبراهيم: على رِسلك يا أمير المؤمنين! فلقد

(١) يحجل: يرفع رجلهُ ويتريث في مشيه.

أصبحتَ وليَّ ثأْري، والقدرةُ تُذهِبُ الحَفيظةَ، ومن مَدَّ له الاغترارُ في الأمل هجَمَتْ به الأناةُ على التَّلَف. وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب، كما أن عفوك فوق كل عفو ـ وقال الحسن بن عُلَيل في خبره: وقد أصبحت فوق كل ذي ذنب، كما أصبح كلُّ ذي عفو دونك ـ فإن تُعاقب فبحقك، وإن تَعفُ فبفضلك. قال: فأطرق مليّاً ثم رفع رأسه فقال: إنّ هذين أشارا عليّ بقتلك. فالتفتَ فإذا المُعتصم والعبَّاس بن المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، أمَّا حقيقة الرأي في مُعظَم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وما غَشَّاك إذ كان ما كان منّي، ولكنَّ اللَّه عوّدك من العفو عادةً جريتَ عليها دافعاً ما تخافُ بما ترجو، فكفاك اللَّه. فتبسم المأمون وأقبل على ثُمامة ثم قال: إنَّ من الكلام ما يفوق الدرّ ويغلِب السِّحر، وإن كلام عمي منه، أَطلِقوا عن عمي حديدَه ورُدّوه إليَّ مُكَرَّماً. فلما رُدّ إليه قال: يا عمّ صِرْ إلى المنادمة وٱرجع إلى الأنس فلن ترى منّي أبداً إلَّا ما تحبّ. فلمَّا كان من الغد بعث إليه بدَرْجٍ فيه:

يا خيرَ مَن ذَمَلت[1] يمانِيَةٌ به ... بعد الرسول لآيسٍ أو طامعِ
وأبرَّ مَن عبد الإلٰه على الهُدى ... نفساً وأحكَمَه بحقٍّ صادعِ
عَسَلُ الفوارع ما أُطِعْتَ فإن تُهَجْ ... فالموتُ في جُرَع السِّمام النَّاقعِ
متيقِّظاً حَذِراً وما يَخشى العدا ... نَبهانَ من وَسَنات[2] ليلِ الهاجعِ
واللَّه يعلم ما أقول فإنها ... جَهدُ الأليَّة من حَنيفٍ راكعِ
قَسَماً وما أُدلي إليكَ بحجَّةٍ ... إلَّا التضرُّعَ من محبٍّ خاشعِ
ما إن عصيتُك والغُواةُ تَمُدّني ... أَسبابُها إلَّا بنيَّة طائعِ
حتى إذا عَلِقتْ حبائلُ شِقوتي ... بِرَدًى على حُفَر المهالك هائعِ[3]
لم أَدرِ أنَّ لمثل ذنبي غافراً ... فأَقمتُ أَرقُب أيَّ حَتفٍ صارعي
رَدّ الحياةَ إليّ بعد ذَهابها ... وَرَع الإمام القاهر المتواضعِ
أَحياك مَن ولَّاك أطولَ مدَّةٍ ... ورمى عدوّك في الوَتين بقاطعِ
إن الذي قَسَم الفضائلَ حازها ... في صُلبِ آدم للإمام السابعِ
كم من يدٍ لك لا تحدّثني بها ... نفسي إذا آلتْ إليَّ مطامعي

(١) ذملت: سارت فوق العَنَق.
(٢) وسنات: مفردها الوسن والوَسَنة والسِّنة شدة النوم أو النعاس.
(٣) الهائع: المظلم.

أسـديـتَـهـا عـفـواً إلـيّ هـنـيـئـةً فـشـكـوتُ مُـصـطَـنَـعـاً لأكـرم صـانـعِ
ورَحِـمـتَ أطـفـالاً كـأفـراخ الـقَـطـا وعَـويـلَ عـانـسـةٍ كـقـوس الـنَّـازعِ
وعـفـوتَ عـمـن لـم يـكـن عـن مـثـلـه عـفـوٌ ولـم يـشـفَـع إلـيـك بـشـافـعِ
إلَّا الـعُـلُـوّ عـن الـعـقـوبـة بـعـد مـا ظـفِـرت يـداك بـمـسـتَـكِـيـنٍ خـاضـعِ
[الكامل]

قال: فبكى المأمون ثم قال: عليَّ به، فأتي به فخلعَ عليه وحمله وأمر له بخمسة آلاف دينار، ودعا بالفَرَّاش فقال له: إذا رأيتَ عمي مُقبِلاً فاطرَحْ له تُكَأَة[1]، فكان يُنادمه ولا يُنكر عليه شيئاً. ورُوي بعضُ هذا الخبر عن محمد بن الفضل الهاشميّ فقال فيه: لمَّا فرغ المأمونُ من خطابه دفعه إلى ابن أَبي خالد الأحوَل وقال: هو صديقك فخذْه إليك. فقال: وما تُغني صداقتي عنه وأميرُ المؤمنين ساخطٌ عليه! أمَا إني وإن كنتُ له صديقاً لا أمتنع من قول الحَقِّ فيه. فقال له: قُلْ فإنك غيرُ متَّهم. قال وهو يُريد التسلُّقَ على العفو عنه: إن قتلتَه فقد قتلتِ الملوكُ قبلَك أقلّ جُرْماً منه، وإن عفوتَ عنه عفوتَ عمن لم يُعفَ قبلك عن مثله. فسكت المأمون ساعةً ثم تمثَّل:

فـلـئـن عـفـوتُ لأعـفـوَنْ جَـلَـلاً ولـئـن سـطـوتُ لأُوهِـنَـنْ عَـظـمـي
قَـومـي هُـمُ قـتـلـوا أُمَـيـمَ أَخـي فـإذا رمـيـتُ أصـابَـنـي سَـهـمـي
[الكامل]

خذْه يا أحمد إليك مُكَرّماً، فانْصرفَ به. ثم كتب إلى المأمون قصيدته العينية. فلما قرأها رقّ له وأمر بردّه إلى منزله ورَدّ ما قُبِض منه من أمواله وأملاكه. وفي خبر عمي عن الحسن بن عُلَيل قال: حدثني محمد بن إسحاق الأشعَريّ عن أَبي داود: أن المأمون تقدّم إلى محمد بن مزداد لمَّا أطلقَ إبراهيمَ أن يمنعه دارَي الخاصة والعامة، ويُوكِّل به رجلاً من قِبَله يَثِق به ليعرّفه أخبارَه وما يَتكلَّم به. فكتب إليه الموكَّل به أنّ إبراهيم لمَّا بلغه منعُه من دارَي الخاصَّة والعامَّة تمثَّل:

يـا سَـرْحـةَ الـمـاء قـد سُـدّت مَـوارِدُه أمَـا إلـيـكِ طـريـقٌ غـيـرُ مـسـدُودِ
لـحـائـمٍ حـامَ حـتـى لا حِـيـامَ لـه مُـحـلإٍ عـنْ طـريـق الـمـاء مَـطـرودِ
[البسيط]

فلما قرأها المأمون بكى وأمر بإحضاره من وقته مكرَّماً وإنزاله في مرتبته؛ فصار إليه محمد فبشَّره بذلك وأَمره بالرّكوب فركِب. فلما دخل على المأمون قبَّل البساط ثم قال:

(١) تكأة: ما يتكأ عليه ويتخذ للراحة.

ألبِرُّ بي منك وَطَّا العُذرَ عندك لي دون ٱعتذاري فلم تَعذُلْ ولم تَلُمِ
وقام علمُك بي فٱحتجّ عندك لي مقامَ شاهدِ عَدلٍ غيرِ مُتَّهمِ
رددتَ ما لي ولم تَمنُن عليّ به وقبل رَدِّك ما لي قد حقَنتَ دمي
تعفو بعَدلٍ وتسطو إن سطوتَ به فلا عَدِمناك من عافٍ ومُنتقِمِ
فبؤتُ منك وقد كافأتها بيد هي الحياتان من موت ومن عَدَمِ

[البسيط]

فقال له: ٱجلس يا عمّ آمِناً مطمئنّاً، فلن ترى أبداً منّي ما تكره، إلا أن تُحدِثَ حَدَثاً أو تتغيَّر عن طاعة؛ وأرجو ألَّا يكون ذلك منك إن شاء اللَّه.

أخبرني أحمد بن جعفر جحظة قال حدثني ابن حمدون عن أبيه قال:

كنت أُحِبّ أن أَجمع بين إبراهيم بن المهديّ وأَحمد بن يوسف الكاتب بما كنت أراه من تقدُّم أَحمد وغَلبتِه الناسَ جميعاً بحِفظه وبلاغته وأدبِه في كل مَحضر ومجلِس. فدخلتُ يوماً على إبراهيم بن المهديّ وعنده أَحمد بن يوسف وأَبو العالية الخزَريّ، فجعل إبراهيم يحدّثنا فيُضيف شيئاً إلى شيء، مرَّةً يُضحكنا ومرَّة يعِظُنا ومرَّة يُنشدنا ومرة يُذكِّرنا، وأَحمد بن يوسف ساكت. فلما طال بنا المجلسُ أردتُ أَن أُخاطب أَحمد، فسبقَني إليه أَبو العالية فقال:

ما لكَ لا تَنبَح يا كلب الدَّومْ قد كنتَ نَبَّاحاً فما لك اليومْ

[الرجز]

فتبسَّم إبراهيم ثم قال: لو رأيتني في يد جعفر بن يحيى لَرَحِمتَني كما رَحِمتَ أحمدَ منّي.

أَخبرني يحيى بن عليّ قال حدثني أَبي قال: قال لي إسحاق: ليس فيمن يدَّعي العلمَ بالغناء مثلُ إبراهيم بن المهديّ وأبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجليّ. فقيل له: فأَين محمد بن الحسن بن مُصعَب منهما؟ فقال: لو قيل لك إن محمد بن الحسن يُبصر الغناء لكان ينبغي لك أن تقول: وكيف يُبصر الغناء من نَشأ بخُراسان لا يَسمع من الغناء العربيّ إلَّا ما لا يفهمه!

أَخبرني يحيى قال حدثني أَبو العُبيس بن حَمدون عن عمرو بن بانة قال:

رأَيت إسحاق الموصليّ يُناظر إبراهيم بن المهديّ في الغِناء، فتكلَّما فيه بما فَهماه ولم نفهم منه شيئاً. فقلت لهما: لئن كان ما أنتما فيه من الغناء ما نحن منه في قليل ولا كثير.

فضَّل المأمون غناءه على غناء إسحاق في شعر للأخطل:

أَخبرني عمي عن عليّ بن محمد بن نصر عن جدّه حَمدون: أنّ المأمون قال لإِسحاق: غنِّني لحنَك في شعر الأخطل:

يا قلّ خيرُ الغَواني كيف رُغنَ[١] به فشِربُهُ وشَلٌ[٢] منهنَّ تَصرِيدُ[٣]

[البسيط]

فغنَّاه إياه فٱستحسنه، ثم قال لإبراهيم بن المهديّ: هل صنعتَ في هذا الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فهاته؛ فغنَّاه فٱستحسنه المأمون وقدّمه على صنعة إسحاق، ولم يدفع إسحاقُ ذلك.

علمه إسحاق لحناً فطرب له الأمين:

أَخبرني أَبو الحسن عليّ بن هارون بن عليّ بن يحيى الموصليّ قال ذكر أَبي عن جدّي عن عبد اللَّه بن عيسى الماهانيّ قال:

دخلتُ يوماً على إسحاق بن إبراهيم الموصليّ في حاجة، فرأيتُ عليه مُطرَف خَزّ أسود ما رأيت قطُّ أحسن منه؛ فتحدّثنا إلى أن أخذنا في أمر المِطرف فقال: لقد كانت لكم أيَّامٌ حسنة ودولةٌ عجيبةٌ، فكيف ترى هذا؟ فقلت له: ما رأيتُ مثله. فقال: إن قيمته مائة ألف درهم، وله حديث عجيب. فقلت له: ما أقوّمه إلَّا نحواً من مائة دينار. فقال إسحاق: اسمع حديثه: شربنا يوماً من الأيام، فبتّ وأنا مُثخَن، فٱنتبهت لرسول محمد الأمين، فدخل عليّ فقال لي: يقول لك أمير المؤمنين عجِّل إليَّ ـ وكان بخيلاً على الطعام فكنتُ آكُل قبل أن أذهب إليه ـ فقمتُ فتسوّقتُ وأصلحتُ أمري، وأعجَلَني الرسول عن الغداء. فدخلت عليه وإبراهيم بن المهدي جالس عن يمينه وعليه هذا المطرف وُجبة خزّ دَكناء. فقال لي محمد: يا إسحاق تَغدَّيتَ؟ فقلت: نعم يا سيِّدي. فقال: إنّك لَنَهِمٌ، أهذا وقت غَداء! فقلت: أصبحتُ يا أمير المؤمنين وبي خُمار، فكان ذلك مما حَداني على الأكل. فقال لهم: كم شَربنا؟ فقالوا: ثلاثة أرطال. فقال: ٱسقوه مثلَها. فقلت: إن رأيتَ أن تفرّقها عليّ! فقال: تُسقى رِطلين ورِطلاً. فدُفِع إليَّ رِطلان فجعلتُ أشربهما وأنا أَتوهّم أن نفسي تسيل معهما، ثم دُفع إليَّ رطلٌ آخر فشربتُه فكأنَّ شيئاً ٱنجلى عنّي. فقال غنّني:

---

(١) الرَّغن: الإصغاء إلى القول.

(٢) وَشَلٌ: الماء القليل يتحلَّب من صخرة أو جبل ولا يتصل قطره.

(٣) تصريد: السقي دون الري.

كـلَـيـبٌ لَـعَـمْـري كـان أكـثـر نـاصِـراً وأَيـسـرَ جُـرْمـاً مـنـك ضُـرِّح بـالـدَّم
[الطويل]

فغنَّيتُه؛ فقال: أحسنتَ وطرِب، ثم قام فدخل. وكان يفعل ذلك كثيراً، يدخل إلى النساء ويدَعُنا. فقمتُ في أثر قيامه فدعوتُ غلاماً لي فقلت: ٱذهب إلى منزلي وجئني بِبزْماوَردتَين[1] ولُفَّهُما في منديل وٱذهب رَكضاً وعجِّل. فمضى الغلام فجاءني بهما. فلما وافى الباب ونزل الدَّابة ٱنقطع البِرذَون فنفَق من شدَّة ما ركضه، فأدخلَ إليَّ البزماوَردتَين فأكلتُهما ورجعتْ إليّ نفسي وعُدْتُ إلى مجلسي. فقال لي إبراهيم: إن لي إليك حاجة أُحبّ أن تقضيها لي. فقلت: إنما أنا عبدُك وابن عبدِك، قل ما شئتَ. قال: تَرُدّ عليّ:

كـلَـيـبٌ لَـعَـمْـري كـان أكـثـرَ نـاصـراً

وهذا المِطرفُ لك. فقلت: أَنا لا آخُذ منك مِطرفاً على هذا ولكني أصير إليك إلى منزلك فأُلقيه على الجواري وأردّه عليك مراراً. فقال: أحِبّ أن تردّه عليّ الساعةَ وأَن تأخذَ هذا المطرفَ فإنه من لُبسك ومن حاله كذا وكذا. فرددتُ عليه الصوتَ مراراً حتى أخذه. ثم سمعنا حركة محمد فقمنا حتى جاء فجلس ثم قعدنا، فشرِب ثم تحدّثنا. فغنَّاها إبراهيم:

كُـلَـيْـبٌ لَـعَـمْـري كـان أكـثـرَ نـاصـراً

فكأني واللَّه أَسمعه قبل ذلك حسناً، وطرب محمد طرباً عجيباً وقال: أحسنتَ واللَّه يا عمّ! أَعطِ يا غلام عَشرَ بِدَرٍ لعمِّي الساعةَ، فجاؤوا بها. فقال: يا أمير المؤمنين إن لي فيها شريكاً. قال: ومن هو؟ قال: إسحاق. قال: وكيف؟ قال: إنما أخذتُه الساعةَ منه لمَّا قمتَ. فقلت له: ولِمَ! أضاعت الأموال على أمير المؤمنين حتى يُشرِكك فيما تُعطَّاه! قال: أَمَّا أنا فأُشْرِكك وأميرُ المؤمنين أعلم. فلما ٱنصرفنا من المجلس أعطاني ثلاثين أَلفاً وأعطاني هذا المطرف. فهذا أُخذ به مائة ألف درهم وهي قيمتُه.

حج مع الرشيد، وقصته مع جارية رآها:

أَخبرني محمد بن خلف بن المَرزُبان قال حدثنا حمَّاد بن إسحاق عن أَبيه قال: قال لي إبراهيم بن المهدي:

حَجَجتُ مع الرشيد؛ فلما صرنا بالمدينة خرجتُ أدور في عَرَصاتها، فٱنتهيت إلى

(١) البزماورد: نوع من الطعام يصنع من اللحم والبيض.

بئر وقد عَطِشتُ وجاريةٌ تستقي منها، فقلت: يا جارية، ٱمْتَحي[١] لي دَلْواً. فقالت: أنا واللَّه عنك في شُغل بضريبة مَواليَّ عليّ. فنقرتُ بسوطي على سَرجي وغنَّيتُ:

صـوت

رام قـلـبـي الـسُّـلُـوَّ عـن أَسـمـاءِ وتَـعَـزَّى ومـا بـه مـن عَـزاءِ
سُـخـنـةٌ فـي الـشـتـاء بـاردةُ الـصـيـف سِـراجٌ فـي الـلـيـلـة الـظـلـماءِ
كـفِّـنـانـي إن مُـتُّ فـي دِرع أَروَى وٱمـتَـحـا لـي مـن بـئـر عُـرْوةَ مـائـي

[الخفيف]

ـ الشعر للأحوص. والغناء لمعبد رمَلٌ مُطلق في مجرى الوسطى عن إسحاق ـ وتمام هذه الأبياتُ:

إنـنـي والـذي تَـحُـجّ قـريـشٌ بـيـتَـه سـالـكـيـن نَـقـبَ كَـداءِ[٢]
لَـمُـلِـمٌّ بـهـا وإن أُبْـتُ مـنـهـا صـادراً كـالـذي وَرَدتُ بـداءِ
ولـهـا مَـرْبَـعٌ بـبُـرقَـةِ خـاخٍ[٣] ومَـصـيـفٌ بـالـقـصـر قـصـرِ قُـباءِ
قـلـبـتْ لـي ظـهـرَ الـمِـجَـنّ فـأمـسـتْ قـد أطـاعـت مـقـالـةَ الأعـداءِ

[الخفيف]

ولمعبد أيضاً في البيت الأخير من هذه الأبيات ثم الأول والثاني خفيفُ ثقيلٍ عن الهشامي. ولابن سُرَيج في:

ولـهـا مَـربَـعٌ بـبُـرْقـة خـاخٍ
وكـفِّـنـانـي إن مـتّ فـي درع أَروَى

رمَلٌ عن الهشاميّ أيضاً. ولإبراهيم في: «رام قلبي» وما بعده ثاني ثقيلٍ عن حبش ـ قال إبراهيم بن المهدي في الخبر: فرفعتِ الجاريةُ رأسها إليَّ فقالت: أتعرفُ بئر عُروةَ؟ قلت لا. قالت: هذه واللَّه بئر عُروة، ثم سَقَتني حتى رَوِيتُ، وقالت: إنْ رأيتَ أَن تُعيده ففعلتُ، فطرِبت وقالت: واللَّه لأحملنّ قِرْبةً إلى رحلك! فقلت: ٱفعلي، ففعلَتْ وجاءت معي تحملها. فلما رأتِ الجيشَ والخدمَ فزِعتْ. فقلت لها: لا بأس عليكِ! وكسوتُها ووهبتُ لها دنانيرَ وحبستُها عندي، ثم صِرت إلى الرشيد

(١) امتحي: انزعي.
(٢) كداء: موضع بأعلى مكة.
(٣) خاخ: موضع قرب قباء.

فحدّثته حديثَها؛ فأمر بٱبتياعها وعِتقها؛ فما بَرِحت حتى ٱشْتُرِيتْ وأُعتقت، وأخذتُ لها منه صلةً وٱفترقنا.

حواره مع المأمون:

حدثني علي بن سليمان الأخفش ومحمد بن خلف بن المَرزُبان قالا: حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال حدثنا الفضل بن مروان قال:

لمَّا أُدخِل إبراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظَفِر به، كلَّمه إبراهيم بكلام كان سعيد بن العاص كلَّم به معاوية بن أَبي سفيان في سَخطةٍ سخِطها عليه وٱستعطفه به. وكان المأمون يحفظ الكلام، فقال له المأمون: هيهاتَ يا إبراهيم! هذا كلامٌ سبقك به فَحلُ بني العاص بن أُميَّة وقارِحُهم سعيد بن العاص وخاطب به معاوية. فقال له إبراهيم: مَهْ يا أَمير المؤمنين؟! وأنت أَيضاً إن عفوتَ فقد سبقك فَحلُ بني حَرْبٍ وقارِحُهم إلى العفو؛ فلا تكن حالي عندك في ذلك أبعدَ من حال سعيد عند معاوية، فإنك أشرفُ منه، وأَنا أَشرف من سعيد، وأَنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية، وأَن أَعظم الهُجنة أن تسبِق أميَّةُ هاشماً إلى مَكرُمة. فقال: صدقتَ يا عمّ، وقد عفوتُ عنك.

غضب عليه الأمين فاستعطفه:

أَخبرني محمد بن خلف بن المَرزُبان قال حدثنا حمَّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

جرى بين محمد الأمين وبين إبراهيم بن المهدي كلامٌ على النَّبيذ، فوجد عليه محمد. فلما كان بعد أيام بعث إليه إبراهيم بألطافٍ فلم يقبلها؛ فوجّه إليه وصيفةً مليحة مغنِّية معها عود معمول من عود هندي، وقال هذه الأبيات وغنَّى فيها وألقاها عليها حتى أخذت الصنعةَ وأحكَمَتْها، ثم وجَّه بها إليه. فوقفت الجارية بين يديه وقالت له: عمُّك وعبدُك يا أَمير المؤمنين يقول لك ـ وٱندفعتْ تغنّي بالشعر وهو ـ:

هَـتَـكـتَ الـضـمـيـرَ بـردِّ الـلَّـطَـفْ وكـشَّـفـتَ هـجـركَ لـي فـٱنـكَـشـفْ
وإن كـنـتَ تُـنـكـر شـيـئـاً جـرى فَـهَـبْ لـلـخـلافـة مـا قـد سَـلَـفْ
وجُـدْ لـي بـصـفـحـك عـن زَلَّـتـي فـبـالـفـضـل يـأْخـذ أَهـلُ الـشـرفْ

[المتقارب]

قال: فسُرَّ محمدٌ بها، وبعث إلى إبراهيم فأَحضره ورضي عنه وأَمر له بخمسة آلاف دينار وتمم يومَه معه.

صالح جاريته صدوف:

أَخبرني محمد بن خلف بن المَرزُبان قال أَخبرني سعيد بن صالح الأسديّ قال حدثني جعفر بن محمد الهاشمي قال حدثني بعض خدم إبراهيم بن المهدي قال:

كانت لإبراهيم بن المهدي جارية يقال لها صدوف، وكان لها من نفسه موضع. فحسدها جواريه على محلِّها منه، فلم يَزَلنَ يُبلغنه عنها ما يَكره حتى غضِب عليها وجفاها أَياماً؛ ثم شقَّ ذلك عليه واغتمَّ به، ولم يطِب نفساً بمراجعتها وصُلْحِها. فدخل عليه الأعرابي أَخو مُعَلِّلة صاحبة الفضل بن الربيع، وكان حسنَ الشِّعر حُلْوَ اللفظ فصيحاً، وكان إبراهيم يأنَس به، فقال له: ما لي أَرى الأمير منكسراً منذ أَيَّام؟ فأمسك. فقال: قد عرفتُ حالَ الأمير وقلتُ في أَمره أَبياتاً إن أَذِن لي أَنشدتُه إيَّاها. فتبسم وقال: هاتِ؛ فأَنشده:

أَعَتَبتَ أَم عتبتْ عليك صَدوفُ ... وعِتابُ مثلِك مثلها تشريفُ
لا تَقعُدنَّ تلومُ نفسَك دائباً ... فيها وأَنتَ بحبِّها مشغوفُ
إن الصَّريمة[1] لا يَنُوء بحملها ... إلَّا القوي بها وأَنت ضعيفُ

[الكامل]

فاستحسن إبراهيم الأبيات وأَمر له بمائتي دينار، وبعث إلى صَدوفَ فخرجت إليه ورضي عنها، وبعثتْ إليه صدوفُ بمائة دينار.

قيل له تب واحرق دفاتر الغناء:

أَخبرني الحسين بن القاسم الكوكَبي قال حدثني أَحمد بن علي بن حُمَيدة قال حدثتني رَيِّقُ قالت:

مَرِض إبراهيم بن المهدي مَرْضَةً أَشرفَ منها على الموت، فجعل يتذكر شغفه بالغناء وما سلَف له فيه ويتندّم عليه. فقال له بعض مَن حضر: فتُبْ وأحرِقْ دفاترَ الغناء. فحرّك رأسه ساعة ثم قال: يا مجانين! فهَبْني أحرقتُ دفاتر الغناء كلَّها، رَيّقُ أَيش أعمَل بها؟ أأقتُلها وهي تحفَظ كلّ شيء في دفاتر الغناء!!

رأى عليّاً في النوم:

أَخبرني جعفر بن قُدامة والحسين بن القاسم الكوكبي قال حدثني المُبَرّد عن أحمد بن الربيع عن إبراهيم بن المهديّ قال:

---

(١) الصريمة: القطعة العظيمة من الرَّمل.

رأيتُ عليّ بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه في النوم، فقلت له: إن الناس قد أكثروا فيك وفي أَبي بكر وعمر، فما عندك في ذلك؟ فقال لي: إخسَأ! ولم يَزِدني على ذلك. وأَخبرني الكوكبي بهذا الخبر عن الفضل بن الرَّبيع عن أَبيه قال:

كان إبراهيم شديد الانحراف عن علي بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه؛ فحدَّث المأمونَ يوماً أَنه رأَى عليّاً في النوم، فقال له: من أنت؟ فأخبره أَنه علي بن أبي طالب. قال: فمشَينا حتى جئنا قنطرةً فذهب يتقدّمني لعبورها؛ فأمسكتُه وقلت له: إنما أَنت رجلٌ تَدّعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحقّ به منك! فما رأيتُ له في الجواب بلاغةً كما يُوصف عنه. فقال: وأي شيء قال لك! فقال: ما زادني على أن قال سلاماً سلاماً. فقال له المأمون: قد واللَّه أَجابك أَبلغ جواب. قال: وكيف؟ قال: عرَّفك أَنك جاهلٌ لا يُجاوَب مثلُك؛ قال اللَّه عز وجل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فخجِل إبراهيم وقال: ليتني لم أحدّثك بهذا الحديث.

أَخبرني الكوكبي قال حدثنا المفضَّل بن سَلَمة عن هبة اللَّه بن إبراهيم بن المهدي عن أَبيه قال:

قلت للأمين يوماً: يا أمير المؤمنين جعلني اللَّه فداءك! فقال: بل جعلني اللَّه فداءك؛ فأعظمتُ ذلك. فقال يا عمّ لا تُعظِمْه فإنّ لي عمراً لا يزيد ولا يَنقُص، فحياتي مع الأحبَّة أَطيبُ من تجرُّعي فقدَهم، وليس يضرّني عيش من عاش بعدي منهم:

غنّى للأمين لحناً فطرب وطلب إليه أن يلقنه إحدى جواريه:

حدثني جَحظة قال حدثني هبة اللَّه بن إبراهيم بن المهدي قال حدثني أبي قال: كنت يوماً بين يدَيِ الأمين أغنّيه؛ فغنَّيته:

صـوت

أَقْـوَتْ مـنـازلُ بـالـهِـضـابِ ... مـن آل هـنـدٍ والـرّبـابِ

خـطَّـارة بـزِمـامـهـا ... وإذا وَنَـتْ ذُلُـل[1] الـركـابِ

(١) ذلُل: مفردها ذلول وهو السهل من الناس والدواب.

تَـرمـي الـحـصـا بـمـنـاسِـمٍ صُـمٍّ صَـلادمَـةٍ[1] صِـلابِ
[مجزوء الكامل]

قال: فٱستحسن اللَّحنَ وسألني عن صانعه؛ فعرَّفته أَنَّ ابن جامع حدثني عن سِياط أنه لابن عائشة؛ فلم يزل يشرب عليه لا يتجاوزه، ثم ٱنصرفنا ليلتَنا تلك. ووافاني رسوله حين ٱنتبهت من النوم وأَنا أستاك، فقال لي: يقول لك: بحياتي يا عمّ لا تشتغل بعد الصلاة بشيء غير الركوب إليّ. فصلَّيتُ وتناولتُ طعاماً خفيفاً وأنا ألبسُ ثيابي خوفاً من رجوع رسوله، وركِبتُ إليه. فلما رآني من بعيد صاح بي: يا عمّ بحياتي:

خـطَّـارة بـزمـامـهـا

فلمَّا دخلت المجلس ٱبتدأته وغنَّيته؛ فأمر بإحضار صَبِيَّةٍ كان يتحظَّاها، فأخرِجَتْ إليّ صبيَّةٌ كأنها لؤلؤة في يدها العود. فقال: بحياتي يا عمّ أَلقِه عليها! فأعدتهُ مراراً وهو يشرب؛ حتى إذا ظننتُ أنها قد أخذته أمرتُها أن تغنِّيه فغنَّته، فإذا هو قد ٱستوى لها إلَّا في موضع كان فيه وكان صعباً جدّاً فجهدتُ جَهدي أن يقع لها طلباً لمسرّته، وكان حقيقاً منّي بذلك، فلم يقع لها البتَّةَ. ورأى جهدي في أمرها وتعذُّرَه عليها، فأقبل عليها وقد سَكِر ثم قال: نُفِيتُ من الرشيد وكلُّ أَمَةٍ لي حُرَّة وعليَّ عهدُ اللَّه لئن لم تأْخُذيه في المرَّة الثالثة لآمُرنّ بإلقائك في دِجلة! قال: ودِجلة تطفَح وبيننا وبينها نحو ذراعين وذلك في الرَّبيع، فتأمّلتُ القصّة، فإذا هو قد سَكِر، وإذا الجارية لا تقوله كما أقوله أبداً. فقلت: هذه واللَّه داهية، ويتنغص عليه يومُه وأُشرَكُ في دمها، فعدلتُ عمَّا كنتُ أغنِّيه عليه وتركتُ ما كنت أقوله، وغنَّيته كما كانت هي تقوله، وجعلتُ أُردّده حتى ٱنقضت الثلاثُ مرَّات أُعيده فيها على ما كانت هي تقوله، وأريتُه أنِّي أجتهد. فلما ٱنقضت الثلاث المرَّات قلت لها: هاتيه الآن، فغنَّته على ما كان وقع لها فقلت: أحسَنَتْ يا أَمير المؤمنين، وردّدتُه معها ثلاث مرَّات، فطابت نفسُه وسكن، وأمر لي بثلاثين ألف درهم. قال جَحظةُ: وقد لحقني مثلُ هذا؛ فإنّ طَرْخانَ بن محمد بن إسحاق بن كنداجيق ٱستحسن صوتاً غنَّيته وهو:

أعـيـانِـيَ الـشَّـادِنُ[2] الـرَّبـيـبُ أكـتُـب أشـكـو فـلا يُـجـيـبُ
مـن أيـن أَبـغـي شـفـاءَ دائـي وإنـمـا دائـيَ الـطَّـبـيـبُ
[مخلع البسيط]

(١) صلادمة: الأرض الغليظة الصلبة. (٢) الشَّادن: الظَّبي المستغني عن أمِّه.

ـ ولحنُه رَملٌ ـ فقال: أُحِبّ أن تطرَحه على زُهرةَ جاريتي، فمكثتُ أتردَّد إليها شهراً وأكثر وأُرَدِّده عليها وهو يَصِلْني ويخلَع عليّ ويُعطيني كلَّ شيء حسن يكون في مجلسه، فلا تأخذه مني ولا يقع لها. فلمَّا كان بعد شهر قلت له: أيُّها الأمير قد واللَّه ٱستَحييتُ من كثرة ما تُعطيني بسبب هذا الصوت، وقد أعياني أن تأخذه زُهرةُ؛ ثم حدثته حديثَ إبراهيم بن المهدي وقلت له: لولا أَني آمَنُك عليها لقلتُه أنا كما تقوله هي حتى نتخلَّص جميعاً. وليس وحياتِك تأخذه أبداً كما أقوله ولا فيه حيلة. فقال لي: فدَعْهُ إذاً.

حدثني جَحظةُ قال حدثني هبة اللَّه بن إبراهيم قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال:

غنّى إبراهيم بن المهديّ يوماً بحضرة المأمون:

صـــوت

يـا صـاح يـا ذا الـضَّـامـر الـعَـنـسِ والـرَّحـل ذي الأنـسـاع والـحِـلْـسِ
أمَّـا الـنـهـارُ فـأنـت تـقـطـعُـه رَتْـكـاً وتُـصـبـح مـثـلَ مـا تُـمـسـي

[الكامل]

ـ في هذين البيتين لحن لمالكٍ خفيفُ ثقيلٍ عن يونسَ والهشاميّ. قال: ولمعبد فيه ثقيل أول، وقد نسب قومٌ لحنَ كلٍّ واحد منهما إلى الآخر. قال محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر في الخبر: واللحن لمالك بن أَبي السَّمح وهو من قِصاره. هكذا في الخبر ـ قال: فٱستحسنه المأمون، وذهبتُ آخذه، ففطِن لي إبراهيم فجعل يزيد فيه مرَّةً وينقُص منه أخرى بزوائده التي كان يعمَلها في الغناء، وعِلمتُ ما هو يصنع فتركتُه. فلمَّا قام قلت للمأمون: يا سيِّدي إن رأيتَ أن تأمر إبراهيم أن يُلقي عليَّ:

يـا صـاح يـا ذا الـضـامِـر الـعَـنْـسِ

قال: أفعَلُ. فلما عاد قال له: يا إبراهيم أَلقِ على محمد:

يـا صـاحِ يـا ذا الـضـامِـرِ الـعَـنْـسِ

فألقاه عليّ كما كان يغنّيه مُغيَّراً، ثم ٱنقضى المجلس وسكِر المأمون. فقال لي إبراهيم: قم الآن فأَنت أحذقُ الناس به، فخرجتُ وخرج. ثم جئتُه إلى منزله فقلت

له: ما في الأرض أعجبُ منك! أنت ابن الخليفة وأَخو الخليفة وعمُّ الخليفة تبخل على وليٍّ لك مثلي لا يُفاخرك بالغِناء ولا يكاثرك بصوت!! فقال لي: يا محمد ما في الدنيا أضعف عقلاً منك! واللَّه ما ٱستبقاني المأمون محبَّةً لي ولا صِلةً لرَحمي، ولكنه سمع من هذا الجِرم شيئاً فقَده من سواه فٱستبقاني لذلك. فغاظني فعلُه. فلما دخلت على المأمون حدَّثتُه بما قال لي. فقال المأمون: يا محمد هذا أكفر الناس لنعمةٍ! وأطرق مليّاً ثم قال لي: لا نكدّرُ على أَبي إسحاق عَفونَا عنه ولا نقطع رَحِمَه، فدعْ هذا الصوتَ الذي ضَنَّ به عليك إلى لعنة اللَّه.

قال بيتاً يكيد به لدعبل:

حدثني الحسن بن عليّ قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني محمد بن يزيد قال:

قلت لدِعبِل: باللَّه أسألك أنت القائل:

كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ إذا حُسِبوا يوماً وثامنهُم كلبُ

[الطويل]

فقال: لا واللَّه! فقلت: مَنْ قاله؟ قال: مَن حشا اللَّه قبره ناراً إبراهيمُ بن المهديّ، كافأني بذلك عن هجائي إياه ليُشيط[1] بدمي.

أخبرني محمد بن مَزيَد قال حدثنا حَمَّاد بن إسحاق قال حدثني محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال:

لمَّا رضِي المأمون عن إبراهيم بن المهديّ ونادمه، دخل عليه متبذِّلاً في ثياب المغنِّين وزيِّهم. فلما رآه ضحك وقال: نزع عمي ثيابَ الكِبر عن مَنكِبيه. فدخل وجلس، وأَمر المأمونُ بأَن يُخْلَعَ عليه فأُلبِس الخِلَعَ. ثم ٱبتدأ مُخارق فغنّى:

صـوت

خليليّ من كَعبٍ أَلِمَّا هُدِيتُما بزينبَ لا يَفقِدكُما أَبداً كعبُ
من اليوم زُوراها فإِنَّ مَطيَّنا غداةَ غدٍ عنها وعن أهلها نُكبُ

[الطويل]

(١) يشيط بدمي: يعرضني للقتل ويذهب دمي.

فقال له إبراهيم: أسأتَ وأَخطأتَ. فقال له المأمون: يا عمّ إن كان أساء وأخطأ فأحسِنْ أنتَ: فغنّى إبراهيم الصوت. فلمَّا فرغ منه قال لمخارق: أَعِده الآن، فأَعاده فأحسَنَ. فقال إبراهيم: يا أَمير المؤمنين كم بين الصوت الآن وبينه في أول الأمر؟ قال: ما أبعَدَ ما بينهما! فالتفت إلى مخارقٍ ثم قال: إنما مَثَلُك يا مُخارق مَثَل الثوب الوَشيِّ الفاخر، إذا تغافل عنه أهلُه سقط عليه الغبار فحال لونُه فإذا نُفِضَ عاد إلى جوهره.

أَخبرني جعفر بن قُدامة قال حدثتني شاريةُ الكبرى مولاة إبراهيم بن المهديّ قالت: سمعت مولاي إبراهيم بن المهديّ يحدّث قال:

كنتُ بين يدي الرشيد جالساً على طَرَف حَرَّاقةٍ من حَرَّاقاته وهو يريد المَوصِلَ وقد بلغنا إلى السودقانية، والمَدَّادون يَمُدُّون السفن، والشَّطرَنجُ بيني وبينه، والدَّستُ متوجِهٌ له، إذ أطرق هُنيهةً ثم قال لي: يابنَ أُمّ، ما أحسنُ الأسماء عندك؟ قلت: محمدٌ اسم رسول اللَّه ﷺ. قال: ثم أيّ شيء بعده؟ قلت: هارون اسم أَمير المؤمنين. قال: فما أسمَج الأسماء؟ قلت: إبراهيم فزجرني ثم قال: ويحك! أتقول هذا! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن! فقلتُ له: بشُؤم هذا الاسم لقِيَ من نَمرُود ما لقي وطُرح في النار. قال: فإبراهيم ابن النبيّ ﷺ؟ قلت: لا جَرَم أنه لم يُعمَّر من أَجله. قال: فإبراهيم الإمام؟ قلتُ بحرفة اسمه قتله مروان في حَرَّان. وأزيدك يا أَمير المؤمنين: إبراهيمُ بن الوليد خُلِع، وإبراهيم بن عبد اللَّه بن حسن قُتل، وعمُّه إبراهيم بن حسن سقط عليه السجن فمات، وما رأيتُ واللَّه أَحداً يُسمى بهذا الاسم إلا قُتِل أَو نُكِب أو رأيتُه مضروباً أو مقذوفاً أو مظلوماً. ثم ما انقضى الكلام حتى سمعت مَلَّاحاً يَصيح بآخر: مُدّ يا إبراهيم يا عاضَّ بَظر أُمَّه مُدّ. فقلت له: أبَقِيَ لك شيءٌ بعد هذا! ليس واللَّه في الدنيا اسم أشأَم من إبراهيم والسلام. فضحِك واللَّه حتى أشفقتُ عليه.

غنّى المأمون لحناً عرّض فيه بالحسن بن سهل:

حدثني جَحظة قال حدثني أبو عبد اللَّه الهشاميّ عن أَبيه قال:

دخل الحسن بن سَهل على المأمون وهو يشرَب؛ فقال له: بحياتي وبحقِّي عليك يا أَبا محمد إلَّا شربتَ معي قَدَحاً، وصبَّ له من نبيذه قدحاً. فأخذه بيده وقال له: مَن تُحِبّ أَن يغنِّيك؟ فأومأ إلى إبراهيم بن المهديّ فقال له المأمون: غنِّه يا عمّ؛ فغنَّاه:

تَـسـمـعُ لـلـحَـلـي وَسـواسـاً إذا ٱنـصـرفـتْ

يعرِّض به لِما كان لَحِقه من السوداء والاختلاط. فغضِب المأمون حتى ظنّ إبراهيم أنَّه سيُوقِع به، ثم قال له: أَبَيتَ إلَّا كفراً يا أَكفرَ خلقِ اللَّه لنِعَمِه! وٱللَّه ما حَقَن دمَك غيرُه! ولقد أردتُ قَتلَك فقال لي. إن عفوتَ عنه فعلتَ فعلاً لم يَسبِقك إليه أحد، فعفوتُ واللَّه عنك لقوله. أفحقُّه أن تعرِّض به ولا تدَع كيدَك ولا دَغَلك! أَو أَنِفتَ من إيمائه إليك بالغِناء! فوثب إبراهيم قائماً وقال: يا أمير المؤمنين، لم أَذهَب حيث ظننتَ، ولستُ بعائد؛ فأعرض عنه.

أخبرني الحسين بن القاسم الكوكبيّ قال حدثني جرير بن أحمد بن أَبي دواد قال حدثني أَخي عن أَبي قال:

كنت أتجنَّب الغناء وأطعَن على أهله وأذمُّ لَهَجهم به؛ فوجّه المعتصم إليّ عند خروجه من مدينة السلام: إلحَق بي؛ فلحِقتُ به بباب الشمَّاسيَّة ومعي غلامي زنقطة، فوجدته قد ركِب الزورق وسمعت عنده صوتاً أذهلني حتى سقط سوطي من يدي ولم أشعر به، ثم ٱحتجتُ وقد أعنق[1] بي بِرذَوني أن أكُفَّه بسوطي. فقلت لغلامي: هاتِ سوطَك؛ فقال: سقَط واللَّه من يدي لمَّا سمِعتُ هذا الغناء. فغلَبني الضَّحِكُ حتى بان في وجهي. ودخلتُ إلى المعتصم بتلك الحال. فلمَّا رآني قال لي: ما يُضحكك يا أَبا عبد اللَّه؟ فحدّثته، فقال: أتتوب الآن من الطعن علينا في السماع؟ فقلت له: قَبلَ ذلك مَن كان يُغنِّيك؟ قال: عمي إبراهيم، كان يُغنِّيني:

إنّ هـذا الـطـويـلَ مـن آل حَـفـصٍ أَنـشَـر الـمـجـدَ بـعـد مـا كـان مَـاتَـا

[الخفيف]

ثم قال: أَعِده يا عمّ ليسمعه أَبو عبد اللَّه فإني أعلم أنه لا يدَعُ مَذهبَه. فقلت: بلى واللَّه لأدعَنَّه في هذا ولا لُمتك عليه. فقال: أمَّا إذ كانت توبتُه على يديك يا عمّ فلقد فزتَ بفخرها وعدَلتَ برجل ضخم عن رأيه إلى شأننا.

فضّله مخارق على نفسه وعلى إبراهيم الموصلي وابن جامع:

حدثني أحمد بن عُبيد اللَّه بن عَمَّار قال حدثني طَلحة بن عبد اللَّه الطَّلحيّ قال حدثني الحسين بن إبراهيم قال:

(١) أعنق في السير: سار بشكل مُسْبَطِرّ، أي سار سيراً فسيحاً ممتدًّا.

كنت أسأَل مُخارقاً: أيُّ الناس أحسنُ غِناءً؟ فيُجيبني جواباً مجملاً حتى حفَفت عليه يوماً قال: كان إبراهيم الموصليّ أحسنَ غِناءً من ابن جامع بعَشر طبقات، وأنا أحسن غناءً من إبراهيم الموصليّ بعشر طبقات، وإبراهيمُ بن المهديّ أحسنُ غناءً منّي بعشر طبقات. قال: ثم قال لي: أحسنُ الناس غناءً أحسنُهم صوتاً، وإبراهيم بن المهديّ أحسنُ الجنّ والإنس والوحش والطير صوتاً، وحسبُك هذا.

حدثني عليّ بن هارون المُنجِّم قال حدثني محمد بن أحمد بن عليّ بن يحيى قال سمعت جدّي عليّ بن يحيى يقول حدثني محمد بن الفضل الجَرجَرائي قال:

انتبهتُ يوماً مُغلِّساً، فدخل إليّ الغلامُ فقال لي: إسحاق الموصليّ بالباب قبل أَن أُصلِّي الغداةَ. فقلت: يدخل، في الدنيا إنسان يستأذَن لإسحاق! فدخل فقال: حملني الشوقُ إليك على أَن بَكَرتُ هذا البُكور، وقد حملتُ معي نبيذي وعمِلتُ على المُقام عندك. فقلت: مرحباً بك وأهلاً. ودعوت طبَّاخي فسألته عمَّا في المطبخ، فذكر أشياء يسيرةً، منها قطعةُ جَدْيٍ وطَباهِجُ ودُرَّاجٌ معلَّق. فقال: ما أُريد غيرَ ذلك، هاتِه الساعة. فقلت للطبَّاخ: عَجِّل بإحضاره، وعمِلت على الأكل معه وعلى أَن نأخذ في شأننا. فدخل حاجبي فقال: رسول الأمير إسحاق بن إبراهيم بالباب، وإذا فُرانِقٌ يذكر أَنه وجَّه به إلى محمد بن الفضل ليُحضِره. قال: فقال لي إسحاق: قم في حفظ اللَّه واجتهد في أن تتعجَّل. قال: فتقدّمت إلى الخادم بإخراج الجواري إليه ووضع النبيذ بين يديه، ولبِستُ ثيابي وخرجت وركِبت. فلمَّا سِرتُ قليلاً قلت في نفسي: أَنا أخسرُ الناسِ صفقةً إن تركتُ إسحاقَ بن إبراهيم الموصليّ في منزلي ومضيتُ إلى إسحاق بن إبراهيم المُصعَبيّ، ولا أدري ما يريد مني. فقلت لفُرانِق: هل لك في خير؟ قال: وما هو؟ قلت: تأخذ ثلاثين درهماً وتمضي فتقول: إنك وجدتني شاربَ دواءٍ. قال: نعم. فدفعتُ إليه ثلاثين درهماً، وختمتُ له خَتماً ورجعت. فقال لي إسحاق: أسرعتَ الكرَّةَ، فأخبرته بما صنعتُ؛ فقال وُفِّقتَ. فجلست وكان يأكل فأكلت معه، فأخذنا في شأننا. وخرج الجواري إلينا فغنَّين حتى مرّ صوت إبراهيم بن المهديّ في شعره وهو:

جَدَّدَ الحبُّ بَلايا أمرُها ليس يسيرا

[مجزوء الرمل]

ـ ولحنه من الثقيل الثاني ـ قال: فطرِب إسحاق طرباً ما رأيتُه طَرِب مِثله قطّ، وعجب من إحسانه في صَنعته وجودة قسمته، ولم يزل صوتَنا يومَنا أجمع لا نغنّي غيرَه حتى شرِب إسحاق قَطرَميزَه، وفيه من المشمَّس الذي كان يشربه ثلاثة عشر رطلاً، وكلَّما حضرتْ صلاةٌ قام إسحاق يصلي بنا، فصلَّى بنا العَتَمةَ وقد فنيَ قَطرَميزهُ فشرب من نبيذي رِطلين على

الصوت. قال: وكان محمد بن الفضل ينزل بسوقِ الثلاثاء وإسحاق ينزل على نهر المهدي. وقد وُزّر محمد بن الفضل للمتوكِّل قبل عبيد اللَّه بن يحيى.

نسبة هذا الصوت

جَـدَّدَ الـحـبُّ بـلايـا أمـرُهـا لـيـس يـسـيـرا
كـبِـرَ الـحـبُّ وقِـدْمـاً كـان إذ حـلَّ صـغـيـرا
ذلَّـلَ الـحـبُّ رِقـابـاً كـان أدنـاهـا عـسـيـرا
لـيـس لـي مـن حـبِّ إلـفـي غـيـرُ حـرمـانـي الـسـرورا

[مجزوء الرمل]

الشعرُ والغناءُ لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيل.

أخبرني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني محمد بن مُوسى بن حَمَّاد قال حدثني عبد الوهَّاب بن محمد بن عيسى قال:

إستتر إبراهيم بن المهدي عند بعض أهله من النساء، فوكَّلتْ بخدمته جاريةً جميلةً وقالت لها: إن أرادكِ لشيءٍ فطاوعيه وأعلميه ذلك حتى يتسعَ له، فكانت تُوفّيه حقَّه في الخدمة والإعظام ولا تُلمه بما قالت لها؛ فجلّ مقدارُها في نفسه إلى أَن قبَّل يوماً يدَها، فقبَّلَتِ الأَرضَ بين يديه. فقال:

يـا غـزالاً لـي إلـيـهِ شـافـعٌ مـن مُـقـلَـتَـيْـهِ
والـذي أجـلـلـتُ خَـدَّ يْـه فـقـبَّـلـتُ يَـدَيْـهِ
بـأبـي وجـهُـك مـا أكـ ـثـر حُـسَّـادي عـلـيْـهِ
أَنـا ضـيـفٌ وجـزاءُ الـضَّـ ـيـف إحـسـانٌ إلـيْـهِ

[مجزوء الرمل]

قال: وعمل فيه بعد ذلك لحناً في طريقة الهَزَج.

وقال أَحمد بن أبي طاهر:

غنّى إبراهيم بن المهدي يوماً والمأمون مُصطبحٌ، وقد كان خافه وبلغه عنه تنكُّره:

ذهـبـتُ مـن الـدنـيـا وقـد ذهـبـتْ مـنّـي هَـوَى الـدهـرُ بـي عـنـهـا وولَّـى بـهـا عـنّـي

فرَقّ له المأمون لمَّا سمعه، وقال له: واللَّه لا تذهب نفسُك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين، فَطِبْ نفساً؛ فإن اللَّه قد أَمَّنك إلَّا أن تُحدِث حَدَثاً يشهد عليك فيه

عَدْلٌ، وأرجو أَلَّا يكون منك حَدَثٌ إن شاء اللَّه.

نسبة هذا الصوت

صـــوت

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منّي هوى الدَّهرُ بي عنها وولَّى بها عنّي
فإن أَبكِ نفسي أَبكِ نفساً نفيسةً وإن أحتَسِبْها أَحتسِبها على ضنّ
[الطويل]

الشعر والغناء لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيل بالوسطى. وهذا الشعر قاله إبراهيم بن المهدي لمَّا أخرج الجُندُ عيسى بن محمد ابن أَخي خالد من الحبس، وله في ذلك خبر طويل، وقد شَرَطنا أَلَّا نذكر من أخباره إلَّا ما كان من جنس الغناء. وفي هذه القصيدة يقول:

وأَفلَتَني عيسى وكانت خديعةً حَلَلْت بها مُلكي وفُلَّتْ بها سِنّي
[الطويل]

قال ابن أبي طاهر وحدثني أَبو بكر بن الخصيب قال حدثني محمد بن إبراهيم قال:

غنّى إبراهيم بن المهدي يوماً عند المأمون فأحسن، وبحضرة المأمون كاتبٌ لطاهر يُكنى أَبا زيد، فطرِب حتى وثب فأخذ طرَف ثوب إبراهيم فقبَّله. فنظر إليه المأمون مُنكِراً لفعله. فقال ما تنظر! أَقبِّلُه واللَّه ولو قُتِلتُ عليه! فتبسم المأمون؛ وقال: أَبَيتَ إلا ظَرفاً.

قال ابن أبي ظاهر وحدثني علي بن محمد قال سمعتُ بعض أَصحابنا يقول:

إجتمع إبراهيم بن المهدي والحسن بن سَهل عند المأمون؛ فأَراد الحسنُ أَن يَضَع من إبراهيم فقال له: يا أَبا إسحاق أَيّ صوت تغنِّيه العربُ أحسنُ؟ يريد بذلك أن يُشَهِّر إبراهيمَ بالغناء والعلم به. فقال إبراهيم: بيت الأعشى:

تَسمَع للحَلي وَسْواساً إذا انصرفتْ

أي إنك مُوَسوِس، وكان بالحَسَن شيءٌ من هذا.

أخبرني عمي عن جدّي عن عليّ بن يحيى المنجِّم قال:

غنَّت مُغنِّية وإبراهيم بن المهدي حاضر:

مَـــن رأى نُـــوقـــاً غـــدَت سَـــحَـــرا

فقال إبراهيم: أَنا رأَيتُ هذا. قيل له: وأين رأيتَه أَيها الأمير؟ قال: رأيتُ ولد عليّ بن رَيطة يَمضون في السَّحَر إلى الصيد.

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثني الحسن بن عُلَيل العنزيّ قال حدثني بعضُ الكتَّاب عن رَيِّقَ قالت:

خرجتُ يوماً إلى سيِّدي (تعني إبراهيم بن المهديّ) وقد صنع لحنه في:

وإذا تُـبـاع كـريـمـةٌ أو تُـشـتـرى فـسـواك بـائـعُـهـا وأَنـت الـمُـشـتـري
وإذا صـنـعـتَ صـنـيـعـةً أتـمـمـتَـهـا بـيـديـن لـيـس نَـداهـمـا بـمُـكَـدَّرِ

[الكامل]

وجاريةٌ لنا روميَّة أعجميَّة لا تُفصِح في أقصى الدار تكنُس، وهو يطرح الصوت على شارية، والأعجميَّة تبكي أحرَّ بكاء سمعتُه قطّ، فجعلتُ أعجَب من بكائها وأنظر إليها حتى سكَتَ، فلما سَكت قطَعَتِ البكاء، فعلِمتُ أَنّ هذا من غَلَبته بحسن صوته لكل طبعٍ فصيحٍ وأَعجميٍّ.

أَخبرني الحسين بن يحيى وابن المكيّ وابن أبي الأزهر عن حمَّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

غنّى إبراهيم بن المهديّ ليلةً محمداً الأمين صوتاً لم أَرْضَه في شعر لأبي نُواس وهو:

يـا كـثـيـرَ الـنَّـوح فـي الـدِّمَـنِ[1] لا عـلـيـهـا بـل عـلـى الـسَّـكَـنِ
سُـنَّـةُ الـعُـشَّـاق واحـدةٌ فـإذا أحـببـتَ فـاْسْـتَـكِـنِ
ظَـنّ بـي مـن قـد كَـلِـفـتُ بـه فـهـو يـجـفـونـي عـلـى الـظِّـنـنِ
رَشَـأٌ لـولا مـلاحـتُـه خَـلَـتِ الـدُّنـيـا مـن الـفِـتـنِ

[المديد]

فأمر له بثلثمائة ألف درهم. قال إسحاق فقال إبراهيم له: يا أَمير المؤمنين قد أَجَزتَني إلى هذه الغاية بعشرين ألف درهم، فقال: هل هي إلا خراج بعض الكُوَر! هكذا ذكر إسحاق. وقد روى محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر هذه الحكاية عن إبراهيم فقال: لمَّا أردتُ الانصراف قال: أَوقِروا زورق عمّي دنانيرَ، فانصرفتُ بمال جليل.

(١) الدِّمَن: آثار الدار.

أخبرني أَبو الحسن عليّ بن هارون قال ذكر لي أَبو عبد اللَّه الهِشاميّ عن أهله قال: قال إبراهيم بن المهديّ ـ وقد خرج إلى ذكر الطِّبل والإِيقاع به ـ فقال إبراهيم:

هو من الآلات التي لا يجوز أن تُبلغ نهايتُها. فقيل له: وكيف خُصَّ الطَّبل بذلك؟ فقال: لأن عمل اليدين فيه عملٌ واحد، ولا بُدَّ من أَن يَلحَقَ اليسارَ فيه نَقصٌ عن اليمين، ودعا بالطبل ليُرِيَنا كيف ذلك فأوقَع إيقاعاً لم نكن نظنّ أَن مثلَه يكون، وهو مع ذلك يرينا موضعَ زيادة اليمين على اليسار. قال: وقال له الأمين في بعض خَلَواته: يا عمّ أشتهي أن أراك تَزمُر. فقال: يا أَمير المؤمنين، ما وضعتُ على فمي نايا قطّ ولا أَضَعُه، ولكن يدعو أمير المؤمنين بفلانة ـ من موالي المهديّ ـ حتى تَنفُخ في الناي وأُمِرّ يدي عليه. فأُحضِرتْ ووضعت الناي على فيها وأمسكه إبراهيم، فكلما مَرّ الهواء أَمَرّ أصابعَه، فأجمع سائرُ من حضر على أنه لم يسمع مثلَه قطّ.

وأخبرني أبو الحسن عليّ بن هارون أيضاً قال حدثني أَبي قال حدثني عبيد اللَّه بن عبد اللَّه وأَبو عبد اللَّه الهِشاميّ قالا:

كان إبراهيم بن المهديّ إذا غنّى لحنه:

هل تَطمِسون من السماء نُجومَها بأكفِّكم أَو تَستُرون هلالَهَا

[الكامل]

فبلغ إلى قوله:

جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالَهَا

هَزَّ حَلقة فيه ورجّعه ترجيعاً تَتزلزل منه الأرضُ.

أَخبرني محمد بن إبراهيم قُرَيض قال حدثني عبد اللَّه بن المعتزّ قال حدثني الهِشاميّ قال:

كانت متيّم الهشاميَّة ذات يوم جالسة بين يدي المعتصم ببغداد وإبراهيم بن المهديّ حاضرٌ، فتغنَّت متيّم في الثقيل الأول:

لزينبَ طيفٌ تَعترينـي طوارقُهْ

فأشار إليها إبراهيم أَن تُعيده. فقالت متيّم للمعتصم: يا سيِّدي إن إبراهيم يَستعيدني الصوتَ وأظنّه يريد أن يأخذه. فقال لها: لا تُعيديه. فلما كان بعد أَيام كان إبراهيم حاضراً بمجلس المعتصم وكانت متيّمُ غائبةً عنه، فانصرف إبراهيم بالليل إلى منزله ومتيّم في منزلها بالميدان وطريقُه عليها وهي في مَنظَرةٍ لها مُشرِفةٍ على الطريق

وهي تَطرَح هذا الصوتَ على بعض جَواري بني هاشم، فتقدّم إلى المَنظرة على دابّته وتَطاول حتى أخذ الصوتَ، ثم ضرب بابَ المنظرة بمِقرَعته وقال: قد أخذناه بلا حَمدك.

نسبة هذا الصوت

لـزيـنـبَ طـيـفٌ تَـعـتـريـنـي طـوارِقُـهْ هُـدُوءًا إذا النَّـجـمُ ٱرجَـحـنَّت[1] لـواحِـقُـهْ
سَـيُـبـكـيـك مِـرنـانُ[2] الـعـشـيّ يُـجـيـبُـه لـطـيـفُ بـنـانِ الـكـفّ دُرمٌ مَـرافـقُـهْ
إذا مـا بِـسـاطُ الـلَّـهـوِ مُـدّ وقُـرِّبـت لـلـذّاتـه أنـمـاطُـه ونَـمـارقُـهْ

[الطويل]

الشعر للنّمَيريّ. والغناء لمعبد، ولحنُه من القَدْر الأوسط من الثقيل الأول بالبنصر في مجراها عن إسحاق. وفيه لمالك خفيفُ ثقيل أول بالبنصر عن يونس والهِشاميّ.

أَخبرني عليّ بن هارون قال حدثني عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر قال:

كان محمد بن موسى المُنجِّم يقول: حكَمتُ أنّ إبراهيم بن المهديّ أحسنُ الناس كلّهم غناءً ببرهان، وذلك أنّي كنتُ أَراه بمجالس الخلفاء مثلِ المأمون والمعتصم يغنّي المغنون ويغنّي، فإذا ٱبتدأ الصوت لم يبقَ من الغلمان والمُتصرِّفين في الخدمة وأصحاب الصناعات والمِهَن الصِّغار والكِبار أحدٌ إلَّا تَرَك ما في يده وقَرُب من أَقرب موضع يمكنه أَن يَسمَعَه، فلا يزال مصغِياً إليه لاهياً عمَّا كان فيه ما دام يُغني، حتى إذا أمسك وتَغنَّى غيرُه رجَعوا إلى التشاغُل بما كانوا فيه ولم يلتفتوا إلى ما يسمعون. ولا برهانَ أقوى من هذا في مثل هذا من شهادة الفِطَن له واتِّفاق الطبائع ـ مع اختلافها وتشعُّب طُرُقِها ـ على الميل إليه والانقياد له.

حدثني أَحمد بن جعفر جَحظة قال حدثني هِبةُ اللَّه بن إبراهيم بن المهديّ قال:

قلتُ للمعتصم: كانت لأبي أَشياء لم يكن لأحدٍ مثلها. فقال: وما هي؟ قلت: شارية وزامِرَتُها مَعمَعةُ. فقال: أمَّا شارية فعندنا، فما فعلت الزَّامرة؟ قلت: ماتت. قال: وماذا؟ قلت: وساقِيَتُه مَكنونة، ولم يُرَ أحسنُ وجهاً ولا أليَنُ ولا أَظرفُ منها. قال: فما فَعَلَتْ؟ قلت: ماتت. قال: وماذا؟ قلت: نخلةٌ كانت تحمِل رُطَباً طولُ الرُّطبةِ منها شبر. قال: فما فعلت؟ قلت: جَمَّرتُها بعد وفاته. قال: وماذا؟ قلت:

(١) إرجحنَّت: مالت نحو جهة المغرب. (٢) مِرنان: كثير إصدار الرنين.

قَدَحُه الضَّحْضاح. قال: وما فعل؟ قلت: الساعةَ واللَّه حَجَمني فيه أَبو حَرْملة فسألته أن يَهبَه لي ففعل، ووجّهتُ به إلى منزلي فغُسِلَ ونُظِّفَ وأُعيد إلى خِزانتي، فرأيتُ أَبي فيما يَرى النائمُ في ليلتي تلك وهو يقول لي:

أيُتْرَعُ ضَحضاحي[1] دماً بعد ما غَدَتْ عليّ به مكنونةٌ مُتْرَعاً خمْرَا
فإن كنتَ منّي أو تحبّ مَسَرَّتي فلا تُغفِلَنْ قبل الصباح له كَسْرَا

[الطويل]

فٱنتبهتُ فَزِعاً وما فَرَق الصبح حتى كسرتُه.

فأمَّا المُماظَّة[2] التي كانت بينه وبين إسحاق فقد مضى في خبر إسحاق منها طَرَفٌ. ونذكر هاهنا منها ما جرى مجرى محاسنِ إبراهيم والقيامِ بحجَّته إن كانت له، وعذره فيما عيب عليه لأنه بذلك حقيق. فمن ذلك نسختُ من كتابٍ أعطانيه أَبو الفضل العباس بن أَحمد بن ثَوابة رحمه اللَّه بخطّ إسحاق في قِرْطاس ـ وأنا أعرف خطَّه ـ وجوابٍ لإبراهيم بن المهدي في ظهره بخطٍّ ضعيف وأظنُّه خطَّه؛ لأنه لو كان خطّ كاتبٍ لكان أجود من ذلك الخطّ، وقد ذهب أوّلُ الكتاب فذهب منه أوّلُ الابتداء والجواب، ونسختُ بقيَّتَه؛ فكان ما وجدتُه من ٱبتداء إسحاق:

وكنتَ ـ جُعِلتُ فِداءك ـ كتبتَ في كتابك إلى محمد بن واضح تذكر أنك مولاي وسيدي. فمتى دفعتُ ذلك! وهل لي فخرٌ غيره! أَو لأحدٍ عليّ وعلى أَبي رحمه اللَّه من قبلي نعمةٌ سواكم!. وأُحِبُّ ذلك أن يكون، وأرجو أن أموت قبل أَن يَبتليَني اللَّه بذلك إن شاء اللَّه. فأمَّا ذِكرُك ـ جُعِلْتُ فداءك ـ الصناعةَ فقد أجلَّ اللَّه قدرَك عن الحاجة إلى دفعها والاعتذار عنها. وأمَّا أَنا المسكين فأنت تعلم أني لم أتّخذ ما نحن فيه صناعةً قطّ، وأني لم أُردها إلَّا لكم شكراً لنعمتكم وحبّاً للقرب منكم وإليكم. فليس ينبغي أن يَعيبني ذلك عندكم، ولا يجوز لأحدٍ أن يعيبني به إذ كان لكم. وقد علمتُ أنك لم تضعني من عَلّويه ومُخارق بحيث وضعتَني إلَّا لغضبٍ أحوَجك إلى ذلك، وإلَّا فأنت تعلم أنهما لو كانا مملوكَين لي لآثرتُ تعجيلَ الرَّاحةِ منهما بعتقهما أو تَخلِيَةِ سبيلهما على ثمنٍ أُصيبه ببيعهما أو حَمْدٍ أكتسبه بثمنهما، فكيف أظنّ أني عندك مثلهما، أَو أَنك تَقرِنُني إليهما وتذكرني معهما! أَوَ تلومني الآن على أَن أَخْرَس فلا أنطِق بحرف، وأن أفِرّ من الغناء فِرارَك من الخطإ فيه، وأمتعضَ منه ٱمتعاضَك ممن

(١) الضحضاح: الماء اليسير وهو هنا كناية عن القدح أو الإناء.
(٢) المُماظَّة: المنازعة والمخاصمة.

يُخفي عليك شيئاً من علومه! . كيف تَرى ـ جُعِلْتُ فِداءك ـ الآن سِبابي وأنت ترى أنَّ أحداً لا يُحسن السَّبَّ غيرُك! . قد أحدثتَ لي ـ جعلتُ فداءك ـ أدباً وزِدتَني بصيرةً فيما أحِبُّ من تَركِه وتركِ الكلام فيه. فإن ظننتَ أنّ هذا فِرارٌ من الحجَّة وتَعريدٌ[١] عن المناظرة، كما قلتَ، فقد ظفِرت وصرت إلى ما أحببت؛ وإلَّا فإنه لا ينبغي للحرّ أن يتلهَّى بما لا تقوم لذَّته بمعَرَّته، ولا لعاقلٍ أن يبذل ما عنده لمن لا يحمده، ولعلَّه لا يقلِّب العينَ فيه حتى يلحقَه ما يكره منه. وأمَّا ما قاله أَبي ـ رحمه اللَّه ـ من أَنه لم يزل يتمنَّى أن يرى من سادته مَن يعرِف قدرَه حقَّ معرفته ويبلغ علمه بهذه الصناعةِ الغايةَ العظمى حتى رآك، فقد صدَق، ما زال يتمنّى ذلك وما زلتُ أتمنَّاه. فهل رأيت ـ جُعِلْتُ فِداءك ـ حظِّي منه إلَّا بأن ساويتَ به من لم يكن يساوي شِسعَه، ولعلك لا ترضى في بعض القوم حتى تفضِّله عليه، لا تنفعه عندك معرفةٌ به، ولا رعايةٌ لطول الصُّحْبة والخِدمة، ولا حفظٌ لآثارٍ محمودةٍ باقيةٍ نذكرها ونحتجُّ بها. ثم ها أَنا من بعده تَضَعُني بالموضع الذي تضعني به، وتنسُبني إلى ما تنسبني إليه؛ لأني توخَّيتُ الصوابَ واجتهدتُ في البَذْل والمناصحة، لا يدفعك عنّي حِفظٌ لسَلَفٍ، ولا صيانة لخلَفٍ ولا استدامةٌ لقديم ما نعلم، ولا مصانعةٌ لما تطلب، ولا ولاء مما أكره أن أقوله. فما أرى ـ جُعِلْتُ فِداءك ـ من معرفتك بما في أيدينا إلَّا تجرُّعَ الحسرات، وتَطَلُّبك لنا العثرات، واللَّهُ المستعان. كيف أصنع جُعِلتُ فداءك! إن سكَتُّ لم تقبل ذلك مني، وإن صدَقتُ كذَّبتني، وإن كذبتُ ظفرتَ بي، وإن مَزَحتُ لأُطربك وأُضحكك وأَقرُبَ من أُنسِك وآخذَ بنصيبي من كرمك غضِبتَ وسببتَ، ولو كنتُ قريباً منك لضَرَبْتَ! وليتك فعلتَ، فكان ذلك أَيسرَ من غضبك. ثم من أعظم المصائب عندي أمرُك إيّايَ أَن أَسأل محمد بن واضح عن قولٍ قُلتَه فيَّ عند عمرو بن بانة. فواللَّه ـ جُعِلتُ فداءك ـ إني لأبشَع[٢] بذكره فكيف أُحِبُّ أَن أذكره وأُذكر له! وإني لأرثي لك من النظر إليه، وأَعجب من صبرك عليه، مع أَني ـ أعوذ باللَّه من ذلك ـ لو رغبتُ في هذا منه ومن مثله لكفيتُك ونفسي ذلك بأن أكسُوَه ثوبين، أَو أهبَ له دينارين، أو أقول له أحسنت في صوتين، حتى نبلغ أَكثر مما أردت لي أو أريده لنفسي. فالحمدُ للَّه الذي جعل حظِّي منك هذا! ومثله غير مستَصْغِر لشأنك ولا مستقلٍّ لقليل حسن رأيك. واللَّهَ أسأل أن يطيل بقاءك، ويحسن جزاءك، ويجعلني فداءك. قد طال الكتاب، وكثر العِتاب. وجملة ما عندي من الإعظام والإجلال اللَّذين لا أخاف أن أَجعلهما عندك، والمحبة

(١) التعريد: الإعراض أو الفِرار.

(٢) أبشع بذكره: سئم من ذكره وضاق به ذرعاً.

التي لا أمتنع منها ولا أَعرف سواها، والسمع والطاعة في تسليم ما تحب تسليمه والإقرار بما أحببتَ أَن أقرّ به، وسأُشهد على ذلك محمد بن واضح وأُشهِد لك به من أحببتَ وأؤدّي الخَراج. ولكن لا بدّ من فائدة وإلَّا ٱنكسر، فهات ـ جُعِلتُ فداءك ـ وأوفِ وٱستوفِ فإنك واحدٌ صحةً وٱستقامةً إن شاء اللَّه. مدّ اللَّه في عمرك، وصبَّرني عليك، وقدّمني قَبلَك، وجعلني من كل سوء فداءك.

نسخة جواب إبراهيم بعد ما ذهب منه

. . . وأيَّةُ سلامةٍ أقدِر لك عليها إلَّا أسوقها إليك، أعطاني اللَّه ما أُحِبُّ من ذلك لك. فأمَّا أن أتكلَّم من ورائك بشيء تستثقله متعمِّداً؛ فما أَنا إذاً بحُرٍّ ولا كريم، معاذَ اللَّه من ذلك! ولئن جمعني وإيَّاك وعليَّ بنَ هشام مجلسٌ لأستشهدَنَّه على أَشياء لم أذكرها لك، ولم أكتب بها إليك، إجلالاً لقَدْرِ حالِك عندي من ٱعتدادٍ بمثل ذلك مني، وأنت عنه غافل، واللَّه به عليم. وأما الرشوة فأرجو أن تجيبك على ما تشتهي آتاك اللَّه ما تحب فيما تحب وتكره وجعلك له شاكراً. وأمَّا الفوائدُ التي وعدتَ ورودَها علينا فإني لواثقٌ أنك لا تُفيدني شيئاً فأنظر فيه إلَّا وجدتُني فيه فَطِناً أجيد تفتيشه وأعرف كُنْهَه وأُفيدك فيه وفيما ٱستنبطتَ منه ما لا تجد عند نفسك أكثر منه، فأما غيرك فالهباءُ المنثور. ويا رأس المُشَنِّعين تقول إني عيَّرتُك بالصناعة ثم تحتج بحِذْقك في تحريف الأقوال وٱكتساب الحجج، لتُفْحِم خَصمك، وتُعلي حُجَّتك، فكيف أَعِيبك بحاجتي إليك، وما أَنا داخل فيه معك! لا! ولكني قلت لك: إني لستُ كفلان وفلان ممن لو كان عنده أَمر ينازعك به ثَقُل عليك، إنما أَنا رجل من مواليك متوسّلٌ إليك بما يسرُّك، أو كصاحبٍ لك تناظره بما تحب أن تجد من تناظره فيه، فليكن ذلك بالإنصاف وطلبِ الصواب أصبتَه أَو أخطأَته؛ لا بالحَميَّة والأنفة والحيلة لترُدَّ الحقّ بالباطل. هذا معنى قولي؛ وقد ٱستشهدتُ عليك فيه أَبا جعفر، وجاءني كتابُك وهو عندي يشهد لي. والكتابُ الذي هذا فيه بخطِّي عنده لم يَرُدَّه عليّ، فتتبَّعْ ما فيه وخُذني به. فلعمري لئن كنتُ قرَنتُك بمن ذكرتَ لأعيبَك بالتشبيه لك بهم ما عِبتُ غيرَ رأيي، ولا جهَّلتُ غيرَ نفسي. ولستُ أعتذر من هذا لأنك تشهد لي بالحقّ فيه، وإنما تريد أن تخصِمَني بلا حُجَّة، فيكفيني عِلمك بما عندي، وإلّا فأنت إذاً بي أجهلُ منّي بك. وقلتَ: «تذكرني معهما» فقد ذكر اللَّهُ النارَ مع الجنة، وموسى مع فرعون، وإبليس مع آدم، فلم يَهُن بذلك موسى ولا آدمُ ولا أكرِم فرعونُ وإبليس، فأعفني من المغالطة لي والتحريف لقولي، وٱستمتعْ بي وأمتِعْني بالمصادقة. فإن أَنت لم تفعل بقيتَ واحداً مستوحشاً، ولم تجد غيري إن علم ما تعلم لم يَنقُصْكَ، وإن

علم أكثر منك لم يَشِنك، وإن أفهمته كافاك، وإن استفهمته شفاك. لا واللَّه ما أردتُ إلا ما ذكرتُه لك، ولا أحسَبك طننتَ فيَّ غير ذلك؛ لأنك لا تجهلني فأنا عندك غير جاهل. وواحدة هي لك دوني، وواللَّه ما كنت أبالي ألَّا أَسمع من مُخارق وعلّويه شيئاً حتى أسمع بنعيهما، ولا أراهما حتى أراهما مَيِّتَين، وما في هذا غيرُك والإعظامُ لك والإكرامُ. وذلك أنهما كانا لك غلامين فصيَّرتَهما نِدَّين تقول فيهما ويقولان فيك، وإنَّما هما صَنيعتاكَ وخِرّيجا تأديبك وإن كانا غير طائل. فلو أعرضتَ عن ٱنتقاصهما ورفعتَ ما رفع اللَّه من قدرك عن الإفراط في عيبهما، لكان ذلك أشبهَ بك وأجملَ بمحلِّك وخطرك ومكانك. وكذلك الذي ترثي له منه وصاحبُه محمد بن الحارث، فواللَّه ما أُحِبُّ لك في أدبك وفضلك ودينك ومحلِّك أن تُشَهِّر نفسك لهما بهذا ومثلِه، وأن ينتهيَ إليهما ذلك عنك. أقول يعلم اللَّه في ذلك لا لهما. وإنَّ ذلك، لو صرتَ إليه، لأجملُ بك وأجلُّ لقدرك وإن كنت لتَتَخَوَّلُهما به. ولو أردتَ ذلك، وإن زَهِدتَ فيه، لم تَضَعْ نفسك ومحلَّك مع غِلمانٍ أَحداثٍ يبسُطون ألسنتهم فيك بما بسطته منهم على نفسك، ولو لم تفعل كنتَ أعظمَ في عيونهم من بعض مواليهم الذين تولَّوْا مِنَّتَهم. هذا رأيي لك بما هو أكبرُ لأمرك وأشبه بمحلِّك. وواللَّه ما غشَشْتُك ولا أوطأتُك عَشواءَ، فٱختر لنفسك ما رأيتَ. ولا واللَّه لا سَمِعَا بهذا أَبداً ولا بما قلتَه فيَّ إلَّا خَزِيَا حتى يموتا، ولا أردتُ ـ يشهد اللَّه ـ بهذا غيرَك. وأمَّا مَن ذكرتَ أَنّي أسوّيه بأبي إسحاق رحمه اللَّه وهو لا يساوي شِسعَه فإنك عَنَيتَ ابنَ جامع. وأنت لا تدخل بيني وبين أَبي إسحاق رضي اللَّه عنه، ولا أظنك واللَّه أشدَّ حبّاً له منّي، ولا كان لك أشدّ حبّاً منه لي، فقد تعلم كيف كان لي، ولكن لا أظلم ابنَ جامع كما تظلمه أَنت يا أَظلم البشر. ولئن ضمِنتَ أن تُنصِفَني لأكلمنَّك فيه بما لا تدفعه، ولكنّي لا أكلِّمك في شيء حتى أَثِقَ بهذه منك، وإلَّا وَسِعني من السكوت ما وسعك. ومن العجب الذي لم أَرَ مثله والمكابرة التي لا يشبهها شيء إعتداؤُك عليَّ في التجزئة حيث تقول:

حَـيِّـيـا أمَّ يَـعَـمـرا قَـبـل شَـحْـطٍ[1] مـن الـنَّـوى

[مجزوء الخفيف]

يا أَخي وحبيبَ نفسي فٱنظرْ كم في هذا من العيوب!! قولُك: «ييا» ليكون مثل «شَحطٍ» في الوزن، أيكون مثل هذا في الكلام! وقولك في الجزء الثاني «حَيّ» حتى يكون مثل «قبل»، هل يكون مثل هذا! أو ليس في «ييا» المشدّدة أربع ياءات، وفي «حَيّ» التي عطفتَ بها ثلاثٌ فتصير سبع ياءات، وإنما هي ثلاث في الأصل: الياء

(١) الشحْط: البُعْد.

المشدّدة وياء الاثنين حيث تقول «حييا»! . والناس في هذا بيني وبينك بهائم، فمَن أَستعدي عليك! ولو أنصفتَ لعلمتَ أنَّه لا يمكن في:

حَـــيِّـــيـــا أمَّ يَـــعـــمَـــرا

غيرُ ما جزَّأتُ أَنا إلَّا بهذا الغلط الذي يحول من تحريك ساكنٍ تجعله أوّلَ الكلام فقد زدتَ قبله حرفاً، أو تسكينِ متحرّك فتزيد بعده حرفاً؛ كقولك «أم يعمرا قابل شحطن» حيث جعلت قبل الباء ألفاً، وكقولك «أم يعمون قَبْلَا» فزدتَ الألف لتسكتَ عليها لأن السكوت على متحرّك لا يمكن. فأيَّةُ حُجَّةٍ هذه! أَو مَن يصير لك على هذا! وإنما أردتُ أَنا ما يجوز فجئني بتجزئةٍ واحدةٍ، لا أريد غير ذلك منك. ما لك يا أَخي تَنفَس عليَّ الصوابَ فيما لا نَقِيصةَ عليك فيه ولا عيب، ثم ٱتخذتَ تحمُّدي إليك، بما قلتُ لك أَن تسأل محمداً عن قولي فيك بظهر الغيب، ذنباً بطبعك على الظلم والتحريف؛ حتى كأني أعلمتُك أن أَحداً تنقَّصَك فحميتَ لذلك، ولم يكن غير الردّ عليه. واللَّه ما مثلي يَمُنّ بهذا، ولكنّي كنتُ إذا تحدَّثتُ مع محمد خالياً كلَّمتُه بمثل ما أكلِّمك به من الردِّ والجدَل، فلما كان عندنا مَن يُحتَشَم كان كلامي بما يجب أن أَتكلَّم به من الإكرام والتقديم، فقال لي: أيُّ شيء هذا الذي أرى؟ فقلت له: هذا كلام الحشمة وذلك كلام الأنس. فأردتُ بإعلامك هذا أن تعلم أَنّي لا أريد بما أنازعك فيه شيئاً يَزيغ عما تعرف منّي، وأني أذكرك بما يُشبهك في موضعه. فلو ٱتَّقيتَ اللَّه وأبقيتَ على الإخاء لَما كنتَ تحرّف هذا بشيء، وهو جميل أرضاه من نفسي، فتصيّره قبيحاً تريد أن أعتذر إليك منه.

وأما أداء الخَراج والإشهاد، فهذا شيء لم أطلبه منك، إنما أنت طلبته منّي ظالماً لي. وذلك لأني لم أنازعك إلَّا منازعةَ مناظرٍ يُحبُّ أن يعرف حسنَ فحصه وثاقبَ نظرِه.

وأمَّا الرّياسةُ فقد جعلها اللَّه لك على أهل هذا العمل، ولا رياسة لي عليهم ولا لك عليّ؛ لأني في العلم مناظر وفي العمل متلذّذ. فلا تظلمني ولا نفسك لي.

ومن بعدُ فإني أُحِبُّ أن تخبرني كيف أَنت اليوم بعدُ. واللَّه غممتني، لا غمَّك اللَّه ولا غمَّني بك. ولو شئتَ أرسلتَ إلى يحيى بن خالد طبيبِ أخي عُبيد اللَّه فإنه رفيقٌ مُبارَكٌ عَليم، وهو منك قريب في دار الروم، فأخذتَ برأيه ومن علاجه. وهَب اللَّه لك العافيةَ ووهبها لي فيك برحمته.

وإنما ذكرتُ هذا الابتداءَ وجوابَه على طولهما، وهما قليلٌ من كثير من

مكاتباتهما، لتعرف بهما طَرَفاً من مقدارهما في المنازعة والمجادلة، وأَن إسحاق كان يريد من إبراهيم التواضُعَ له والخُنوعَ برياسته ويتحامل عليه في بعض الأوقات، وينحو إبراهيم نحوَ ما فعله به؛ لأن نفسه تأبى ما يريده إسحاق منه، فيستعمل معه من المباينة مثلَ ما ٱستعمله، ويكونان في طَرَفَين من الظلم يُبعِدُ كلَّ واحدٍ منهما عن إنصاف صاحبه. وقد روَى يوسف بن إبراهيم أخباراً فيما جرى بينهما ـ فوجدتُ كلامَهما مرصوفاً رَصفَ إبراهيم بن المهدي ومنظوماً نَظْمَ مَنطِقِه ـ فيها تحاملٌ على إسحاق شديدٌ، وحكاياتٌ يَنسُبُ مَن نَقَلَها إلى جهلٍ بصناعته كان إسحاق بعيداً من مثله، فعلمتُ أن إبراهيم عمل ذلك وألَّفه وأمر يوسفَ بنشره في الناس ليدور في أَيديهم ذكرٌ له يفضُل به. وذلك بعيدٌ وقوعُه، ولن تُدفَع الحقائق بالأكاذيب، ولا يُزيل الخطأ الصوابَ، ولا الخطلُ السدادَ. وكفى مَن نضَح عن إسحاق بأن أَغاني إبراهيم بن المهدي لا يكاد يُعرَف منها صوتٌ ولا يُروى منها إلَّا اليسير، وأَنّ كلامَه في تجنيس الطرائق ٱلطُّرح، وعُمِل على مذهب إسحاق، وٱنقضى الصُّنعُ لإبراهيم بذلك مع ٱنقضاء مدَّته، كما يضمحلّ الباطلُ مع أهله. فعدَلتُ عن ذكر تلك الأخبار؛ لا لأنها لم تَقَعْ إليَّ، ولكنها أخبار يتبين فيها التحامل والحنَق؛ وتتضمن من السبّ لإسحاق والشتم والتجهيل ما يعلم أنه لم يكن يقضي على مثله لأحد ولو خاف القتل، فاستبردتُ ذلك وٱطَّرحته، وٱعتمدتُ من أخبار إبراهيم على الصحيح، وما جرى مجرى هذا الكتاب من خبرٍ مستحسنٍ وحكايةٍ طريفةٍ دون ما يجري مجرى التحامل؛ فقد مضى في صدر الكتاب من أخبارهما وإغصاصِ إسحاق إيَّاه بريقه وتجريعه أَمَرَّ من الصبر ما ينبئ عن بطلان غيره.

* * *

وممن صنع من أولاد الخلفاء عُلَيَّةُ بنتُ المهدي، ولا أعلم أحداً منهم بعد إبراهيم أَخيها كان يتقدّمها. وكان يقال: ما ٱجتمع في الجاهلية ولا الإسلام أَخٌ وأختٌ أَحسنُ غناء من إبراهيم بن المهدي وعُلَيَّة أُختِه. وأخبارُها تُذكر بعد هذا تاليةً لما أذكره من غنائها. فمن صنعتها:

صـــوت

تـضـحـك عـمَّـا لـو سَـقَـتْ مـنـه شَـفَـا ... مـن أُقـحـوانٍ بَـلَّـهُ قَـطْـرُ الـنَّـدى

أَغـرَّ يـجـلـو عـن غِـشَـا الـعـيـن الـعَـشـا ... حُـلْـوٍ بـعَـيْـنَـيْ كـلِّ كَـهْـلٍ وفـتـى

إنَّ فـــؤادي لا تـــســـلِّـــيـــه الـــرُّقـــى لـــو كـــان عـــنـــهـــا صـــاحـــيـــاً لـــقـــد صَـــحـــا

[الرجز]

الشعرُ لأبي النَّجم العِجليّ. والغناءُ لعُلَيَّةَ بنتِ المهدي رَمَلٌ بالوسطى.

أخبار أبي النجم ونسبه

أصله ونسبه:

قال أبو عمرو الشَّيباني: اسمه المُفَضَّل، وقال ابن الأعرابيّ: اسمه الفضل بن قُدامة بن عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن الحارث بن عَبدة بن الحارث بن إلياس بن عَوف بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عِجلِ بن لُجَيم بن صَعب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَديلة بن أَسَد بن ربيعة بن نِزار. وهو من رُجَّاز الإسلام الفُحول المقدَّمين وفي الطبقة الأولى منهم.

أَخبرني أَبو خليفة الفضل بن الحُباب الجُمَحيّ إجازةً عن محمد بن سَلَّام وذكر ذلك الأصمعي أَيضاً قالا: قال أَبو عمرو بن العَلاء:

كان أَبو النَّجم أَبلغَ في النَّعْت من العَجَّاج.

أَخبرنا محمد بن خلف وكيع قال حدثني أَبو أيوب المدينيّ قال حدثني الفضل بن العبَّاس الهاشمي عن أَبي عُبيدة قال:

ما زالت الشعراء تَغلِبُ حتى قال أَبو النَّجم:

ألحمد للَّه الوهُوبِ المُجزِلِ

وقال العجَّاج:

قد جبر الدينَ الإلٰهُ فَجَبرْ

وقال رُؤبة:

وقاتم الأعماق خاوي المُختَرَق[1]

فأنتصفوا منهم.

ووجدتُ في أَخبار أَبي النَّجم عن أَبي عمرو الشَّيباني قال:

(١) المختَرق: الأحشاء.

قال له فتيانٌ من عِجل: هذا رؤبةُ بالمِرْبَد[١] يجلس فيُسمِع شعرَه ويُنشِد الناسَ ويجتمع إليه فتيان من بني تَميم، فما يمنعك من ذلك؟ قال: أَوَتُحِبُّون هذا؟ قالوا نعم. قال: فأْتوني بعُسٍّ[٢] من نبيذ فأَتَوْه به، فشرِبه ثم نهض وقال:

إذا ٱصطبحتُ أربعاً عرَفْتَني ثم تجشمتُ الذي جشَّمتني

[الرجز]

فلما رآه رؤبة أعظَمه وقام له عن مكانه وقال: هذا رَجَّاز العرب. وسألوه أَن يُنشِدهم فأنشدهم:

ألحمد للَّه الوَهُوبِ المُجْزِلِ

وكان إذا أنشد أَزْبد ووَحش بثيابه (أي رمى بها). وكان من أحسن الناس إنشاداً. فلما فرَغ منها قال رؤبة: هذه أمُّ الرَّجَز. ثم قال: يا أَبا النَّجم، قد قرّبت مرعاها إذ جعلتها بين رجل وابنِه. يُوهم عليه رؤبة أنه حيث قال:

تبقَّلَتُ[٣] من أوّل التَّبقُّلِ بين رِماحَيْ مالكٍ ونَهشَلِ

[الرجز]

أنه يريد نَهشَل بن مالك بن حَنظلة بن زيد مَناةَ بن تَميم. فقال له أبو النَّجم: هيهاتَ! الكَمَرُ[٤] تَشابَهُ. أَي إني إنما أريد مالك بن ضُبَيعة بن قَيس بن ثَعلبة بن عُكابة بن صَعب بن عليّ بن بكر بن وائل. ونهشل قبيلة من ربيعة وهؤلاء يرعَوْن الصَّمَّان[٥] وعَرْض الدَّهناء. قال أَبو عمرو: وكان سببُ ذِكرِ هاتين القبيلتين (يعني بني مالك ونهشل) أَنَّ دماءً كانت بين بني دارِم وبني نَهشَل وحروباً في بلادهم، فتحامى جميعُهم الرَّعْيَ فيما بين فَلْجٍ[٦] والصمَّان مخافةَ أَن يُعَرُّوا[٧] بشرٍّ حتى عدا كلَؤه وطال، فذكر أنّ بني عجل جاءَت لغِرِّها إلى ذلك الموضع فَرَعَتْه ولم تَخَفْ من هذين الحَيَّيْنِ، ففخر به أَبو النجم. قال: ويدُلّ على ذلك قول الفرزدق:

أترتع بالأحياء سعدُ بن مالكٍ وقد قَتلوا مَثنى بظِنَّة[٨] واحدِ
فلم يَبْقَ بين الحيّ سعدِ بن مالكٍ ولا نَهشَلٍ إلا دماءُ الأساودِ[٩]

[الطويل]

---

(١) المِرْبد: موضع بالبصرة، جرت به مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء.
(٢) العُسّ: القدح العظيم.
(٣) تبقَّلت: خرجت تطلب البقول.
(٤) الكمر: مفردها كمرة، وهي رأس الذكر.
(٥) الصمَّان: أرض غليظة مرتفعة.
(٦) فلج: موضع بين البصرة وحَرِيَّة.
(٧) يعروا: يصابوا.
(٨) الظنَّة: التهمة.
(٩) الأساود: القتلى.

ترتيب الرجاز في رأي بعض الرواة:

وقال الأصمعي: قيل لبعض رُواة العرب: مَن أرجَزُ الناس؟ قال: بنو عِجل ثم بنو سعد ثم بنو عجل ثم بنو سعد. (يريد الأغلبَ ثم العجَّاج ثم أَبا النَّجم ثم رؤبة).

أَخبرني أبو خليفة عن محمد بن سَلَّام قال: قال عامر بن عبد الملك المِسمَعيّ:

كان رؤبةُ وأبو النَّجم يجتمعان عندي فأطلب لهما النبيذ، فكان أبو النَّجمَ يتسرّع إلى رؤبة حتى أكفَّه عنه.

ناجز العجَّاج حتى هرب منه:

ونسختُ من كتاب أبي عمرو الشَّيباني قال حدَّثني بعض البَصْريّين منهم أَبو بَرْزَة المَرثَدي ـ قال وكان عالماً راويةً ـ قال:

خرج العجَّاج متحفِّلاً[١] عليه جُبَّةُ خَزٍّ وعمامةُ خَزٍّ على ناقةٍ له قد أجاد رَحلَها حتى وقف بالمِربَد والناسُ مجتمعون، فأنشدهم قولَه:

قـد جـبـر الـدِّيـنَ الإِلٰـهُ فـجَـبَـرْ

فذكر فيها ربيعةَ وهجاهم. فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النَّجم وهو في بيته فقال له: أنت جالسٌ وهذا العجَّاج يهجونا بالمِربَد قد ٱجتمع عليه الناس!! قال: صِف لي حالَه وزِيَّه الذي هو فيه، فوصف له. فقال: ٱبْغِني جَمَلاً طَحَّاناً[٢] قد أُكثِر عليه من الهِناء[٣]، فجاء بالجمل إليه، فأخذ سراويلَ له فجعل إحدى رجليه فيها وٱتَزَرَ بالأخرى وركِب الجمل ودفع خِطامَه إلى مَن يقوده، فٱنطلق حتى المِربَد. فلما دنا من العجَّاج قال: ٱخلَعْ خِطامَه فخَلَعه، وأنشد:

تـذكَّـر الـقـلـبُ وجَـهْـلاً مـا ذَكَـرْ

فجعل الجملُ يدنو من الناقة يتشمَّمها ويتباعد عنه العجَّاج لئلا يُفسِد ثيابَه ورَحْلَه بالقَطِران، حتى إذا بلغ إلى قوله:

شـيـطـانُـه أُنـثـى وشـيـطـانـي ذكَـرْ

تعلَّق الناسُ هذا البيتَ وهرب العجَّاجُ عنه.

---

(١) متحفِّلاً: حافلاً بالتزين والتجمّل.
(٢) طحَّاناً: يقوم بفعل الطحن والهرس.
(٣) الهِناء: القطران.

غلب الشعراء عند عبد الملك بن مروان وظفر منه بجارية:

ونسختُ من كتاب أَبي عمرو قال حدثني أَبو الأزهر ابن بنت أبي النَّجم عن أبي النجم أنَّه كان عند عبد الملك بن مروان ـ ويقال عند سليمان بن عبد الملك ـ يوماً وعنده جماعة من الشعراء، وكان أَبو النجم فيهم والفرزدقُ، وجاريةٌ واقفةٌ على رأس سليمانَ أو عبدِ الملك تَذُبّ عنه، فقال: من صبَّحني بقصيدة يفتخر فيها وصدَق في فخره فله هذه الجاريةُ. فقاموا على ذلك ثم قالوا: إن أبا النجم يَغلِبنا بمقطَّعاته (يعنون بالرَّجَز)، قال: فإني لا أَقول إلا قصيدةً. فقال من ليلته قصيدتَه التي فخر فيها وهي:

عَـلِـق الـهـوى بـحـبـائـل الـشَّـعْـثـاء[1]

ثم أصبح ودخل عليه ومعه الشعراءُ فأنشده، حتى إذا بلغ إلى قوله:

مِـنَّـا الـذي ربَـع[2] الـجـيـوشَ لـظـهـره عـشـرون وهـو يُـعَـدّ فـي الأحـيـاء

فقال له عبد الملك: قِفْ، إن كنتَ صدَقتَ في هذا البيت فلا نُريد ما وراءه. فقال الفرزدق: وأنا أعرف منه ستة عشر، ومن وَلَد وَلَدِه أَربعة كلُّهم قد ربَع. فقال عبد الملك أو سليمان: ولَد ولَدِه هم ولَدُه، ادفع إليه الجارية يا غلام. قال: فغلَبهم يومئذٍ.

قال: وبلغني من وجه آخر أنه قال له: فإذا أقررتَ له بستّة عشر فقد وهبتُ له أربعة، ودفع إليه الجارية، فقدِم بها الباديةَ؛ فكان بينه وبين أهله شرٌّ من أجلها.

وصف جارية لخالد بن عبد اللَّه القسري لساعته فوهبها له:

وقال أبو عمرو:

بعث الجُنَيدُ بن عبد الرحمن المُرّيّ إلى خالد بن عبد اللَّه القَسْريّ بسَبْيٍ من الهند بِيضٍ، فجعل يَهَبُ لأهل البيت كما هو للرجل من قريش ومن وجوه الناس، حتى بَقِيتْ جاريةٌ منهنّ جميلةٌ كان يدَّخِرها وعليها ثيابُ أَرضها فُوطتان. فقال لأبي النجم: هل عندك فيها شيءٌ حاضر وتأخذها الساعة؟ قال: نعم أصلَحك اللَّه! فقال العُريان بن الهيثَم النَّخَعيّ: كذب واللَّه ما يقدر على ذلك. فقال أبو النجم:

عَـلِـقـتُ خَـوْداً مـن بـنـات الـزُّطِّ[3] ذاتَ جَـهـازٍ مُـضـغَـطٍ مُـلَـطّ

(١) الشعثاء: المغبّرَة الرأس وغير مرجلَّة الشعر.
(٢) ربع الجيوش: أخذ ربع أموالهم وعتادهم ودوابهم.
(٣) الزطّ: جبل من جبال السِّند.

رابـي الـمَـجَـسِّ جَـيِّـدِ الـمَـحـطِّ كـأنَّـمـا قُـطّ عـلـى مِـقَـطّ
إذا بـدا مـنـهـا الـذي تُـغَـطِّـي كـأنّ تـحـت ثـوبـهـا الـمُـنـعَـطّ[١]
شَـطّـاً[٢] رمـيـتَ فـوقـه بـشَـطِّ لـم يَـنْـزُ فـي الـبـطـن ولـم يَـنـحَـطّ

[الرجز]

فـيـه شِـفـاءٌ مـن أَذَى الـتَّـمَـطِّـي كـهـامـةِ الـشـيـخ الـيـمـانـي الـشَّـطّ[٣]

وأَوْمأ بيده إلى هامة العُريان بن الهَيثم. فضحك خالد وقال للعُريان: كيف تَرى! أحتاجَ إلى أن يُرَوِّيَ فيها يا عُريان؟! قال: لا واللَّه! ولكنه ملعون ابن ملعون:

وقال أبو عمرو في هذه الرواية وأخبرني به عليّ بن سليمان الأخفش قال حدثنا محمد بن يزيد المُبرّد قال حدثني محمد بن المُغيرة بن محمد عن الزُّبَير بن بَكَّار عن فُلَيح بن إسماعيل بن جعفر بن أَبي كثير قال:

غضب عليه هشام ثم سمر معه ليلة فرضي عنه:

ورد أبو النَّجم على هشام بن عبدالملك في الشعراء. فقال لهم هشام: صِفوا لي إبلاً فقَطِّروها وأوْرِدوها وأَصدروها حتى كأني أنظر إليها. فأنشدوه وأنشده أَبو النَّجم:

ألـحـمـدُ لـلَّـه الـوَهـوبِ الـمُـجـزِلِ

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال: «وهي على الأفق كعين...» وأراد أن يقول «الأحولِ» ثم ذكر حَولَة هشام فلم يُتمَّ البيتَ وأُرتِج عليه. فقال هشام: أَجزِ البيت. فقال: «كعين الأحول» وأتم القصيدة. فأمر هشام فوُجِئ عُنُقه وأُخرج من الرُّصافة، وقال لصاحب شُرْطته: يا ربيع إيَّاك وأن أرى هذا!. فكلم وجوهُ الناس صاحبَ الشُّرطة أن يُقِرَّه ففعل، فكان يُصيب من فُضول أَطعمة الناس ويأوي إلى المساجد. وقال الزُّبير في خبره قال أَبو النجم: ولم يكن أحدٌ بالرُّصافة يُضيف إلَّا سُلَيم بنَ كيْسان الكلبيّ وعمرو بن بِسطام التَّغلَبي، فكنتُ آتي سُلَيماً فأتغدَّى عنده، وآتي عمراً فأتعشَّى عنده، وآتي المسجد فأبيتُ فيه. قال: فاهتمّ هشام ليلةً وأمسى لَقِسَ النفس وأراد محدِّثاً يحدِّثه، فقال لخادم له: ابْغِني مُحَدِّثاً أعرابيّاً أهوجَ شاعراً يَروي الشعر. فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبي النجم، فضربه برجله وقال له: قُمْ أَجِب أَمير المؤمنين. قال: إني رجل أعرابي غريب. قال: إيّاك أَبغي، فهل تَروي الشعر؟ قال:

(١) المنعطّ: المنشقّ. (٢) الشطّ: جانب السنام ونصفه.
(٣) الشطّ: الخفيف اللّحية.

نعم وأقوله. فأقبل به حتى أدخله القصر وأغلَق البابَ، قال: فأيقن بالشرّ ثم مضى به فأدخله على هشام في بيت صغير، بينه وبين نسائه سِترٌ رقيقٌ والشَّمعُ بين يديه تَزهَر[١]. فلما دخل قال له هشام: أبو النَّجم؟! قال: نعم يا أمير المؤمنين طَريدُك. قال: ٱجلس. فسأله وقال له: أين كنتَ تَأْوِي ومن كان يُنزلك! فأخبره الخبرَ. قال: وكيف ٱجتمعا لك؟ قال: كنتُ أتغدَّى عند هذا وأتعشى عند هذا. قال: وأين كنت تبيت؟ قال: في المسجد حيث وجدني رسولك. قال: وما لكَ من الولد والمال؟ قال: أمَّا المالُ فلا مالَ لي، وأمَّا الولد فلي ثلاثُ بناتٍ وبُنَيٌّ يقال له شَيبان. فقال: هل زَوَّجتَ من بناتك أحداً؟ قال: نعم زوّجتُ ٱثنتين، وبقِيَتْ واحدة تَجْمِز[٢] في أبياتنا كأنها نعامة. قال: وما وصَّيتَ به الأولى؟ ـ وكانت تسمَّى «بَرَّةَ» بالرّاء ـ فقال:

أَوْصَيتُ من بَرّةَ قلباً حُرَّا ... بالكلب خيراً والحَماةِ شَرّا
لا تَسأَمي ضَرباً لها وجَرَّا ... حتى تَرى حُلْوَ الحياة مُرَّا
وإن كَسَتْكِ ذهباً ودُرّا ... والحيَّ عُمِّيهم بشرٍّ طُرَّا

[الرجز]

فضحك هشام وقال: فما قلتَ للأخرى؟ قال: قلت:

سُبّي الحماةَ وٱبْهَتي[٣] عليها ... وإن دنَتْ فٱزدَلِفي إليها
وأَوْجِعي بالفِهْر[٤] ركبتَيْها ... ومِرْفَقَيْها واٱضربي جَنْبَيْها
وظاهري النُّذرَ لها عليها ... لا تُخبِري الدَّهرَ به ابنَتَيْها

[الرجز]

قال: فضحك هشام حتى بدَتْ نواجذُه وسقط على قَفاه. فقال: وَيحك! ما هذه وصيَّة يعقوب ولدَه! فقال: وما أنا كيعقوب يا أَمير المؤمنين. قال: فما قلتَ للثالثة؟ قال: قلت:

أُوصِيكِ يا بنتي فإني ذاهبُ ... أُوصيكِ أن تَحمَدكِ القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريم السَّاغِبُ[٥] ... لا يُرجَع المسكينُ وهو خائبُ

(١) تزهر: تضيء أو تتلألأ.
(٢) تجمز: تعدو وتسرع كأنها البرق.
(٣) ابهتي: اتهمي بهتاتاً أي اقذفي باطلاً.
(٤) الفِهر: الحجر الصغير مقدار ما يملأ الكف.
(٥) السَّاغب: الذي لا يكون إلا مع تعب جمعها سُغب وسِغَاب.

ولا تَـنـي أظـفـارُك الـسَّـلاهِـب[١] مـنـهـنّ فـي وجـه الـحـمـاة كـاتـبُ
والـزوجَ إنّ الـزوج بـئـس الـصـاحـبُ

[الرجز]

قال: فكيف قلتَ لها هذا ولم تتزوّج؟ وأيّ شيء قلتَ في تأخير تزويجها؟ قال: قلت فيها:

كـأنّ ظَـلَّامـةَ أخـتَ شَـبـيـانْ يَـتـيـمـةٌ ووالـداهـا حـيَّـانْ
ألـرأسُ قَـمـلٌ كـلُّـه وصِـئـبـانْ ولـيـس فـي الـسـاقَـيـن إلَّا خَـيـطـانْ
تـلـك الـتـي يَـفـزَع مـنـهـا الـشـيـطـان

[الرجز]

قال: فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه، وقال للخَصِيّ: كم بقي من نفقتك؟ قال: ثلاثمائة دينار. قال: أَعطِه إيَّاها ليجعلها في رِجل ظَلَّامة مكان الخيطين.

كان أسرع الناس بديهة:

وقال الأصمعي أَخبرني عمي وأخبرني ببعض هذا الحديث ابنُ بنت أبي النَّجم أنّ أبا النَّجم قال:

ألـحـمـد لـلَّـه الـوَهـوبِ الـمُـجـزِلِ

في قدر ما يمشي الإنسان من مسجد الأشياخ إلى حاتمٍ الجزّار. ومقدار ما بينهما غَلْوة[٢] أو نحوُها. قال: وكان أسرع الناس بدِيهةً.

أَخبرني محمد بن خلف وكيع قال حدثنا أبو أيوب المَديني قال حدثنا أَبو الأسود النوجشاني قال:

مَرّ أَبي بالأصمعي وأَنا عنده فقال له: يا أَبا سعيد أيّ الرَّجَز أحسن وأجود؟ قال: رَجزُ أبي النَّجم.

سأله هشام بن عبد الملك عن رأيه في النساء فأجابه:

نسخت من كتاب أحمد بن الحارث الخَرّاز قال حدثنا المدائني قال:

---

(١) السلاهب: الطويلة، مفردها سلهوب.
(٢) غلوة: الرمية بالسهم أبعد ما يقدر عليه المرء.

دخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك وقد أتت له سبعون سنة. فقال له هشام: ما رأيك في النساء؟ قال: إني لأنظر إليهنّ شَزراً[١] وينظرن إليّ خَزراً[٢]. فوهب له جاريةً وقال له: ٱغدُ عليّ فأعلمني ما كان منك. فلما أصبح غدا عليه. فقال له: ما صنعتَ؟ فقال: ما صنعتُ شيئاً ولا قدرْتُ عليه، وقد قلتُ في ذلك أبياتاً. ثم أنشده:

نظرتْ فأعجبَها الذي في دِرعها ... من حُسنه ونظرتُ في سِربالِيَا
فرأتْ لها كفَلاً يَميل بخصرها ... وَعْثاً[٣] روادِفُه وأَجثمَ جاثِيَا
ورأيتُ مُنتشرَ العِجان مُقلِّصاً ... رِخواً مفاصِلُه وجِلداً بالِيَا
أدني له الرَّكبَ الحليقَ كأنما ... أدني إليه عقارباً وأفاعِيَا
إنَّ الندامة والسَّدامةَ[٤] فٱعْلَمَنْ ... لو قد صَبَرْتُك للمواسي خالِيَا
ما بالُ رأسِك من ورائيَ طالعاً ... أظننتَ أنْ حِرَّ الفتاة ورائيا
فٱذهب فإنك ميِّتٌ لا تُرتَجى ... أبدَ الأبيدِ ولو عَمِرتَ لياليَا
أنت الغَرور إذا خُبِرتَ وربما ... كان الغَرورُ لمن رجاه شافِيَا
لكنّ أَيري لا يُرَجّى نفعُه ... حتى أعود أخا فَتاءٍ ناشِيَا

[الكامل]

فضحك هشام وأمر له بجائزة أخرى.

حدث هشام بن عبد الملك عن نفسه فأضحكه:

قال أَبو عمرو الشَّيباني قال ابن كُناسة:

قال هشام بن عبد الملك لأبي النَّجم: يا أَبا النَّجم حدثني. قال: عنّي أَو عن غيري؟ قال: لا بل عنك. قال: إني لمَّا كبِرتُ عرَض لي البَولُ، فوضعتُ عند رجلي شيئاً أبول فيه. فقمتُ من الليل أبول، فخرج منّي صوتٌ فتشدّدت، ثم عُدتُ فخرج منّي صوتٌ آخر، فَأَوَيتُ إلى فراشي، فقلت: يا أُمّ الخِيار هل سمعتِ شيئاً؟ فقالت: لا واللَّه ولا واحدةً منهما! فضحك. قال: وأُمّ الخِيار التي يَعني بقوله:

قد أصبحتْ أُمّ الخِيار تَدّعي ... عليّ ذَنباً كلّه لم أصنَع

[الرجز]

---

(١) شزراً: النظر بطرف العين باستخفاف وإعراض.
(٢) خزراً: النظر بمؤخر العين. (٣) الوعث: اللين السهل.
(٤) السَّدامة: الهم، أو هو الغيظ مع الحزن.

وهي أرجوزة طويلة.

ذكر فتاة في شعره فتزوجت:

وقال أبو عمر الشَّيباني:

أتت مولاة لبني قَيس بن ثَعلبةَ أبا النجم فذكرتْ له أَنّ بنتاً لها أدركتْ منذ سنتين، وهي من أجمل النساء وأمدّهنّ قامةً ولم يخطُبها أحدٌ، فلو ذكرتَها في الشعر! فقال: أَفعل، فما اسمها؟ قالت: نَفيسة. فقال:

نَـفـيـسَ يـا قَـتَّـالَـةَ الأقـوامِ أقـصـدتِ قـلـبـي مـنـكِ بـالـسِّـهـامِ
ومـا يُـصـيـب الـقـلـبَ إلَّا رامِ لـو يـعـلـمَ الـعـلـمَ أَبـو هـشـامِ
سـاقَ إلـيـهـا حـاصِـلَ الـشـآمِ وجِـزْيَـةَ الأهـواز كـلَّ عـامِ
ومـا سـقـى الـنِّـيـلُ مـن الـطـعـامِ إذ ضـاق مـنـهـا مَـوْضِـعُ الإدغـامِ
أَجْـثَـمُ جـاثٍ مُـسـتـديـرٌ حـامِ يَـعَـضُّ فـي كَـيْـنٍ لـه تُـؤامِ
عَـضَّ الـنـجـاريّ عـلـى الـلِّـجـامِ

[الرجز]

فقالت: حَسبُك حَسبُك! ووفد إلى الشام، فلما رَجع سمع الزَّمر والجَلبة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نفيسة تزوَّجت.

قال أَبو عمرو وذكر عليّ بن المِسوَر بن عمرو عن الأصمعي قال أخبرني بعضُ الرُّواة وحدثني ابن أخت أَبي النجم:

إن عبد الملك بن بِشر بن مروان قال لأبي النَّجم: صِفْ لي فُهودي هذه. فقال:

إنَّـا نَـزَلْـنـا خـيـرَ مَـنـزِلاتِ بـيـن الـحُـمَـيـراتِ الـمُـبـارَكـاتِ
فـي لَـحـم وحْـشٍ وحُـبـاريَـاتِ[1] وإن أردنـا الـصـيـدَ ذا الـلَّـذّاتِ
جـاء مُـطـيـعـاً لـمـطـاوِعـاتِ عُـلِّـمـن أو قـد كـنّ عـالِـمـاتِ
فـسَـكِّـن الـطَّـرفَ بـمُـطـرِفـاتِ تُـريـك آمـاقـاً[2] مـخـطَّـطـاتِ

[الرجز]

ونسختُ من كتاب الخَرّاز عن المدائنيّ عن عثمان بن حَفص أنّ أَبا النجم مدَح الحجَّاجَ برجَزٍ يقول فيه:

(١) حباريات: مفردها حبارى، طائر أحمق.
(٢) الآماق: هي مآقي العين.

ويـــــل أمّ دور عِـــــزَّةٍ ومَـــــجـــــدِ دُورِ ثَـــقـــيـــفٍ بـــسَـــواء نَـــجـــدِ
أهـــل الـــحـــصـــون والـــخـــيـــول الـــجُـــرْدِ

[الرجز]

فأعجبَ الحجَّاجَ رَجزُه وقال: ما حاجتك؟ قال تُقطعني ذا الجبنين. فوجم لها وسكت، ثم دعا كاتبه فقال: انظر ذا الجبنين ما هو! فإن ذا الأعرابي سألنيه لعلَّه نهر من أنهار العراق. فسألوا عنه فقيل: واد في بلاد بني عِجل أعلاه حَشَفة[١] وأسفله سبَخَةٌ[٢] يخاصمه فيه بنو عمّ له. فقال: اكتبوا له به. قال: فأهله به إلى اليوم.

أخطأ في أشياء أخذت عليه:

أخبرنا يحيى بن عليّ قال حدثني أبو أيُّوب المدينيّ قال: قال الأصمعي:
أَخطأَ أَبو النجم في أشياء أُخُذَت عليه، منها قوله:

وهـــي عـــلـــى عَـــذْبٍ رَوِيٍّ الـــمَـــنـــهـــلِ دَحْـــلِ أبـــي الـــمِـــرقـــال خـــيـــرِ الأدْحُـــلِ[٣]
مـــن نـــحـــت عـــادٍ فـــي الـــزمـــان الأوّل

[الرجز]

قال الأصمعي: الدَّحل لا تُورده الإبلُ إنما تورَد الرَّكايا[٤]. وقد عِيب بهذا وعيب بقوله في البيت الذي يليه: إنّ هذا الدَّحلَ من نحت عاد. قال: والدُّحلان لا تُحفَر ولا تُنحَت، إنما هي خروق وشِعاب في الأرض والجبال لا تُصيبها الشمسُ، فتَبقى فيها المياه؛ وهي هُوّة في الأرض يَضيق فمها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء.

قال الأصمعي: وقال يصف فرسه وقد أجراه في حَلبة:

تـــســـبـــح أُخـــراهُ ويـــطـــفُـــو أوَّلُـــهْ

قال الأصمعي: أخطأ في هذا؛ لأنه إذا سبح أُخراه كان حِمارُ الكُساح أسرعَ منه. قال الأصمعي: وحدثني أبي أنه رأى فرسه هذا فقوَّمه بسبعين درهماً. وإنما يُوصف الجواد بأنه تَسبح أُولاه وتَلحق رجلاه. قال: وخير عَدْو الذكور أن تُشرِف، وخيرُ عَدو الإناث أَن تَنبسط وتَصغى كعَدْو الذئب.

* * *

(١) حشفة: صخرة لينة في السهل من الأرض.
(٢) سبَخَة: أرض مالحة.
(٣) الأدْحُل: مفردها دحل وهو النّقْب تجمع فيه الماء.
(٤) الرَّكايا: مفردها ركية وهي البئر.

أخبار عليَّة بنت المهدي ونسبها ونتف من أحاديثها

عُلَيَّة بنت المهدي أُمّها أُمّ ولد مُغنِّيةٌ يقال لها مَكنونة، كانت من جواري المروانية المغنِّية.

نسختُ من كتاب محمد بن هارون بن محمد بن عبدالملك الزيّات أن ابن القَدَّاح حدّثه قال:

كانت مكنونة جاريةُ المروانية ـ وليست من آل مروان بن الحكم، هي زوجة الحسين بن عبد اللَّه بن عُبَيد اللَّه بن عبَّاس ـ مغنِّيةً، وكانت أحسن جاريةٍ بالمدينة وجهاً، وكانت رسَحاء[1]. وكان بعض من يمازحها يعبَث بها فيَصيح: طَسْت طَسْت. وكانت حسنة الصدر والبطن، فكانت توضِح بهما وتقول: ولكن هذا! . فٱشتُرِيَتْ للمهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم، فغلبتْ عليه، حتى كانت الخَيزُران تقول: ما ملَك ٱمرأةً أَغلَظَ عليَّ منها. وٱستتر أمرُها عن المنصور حتى مات، فولدتْ له عُلَيَّةَ بنتَ المهدي.

بعض صفاتها:

أخبرني عمي قال حدثني علي بن محمد النَّوفلي عن عمه قال:

كانت عُليَّة بنت المهدي من أحسن الناس وأظرفهم تقول الشِّعرَ الجيِّد وتصوغ فيه الألحان الحسنة، وكان بها عيب، كان في جبينها فَضلُ سَعَةٍ حتى تسمح، فٱتخذت العصائب المكلَّلة بالجوهر لتستُر بها جبينها، فأحدثتْ واللَّه شيئاً ما رأيتُ فيما ٱبتدعتْه النساء وأحدثَته أحسنَ منه.

كانت لا تشرب ولا تغني إلا أيام حيضها:

أَخبرني الحسين بن يحيى ووكيع قالا حدثنا حَمَّاد بن إسحاق قال سمعتُ إبراهيم بن إسماعيل الكاتب يقول:

كانت عُلَيَّةُ حسنةَ الدّين، وكانت لا تغنّي ولا تشرَب النبيذ إلَّا إذا كانت معتزلةَ الصلاةِ،

(١) الرسحاء: القبيحة، وهي قليلة لحم العجز والفخذين.

فإذا طَهُرَتْ أقبلتْ على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تَلَذُّ بشيءٍ غير قول الشعر في الأحيان، إلَّا أَن يدعوَها الخليفةُ إلى شيءٍ فلا تَقدِر على خلافه. وكانت تقول: ما حرَّم اللَّه شيئاً إلا وقد جعل فيما حَلَّل منه عِوَضاً، فبأيِّ شيءٍ يحتجُّ عاصيه والمُنتَهِكُ لحُرُماته!. وكانت تقول: لا غفَر اللَّه لي فاحشةً ٱرتكبتُها قطّ، ولا أقول في شعري إلّا عَبَثا.

لم يجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناء منها ومن أخيها:

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني عَون بن محمد الكِندي قال سمعت عبد اللَّه بن العبَّاس بن الفضل بن الرَّبيع يقول:

ما ٱجتمع في الإسلام قطّ أخ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهدي وأخته عُليَّة، وكانت تُقدَّم عليه.

كانت تحب المكاتبة بالشعر:

أخبرني محمد قال حدثنا عَون بن محمد الكِندي قال حدثنا سعيد بن إبراهيم قال:

كانت عليَّة تحب أن تُراسل بالأشعار مَن تختصُّه، فٱختصَّتْ خادماً يقال له «طَلّ» من خَدَم الرشيد، فكانت تراسله بالشعر، فلم تره أيَّاماً، فمشَتْ على ميزاب وحدّثته وقالت فِي ذلك:

قد كان ما كُلِّفتُه زمناً ... يا طَلُّ من وجَدٍ بكم يكفي
حتى أتيتكَ زائراً عَجِلاً ... أمشي على حَتفٍ إلى حَتفِ

[الكامل]

فَحَلَفَ عليها الرشيد ألَّا تكلِّم طَلّاً ولا تسمِّيَه باسمه، فضمِنَتْ له ذلك. وٱستمع عليها يوماً وهي تَدرُس آخرَ سورة البقرة حتى بلغتْ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وأرادتْ أَن تقول: «فَطَلٌّ» فقالت: فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين. فدخل فقبَّل رأسها وقال: قد وهبتُ لكِ طَلّاً، ولا أَمنعكِ بعد هذا من شيء تريدينه. ولها في طَلٍّ هذا عِدَّةُ أَشعارٍ فيها لها صنعة. منها:

صوت

يا ربّ إني قد غَرِضتُ[1] بهجرها ... فإليك أَشكو ذاك يا ربَّاهْ

(١) غَرضت بهجرها: ضجرت ومللت من هجرها.

مـولاةُ سَـوْءٍ تـسـتـهـيـن بـعـبـدهـا نِـعْـمَ الـغـلامُ وبـئـسـتِ الـمـولاه
«طَـلٌّ» ولـكـنّـي حُـرِمـتُ نـعـيـمَـه ووصـالَـه إن لـم يُـغِـثـنـي الـلَّـه
يـا ربّ إن كـانـت حـيـاتـي هـكـذا ضـرّاً عـلـيّ فـمـا أريـد حـيـاه

[الطويل]

الشعر والغناء لها خفيفُ ثقيلٍ مطلق في مجرى الوسطى. وقد ذكر ابن خُرداذْبَه أَن الشعر والغناء لنُبَيْهٍ الكوفي، وأَنه هوي جارية تُغنّي، فتعلَّم الغناء من أَجلها وقال الشعر، ولم يزل يتوصَّل إليها بذلك حتى صار مُقَدَّماً في المغنِّين، وأَنَّ هذا الشعر له فيها والصنعة أيضاً.

حجب عنها طَلٌّ فقالت فيه شعراً:

أَخبرني أَحمد بن محمد أبو الحسن الأَسَدي قال حدثني محمد بن صالح بن شيخ بن عُمَير عن أَبيه قال:

حُجِب طَلٌّ عن عُلَيَّةَ فقالت وصحَّفتِ اسمه في أوّل بيت:

أَيـا سَـرْوَةَ الـبـسـتـان طـال تـشـوّقـي فـهـل لـي إلـى ظِـلٍّ لـديـكِ سـبـيـلُ
متى يـلـتـقـي مَـن لـيس يُـقـضَـى خـروجُـه ولـيـس لـمـن يَـهـوى إلـيـه دخـولُ
عـسـى الـلَّـه أن نـرتـاح مـن كُـرْبـةٍ لـنـا فـيَـلْـقـى اغـتـبـاطـاً خُـلَّـةٌ وخـلـيـلُ

[الطويل]

عروضه من الطويل. الشعر والغناء لعليَّة خفيفُ رَمَلٍ. كذا ذكر ميمون بن هارون، وذكر عمرو بن بانة أَنه لسَلْسَل خفيف رملٍ بالوسطى. وأَوّل الصوت:

متى يـلـتـقـي مَـن لـيس يُـقـضـى خـروجُـه

وذكر حَبَشٌ أَنه للهُذَلي خفيفُ رَمَلٍ بالبِنصر.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا أَحمد بن محمد بن إِسحاق الطَّالقاني قال حدثني أَبو عبد اللَّه أحمد بن الحسين الهشامي قال:

قالت عُلَيَّةُ في طَلٍّ وصحَّفت اسمه في هذا الشعر وغنَّتْ فيه:

صـوت

سَـلِّـمْ عـلـى ذاك الـغـزالِ الأغـيـدِ[1] الـحـسـنِ الـدّلالِ

(١) الأغيد: الوسنان المائل العنق.

سَـــلِّـــمْ عـــلـــيـــه وقُـــلْ لـــه ... يـــا غُـــلَّ ألـــبـــابِ الـــرجـــالِ
خـــلَّـــيْـــتَ جـــسـمـــي ضـــاحـــيـــاً ... وســكــنــتَ فــي ظــلّ الــحِــجــالِ[1]
وبـــلـــغـــتَ مـــنّـــي غـــايـــةً ... لـــم أَدرِ فـــيـــهـــا مـــا أحـــتـــيـــالـــي

[مجزوء الكامل]

الشعرُ والغناء لعُلَيَّةَ خفيفُ رمَلٍ. وذُكر غير هذا أَن الغناء لأحمد بن المكي في هذه الطريقة.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني ميمون بن هارون عن محمد بن علي بن عثمان الشَّطرَنجي:

أَن عُلَيَّة كانت تقول الشعر في خادم لها يقال له «رشأ» وتَكني عنه. فمن شعرها فيه وكَنَتْ عنه بزينب:

صـــوت

وجَـــد الـــفـــؤادُ بـــزيـــنـــبـــا ... وَجـــداً شـــديـــداً مُـــتـــعِـــبَـــا
أصـــبـــحـــتُ مـــن كَـــلَـــفـــي بـــهـــا ... أُدعَـــى ســـقـــيـــمـــاً مُـــنـــصَـــبَـــا
ولـــقـــد كَـــنَـــيْـــتُ عـــن اســـمـــهـــا ... عـــمـــداً لـــكـــي لا تَـــغـــضَـــبَـــا
وجـــعـــلـــتُ زيـــنـــبَ سُـــتـــرَةً ... وكـــتـــمـــتُ أمـــراً مُـــعـــجِـــبَـــا
قـــالـــت وقـــد عَـــزَّ الـــوصـــا ... لُ ولـــم أَجِـــدْ لـــي مـــذهـــبـــا
والـــلَّـــه لا نـــلـــتَ الـــمـــودّة ... أو تـــنـــالَ الـــكـــوكـــبـــا

[مجزوء الكامل]

هكذا ذكر ميمون بن هارون، وروايتُه فيه عن المعروف بالشِّطرَنجي ولم يحصّل ما رواه. وهذا الصوت شعرُه لابن رُهَيمةَ المَدَني. والغناء ليونس الكاتب، ولحنه من الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى البنصر، وهو من زيانِب يونس المشهورات وقد ذكرته معها. والصحيح أَن عليَّة غنَّت فيه لحناً من الثقيل الأوّل بالوسطى، حكى ذلك ابن المكي عن أَبيه، وأَخبرني به ذُكاء عن القاسم بن زُرزور.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني الحسين بن يحيى الكاتب أبو الجماز قال حدثني عُبَيد اللَّه بن العبَّاس الرَّبيعي قال:

(١) الحِجال: مفردها حجلة، وهي سترة تتخذها العروس داخل البيت.

لمَّا عُلِم من عُلَيَّةَ أَنها تَكني عن رشأ بزينب قالت:

صـوت

ألـقـلـبُ مـشـتـاقٌ إلـى رَيْـب يـا رَبِ مـا هـذا مـن الـعـيْـبِ
قـد تَـيَّـمَـتْ قـلـبـي فـلـم أسـتـطـع إلا الـبـكـا يـا عـالِـمَ الـغـيْـبِ
خـبـأتُ فـي شـعـريَ إسـمَ الـذي أردتُـه كـالـخَـبْء فـي الـجـيْـبِ

[السريع]

قال: وغنَّت فيه لحناً من طريقة خفيفِ الرَّمَلِ الأوَّل فصحَّفَتِ اسمها في ريب.

هجت طغيان حين وشت بها إلى رشأ:

قال: وكان لأم جعفر جارية يقال لها طُغيانُ، فوشَتْ بعُلَيَّةَ إلى رَشأ وحكَتْ عنها ما لم تقل، فقالت عُلَيَّةُ:

لـطُـغـيـانَ خُـفٌّ مُـذْ ثـلاثـيـن حِـجَّـةً جـديـدٌ فـلا يَـبـلـى ولا يـتـخـرَّقُ
وكـيـف بِـلَـى خُـفٍّ هـو الـدَّهـرَ كـلَّـه عـلـى قـدمِـيـهـا فـي الـهـواء مُـعَـلَّـقُ
فـمـا حَـرَقَـتْ خُـفّـاً ولـم تُـبـلِ جَـورَبـاً وأَمَّـا سَـراويـلاتـهـا فـتُـمَـزَّقُ

[الطويل]

قال: وحلَف رَشَأ ألَّا يشرب النبيذَ سنةً، فقالت:

صـوت

قـد ثـبـت الـخـاتـمُ فـي خِـنـصـري إذ جـاءنـي مـنـكِ تَـجـنِّـيـكِ
حَـرَّمـتُ شـربَ الـراح[1] إذ عِـفْـتِـهـا فـلـسـتُ فـي شـيء أعـاصِـيـكِ
فـلـو تَـطَـوَّعـتِ لـعـوَّضـتـنِـي مـنـه رُضـابَ الـرّيـق مـن فـيـكِ
فـيـا لـهـا عـنـديَ مـن نـعـمـةٍ لـسـتُ بـهـا مـا عـشـتُ أَجـزيـكِ
يـا زيـنـبـاً قـد أرَّقَـتْ مُـقـلـتـي أَمْـتـعـنـي الـلَّـه بـحـبِّـيـكِ

[السريع]

غنَّت فيه عليَّةُ هَزَجاً.

أَخبرني جَحظة ومحمد بن يحيى قالا حدثنا ميمون بن هارون قال حدثني

(١) الراح: الخمر.

الحسن بن إبراهيم بن ربَاح قال: قال لي محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي:

كنت عند المعتصم وعنده مُخارق وعلّويه ومحمد بن الحارث وعَقيد، فتغنّى عَقيد وكنت أضرب عليه:

صـــوت

نـــام عُـــذّالـــي ولـــم أَنـــمِ وٱشـتـفـى الـواشـون مـن سَـقَـمـي
وإذا مـــا قـــلـــتُ بـــي أَلَـــمٌ شَـــكَّ مَـــن أهـــواه فـــي أَلَـــمـــي

[المديد]

فطرِب المعتصم وقال: لمن هذا الشعر والغناء؟ فأمسكوا. فقلت: لعليَّة، فأعرض عنّي، فعرفت غلَطي وأنّ القوم أمسكوا عمداً، فقُطِع بي. وتبيَّن حالي، فقال: لا تُرَعْ يا محمد؛ فإنّ نصيبك فيها مِثلُ نصيبي. الغناء لعليَّة خفيفُ رمَلٍ. وقد قال قوم: إنّ هذا اللحن للعبَّاس بن أشرَس الطُّنبوري مولى خُزاعةَ، وإن الشعر لخالد الكاتب.

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني أَحمد بن يزيد قال حدثني أَبي قال:

كنَّا عند المنتصر، فغنَّاه بَنانٌ لحناً من الرمل الثاني وهو خفيف الرمل:

صـــوت

يـــا رَبَّـــةَ الـــمـــنـــزلِ بـــالـــبِـــرْكِ[1] وربَّـــةَ الـــســـلـــطـــانِ والـــمُـــلـــكِ
تَـــحَـــرّجـــي بـــالـــلَّـــه مـــن قـــتـــلـــنـــا لـــســـنـــا مـــن الـــدَّيْـــلَـــم[2] والـــتُّـــركِ

[السريع]

فضحِكتُ. فقال لي: مِمَّ ضحِكتَ؟ قلت: من شَرَفِ قائلِ هذا الشعر، وشرف مَن عَمِل اللَّحنَ فيه، وشرف مُستمِعِه. قال: وما ذاك؟ قلت: الشعرُ فيه للرشيد، والغناءُ لعليَّة بنتِ المهدي، وأميرُ المؤمنين مستمعُه. فأعجبه ذلك وما زال يستمعه.

حدثني إبراهيم بن محمد بن بركشة قال سمعت شيخاً يحدّث أَبي وأَنا غلام فحفِظتُ عنه ما حدّثه به ولم أعرف اسمه، قال حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال:

---

(١) البرك: موضع قرب جبل سطاع على عشرة فراسخ من مكة.
(٢) الدَّيلم: قسم من بلاد جيلان شمالي بلاد قزوين.

عَمِلتُ في أيام الرشيد لحناً وهو:

صـــوت

سَـقـيـاً لأرضٍ إذا مـا نِـمـتُ نَـبَّـهـنـي بـعـد الـهـدوِّ بـهـا قَـرْعُ الـنَّـواقـيـسِ
كـأنّ سَـوسَـنـهـا فـي كـلِّ شـارقـةٍ عـلـى الـمـيـادين أذنـابُ الـطَّـواويـسِ

[البسيط]

قال: فأعجبني وعَمِلتُ على أن أباكر به الرشيدَ. فلقِيَني في طريقي خادمٌ لعليَّة بنت المهدي، فقال: مولاتي تأمرك بدخول الدّهليز لتسمع من بعض جواريها غِناءً أخذتْه عن أبيك وشكَّتْ فيه الآن. فدخلتُ معه إلى حجرة قد أفرِدت لي كأنها كانت مُعَدّة، فجلستُ، وقُدّم لي طعامٌ وشرابٌ فنِلت حاجتي منهما، ثم خرج إليّ خادمٌ فقال لي: تقول لك مولاتي: أنا أعلم أنك قد غدوتَ إلى أَمير المؤمنين بصوت قد أعددتَه له مُحدَثٍ، فأسمِعنيه ولك جائزةٌ سنيَّة تتعجلها، ثم ما يأمر به لك بين يديك، ولعله لا يأمر لك بشيء أَو لا يقع الصوت منه بحيث توَّخيتَ، فيذهب سعيُك باطلاً. فاندفعتُ فغنَّيتُها إيَّاه، ولم تزل تستعيده مراراً، ثم أخرجت إليّ عشرين ألف درهم وعشرين ثوباً، وقالت: هذه جائزتك، ولم تزل تستعيده مراراً. ثم قالت: اسمعه منّي الآن؛ فغنَّته غِناءً ما خرَق سمعي مِثلُه. ثم قالت: كيف تراه؟ قلت: أرى واللَّه ما لم أرَ مِثلَه. قالت: يا فلانة أعيدي له مِثلَ ما أخذ؛ فأَحضرتْ لي عشرين ألفاً أخرى وعشرين ثوباً. فقالت: هذا ثَمنُه، وأنا الآن داخلةٌ إلى أَمير المؤمنين، أبدأ أتغنّى به، وأُخبِرُ أَنه من صنعتي. وأعطي اللَّه عهداً لئن نطقتَ أَنّ لك فيه صنعةً لأقتلنَّك! هذا إن نجوتَ منه إن علم بمصيرك إليّ. فخرجتُ من عندها واللَّه إني لكالموقن بما أكره من جائزتها أسفاً على الصوت، فما جَسَرْتُ واللَّه بعد ذلك أَن أَتنغَّم به في نفسي فضلاً عن أَن أُظهره حتى ماتت. فدخلتُ على المأمون في أَوّل مجلسٍ جلسه للَّهْو بعدَها، فبدأتُ به أوّل ما غَنَّيت. فتغيّر لونُ المأمون وقال: من أَين لكَ ويلك هذا؟! قلت: ولِيَ الأمانُ على الصدق؟ قال: ذلك لك. فحدّثتُه الحديثَ. فقال: يا بغيض! فما كان في هذا من النفاسة حتى شَهَرْتَه وذكرتَ هذا منه مع ما قد أخذتَه من العوَض! وهجَّنني فيه هُجنَةً ودَدتُ معها أنّي لم أذكره. فآليتُ ألَّا أغنّيه بعدها أبداً. الشعرُ في هذا الصوت لإسماعيل بن يَسار النِّسائي، وقيل: إنه لإِسحاق. ولحنُه من الثقيل الأوّل مُطلَق في مجرى الوسطى. وذكر حبش أنه للهُذَلي، ولم يحصِّل ما قاله.

أَخبرني عمي قال حدثني الحسن بن عُلَيل العَنزيّ قال حدثنا عبد اللَّه بن أَبي

سعد قال: قال لي يَنشُو المغنّي حدثني أَبو أَحمد بن الرشيد قال:

كنت يوماً عند المأمون وإلى جانبي منصور وإبراهيمُ عَمَّاي، فجاء ياسر دخلة فسارّ المأمون. فقال المأمون لإبراهيم: إن شئت يا إبراهيم فانْهض، فنهض. فنظرتُ إلى ستر قد رُفع مما يلي دار الحُرَم، فما كان بأسرع من أَن سمعت شيئاً أقلقني. فنظر إليّ المأمون وأنا أَميل فقال لي: يا أَبا محمد مالك تميل؟ فقلت: إنّي سمعت شيئاً ما سمعتُ بمثله. فقال: هذه عمَّتك عُليَّة تطارح عَمَّك إبراهيم:

مـا لـي أَرى الأبـصـارَ بـي جـافـيَـهْ

نسبة هذا الصوت

صـوت

مـا لـي أرى الأبـصـارَ بـي جـافـيـهْ لـم تـلـتـفـت مـنّـي إلـى نـاحـيَـهْ
لا يـنـظـر الـنـاس إلـى الـمُـبـتَـلـى وإنَّـمـا الـنـاس مـع الـعـافـيَـهْ
صَـحـبـي سَـلْـوا ربَّـكـم الـعـافـيَـهْ فـقـد دهـتـنـي بـعـدَكـم داهـيَـهْ
صـارَمَـنـي[1] بـعـدَكـم سـيِّـدي فـالـعـيـنُ مـن هِـجـرانـه بـاكـيَـهْ

[السريع]

الشعر لأبي العتاهية، وذكر ابن المعتزّ أنه لعليَّة وأَنّ اللحن لها خفيف رملٍ. وذُكر أَنه لغيرها خفيفُ رمل مطلق، ولحن عُلَيَّة مزمومٌ.

أَخبرني عمي قال حدثني أَبو العبَّاس أن بِشراً المَرثَدي قال: قالت لي رَيِّق:

كنتُ يوماً بين يدي الرشيد وعنده أخوه منصور وهما يشربان، فدخلتْ إليه خَلُوبُ (جارية لعُلَيَّةً) ومعها كأسان مملوءتان وتحيّتان، ومع خادم يتبعها عودٌ، فغنَّتهما قائمة والكأسان في أيديهما والتحيتان بين أيديهما:

صـوت

حـيَّـاكـمـا الـلَّـه خَـلِـيـلَـيَّـا إن مَـيِّـتـاً كـنـتُ وإن حـيَّـا
إن قـلـتـمـا خـيـراً فـخـيـرٌ لـكـم أو قـلـتـمـا غَـيّـاً فـلا غَـيَّـا

[السريع]

(١) صارمني: قاطعني وهجرني، لأن الصرم هو القطع والهجران.

فشَربا. ثم دفعتْ إليهما رقعةً فإذا فيها: «صنعتْ يا سيِّدي أُختُكما هذا اللَّحنَ اليوم، وألقتْه على الجواري، واصطبحتُ فبعثتُ لكما به، وبعثتُ من شرابي إليكما ومن تحياتي وأَحذَق جواريّ لتغنِّيكما. هناكما اللَّه وسرّكما وأطاب عيشكما وعيشي بكما».

أَخبرني عمي قال حدثني بنحوٍ من هذا أَبو عبد اللَّه بن المَرزُبان قال حدثني إبراهيم بن أَبي دُلَف العِجلي قال:

كنَّا مع المعتصم بالقاطول[١] وكان إبراهيم بن المهدي في حَرَّاقته بالجانب الغربي، وأَبي وإسحاق بن إبراهيم الموصلي في حَرَّاقَتَيْهما بالجانب الشرقي. فدعاهما في يوم جمعة، فعبرا إليه في زلال[٢] وأَنا معهما وأَنا صغير، عليَّ أقبِيَةٌ ومِنطقةٌ. فلما دنونا من حَرّاقة إبراهيم فرآنا نَهض ونهضتْ بنهوضه صبيَّة له يقال لها «غَضَّةُ» وإذا في يديها كأسان وفي يده كأس. فلما صعِدا إليه اندفع فغنَّى:

حيَّاكما اللَّه خليليَّا إن كنتُ ميِّتاً وإن حيَّا
إن قلتما خيراً فأَهلاً به أَو قلتما غَيّاً فلا غَيَّا

[السريع]

ثم ناول كلَّ واحدٍ منهما كأساً، وأَخذ هو الكأسَ الثالثَ الذي في يد الجارية وقال: هَلُمَّ نشرب على ريقنا قَدَحاً. ثم دعا بالطعام فأكلنا، ووُضع النبيذُ فشرِبنا، وغنياه وغنَّاهما وضربا معه وضرب معهما، وغنَّت الصبيَّةُ، فطرِب أَبي وقال لها: أحسنتِ أحسنت! فقال له إبراهيم: إن كانت أحسنَتْ فخُذْها، فما أخرجتُها إلَّا لك.

أَخبرني علي بن صالح بن الهيثم وإسماعيل بن يونس قالا حدثنا أبو هِفَّان قال:

أُهدِيتْ إلى الرشيد جاريةٌ في غاية الجمال والكمال، فخلا معها يوماً وأخرج كلَّ قينة في داره واصطبح، فكان جميع من حضره من جواريه المغنِّيات والخَدَمة في الشراب زُهاء ألفَيْ جاريةٍ في أَحسن زِيٍّ من كل نوع من أَنواع الثياب والجوهر. واتَّصل الخبر بأُمِّ جعفر فغلُظ عليها ذلك، فأرسلت إلى عليَّة تشكو إليها. فأرسلت إليها عليَّةُ: لا يَهولَنَّكِ هذا، فواللَّه لأردنّه إليكِ، قد عزمتُ أَن أَصنع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريّ، فلا تبقى عندك جاريةٌ إلَّا بعثتِ بها إليّ وأَلبِسِيهِنّ ألوانَ الثياب ليأخذنَ الصوتَ مع جواريّ، ففعلتْ أُمُّ جعفر ما أمرتها به عليَّة. فلما جاء وقت

(١) القاطول: اسم لموضع نهر على دجلة.
(٢) زلال: زورق صغير.

صلاة العصر لم يَشعُرِ الرشيد إلَّا وعليَّة قد خرجت عليه من حُجرتها، وأُم جعفر من حجرتها معها زُهاء أَلفي جاريةٍ من جواريها وسائر جواري القصر، عليهنّ غرائب اللباس، وكلهنّ في لحنٍ واحد هَزَج صَنعَتْه عُلَيَّة:

صــوت

مــنــفــصــلٌ عــنّــي ومــا قــلــبــيَ عــنــه مــنــفــصِــلْ
يــا قــاطــعــي الــيــومَ لِــمَــنْ نــويــتَ بــعــدي أَن تَــصِــلْ

[مجزوء الرجز]

فطرِب الرشيد وقام على رِجليه حتى ٱستقبل أُمَّ جعفر وعُلَيَّة وهو على غاية السرور، وقال: لم أر كاليوم قطّ. يا مسرور لا تُبقِينَّ في بيت المال دِرهماً إلا نثرتَه. فكان مبلغ ما نثره يومئذٍ ستةَ آلاف ألف درهم، وما سُمِع بمثل ذلك اليومِ قطّ.

أَخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد المبرّد قال:

كانت عُليَّةُ تقول: من لم يُطرِبه الرمل لم يُطربه شيء. وكانت تقول: من أصبح وعنده طَباهِجة[1] باردةٌ ولم يصطبح فعليه لعنةُ اللَّه.

حدثني عمي قال حدثني هِبةُ اللَّه بن إبراهيم بن المهدي قال حدثني يوسف بن إبراهيم قال: قالت لي عَريبُ:

أحسنُ يومٍ رأيتُه وأطيبُه يومٌ ٱجتمعتُ فيه مع إبراهيم بن المهدي عند أخته عُلَيَّة وعندهم أخوهم يعقوب، وكان أحذَق الناس بالزَّمر. فبدأت عُلَيَّة فغنَّتهم من صنعتها وأخوها يعقوب يزمُر عليها:

صــوت

تَــحــبَّــبْ فــإن الــحــبَّ داعــيــةُ الــحُــبِّ وكــم مــن بــعــيــد الــدّار مــسـتـوجـبُ الــقُــرْبِ

[الطويل]

وغنَّى إبراهيم في صنعته وزمَر عليه يعقوب:

صــوت

يــا واحــدَ الــحُــبِّ مــا لــي مــنــك إذ كَــلِــفــتْ نــفــسـي بــحــبِّــك إلَّا الــهــمُّ والــحَــزَنُ

(١) طباهجة: ضرب من الطعام.

لـم يُـنـسِـنِـيـك سـرورٌ لا ولا حـزنٌ وكيف لا! كيف يُنسَى وجهُك الحَسَنُ
ولا خـلا مـنـك قـلـبـي لا ولا جَـسـدي كُـلِّـي بـكـلِّـك مـشـغـولٌ ومُـرتَـهَـنُ
نـورٌ تـولَّـد مـن شـمـس ومـن قـمـرٍ حـتـى تـكـامـل مـنـه الـرُّوح والـبَـدَنُ

[البسيط]

فما سمعتُ مِثلَ ما سمعتُه منهما قطّ، وأعلم أَنّي لا أسمع مِثلَه أبداً.

قال ميمون بن هارون قلت لعَريبَ:

رأيتُ في النوم كأني سألت عليَّةَ بنتَ المهدي عن أغانيها فقالت لي: هي نَيِّفٌ وخمسون صوتاً. فقالت لي عَريب: هي كذلك. وقد أَخبرني بنحو هذا الخبر عبد اللَّه بن الرَّبيع الرَّبيعي قال حدثني وسواسة وهو أَحمد بن إسماعيل بن إبراهيم قال حدثتني خِشْف الواضحيَّة أنها تمارت هي وعَريب في غِناء عليَّة بحضرة المتوكِّل أو غيرُه من الخلفاء، فقالت هي: هي ثلاثةٌ وسبعون صوتاً. فقالت عَريب: هي ٱثنان وسبعون صوتاً، فقال المتوكِّل: غنِّيا غِناءها، فلم تزالا تغنِّيان غِناءها حتى مضى ٱثنان وسبعون صوتاً، ولم تذكر خِشْف الثالثَ والسبعينَ فقُطِع بها وٱستولت عَريب عليها وٱنكسرتْ. قالت: فلمَّا كان الليل رأيت عليَّة فيما يرى النائم فقالت: يا خِشْفُ خالفتْكِ عَريبُ في غِنائي! قلت: نعم يا سيِّدتي. قالت: الصواب معكِ، أفتدرين ما الصوتُ الذي أُنسِيتِه؟ قلت: لا واللَّه! وَلَودِدتُ أَني فَدَيت ما جرى بكل ما أملك. قالت هو:

صـوت

بُـنـي الـحُـبُّ عـلـى الـجَـورِ فَـلَـوْ أَنـصـف الـمـعـشـوقُ فـيـه لـسَـمُـجْ
لـيـس يُـسـتَـحْـسَـنُ فـي حـكـم الـهـوى عـاشـقٌ يُـحـسـن تـألـيـفَ الـحُـجَـجْ
لا تَـعـيـبَـنْ مـن مـحـبٍّ ذِلَّـةً ذلَّـةُ الـعـاشـق مِـفـتـاحُ الـفـرجْ
وقـلـيـلُ الـحـب صِـرْفـاً خـالـصـاً لـك خـيـرٌ مـن كـثـيـر قـد مُـزجْ

[الرمل]

وكأنَّها قد ٱندفعت تغنِّيني به، فما سمعتُ أحسنَ مما غنَّته، ولقد زادت لي فيه أشياء في نومي لم أَكن أَعرفها. فٱنتبهتُ وأَنا لا أَعْقِل فرحاً به. فباكرتُ الخليفةَ وذكرتُ له القصَّةَ. فقالت عَريب: هذا شيء صنعتِه أنتِ لِما جرى بالأمس، وأَمَّا الصوت فصحيح. فحلفتُ للخليفة بما رضيَ به أَنّ القصة كما حَكَيْتُ. فقال: رؤياكِ

واللَّه أعجب، ورحِم اللَّه عليَّةَ! فما تركتْ ظَرفَها حيَّةً وميِّتةً، وأَجازني جائزة سنيَّة. ولعليَّةَ في هذا الصوت أعني:

بُـنـي الـحـبّ عـلـى الـجَـور فـلـو

لحنان: خفيفُ ثقيلٍ وهَزَج. وقيل إن الهَزَج لغيرها.

ونسخت من كتاب محمد بن الحسن الكاتب حدثني أَحمد بن محمد الفيرزان قال حدثني بعضُ خَدَمِ السلطان عن مسرور الكبير، ونسختُ هذا الخبر بعينه من كتاب محمد بن طاهر يرويه عن ابن الفيرزان، وفيهما خلاف يذكر في موضعه، قال:

إشتاق الرشيد إلى إبراهيم الموصلي يوماً، فركِب حماراً يقرب من الأرض، ثم أمر بعض خدم الخاصة بالسعي بين يديه، وخرج من داره، فلم يزل حتى دخل على إبراهيم. فلمَّا أحسَّ به ٱستقبله وقبَّل رجليه. وجلس الرشيد فنظر إلى مواضع قد كان فيها قومٌ ثم مَضَوْا، ورأى عيداناً كثيرةً، فقال: يا إبراهيم ما هذا؟ فجعل يدافع. فقال: وَيلك! اصدُقني. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، جاريتان أطرح عليهما. قال: هاتهما. فأحضر جاريتين ظريفتين، وكانت الجاريتان لعليَّة بنتِ المهدي بعثت بهما يطرَح عليهما. فقال الرشيد لإِحداهما: غنّي، فغنَّتْ ـ وهذا كله من رواية محمد بن طاهر ـ:

بُـنـي الـحُـبُّ عـلـى الـجَـوْرِ فـلـو ... أَنـصـف الـمـعـشـوقُ فـيـه لـسَـمُـجْ[1]

لـيـس يُـسـتـحـسـن فـي حـكـم الـهـوى ... عـاشـقٌ يُـحـسِـن تـأَلـيـفَ الـحُـجَـجْ

لا تَـعِـيـبـنْ مـن مـحـبٍّ ذِلَّـةً ... ذِلَّـةُ الـعـاشـق مـفـتـاحُ الـفَـرَجْ

وقـلـيـل الـحـب صـرفـاً خـالـصـاً ... لـك خـيـرٌ مـن كـثـيـر قـد مُـزِجْ

[الرمل]

فأحسنتْ جدّاً. فقال الرشيد: يا إبراهيم لمن الشعر؟ ما أملحه! ولمن اللحن؟ ما أظرفه! فقال: لا عِلم لي. فقال للجارية، فقالت: لستّي. قال: ومَن سِتُّكِ؟ قالت: عُلَيَّةُ أختُ أمير المؤمنين. قال: الشعرُ واللحنُ؟! قالت نعم! فأطرق ساعة ثم رفع رأسه إلى الأخرى فقال: غنّي؛ فغنَّتْ:

صـوت

تَـحـبَّـبْ فـإِن الـحـبّ داعـيـةُ الـحـبِّ ... وكـم مـن بـعـيـد الـدار مـسـتـوجـبُ الـقـربِ

(١) سَمُج: قَبُح.

تَـبَـصَّـرْ فـإن حُـدِّثـتَ أنّ أخـا هـوى نـجـا سـالـمـاً فـارجُ الـنَّـجـاةَ مـن الـحـبِّ
إذا لـم يـكـن فـي الـحـب سُـخـطٌ ولا رِضـاً فـأيـن حـلاواتُ الـرسـائـل والـكُـتْـبِ
[الطويل]

ـ الغناء لعليَّة خفيفُ ثقيلٍ. وفي كتاب عَلّويه: الغناء له ـ فسأل إبراهيمَ عن الغناء والشعر؛ فقال: لا عِلم لي يا أَمير المؤمنين. فقال للجارية: لمن الشعر واللحن؟ فقالت لستي. قال: ومَن سِتُّكِ؟ فقالت: عُليَّة أختُ أَمير المؤمنين. فوثب الرشيد وقال: يا إبراهيم احتفظ بالجاريتين. ومضى فركب حماره وٱنصرف إلى عليَّة. هذا كله في رواية محمد بن طاهر، ولم يذكره محمد بن الحسن، ولكنه قال في خبره: إن الرشيد زار الموصلي هذه الزيارة ليلاً، وكان سببها أَنه ٱنتبه في نصف الليل فقال: هاتوا حماري فأُتي بحمارٍ كان له أَسوَدَ يركبه في القصر قريبٍ من الأرض، فركبه وخرج في دُرَّاعةٍ[1] وَشيٍ متلثِّماً بعمامة وشيٍ مُلتحِفاً برداءٍ وشيٍ، وخرج بين يديه مائة خادم أبيض سوى الفرّاشين. وكان مسرور الفَرغَاني جريئاً عليه لمكانته عنده، فلما خرج على باب القصر قال: أين يريد أَمير المؤمنين في هذه الساعة؟ قال: أَردتُ منزِلَ الموصلي. قال مسرور: فمضى ونحن بين يديه حتى ٱنتهى إلى منزل إبراهيم، فتلقَّاه وقبَّل حافرَ حماره وقال: يا أَمير المؤمنين، جعلني اللَّه فداءك، أفي مثل هذه الساعة تظهر!! قال: نعم! شوقٌ طرَق بي. ثم نزل فجلس في طَرَف الإيوان وأجلس إبراهيم. فقال له إبراهيم: يا سيِّدي أتنشَط لشيءٍ تأكله؟ قال: نعم، وما هو؟ قال: خاميزُ[2] ظبي. فأتي به كأنما كان مُعَدّاً له فأصاب منه شيئاً يسيراً، ثم دعا بشرابٍ كان حُمِل معه. فقال له إبراهيم الموصلي: أأُغنِّيك يا سيِّدي أم يغنِّيك إماؤك؟ فقال: بل الجواري. فخرج جواري إبراهيم فأخذْنَ صَدرَ الإيوان وجانبيه. فقال: أَيَضرِبْنَ كلُّهن أَم واحدةٌ واحدةٌ؟ فقال: بل تَضرِب ٱثنتان وتغنّي واحدةٌ فواحدةٌ. ففعلن ذلك حتى مَرَّ صدرُ الإيوان وأحدُ جانبيه والرشيد يسمع ولا يَنشَط لشيءٍ من غِنائهنّ، إلى أَن غنَّتْ صبيَّةٌ من حاشية الصَّفِّ:

صـوت

يـا مُـورِيَ الـزَّنـد قـد أعـيـتْ قـوادُحـه أقـبِـسْ إذا شـئـتَ مـن قـلـبـي بـمِـقـبـاسِ
مـا أقـبـحَ الـنـاسَ فـي عـيـنـي وأسـمـجَـهـم إذا نـظـرتُ فـلـم أُبـصِـرْك فـي الـنـاسِ
[البسيط]

(١) درَّاعة: نوع من الثياب.
(٢) خاميز: كلمة أعجمية معناها مرق السكباج المبرَّد والمصفَّى من الدّهن.

فطرِب لغنائها وٱستعاد الصوتَ مِراراً وشَرِب أَرطالاً، ثم سأل الجارية عن صانعه فأمسكتْ، فٱستدناها فتقاعستْ، فأمر بها فأُقيمتْ إليه، فأخبرتْه بشيءٍ أسرَّتْه إليه. فدعا بحماره فٱنصرف والتفتَ إلى إبراهيم فقال: ما عليك ألَّا تكون خليفةً! فكادت نفسُه تخرُج، حتى دعا به بعدُ وأدناه. هذا نظمُ رواية محمد بن الحسن في خبره. وقال محمد بن طاهر في خبره: فقال للموصلي: ٱحتفظْ بالجاريتين، وركب من ساعته إلى عليَّة فقال: قد أحببتُ أَن أشربَ عندكِ اليومَ. فتقدَّمتْ فيما تُصلِحُه، وأخذا في شأنهما. فلمَّا أن كان في آخر الوقت حمل عليها بالنبيذ، ثم أخذ العودَ من حِجر جارية فدفعه إليها، فأكبرتْ ذلك. فقال: وتُربةِ المهدي لَتُغَنِّنَّ! قالت: وما أُغَنّي؟ قال: غَنّي:

بُـنـيَ الـحـبّ عـلـى الـجَـور فـلـو

فعلمتْ أَنه قد وقف على القصة فغنَّته. فلمَّا أَتت عليه قال لها غَنّي:

تَـحـبَّـبْ فـإنّ الـحـبّ داعـيـةُ الـحـب

فلَجْلَجَتْ ثم غنَّته. فقام وقبَّل رأسَها وقال: يا سيِّدتي هذا عندكِ ولا أعلم! وتمَّم يومَه معها.

حدثني جَحظةُ قال حدثني أَبو العُبَيس بن حَمدون قال: قال إبراهيم بن المهدي:

ما خَجِلتُ قَطُّ خَجلَتي من عليَّة أُختي. دخلتُ عليها يوماً عائداً فقلت: كيف أنت يا أُختي جُعِلْتُ فِداءك وكيف حالُك وجسمُك؟ فقالت: بخير والحمد للَّه. ووقعتْ عيني على جارية كانت تَذُبُّ عنها فتشاغلتُ بالنظر إليها فأعجبتْني وطال جلوسي، ثم ٱستحيَيتُ من عليَّة فأقبلتُ عليها فقلت: وكيف أنتِ يا أُختي جُعِلتُ فِداءك وكيف حالُك وجسمُك؟ فرفعت رأسها إلى حاضنةٍ لها وقالت: أليس هذا قد مضى مرَّة وأجبنا عنه! فخجِلتُ خَجَلاً ما خَجِلتُ مِثلَه قَطُّ، وقمتُ وٱنصرفتُ.

أَخبرني عبد اللَّه بن الرَّبيع الرَّبيعي قال حدثني أَحمد بن إسماعيل عن محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد قال:

شَهِدتُ أَبي جعفراً وأَنا صغيرٌ وهو يحدِّث يحيى بن خالد جدّي في بعض ما كان يخبره به من خَلَواته مع الرشيد، قال: يا أَبتِ، أَخذ بيدي أمير المؤمنين ثم أقبل على حُجرة يخترقها حتى ٱنتهى إلى حُجرة مُغلقة فَفُتِحتْ له، ثم رجع مَن كان معنا من الخَدَم، ثم صرنا إلى حُجرة مغلقة ففتحها بيده ودخلنا جميعاً وأغلقها من داخلٍ بيده،

ثم صرنا إلى رِواقٍ ففتحه وفي صدره مجلس مغلق فقعَد على باب المجلس، فنقَر هارون الباب بيده نَقَراتٍ فسمِعنا حسّاً، ثم أعاد النَّقرَ فسمِعنا صوتَ عود، ثم أعاد النَّقرَ ثالثةً فغنَّتْ جارية ما ظننت واللَّه أنّ اللَّه خلق مثلها في حُسْن الغناء وجودة الضَّرب. فقال لها أَمير المؤمنين بعد أَن غنَّت أَصواتاً: غنّي صوتي، فغنَّتْ صوتَه، وهو:

صـوت

ومُـخَـنَّـثٍ شَـهِـد الـزّفـافَ وقَـبـلَـه غَـنَّـى الـجـواريَ حـاسـراً ومُـنَـقَّـبَـا
لـبِـس الـدلالَ وقـام يَـنـقُـر دُفَّـهُ نَـقـراً أقـرَّ بـه الـعـيـونَ وأطـرَبَـا
إنّ الـنـسـاء رأيـنـه فـعـشِـقـنَـه فـشـكـونَ شـدّة مـا بـهـنَّ فـأكـذبَـا

[الكامل]

ـ في هذا اللحن خفيفُ رمَلٍ نسَبه يحيى المكيّ إلى ابن سُرَيج ولم يَصِحّ له، وفيه خفيفُ ثقيل في كتاب عليَّة أَنه لها، وذكر عبد اللَّه بن محمد بن عبد الملك الزيّات أَنه لرَيِّقَ. واللَّحن مأخوذٌ من:

إنّ الـرجـالَ لـهـم إلـيـكِ وسـيـلـةٌ

وهو خفيفُ ثقيلٍ للهُذَليّ، ويقال إنه لابن سُرَيج، وهو يأتي في موضع آخر ـ قال: فطرِبتُ واللَّه طرباً هممتُ معه أَن أنطح برأسي الحائطَ. ثم قال غنّي:

طـال تـكـذيـبـي وتـصـديـقـي

فغنَّت:

صـوت

طـال تـكـذيـبـي وتـصـديـقـي لـم أَجِـدْ عـهـداً لـمـخـلـوقِ
إنَّ نـاسـاً فـي الـهـوى غَـدَروا أحـدثـوا نَـقْـضَ الـمـواثـيـقِ
لا تَـرانـي بـعـدَهـم أَبـداً أشـتـكـي عِـشـقـاً لـمـعـشـوقِ

[المديد]

ـ لحنُ عليَّة في هذا الصوت هَزَجٌ. والشعرُ لأبي جعفر محمد بن حُمَيد الطُّوسيّ وله فيه لحنٌ خفيفُ ثقيلٍ. ولعَريبَ فيه ثقيلٌ أوّل وخفيفُ ثقيلٍ آخر ـ قال: فرقَص الرشيد ورقصتُ معه، ثم قال: امْضِ بنا فإِني أخاف أن يبدو منَّا ما هو أكثر من هذا،

فمضَينا. فلما صرنا إلى الدّهليز قال وهو قابض على يدي: أعرفتَ هذه المرأة؟ قال: قلت: لا يا أَمير المؤمنين. قال: فإني أَعلم أَنك ستسأل عنها ولا تكتُم ذلك، وأَنا أُخبرك أنها عليَّةُ بنتُ المهدي. ووالله لئن لَفَظْتَ به بين يَدَي أَحدٍ وبلغني لأقتلنَّك. قال: فسمِعتُ جدّي يقول له: فقد والله لفظتَ به، ووالله ليقتلنَّك! فاَصنعْ ما أَنت صانع.

نسبة الصوت الذي أُخذ منه

ومُـخَـنَّـثٍ شـهـد الـزِّفـافَ وقَـبـلَـه

صـوت

إنَّ الـرجـال لـهـم إلـيـكِ وسـيـلـةٌ ... إن يـأخـذوكِ تَـكَـحَّـلـي وتَـخَـضَّـبـي
وأَنـا اَمـرؤٌ إن يـأخـذونـي عَـنـوَةً[1] ... أُقـرَن إلـى سَـيْـرِ الـرّكـاب وأُجـنَـبِ
ويكون مركبُك القَعودَ[2] وحِدْجَه[3] ... وابـنُ الـنَّـعـامـةِ يـومَ ذلـك مَـركَـبـي

[الكامل]

الناس يَرْوُون هذه الأبيات لعنترة بن شَدّاد العَبْسي، وذكر الجاحظ أنها لخُزَز بن لَوذان، وهو الصحيح. وخُزَزُ شاعرٌ قديم يقال إنه قبل اَمرئ القيس. وقد اَختُلِف في معنى قوله: «ابن النعامة» فقال أَبو عُبيدة والأصمعي: النعامةُ فرسُه وابنُها ظِلُّها. يقول: أُقاد في الهاجرة إلى جَنبها فيكون ظِلّي كالراكب لظِلِّها: وقال أَبو عمرو الشَّيباني: ابن النَّعامة مُقَدّم رِجله مما يلي الأصابع. يقول: فلا يكون لي مركبٌ إلَّا رِجلي. وقال خالد بن كُلثوم: ابن النعامة الخشبة التي يُصلَب عليها. يقول: أُقتَلُ وأُصلَبُ فتكون الخشبة مركبي. واَحتجَّ مَن ذكر أَنه يعني ظِلَّ فرسه وأَنه يكون كالراكب له بقول الشاعر:

إذ ظَـلَّ يـحـسَـب كـلَّ شـيءٍ فـارسـاً ... ويَـرى نـعـامـةَ ظِـلِّـه فـيَـحُـولُ

[الكامل]

قال: وابن النعامة: ظِلُّ كلّ شيء. وقد مضى هذا الصوت مفرداً مع خبره في موضع آخر.

---

(١) عَنوة: غصباً.
(٢) القَعود: الإبل المتخذة لحمل المتاع والزاد وتتخذ للركوب أيضاً.
(٣) الحدج: مركب يعد لنقل النساء كالهودج.

أمرها الرشيد بالغناء فنظمت فيه شعراً وغنته به فطرب:

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا أَحمد بن يزيد المهلَّبي قال حدثنا حمَّاد بن إسحاق قال:

زار الرَّشيدُ عليَّة فقال لها: باللَّه يا أُختي غَنِّيني. فقالت: وحياتِك لأعملنَّ فيك شعراً ولأعملنَّ فيه لحناً، فقالت من وقتها:

صـوت

تَفديك أُختُك قد حَبَوْتَ بنعمةٍ ... لسنا نَعُدُّ لها الزمانَ عديلا
إلَّا الخلودَ، وذاك قربُك سيِّدي ... لا زال قربُك والبقاءُ طويلا
وحَمِدتُ ربِّي في إجابة دعوتي ... فرأيتُ حمدي عند ذاك قليلا

[الكامل]

وعَمِلتْ فيه لحناً من وقتها في طريقة خفيفِ الرَّمَلِ، فأطربَ الرَّشيد وشرِب عليه بقيَّةَ يومه.

قال: وقالت للرشيد أَيضاً وقد طلب أُختَها ولم يطلبها.

صـوت

مالي نُسِيتُ وقد نُودي بأصحابي ... وكنتُ والذِّكرُ عندي رائحٌ غادي
أنا التي لا أُطيف الدَّهرَ فُرْقَتَكم ... فَرِقَّ لي يا أَخي من طول إبعادِ

[البسيط]

قال: وغَنَّتْ فيه لحناً من الثقيل الثاني، وبعثت مَن غنَّاه للرشيد، فبعث فأحضرها.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني عَون بن محمد قال حدثني زُرزور الكبير غلام جعفر بن موسى الهادي:

أنّ عليَّةَ حجَّت في أَيَّام الرَّشيد، فلمَّا ٱنصرفتْ أقامت بطِيْرَناباذ[1] أَيَّاماً، فٱنتهى ذلك إلى الرشيد فغضِب. فقالت عليَّةُ:

(١) طيرناباذ: موضع قرب الكوفة يقصد للعبث واللهو.

صـــوت

أَيُّ ذنـــبٍ أذنـــبـــتُـــه أيّ ذنـــبٍ أيّ ذنـــبٍ لـــولا رجـــائـــي لـــربّـــي
بـــمُـــقـــامـــي بـــطِـــيْـــرَنـــابـــاذَ يـــومـــاً بـعـدَه لـيـلـةٌ عـلـى غـيـر شُـرْبِ
ثـــم بـــاكـــرتُـــهـــا عُـــقـــاراً شَـــمـــولاً تَـفـتِـنُ الـنَّـاسِـكَ الـحـلـيـمَ وتُـصـبـي
قَـــرقَـــفـــاً قـــهـــوةً تـــراهـــا جَـــهـــولاً ذاتَ حِـــلْـــم فَـــرَّاجـــةً كـــلَّ كَـــرْبِ

[الخفيف]

قال: وصنعتْ في البيتين الأولين لحناً من خفيف الثقيل، وفي البيتين الأخيرين لحناً من الرَّمَل. فلمَّا جاء وسمع الشعر واللحنين رضي عنها.

إشتاقها الرشيد وهو بالرّقة فطلبها فجاءته:

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني عبد اللَّه بن المعتزّ قال حدثني عبد اللَّه بن إبراهيم بن المهدي قال:

إشتاق الرّشيد إلى عَمَّتي عليَّة بالرَّقة، فكتب إلى خالها يزيدَ بنِ منصور في إخراجها إليه فأخرجها. فقالت في طريقها:

صـــوت

إِشْـرَبْ وغَـنّ عـلـى صـوت الـنَّـواعِـيـرِ مـا كـنـتُ أعـرِفـهـا لـولا ابـنُ مـنـصـورِ
لـــولا الـــرجـــاء لـــمـــن أمَّـــلـــتُ رُؤْيَـــتَـــه مـا جُـزتُ بـغـدادَ فـي خـوف وتـغـريـرِ

[البسيط]

وعَمِلتْ فيه لحناً في طريقة الثقيل الأوّل.

كانت مع الرشيد في الري فحنت إلى العراق بشعر فردها:

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني أحمد بن محمد بن إسحاق قال حدثنا الهشاميّ أَبو عبد اللَّه قال:

لمَّا خرج الرشيد إلى الرَّيّ أَخذ أُختَه عليَّة معه. فلما صار بالمَرْج عمِلتْ شعراً وصاغت فيه لحناً في طريقة الرمل وغنَّتْ به، وهو:

صـــوت

ومُـغـتَـرِبٍ بـالـمَـرْج يَـبـكـي لِـشَـجْـوِهِ وقد غاب عنه المُسعِدون على الحبِّ

إذا مـا أَتـاه الـرَّكـب مـن نـحـو أرضـه تـنـشَّـق يَـسـتـشـفـي بـرائـحـة الـرَّكـبِ

[الطويل]

فلمَّا سمِع الصَّوتَ علِم أنها قد ٱشتاقت إلى العراق وأهلِها به فردَّها.

غنت الرشيد في يوم فطر:

ونسختُ من كتاب هارون بن محمد الزيَّات حدثني بعضُ موالي أَبي عيسى بن الرشيد عن أَبي عيسى: أن عليَّة غنَّتِ الرشيدَ في يوم فِطر:

صـوت

طـالـتْ عـلـيَّ لـيـالـي الـصَّـومِ وٱتَّـصـلـتْ حـتـى لـقـد خِـلـتُـهـا زادتْ عـلـى الأبَـدِ

شـوقـاً إلـى مـجـلـس يُـزهَـى بـصـاحـبـه أُعِـيـذُه بـجـلال الـواحـد الـصَّـمَـدِ

[البسيط]

الغناء لعليَّة ثاني ثقيل لا يُشَكّ فيه، وذكر بعضُ الناس أنه للواثق، وذكر آخرون أنه لعبد اللَّه بن العبَّاس الرَّبيعي. والصحيحُ أنه لعليَّة. وفيه لعريب ثقيلٌ أَوّل غنَّته المُعتَمِدَ يومَ فِطر فأمر لها بثلاثين ألف درهم.

وقال ميمون بن هارون حدثني أحمد بن يوسف أَبو الجَهْم قال:

كان لعليَّة وكيل يقال له سِباعٌ، فوقفتْ على خيانته فضربته وحبسته، فٱجتمع جيرانه إليها فعرّفوها جميلَ مذهبه وكثرة صدْقه، وكتبوا بذلك رقعة، فوقّعتْ فيها:

أَلَا أَيُّـهَـذا الـرَّاكـبُ الـعِـيـسَ بَـلِّـغَـنْ سِـبـاعـاً وقُـلْ إن ضَـمَّ دارَكـم الـسَّـفْـرُ

أَتَـسـلُـبـنـى مـالـي وإن جـاء سـائـلٌ رَقَـفْـتَ لـه إن حـطَّـه نـحـوَكَ الـفـقـرُ

كـشـافـيـةِ الـمَـرضـى بـعـائـدة الـزِّنـا تـؤمِّـل أَجـراً حـيـث لـيـس لـهـا أجـرُ

[الطويل]

تركت الغناء لموت الرشيد فألح عليها الأمين فغنته:

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني ميمون بن هارون قال حدّثتني عَلَمُ السَّمراءُ جارية عبد اللَّه بن موسى الهادي أَنَّها شَهِدتْ عُليَّة غنَّت الأمين في شعر لها، وهو آخر شعر قالته فيه، وطريقته من الثقيل الثاني، وكانت لمَّا مات الرّشيد جَزِعَتْ جَزَعاً شديداً وتركت النَّبيذَ والغناء. فلم يزل بها الأمينُ حتى عادت فيهما على كرهٍ. والشعر:

صـــوت

أَطَـلْـتِ عـاذِلـتـي لَـوْمـي وتَـفـنـيـدي ... وأنـتِ جـاهـلـةٌ شـوقـي وتَـسـهـيـدي
لا تَـشـرَبِ الـراح بـيـن الـمُـسـمِـعـات وزُرْ ... ظَـبْـيـاً غَـريـراً نَـقِـيَّ الـخـدّ والـجـيـدِ
قـد رنَّـحـتْـه شـمـولٌ فـهـو مُـنـجَـدِلٌ ... يَـحـكـي بـوجـنـتـه مـاءَ الـعـنـاقـيـدِ
قـام الأمـيـنُ فـأغـنـى الـنـاس كـلَّـهـمُ ... فـمـا فـقـيـرٌ عـلـى حـال بـمـوجـودِ

[البسيط]

لحنُ عليَّةَ في هذا الشعر ثاني ثقيل. ولعريبَ فيه هَزَجٌ، وقيل إنَّ الهَزَجَ لإبراهيم بن المهدي.

وقال ميمون بن هارون حدثني محمد بن أَبِي عَون قال حدثتني عَريبُ أَن عليَّة قالت في لُبانةَ بنتِ أخيها عليّ بن المهدي شعراً وغنَّت فيه من الثقيل الأول:

صـــوت

وحـدّثـنـي عـن مـجـلـس كـنـتِ زَيْـنَـه ... رسـولٌ أَمـيـنٌ والـنـسـاءُ شُـهـودُ
فـقـلـت لـه كُـرَّ الـحـديـثَ الـذي مَـضـى ... وذِكـرَكِ مـن ذاك الـحـديـث أريـدُ

[الطويل]

وقد ذكر الهشاميّ أن هذا اللحنَ لإسحاق غنَّاه بالرقّة. وليس ذلك بصحيح.

أَخبرني محمد بن يحيى عن عَون بن محمد عن أَبي أَحمد بن الرشيد، ونسخت هذا الخبر من كتاب محمد بن الحسن عن عَون بن محمد عن أَبي أَحمد بن الرشيد واللفظُ له قال:

دخل يوماً إسماعيل بن الهادي إلى المأمون، فسمِع غناء أذهله. فقال له المأمون: ما لَكَ؟ قال: قد سَمِعتُ ما أذهلني، وكنتُ أُكذِّب بأن الأُرغُن الرُّومي يقتُل طرباً، وقد صدّقتُ الآن بذلك. قال: أَوَ لا تَدري ما هذا؟ قال: لا واللَّه! قال: هذه عَمَّتُك عليَّةُ تُلقي على عَمِّك إبراهيمَ صوتاً من غِنائها. إلى هاهنا رواية محمد بن يحيى. وفي رواية محمد بن الحسن قال: هذه عَمَّتُك تُلقي على عَمِّك إبراهيم صوتاً ٱستحسنه من غِنائها. فأصغيتُ إليه فإذا هي تُلقي عليه:

صـوت

لـيـس خَـطـبُ الـهـوى بـخـطـبٍ يـسـيـرِ لـيـس يُـنـبِـيـك عـنـه مِـثـلُ خـبـيـرِ[1]
لـيـس أمـرُ الـهـوى يُـدَبَّـر بـالـرأ ي ولا بـالـقـيـاس والـتَّـفـكـيـرِ

[الخفيف]

اللحنُ في هذا لعليَّةَ ثقيلٌ أوّل. وفيه لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيلٍ عن الهِشاميّ.

توفيت ولها خمسون سنة:

أَخبرني جَحظةُ قال حدثني هِبةُ اللَّه بن إبراهيم بن المهدي عن أَبيه:

أَنَّ عليَّةَ بنتَ المهدي وُلِدتْ سنة ستين ومائة، وتُوفِّيَتْ سنةَ عشر ومائتين ولها خمسون سنة. وكانت عند موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد اللَّه بن عبَّاس. وأخبرني محمد بن يحيى بن عَون بن محمد قال حدثني محمد بن علي بن عثمان قال: ماتت عُلَيَّةُ سنةَ تسعٍ ومائتين، وصلَّى عليها المأمون. وكان سبب وفاتها أَنّ المأمون ضمَّها إليه وجَعل يقبِّل رأسَها، وكان وجهُها مُغطّىً فشَرِقت من ذلك وسعَلتْ ثم حُمَّتْ بعَقِب هذا أَيَّاماً يسيرةً وماتت.

وممن صنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن الرشيد.

فمن صنعته:

صـوت

قـام بـقـلـبـي وقَـعَـدْ ظـبـيٌ نـفـى عـنِّـي الـجَـلَـدْ
خـلَّـفـنـي مُـدَلَّـهـاً أهِـيـمُ فـي كـلِّ بَـلَـدْ
أَسـهَـرنـي ثـم رَقَـدْ ومـا رثـى لـي مـن كَـمَـدْ
ظـبـيٌ إذا ٱزددتُ لـه تـذلُّـلاً تـاه وصَـدّ
واعَـطَـشـا إلـى فَـمٍ يَـمُـجُّ خـمـراً مـن بَـرَدْ

[مجزوء الرجز]

(١) خبيرِ: السحاب المنمَّر.

عروضه من مجزوء الرَّجَز. والشعرُ والغناء لأبي عيسى بن الرّشيد، ولحنُه فيه ثقيل أول مطلق في مجرى الوسطى من روايتي عبد اللَّه بن المعتزّ والهشامي. وذكر الهِشاميّ أَن له أَيضاً فيه لحناً من ثقيل الرَّمَل، وذكر حَبَشٌ أَنّ الرَّمَلَ لحسين بن مُحرز. وفيه لأبي العُبَيس بن حَمدون خفيفُ ثقيلٍ.

أخبار أبي عيسى بن الرشيد ونسبه

اسمه أحمد، وقيل بل اسمه صالح بن الرشيد. وهذا النَّسبُ أشهر من أَن يُشرَح. وأُمُّه أُمُّ ولدٍ بَربَريَّة. وكان من أَحسن الناس وجهاً ومُجالسةً وعِشرَةً، وأمجنهم وأحدّهم نادرةً وأشدّهم عَبَثاً. وكان يقول شعراً ليِّناً طيِّباً من مِثلِه.

كان جميل الوجه:

أَخبرني الحسن بن علي الخَفَّاف قال حدثنا عبدُ اللَّه بن أَبي سعد الورَّاق قال حدثني محمد بن عبد اللَّه بن طاهر أنه سمع أَباه يقول: سمعتُ أَبي (يعني طاهر بن الحسين) يحدّث أَنه سمع الرشيدَ يقول للمأمون: أنت تعلم أَنك أحبّ الناس إليَّ، ولو أستطيع أَن أجعل لك وجه أَبي عيسى لفعلت.

كان إذا ركب جلس له الناس لرؤية حسنه:

أَخبرني محمد بن يحيى الصُّولي قال حدثني مُسَيّح بن حاتم العُكليّ قال حدثنا إبراهيم بن محمد قال:

كان يقال: انتهى جَمالُ وَلَد الخلافة إلى أولاد الرشيد، ومن أَولاد الرشيد إلى محمد وأَبي عيسى. وكان أَبو عيسى إذا عزمَ على الركوب جلس الناس له حتى يَرَوْه أكثر مما يجلِسون للخلفاء.

مدحت عريب حسنه وغناءه:

حدثني محمد قال حدثني يعقوب بن بَنان قال حدثني عليّ بن الحسين الإسكافي قال:

كنتُ عند أبي الصَّقر إسماعيلَ بنِ بُلبُل وعنده عريبُ، فسمِعتُها تقول: انتهى جمالُ الرشيد إلى محمد الأمين وأَبي عيسى، ما رأى الناس مثلَهما، وكان المعتزّ في طِرازهما. قال: وسمعتُها تقول لأبي العبَّاس بن حمدون: ما غناؤك من غِناء أبي عيسى بن الرشيد! وما سمِعتُ قَطُّ غِناءً أَحسنَ من غِنائه، ولا رأيت وجهاً أحسن من وجهه.

أَخبرني محمد قال حدثني الغلابيّ قال حدثنا يعقوب بن جعفر قال:

قال الرشيد لأبي عيسى ابنه وهو صبيّ: ليت جمالك لعبد اللَّه (يعني المأمون). فقال له: على أنّ حظَّه منك لي. فعجِب من جوابه على صِباه وضمَّه إليه وقبَّله.

سخط من رؤية هلال شهر رمضان:

وأَخبرني الحسن بن علي وأَحمد بن عُبَيد اللَّه بن عَمَّار قالا حدثنا عبدُ اللَّه بن أَبي سعد عن محمد بن عبد اللَّه بن طاهر عن أَبيه قال:

حدثني مَن شَهِد المأمونَ ليلةً وهم يتراءَوْنَ هلالَ شهرِ رمضان وأَبو عيسى أخوه معه وهو مُستَلْقٍ على قفاه، فرأوْه وجعلوا يَدعون. فقال أبو عيسى قولاً أُنكِر عليه في ذلك المعنى. كأنه كان متسخِّطاً لورود الشهر، فما صام بعده.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا الحسين بن فَهم قال: قال أَبو عيسى بن الرَّشيد:

دهانيَ شهرُ الصَّومِ لا كان من شهرِ ... وما صُمتُ شهراً بعدَه آخِرَ الدّهرِ
فلو كان يُعديني الإمامُ بقُدْرةٍ ... على الشهر لاستعدَيتُ جهدي على الشَّهرِ

[الطويل]

فناله بعقب قوله هذا الشعر صَرْعٌ، فكان يُصرَع في اليوم مرَّاتٍ إلى أن مات، ولم يبلغ شهراً آخر.

مدح إبراهيم بن المهدي غناءه:

وذكر علي بن الهشامي عن جدّه ابن حَمدون قال: قلت لإبراهيم بن المهدي: مَن أَحسن الناس غناء؟ قال: أَنا. قلت: ثم مَن؟ قال: أَبو عيسى بن الرشيد. قلت: ثم مَن؟ قال: مُخارق.

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني ابن أَبي سعد قال حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن طاهر قال حدثنا محمد بن سعيد أَخو غالب الصَّعديّ قال:

كان أَبو عيسى بن الرشيد وطاهر بن الحسين يتغدّيان مع المأمون، فأخذ أَبو عيسى هِندَباءة[1] فغمَسها في الخلِّ وضرب بها عين طاهر الصحيحة. فغضِب طاهرٌ وشَقَّ ذلك عليه وقال: يا أَمير المؤمنين إحدى عَينَيَّ ذاهبةٌ، والأخرى على يَدَيْ عَدْل،

(١) الهندباء: نوع من النبات يطهى ويؤكل.

يُفعَل هذا بي بين يدَيكَ!! فقال له المأمون: يا أبا الطَّيِّب إنه واللَّه ليَعبَث بي أكثر من هذا العَبَث.

عرّض بيعقوب بن المهدي فضحك المأمون ونهاه:

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن أَبي سعد قال حدثني محمد بن عبد اللَّه بن طاهر قال حدثني أبو عيسى بن علي بن عيسى بن ماهان قال:

بينا المأمون يخطُب يومَ الجمعة على المنبر بالرُّصافة وأخوه أَبو عيسى تِلقاءَ وجههِ في المقصورة، إذ أقبل يعقوب بن المهدي وكان أفسى الناس، معروفاً بذلك. فلما أقبل وضع أَبو عيسى كمَّه على أنفه، وفَهِم المأمونُ ما أراد فكاد أَن يضحك. فلمَّا ٱنصرف بعَث إلى أبي عيسى فأحضره وقال له: واللَّه لهَمَمْتُ أن أبطحَك فأضربك مائةَ دِرّة! ويلَك! أردتَ أن تفضَحني بين أيدي الناس يوم جمعة وأَنا على المنبر! إيَّاك أن تعود لمثل هذه! قال: وكان يعقوب بن المهدي لا يقدِر أن يُمسك الفُساء إذا جاءه. فٱتخذت له دايةٌ مُثَلَّثةً وطيَّبتْها وتنوَّقت فيها. فلمَّا وضعتْها تحتَه فَسا، فقال: هذه ليست بطيِّبة. فقالت له الداية: فديتُك! هذه قد كانت طيِّبة وهي مثلثة، فلما ربّعتها فسدتْ. قال: وكان يعقوب هذا مُحمَّقاً، كان يخطُر بباله الشيءُ فيشتهيه فيُثْبِتُه في إحصاء خزائنه. فضَجَّ خازنُه من ذلك، فكان يُثبِتُ الشيءَ ثم يثبت تحتَه أنه ليس عنده، وإنما أثبته ليكون ذكرُه عنده إلى أن يُملِكه. فوُجد في دفتر له فيه ثَبَتُ ثياب: «ثبَتُ ما في الخزانة من الثياب المثقَّلة الإسكندرانية والهِشاميَّة، لا شيء ـ أستغفر اللَّه ـ بل عندنا منها زرحية كانت للمهدي. الفصوص الياقوت الأحمر التي من حالها كذا وكذا لا شيء ـ أستغفر اللَّه ـ بل عندنا منها دُرجٌ كان فيه للمهدي خاتَمٌ هذه صفتُه». فحُمِل ذلك الدفتر إلى المأمون، فضحِك لمَّا قرأه حتى فحص برجله وقال: ما سمعتُ بمثل هذا قطّ!

كان المأمون يحبه ويتمنى أن يلي الأمر بعده:

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا سليمان بن داود المهلَّبي قال حدثني الهَيثَم بن محمد بن عَبَّاد عن أَبيه قال:

كان المأمون أشدّ الناس حبّاً لأبي عيسى أخيه، كان يُعِدُّه للأمر بعدَه، وتذاكرنا ذلك كثيراً. وسمِعتُه يقول يوماً: إنه ليَسهُل عليّ أمرُ الموت وفَقدُ المُلك، وما يسهل شيء منهما على أحد، وذلك لمحبَّتي أن يَليَ أَبو عيسى الأمرَ من بعدي لشدّة حُبي إيَّاه.

أخبرني محمد بن علي قال حدثني عبد اللَّه بن المُعتزّ قال:

كان سبب موت أبي عيسى بن الرشيد أنه كان يحب صَيدَ الخنازير، فوقع عن دابّتِه فلم يَسلَم دماغُه، فكان يتخبَّط في اليوم مرَّاتٍ إلى أَن مات.

عزاء محمد بن عباد، المأمون فيه:

حدثني محمد قال حدثنا أَبو الغَيناء قال حدثنا محمد بن عَبَّاد المهلَّبي قال: لمَّا مات أَبو عيسى بن الرشيد دخلتُ إلى المأمون وعِمامتي عليَّ، فخلعت عِمامتي ونبذتُها وراءَ ظهري ـ والخلفاءُ لا تُعَزَّى في العمائم ـ ودنوتُ. فقال لي: يا محمد، حال القدَرُ دون الوَطر. فقلت: يا أَمير المؤمنين، كلُّ مصيبةٍ أخطأتْك تهون، فجعل اللَّه الحزنَ لك لا عليك.

مات سنة تسع ومائتين:

أَخبرني محمد قال حدثنا عَون بن محمد قال سَمِعت هِبَة اللَّه بن إبراهيم يقول: مات أَبو عيسى بن الرّشيد سنةَ تسع ومائتين، وصلَّى عليه المأمون ونزل في قبره، وٱمتنع من الطعام أياماً حتى خاف أن يَضُرَّ ذلك به:

وجد عليه المأمون وجداً شديداً:

أَخبرني أَحمد بن عُبيد اللَّه بن عَمَّار قال حدثني أَبو العَيناء قال سمعت محمد بن عَبَّاد يقول:

لمَّا تُوّفي أَبو عيسى بن الرشيد وجدَ المأمون عليه وَجداً شديداً، وكان له مُحبّاً وإليه مائلاً. فركب إلى داره حتى حضر أَمرَه وصلَّى عليه، وحضره الناس، وكنتُ فيمن حضَر، فما رأيتُ مُصاباً حزيناً قطّ أجمل أمراً في مُصيبةٍ ولا أَحرَقَ وجداً منه من رجل صامت تجري دموعُه على خدَّيه من غير كلح ولا ٱستِنثارٍ.

بكاه المأمون:

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن أبي سعد الورّاق قال حدثني محمد بن عبد اللَّه بن طاهر قال حدثني أَبي قال: قال أحمد بن أبي دُواد:

دخلتُ على المأمون في أول صحبتي إيَّاه وقد توفّيَ أخوه أَبو عيسى وكان له محبّاً وهو يبكي ويَمسَحُ عينيه بمنديل، فقَعَدتُ إلى جنب عمرو بن مَسعدَةَ وتمثَّلتُ قولَ الشاعر:

نَقصٌ من الدنيا وأسبابِها ... نقصُ المنايا من بني هاشم

[السريع]

ولم يزل على تلك الحال ساعة يبكي، ثم مسح عينيه وتمثَّل:

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تَغِضْ فحسبُك منّي ما تَجِنُّ الجوانحُ[1]
كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِواك ولم تَنُحْ على أَحدٍ إلَّا عليك النَّوائحُ

[الطويل]

ثم التفت إليّ فقال: هِيهِ يا أَحمد! فتمثَّلتُ قولَ عَبدةَ بن الطَّبيب:

عليك سلامُ اللَّه قَيسَ بنَ عاصم ورحمتُه ما شاء أن يترحَّمَا
تحيَّةَ مَن أَولَيتَه منك نعمةً إذا زار عن شَحطٍ بلادَك سلَّمَا
وما كان قَيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ولكنَّه بنيانُ قومٍ تهدَّمَا

[الطويل]

فبكى ساعةً ثم التفتَ إلى عمرو بن مَسعَدة فقال: هِيهِ يا عمرو! قال: نعم يا أمير المؤمنين.

بَكُّوا حُذَيفَةَ لم تُبَكُّوا مِثلَه حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخلَقِ

[الكامل]

فإذا عَريبُ وجَوارٍ معها يَسمَعنَ ما يدور بيننا، فقلن: اجعلوا لنا معكم في القول نصيباً. فقال لها المأمون: قُولي فرُبَّ صوابٍ منكِ كثير. فقالت:

كذا فَلْيجِلَّ الخطبُ ولْيَفْدَحِ الأمرُ وليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ
كأنَّ بني العبَّاس يومَ وفاته نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البَدْرُ

[الطويل]

فبكى وبكينا. ثم قال لها المأمون: نوحي، فناحت وردّ عليها الجواري. فبكى المأمون حتى قلتُ: قد خرجتْ نفسُه، وبكَينا معه أحرَّ بكاء، ثم أمسكتْ. فقال لها المأمون: اصنعي فيه لحناً وغَنّي به. فصنعتْ فيه لحناً على مذهب النَّوح وغنَّتْه إيَّاه على العود. فوالذي لا يُحلَفُ بأَجَلّ منه لقد بَكَينا عليه غِناءً أكثر ممَّا بَكَينا عليه نَوحاً.

طلب المأمون من أبي العتاهية أن يسليه عنه:

أخبرني محمد بن يحيى قال حدثنا الطَّبيب بن محمد الباهليّ قال حدثني موسى بن سعيد عن أَخيه عمرو قال:

لمَّا مات أَبو عيسى بن الرشيد وجد عليه المأمون وَجداً شديداً حتى ٱمتنع من

(١) الجوانح: الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر، واحدته جانحة.

النوم ولم يَطعَم شيئاً. فدخل عليه أَبو العتاهية، فقال له المأمون: حدِّثني يا أبا إسحاق بحديث بعض الملوك ممن كان في مثل حالنا وفارقها. فقال: يا أمير المؤمنين، لبس سليمان بن عبد الملك أفخرَ ثيابه ومَسَّ أَطيَبَ طِيبه وركب أَفرَهَ خَيله وتقدّم إلى جميع مَن معه أن يركب في مِثلِ زِيِّه وأكمل سلاحه، ونظر في مرآته فأعجبتْه هيئته وحسنُه، فقال: أنا الملك الشابّ، ثم قال لجارية له: كيف تَرَينَ؟ فقالت:

أنتَ نِعمَ المتاعُ لو كنتَ تَبقى ... غيرَ أن لا بقاءَ للإنسانِ
أنت خِلوٌ من العيوب ومِمَّا ... يكره الناسُ غيرَ أنَّك فاني

[الخفيف]

فأعرض بوجهه، فلم تدُرْ عليه الجمعة إلَّا وهو في قبره. قال: فبكى المأمون والناس، فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم. قال: وهذان البيتان لموسى شهوات.

ومن غناء أبي عيسى وَجَيِّد صنعته، والشعرُ له وطريقتُه من الثقيل الثاني مطلق في مجرى البنصر. وذكر حَبَشٌ أن فيه لحسين بن مُحرز أيضاً صنعةً من خفيف الرَّمَل:

صوت

رَقَدَتْ عنك سَلْوتي ... والهوى ليس يَرقُدُ
وأطار السُّهادُ نو ... مِي فنومي مُشَرَّدُ
أنت بالحُسن منك يا ... حَسَنَ الوجهِ تَشهَدُ
وفؤادي بحُسنِ وجـ ... ـهِك يَشقى ويَكمَدُ

[مجزوء الخفيف]

ومن غِنائه أيضاً وهو من صدور صنعته في شعر الأخطل ـ ولحنه من الثقيل الأوَّل ـ:

صوت

إذا ما زيادٌ عَلَّني ثم عَلَّني ... ثلاثَ زُجاجاتٍ لهنَّ هَديرُ
خرجتُ أجُرُّ الذيلَ حتى كأنني ... عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

[الطويل]

ولإِسحاق في هذا الشعر رمَلٌ بالبنصر عن عمرو.

* * *

وممن عُرفت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد اللَّه بن موسى الهادي فمن صنعته:

صـوت

تـقـاضـاك دهـرُك مـا أَسـلَـفـا وكـدَّر عـيـشـك بـعـد الـصَّـفـا
فـلا تَـجـزَعـنّ فـإنّ الـزمـانَ رهـيـنٌ بـتـشـتـيـت مـا أَلَّـفـا
ومـا زال قـلـبُـك مـأوى الـسـرور كـثـيـرَ الـهـوى نـاعِـمـاً مُـتْـرَفـا
ألـحَّ عـلـيـك بـرَوْعـاتـه وأقـبـل يَـرمـيـك مُـسـتـهـدِفـا

[المتقارب]

الشعر والغناء لعبد اللَّه بن موسى. ولحنه ماخُوريّ وهو خفيفُ الثقيل الثاني بالوسطى.

(١) تطايرنا في الحُجَر: اختبأنا في الغرف.

عبد اللّه بن موسى الهادي

أخبرني أحمد بن جعفر جَحظة قال حدثني أَبو حَشيشةَ قال:

كان عبد اللّه بن موسى الهادي أضرَب الناسِ بالعود وأحسنَهم غِناءً. وكان له غلام أسود يقال له قَلَمٌ، فعلَّمه الصوت وحذَّقه، فاشترته منه أُمّ جعفر بثلاثمائة ألف درهم. قال أَبو حَشيشة فحدّثني دلشاد غلام عبد اللّه بن موسى قال: كنت أنا وثقيفٌ الخادمُ الأسودُ مولى الفضل بن الربيع نُضارب مولاي عبدَ اللّه بنَ موسى وقد أخذ النَّبيذُ من الجماعة. فضرب عبدُ اللّه وثَقيفٌ صوتاً فاختلفا فيه وتشاجرا. فقال عبد اللّه: كذا أخذتُه من منصور زَلزَل. وقال ثقيفٌ: كذا أخذتُه منه، وطال تشاجُرُهما فيه. وكان ثقيف مُعَربِداً يَذهَبُ عقلُه من أدنى شيءٍ يشربه، وكان عبد اللّه أيضاً معربداً. فغضِب ثقيف ورفَع العودَ وهو لا يعقِل، فضرَب به رأسَ عبدِ اللّه بنِ موسى فطوّقه إيَّاه. وابتدر خَدَمُ عبدِ اللّه؛ فقال لهم عبد اللّه بن موسى، لا تَمَسُّوه وأخرِجوا العودَ من عُنُقي فأخرجوه. وكان عبدُ اللّه بن موسى أشدَّ خَلْقِ اللّه عَربَدةً أيضاً، فرُزِق في ذلك اليوم حلماً لم يُرَ مِثلُه، وقال لخدَمه: إن قتلتُه قتلتُ كلباً وتحدّث الناس بذلك، ولكن اخلَعوا عليه وهَبُوا له ولا يدخلْ منزلي أَبداً.

قال جَحظة قال أَبو حشيشة أَخبرني الحَفصي المِعزَفيُّ قال:

دعاني عبد اللّه بن موسى يوماً ودعاني أخوه إسماعيل؛ فآثرت إسماعيل لِما كان في عبد اللّه من العَربدة. فلم نشعُر إلّا بعبد اللّه قد وافانا وقت العصر على بِرذَونٍ أَشهب متقلِّداً سيفاً وهو سكران. فلما رأيناه تطايرنا في الحُجَر[1]، فنزل عن دابَّته وجلس. وجثا إسماعيل بين يديه إجلالاً له، وقال له: يا سيِّدي قد سَرَرتني بتفضُّلك ومسيرك إليَّ. قال: دَعني من هذا، مَن عندك؟ قال: فلان وفلان، فعَدّ جماعَة مَن كان عنده. قال له: هاتِهم. فدعا بنا فخرجنا وقد مُتنا فَزَعاً. فأقبل عليَّ من بينهم فقال لي: يا حَفصيّ! أبعَثُ إليك ثلاثةَ أيام تِباعاً فتَدَعُني وتجيء إلى إسماعيل! وضرب بيده إلى سيفه، فقام إسماعيل بيني وبينه وقال: نَعَمْ! يَجيئني ويَدَعُك؛ لأنه لا

(١) مختبل: مصاب بالفالج، أو هو مقطوع الأيدي والأرجل.

ينصرفُ من عندك إلَّا بِشَجَّةٍ أَو عَربَدةٍ مع حِرمان، ولا ينصرف من عندي إلَّا بِبِرٍّ مع خِلعةٍ ووعدٍ مُخَصَّل، أفتلومُه على ذلك! فكَفَّ عبدُ اللَّه وكان شديد العَربَدة وقام وٱنصرف.

أَخبرني الصُّولي قال حدثني عَون بن محمد الكِنْديّ قال حدثني محمد بن إسماعيل عن أَبيه سليمان بن داود ـ وكان يكتب لأبي جعفر ـ قال:

كنت جالساً مع عبد اللَّه بن موسى الهادي، فمرّ به خادمٌ لصالح بن الرشيد. فقال له: ما اسمك؟ فقال له: اسمي «لا تَسَلْ». فأعجبه حُسنُه وحُسنُ مَنطِقِه فقال لي: قُمْ بنا حتى نُسَرّ اليوم بذكر هذا البدر، فقمت معه. فأنشدني في ذلك اليوم:

وشـــادنٍ مـــرَّ بـــنـــا ... يـجـرَح بـالـلَّـحـظ الـمُـقَـلْ
مـظـلـوم خَـصـرٍ ظـالـمٍ ... مـنـه إذا يـمـشـي الـكَـفَـلْ
اعـتـدلـتْ قـامـتُـه ... والـلـحـظُ مـنـه مـا عَـدَلْ
بَـدرٌ تـراه أبـداً ... طـالِـعَ سـعـدٍ مـا أَفَـلْ
سـألـتُـه عـن اسـمـه ... فـقـال لـي اسـمـي «لا تَـسَـلْ»
وأُطْـلِـعَـتْ فـي وجـنـتـيـ ... ـه وَردتـان مـن خَـجَـلْ
فـقـلـتُ مـا أخـطـأ مَـن ... سـمَّـاك بـل قـال الـمَـثَـلْ
لا تـسـألـنْ عـن شـادنٍ ... فـاق جَـمـالاً وكَـمُـلْ

[مجزوء الرجز]

قال: وقال فيه ـ وقد قيل إنه من هذه الأبيات ـ:

عـزَّ الـذي نَـهـوى وذَلّ ... صَـبُّ الـفـؤادِ مُـخـتَـبَـلْ[1]
لَـجَّ بـه الـهـجـرُ وذا الـ ... ـهـجـرُ إذا لَـجَّ قَـتَـلْ
مـن شـادنٍ مُـنـتَـطِـقٍ ... فـاق جَـمـالاً وكَـمُـلْ
تـنـاصـف الـحُـسـنُ بـه ... فـلا تَـسَـل عـن «لا تَـسَـلْ»

[مجزوء الرجز]

وقال حدثني محمد بن أحمد المكيّ عن أَبيه قال:

دعاني عبد اللَّه بن موسى يوماً فقال لي: أتُقَوِّم غلاماً ضارباً مُغنِّياً قيمةَ عدلٍ لا حَيفَ فيه على البائع ولا على المُشتري؟ فقلت نعم. فأخرج إليّ ابنه القاسمَ وكنتُ قد عرَفتُه، وهو أحسن من القمر ليلةَ البدر، فأخذ عوداً فضرب، فأكببتُ على يديه

أقبّلهما. فقال لي عبد اللّه: أتُقَبِّلُ يدَ غلام مملوك!! قلت: بأبي وأمّي هو من مملوك! وقَبَّلْتُ رجله أيضاً. فقال: أمَّا إذ عرفتَه فأَحِبُّ أن تضارِبَه، ففعلت. فلمَّا رأى الغلامُ زيادتي عليه في الضَّرب اغتمَّ وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر من ذنبه: أَنا مُتَلَذِّذٌ وهذا مُتكسِّبٌ. فضحِكتُ وقلت: هو ذاك يا سيِّدي. وعجبت من حِدَّة جوابه معتذراً على صِغَر سِنِّه.

كان كريماً ممدحاً:

أَخبرني الصُّولي قال حدثني عبد اللّه بن المعتزّ قال:

كان عبد اللّه بن موسى جواداً كريماً ممدَّحاً، وفيه يقول الشاعر ـ وفيه لعلويه لحن من خفيف الثقيل الأول بالبِنصر ـ:

صوت

أعبدَ اللّه أنت لنا أميرُ ... وأنت من الزمان لنا مُجيرُ
حكَيْتَ أباك موسى في العَطايا ... إمامُ الناس والملكُ الكبير

[الوافر]

غنّى بشعر لعمر بن أبي ربيعة:

قال محمد بن يحيى والعَتَّابي: ولعبد اللّه بن موسى غِناءٌ في قول عمر بن أَبي ربيعة:

صوت

إن أسماء أرسلتْ ... وأخو الشوق مُرسِلُ
أرسلتْ تَستَزيرُني ... وتُفَدّي وتعذِل

[مجزوء الخفيف]

ولحنُه فيه رمَلٌ. قال: وفيه لابن سُرَيج والغريض ومالكٍ ألحانٌ.

عربد على المأمون فحبسه ثم سمه فمات:

أَخبرني علي بن سليمان الأخفش في كتاب المُغتالين قال حدثني أَبو سعيد السُّكَّريّ عن محمد بن حَبيب قال:

كان عبد اللّه بن موسى الهادي مُعَربِداً، وكان قد أحفَظ المأمونَ مما يُعَربِدُ عليه

إذا شرِب معه. فأمر بأن يُحبَس في منزله فلا يخرجَ منه؛ وأَقعد على بابه حَرَساً. ثم تذمَّم من ذلك فأظهر له الرّضا وصرَف الحرَس عن بابه ثم نادمه فعَربد عليه أَيضاً وكلَّمه بكلام أحفظه. وكان عبد اللَّه مُغرَماً بالصَّيد، فأمر المأمون خادماً من خواصّ خدمه يقال له «حسين» فسَمَّه في دُرَّاج وهو بمرسي أباد، فدعا عبدُ اللَّه بالعَشاء، فأتاه حسين بذلك الدُّرَّاج فأكله. فلما أحسَّ بالسمّ ركب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تروني. قال: وأكل معه من الدُّرَّاج خادمان، فأمَّا أحدهما فمات من وقته، وأمَّا الآخر فبقي مدة ثم مات ومات عبد اللَّه بعد أيام.

وممن رويت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد اللَّه بن محمد الأمين

فمن مشهور صنعته:

أَلا يـا دَيـرَ حَـنـظـلـةَ الـمُـفَـدَّى لـقـد أورثـتَـنـي سَـقَـمـاً وكَـدَّا
أزُفُّ مـن الـعُـقـار إلـيـك دَنّـاً وأجـعـل تـحـتَـه الـوَرَقَ الـمُـنَـدَّى

[الوافر]

الشعر والغناء لعبد اللَّه بن محمد الأمين، أخبرني بذلك محمد بن يحيى الصُّوليّ عن عبد اللَّه بن المعتزّ وله فيه لحنان خفيفُ رمَلٍ وخفيفُ ثقيل. وفيه لعبد اللَّه بن موسى الهادي رمَلٌ. وفيه ثاني ثقيل، وذكر حبَش ـ وهو ممن لا يُحصَّل قولُه ـ أنه لحُنَين، ولم يَصِحّ عندنا مَن صانِعُه.

* * *

أخبار عبد اللَّه بن محمد ونسبه

عبدُ اللَّه بن محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد اللَّه المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد اللَّه بن العبَّاس بن عبد المطلب. وأُمُّ عبدِ اللَّه بن محمد أُمُّ وَلَد. وكان ظريفاً غَزِلاً يقول شعراً لَيِّناً ويصنع صنعةً صالحةً. وأمُّ محمد الأمين زُبَيدةُ بنتُ جعفر بن المنصور. وزبيدة لَقَبٌ غلب عليها، واسمها أَمَةُ العزيز. وكان المنصور يُرَقِّصُها وهي صغيرة ـ وكانت سمينةً حسنةَ البدن ـ فيقول لها: يا زُبيدة يا زُبيدة، فغلَب عليها ذلك.

كان صديقاً لأبي نهشل فأحب جارية اشتراها أخوه:

أَخبرني الصولي قال حدثني عَون بن محمد الكِندي قال:

كانت بين عبد اللَّه بن محمد الأمين وبين أَبي نَهشَل بن حُمَيد مودّة. فاعترض عبدُ اللَّه جاريةً مغنِّيةً لبعض نساء بني هاشم وأَعطى بها مالاً عظيماً. فعرفتْ منه رغبةً فيها فزادت عليه في السَّوم، فتركها ليكسرهم. فجاء أخ لأبي نَهشَلِ بن حُمَيد فاشتراها وزاد. فتبِعتْها نفسُ عبدِ اللَّه، فسأل أَبا نَهشلٍ أن يسأل أخاه النزول له عنها، فسأله ذلك فوعده ودافعه. فكتب عبد اللَّه إلى أبي نهشل:

يا ابنَ حُمَيدٍ يا أَبا نهشلِ ... مِفتاحَ بابِ الحَدَثِ المُقفَلِ
يا أكرمَ الناس وِداداً وأر ... عاهم لحقٍّ ضائعٍ مُهمَلِ
أحسنتَ في ودّي وأجملتَ بل ... جُزتَ فِعال المُحسِنِ المجمِلِ
بيتُك في ذي يمنٍ شامخٌ ... تَقصُر عنه[1] قُنَّتَا يَذبُلِ[2]
خلَفْتَ فينا حاتماً ذا النَّدى ... وُجدْتَ جَودَ العارض المُسبِلِ
أَيُّ أخٍ أنتَ لِذي وَحدَةٍ ... تركتَه بالعزِّ في جَحفَلِ[3]

(١) قنّتا: مثنّى قنّة، وهي الجبل الصغير أو أعلى الجبل.
(٢) يذبل: جبل بنجد.
(٣) جحفل: الجيش الكثير.

نـجـومُ حَـظِّـي مـنـك مَـسـعـودةٌ فـيـمـا أرَجّـي لَـسـنَ بـالأفَّـلِ
فـصَـدِّقِ الـظـنَّ بـمـا قـلـتَـه وسَـهِّـلِ الأمـرَ بـه يَـسـهُـلِ
لا تَـحـرِمَـنّـي، وَلَـدَيـك الـمُـنـى بـالـلَّـه صَـيـدَ الـرَّشـأ الأكـحـلِ
رُمِـيـتُ مـنـه بـسِـهـام الـهـوى ومـا دَرَى بـالـرَّمـيِ فـي مَـقـتَـلـي
أدنَـيـتَـنـي بـالـوعـد فـي صَـيـده إدنـاءَ عَـطـشـانٍ مـن الـمَـنـهَـلِ
ثـم تـنـاسـيـتَ وأسـلَـمـتَـنـي إلـى مِـطـالٍ[1] مُـوحِـش الـمَـنـزِلِ
تـركـتَـنـي فـي لُـجَّـةٍ عـائـمـاً لا أعـرف الـمُـدْبِـرَ مـن مُـقـبِـلِ
صَـرِّحْ بـأمـرٍ واضـحٍ بَـيِّـنٍ لا خـيـرَ فـي ذي لَـبَـس مُـشـكِـلِ

[السريع]

قال: فلم يزل أَبو نَهشلٍ بأخيه حتى نَزَل له عنها.

خرج إلى ضيعته وتكاتب هو ونديمه أبو نهشل بشعر:

وأَخبرني الصوليّ أيضاً بغير إِسناد، ووجدتُ هذا الخبرَ في كتابٍ لمحمد بن الحسن الكاتب يَرويه عن أَبي حَسَّان القَزاريّ قال:

كان أَبو نَهشل بن حُميد صديقاً لعبد اللَّه بن محمد الأمين ونديماً. وكانت لعبد اللَّه ضَيعة بالسَّواد تُعرَف بالعَمْرِيّة، فخرج إليها وأقام بها أياماً. فكتب إليه أَبو نهشل:

سـقـى الـلَّـهُ بـالـعَـمـرِيَّـة الـغـيـثَ مَـنـزلاً خَـلَـلْـتَ بـه يـا مُـؤنـسـي وأمـيـري
فـأنـت الـذي لا يـخـلُـق الـدهـرَ ذكـرُه وأنـت أَخـي حـقّـاً وأنـت سـروري

[الطويل]

فأجابه عبد اللَّه:

لـئـن كـنـتُ بـالـعـمـريَّـة الـيـوم لاهـيـاً فـإنّ هـواكـم حـيـث كـنـتُ ضـمـيـري
فـلا تـحـسـبـنّـي فـي هـواكـم مُـقَـصِّـراً وكـن شـافـعـي مـن سُـخـطـكـم ومُـجـيـري

[الطويل]

قال محمد بن الحسن في خبره: وصنع عبد اللَّه في هذه الأبيات الأربعة لحناً، وصنع فيها سُلَيم بن سَلَّام لحناً آخر.

(١) مِطال: التسويف بالعِدَّة والمماطلة.

نادم الواثق والخلفاء من بعده إلى المعتمد:

أَخبرني محمد بن يحيى الصولي قال حدثنا عبد اللّه بن المعتزّ قال:

كان عبد اللّه بن محمد الأمين ينادم الواثقَ ثم نادم بعده سائر الخلفاء إلى المعتمد. قال: وأنشدني له في المعتمد:

رأيتُ الهلالَ على وجهكا ... فما زِلتُ أدعو إلٰهي لكا
فلا زلتَ تحيا وأحيا معاً ... وآمنني اللّه من فَقدِكا

[المتقارب]

قال: ومن شعره ـ وله فيه لحنٌ من الرَّمَل الثاني وهو خفيف الرمل ـ:

صوت

يا مَن بِه كلُّ خَلْقٍ ... تراه صَبّاً مُتَيَّمْ
ومَن تَجالَلَ تِيهاً ... فما تراه يُكلَّمْ
لا شيءَ أعجبُ عندي ... ممن يراك فَيَسلَمْ

[المجتث]

فأمَّا دَيرُ حَنظلةَ الذي ذكره في شعره وفيه الغناء المذكور من صنعته مُتَقَدَّماً، فإنَّه دَيرٌ بالجزيرة. أَخبرني بخبره هاشم بن محمد أبو دُلَفَ الخُزاعي قال حدثنا الريّاشيّ قال أنشدني أَبو المُحَلّم لحنظلة بن أَبي عَفراء أَحد بني حيَّة الطائِيِّين وهم رهَطُ أَبي زُبَيد ورهط إيَاس بن قَبيصةَ:

ومهما يكن ريَبُ الزمانِ فإنني ... أرى قمر الليل المُغَرّبَ كالفتى
يَهُلُّ صغيراً ثم يعظُم ضَوؤُه ... وصورتُه حتى إذا ما هو ٱستوى
تقارب يخبو ضَوؤُه وشُعاعُه ... ويَمصَح[1] حتى يَستَسِرَّ فلا يُرَى
كذلك زَيدُ المرءِ ثم ٱنتقاصُه ... وتَكرارُه في دهره بعد ما مضى
تُصَبِّح أهلَ الدَّارِ والدَّارُ زينةٌ ... وتأتي الجبالَ من شَماريخها[2] العُلا
فلا ذا غِنًى يُرجئنَ عن فضل ماله ... وإن قال أخِّرني وخُذْ رِشوةً أَبى
ولا عن فقيرٍ يأتَخِرْنَ لفقره ... فتنفعَه الشكوى إليهنّ إن شكا

[الطويل]

---

(١) يمصح: يغيب وينقطع.

(٢) شماريخ: مفردها شمراخ وهو العثكال عليه بُسْر أو عِنَب.

قال: وكان حَنظلةُ هذا قد تعبَّد في الجاهلية وتفكَّر في أمر الآخرة وتنصَّر وبَنى دَيراً بالجزيرة؛ فهو الآن يُعرَف به يقال له دَير حنظلة. وفيه يقول الشاعر:

يا دَيرَ حَنظلةَ المهيِّج لي الهَوى قد تستطيع دواءَ عشقِ العاشقِ

[الكامل]

وممن صنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن المتوكِّل

كان عبد اللَّه بن المتوكل جمع له صنعةً مقدارُها أكثر من ثلاثمائة صوت، منها الجيِّد الصنعة ومنها المتوسط، قد سمعنا كثيراً منها؛ إلَّا أني أذكر من ذلك ما عرَفتُ شاعرَه وكان له خبرٌ يتَّصِل به حَسبَ ما شَرَطناه في هذا الكتاب وضَمَّنَّاه إيَّاه من الأخبار، ثم أذكر أخبارَ أَبي عيسى بعد ذلك.

قال ابن المعتزّ حدثني النُّمَيريّ قال سمعت أبا عيسى بن المتوكِّل يقول: إذا أتممتُ صنعةَ ثلاثمائة صوت وستين صوتاً عَدَدَ أيّام السنة تركتُ الصنعة، فلمَّا صنعها ترك الصنعةَ. فمنها ـ وهو لعمري من جَيِّد الغناء وفاخرِ الصنعة، ولو لم يصنع غيرَه لكفاه ـ في شعر أبي العتاهية:

صـوت

يَضطَرِبُ الخوفُ والرجاءُ إذا حرَّك موسى القضيبَ أو فَكَّرْ

[المنسرح]

ولحنُه من الثقيل الأول. والشعرُ لأبي العتاهية، وقد مضتْ أخبارُه؛ وإنما قدَّمتُ ذكرَه بجودة صَنعته وأنه شُبِّه فيه بصنعة الفحول ومُحكَمِ أغاني الأوائل.

ومنها:

صـوت

هي النَّفسُ ما حَمّلتَها تَتَحمَّلُ وللدّهر أيَّامٌ تَجورُ وتَعدِلُ

وعاقِبةُ الصَّبرِ الجميلِ جميلةٌ وأفضلُ أخلاقِ الرجال التَّجَمُّلُ

[الطويل]

الشعرُ لعلي بن الجَهم. والغناء لأبي عيسى بن المتوكل، ثاني ثقيلٍ بالوسطى.

* * *

أخبار علي بن الجهم ونسبه

هو علي بن الجَهْم بن بَدْر بن الجَهم بن مسعود بن أسيد بن أُذَينة بن كَرّاز بن كعب بن مالك بن عُيَينةَ بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سامَةَ بن لُؤيّ بن غالب. هكذا يدّعون، وقريش تدفعهم عن النَّسَب وتسمِّيهم بني ناجيةَ، يُنسَبون إلى أمّهم ناجية، وهي امرأة سامةَ بن لُؤيّ. وكان سامة، فيما يقال، خرج إلى ناحية البَحرَين مغاضِباً لأخيه كعب بن لؤيّ في مُماظّة كانت بينهما، فطأطأتْ ناقته رأسَها إلى الأرض لتأخذ شيئاً من العُشب، فعلِق بمِشفَرها أفعى فعطفته على قَتَبها فحكَّته به، فدبَّ الأفعى على القَتَب حتى نهشَ ساقَ سامَةَ فقتله. فقال أخوه يرثيه:

عَيْنُ جُودي لِسامَةَ بنِ لُؤيٍّ ... عَلِقَتْ ساقَ سامةَ العَلَّاقَهْ[1]

رُبَّ كأسٍ هَرَقْتُها ابنَ لُؤيّ ... حَذَرَ الموتِ لم تكن مُهراقَهْ

[الخفيف]

وقالَ مَن يدفع بني سامةَ من نَسَّابي قريش: وكانت معه امرأَته ناجية. فلمَّا مات تزوّجتْ رجلاً من أهل البحرين فولَدَتْ منه الحارثَ، ومات أبوه وهو صغير. فلمَّا تَرَعرَع طمِعتْ أُمّه في أن تُلحِقه بقريش، فأخبرته أنه ابن سامةَ بن لُؤيّ. فرحل من البحرين إلى عمِّه كَعب وأخبره أنه ابن أخيه سامةَ. فعرَف كعب أُمَّه وظنَّه صادقاً في دعواه. ومكث عنده مدةً، حتى قدِم مكَّةَ رَكْبٌ من أهل البحرين، فرأَوُا الحارثَ فسلَّموا عليه وحادثوه ساعةً. فسألهم عنه كعب بن لُؤيّ ومن أين يعرفونه، فقالوا له: هذا ابن رجلٍ من أهل بلدنا يقال له فلان، وشرحوا له خبره. فنفاه كعبٌ ونفى أمَّه، فرجَعا إلى البحرين فكانا هناك، وتزوّج الحارثُ وأَعقبَ[2] هذا العَقِبَ. ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**عَمّي سامةُ لم يُعقِبْ**». وكان بنو ناجيةَ ٱرتدّوا عن الإسلام. ولما وَليَ عليّ بن أَبي طالب رضي اللّه عنه الخلافةَ دعاهم إلى الإسلام؛ فأَسلَم بعضُهم وأقام الباقون على الرّدّة فسَباهم وٱسترقّهم؛ فٱشتراهم مَصقلةُ بن هُبَيرة منه وأدّى ثُلْثَ ثَمنِهم وأشهد بالباقي على نفسه، ثم أعتقهم وهَرَب من تحت ليلِه إلى معاوية، فصاروا

(١) العلَّاقة: الأفعى تُعلِّق على المرء وتبث سُمَّها في جسده.

(٢) أعقب: ترك عقبه ولَداً.

أحراراً، ولزِمَه الثمنُ، فشَعَّث عليٌّ بن أَبي طالب شيئاً من داره، وقيل بل هدمَها. فلم يدخل مَصقَلَةُ الكوفةَ حتى قُتِل عليّ بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه.

وزعم ابن الكلبيّ: أنّ سامةَ بن لؤيّ، وَلَدَ غالبَ بن سامةَ وأُمُّه ناجيةُ، ثم هلَك سامةُ فَخَلَف عليها ابنه الحارث بن سامَةَ، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعقِبَا، وأن قوماً من بني ناجيةَ بنت جَرْم بن رَبَّان عِلاف ٱدَّعَوا أنهم بنو سامَةَ بن لؤيّ، وأنّ أمّهم ناجية هذه ونَسَبوها هذا النَّسَبَ، وٱنتَمَوْا إلى الحارث بن سامةَ وهم الذين باعهم عليّ بن أبي طالب إلى مَصقَلةَ. قال: ودليل ذلك وأنّ هؤلاء بنو ناجية بنت جَرْم قولُ علقمةَ الخَصِيَّ التَّمِيميّ أحدِ بني رَبيعة بن مالك:

زعمتم أنّ ناجِيَ بنتَ جَرْم ... عجوزٌ بعد ما بَلِيَ السَّنامُ
فإن كانت كذاك فألبِسوها ... فإنّ الحَلْيَ للأُنثى تَمَامٌ

[الوافر]

وهذا أيضاً قولُ الهَيثم بن عدِيّ. فأمَّا الزُّبير بن بَكَّار فإنَّه أدخلهم في قريش وقال: هم قريشٌ العازبةُ. وإنما سُمُّوا العازبةَ لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسِبوا إلى أمّهم ناجية بنت جَرْم بن رَبَّان وهو عِلاف، وهو أوَّل من ٱتخذ الرّحالَ العِلافِيَّةَ فنُسبَت إليه. واسم ناجية ليلى؛ وإنما سُمِّيَتْ ناجيةَ لأنها سارتْ في مَفازةٍ معه فعَطِشَتْ فٱستسقته ماء، فقال لها: الماءُ بين يديكِ، وهو يريها السَّرابَ، حتى جاءت الماءَ فشرِبت وسُمِّيَت ناجيةَ. وللزُّبير في إدخالهم في قريش مذهبٌ وهو مُخالَفَةُ فِعلِ أمير المؤمنين عليٍّ رضي اللَّه عنه ومَيلُه إليهم لإجماعهم على بُغضِه رضي اللَّه عنه، حَسَب المشهور المأثور من مذهب الزُّبير في ذلك.

كان شاعراً فصيحاً اختص بالمتوكل وهجا عليًّا وشيعته:

وكان علي بن الجَهم شاعراً فصيحاً مطبوعاً؛ وخُصَّ بالمتوكِّل حتى صار من جُلَسائه، ثم أبغَضَه لأنه كان كثير السِّعاية إليه بنُدَمائه والذِّكرِ لهم بالقبيح عنده، وإذا خلا به عَرَّفه أنهم يَعيبونه ويَثلِبونه ويتنقَّصونه، فيكشِف عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه بعد أَن حبسه مدّة. وأخبارُه تُذكَر على شرح بعد هذا. وكان ينحو نحوَ مروان بنِ أَبي حَفصةَ في هجاء آل أَبي طالب وذمّهم والإغراء بهم وهجاءِ الشِّيعة، وهو القائل:

ورافضةٍ تقول بشِعْب رَضْوَى ... إمامٌ، خاب ذلك من إمامِ
إمامٌ مَن له عشرون ألفاً ... من الأتراك مُشرَعَةُ السِّهامِ

[الوافر]

وفيه يقول البُحْتُريّ:

إذا ما حُصِّلَتْ عُليا قُرَيشٍ ... فلا في العِير أنت ولا النَّفِيرِ
وما رُغَثاؤك[1] الجَهمُ بنُ بَدْرٍ ... من الأقمار ثَمَّ ولا البدورِ
ولو أَعطاك ربُّك ما تَمَنّى ... لزاد الخلقَ في عِظَمِ الأُيورِ
عَلامَ هَجَوْتَ مجتهِداً عليّاً ... بما لفَّقتَ من كَذِبٍ وزُورِ
أمالَكَ في آستِكَ الوَجعاءِ شُغلٌ ... يَكُفُّك عن أذى أهل القبورِ

[الوافر]

وسمِعه أَبو العَيناء يوماً يطعُن على علي بن أبي طالب رضيَ اللَّه عنه، فقال له: أَنا أَدري لِمَ تطعن على عليِ أميرِ المؤمنين. فقال له: أتعني قصَّةَ بَيعه أهلي من مَصقلةَ بن هُبَيرة؟ قال: لا! أَنت أوضع من ذلك، ولكن لأنه قتلَ الفاعلَ فِعل قوم لوطٍ والمفعولَ به، وأنت أسفلهما.

أَخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد الهشاميّ قال:

كان عليّ بن الجهم قد هجا بَختِيَشوع، فسبَّه عند المتوكِّل فحبسه المتوكِّل. فقال عليّ بن الجَهم في حَبسه عِدَّةَ قصائد كتب بها إلى المتوكل فأطلقه بعد سنة، ثم نفاه بعد ذلك إلى خُراسان. فقال أوّلَ ما حُبس قصيدةً كتب بها إلى أخيه، أوّلها قوله:

توكَّلنا على رَبِّ السّماءِ ... وسلَّمنا لأسباب القضاءِ
ووطَّنَّا على غيرِ اللَّيالي ... نفوساً سامحتْ بعدَ الإِباءِ
وأَفنِيةُ الملوك محجَّباتٌ ... وبابُ اللَّه مبذولُ الفِناءِ
هي الأيامُ تَكْلِمُنا وتأسو ... وتأتي بالسعادة والشقاء
وما يُجدي الثَّراءُ على غَنِيٍّ ... إذا ما كان محظورَ العَطاءِ
حَلَبْنا الدَّهرَ أشطُرَهُ ومرّتْ ... بنا عُقَبُ الشَّدائد والرَّخاءِ
وجرَّبنا وجرَّب أَوَّلُونا ... فلا شيءٌ أعزّ من الوفاءِ
ولم نَدَعِ الحياءَ لمسِّ ضرّ ... وبعضُ الضرّ يذهب بالحياءِ
ولم نَحزَنْ على دنيا تولَّتْ ... ولم نُسبَق إلى حُسن العَزاءِ
تَوَقَّ الناسَ يابنَ أبي وأُمّي ... فهم تَبَعُ المخافةِ والرَّجاءِ

(١) الرغثاء: عرق في الثدي، وأراد بها أباه أي أصل وجوده.

ولا يَـغُـرُركَ مـن وَعـدٍ إخـاءٌ لأمـرٍ مـا غـدا حَـسَـنَ الإخـاءِ
أَلَـمْ تَـرَ مُـظـهِـريـن عـلـيّ عَـيـبـاً وهـم بـالأمـس إخـوانُ الـصَّـفـاءِ
فـلـمَّـا أن بُـلِـيـتُ غَـدَوْا وراحـوا عـلـيّ أشـدَّ أَسـبـابِ الـبَـلاءِ
أبَـتْ أخـطـارُهـم أن يَـنـصُـرونـي بـمـالٍ أو بـجـاه أو ثَـراءِ
وخـافـوا أن يـقـالُ لـهـم خـذَلـتـم صـديـقـاً فـأدّعَـوْا قِـدَمَ الـجَـفـاءِ
تـضـافـرتِ الـرَّوافِـضُ والـنَّـصـارى وأهـلُ الاعـتـزال عـلـى هِـجـائـي

[الوافر]

ـ يعني بأهل الاعتزال عليّ بن يحيى المنجِّم وقد كان بلغه عنه ذكر له ـ:

وعـابـونـي ومـا ذنـبـي إلـيـهـم سـوى عِـلـمـي بـأولاد الـزِّنـاءِ
فـبَـخْـتِـيَـشُـوعُ يـشـهَـد لابـن عـمـرو وعَـزُّونٌ لـهـارون الـمـرائـي
ومـا الـجَـذْمـاءُ بـنـتُ أَبـي سُـمَـيـرٍ بـجـذمـاءِ الـلِّـسـان عـن الـخَـنـاءِ
إذا مـا عُـدَّ مِـثـلُـكـم رجـالاً فـمـا فـضـلُ الـرجـال عـلـى الـنـسـاءِ
عـلـيـكـم لـعـنـةُ الـلَّـه ٱبـتـداءً وعَـوْداً فـي الـصَّـبـاح وفـي الـمـسـاءِ
إذا سُـمِّـيـتُـمُ لـلـنـاس قـالـوا أُولـئِـك شَـرُّ مَـن تـحـت الـسـمـاءِ
أنـا الـمـتـوكِّـلـيّ هـوًى ورأيـاً ومـا بـالـواثِـقـيَّـة مـن خَـفـاءِ
ومـا حَـبْـسُ الـخـلـيـفـةِ لـي بـعـارٍ ولـيـس بـمُـؤْيِـسـي مـنـه الـتـنـائـي

[الوافر]

قال أبو الشبل شعره في الحبس كشعر عديّ بن زيد:

أَخبرني عمي قال حدثنا محمد قال: قال لي أَبو الشِّبل البُرْجُميّ: ما شِعر عليّ بن الجَهم في الحبس بدون شعر عَدِيّ بن زيد.

أَخبرني عمي قال حدثنا محمد قال:

كان سببُ حَبس المتوكِّل عليّ بنَ الجَهم أنّ جماعةً من الجُلَساء سَعَوْا به إليه وقالوا له: إنه يُجَمِّش[1] الخَدَم ويَغمِزهم، وإنه كثيرُ الطعن عليك والعيبِ لك والإزراء على أخلاقك؛ ولم يزالوا به يُوغِرون صدرَه عليه حتى حبسه؛ ثم أبلغوه عنه أنه هجاه. فَنفاه إلى خُراسان وكتب بأن يُصلَب إذا وردها يوماً إلى الليل. فلما وصل إلى

(١) يجمِّش: يغازل ويلاعب.

الشاذِياخ حَبَسه طاهر بن عبد اللَّه بن طاهر بها، ثم أُخرج فصُلب يوماً إلى الليل مجرّداً ثم أُنزِل. فقال في ذلك.

لم يَنصِبوا بالشَّاذِياخ[1] عَشِيَّةَ الإثنين مسبوقاً ولا مجهولا
نصَبوا بحمد اللَّه مِلْءَ قلوبهم شَرَفاً ومِلْءَ صدورهم تَبجِيلا
ما ٱزداد إلَّا رفعةً بِنُكوله[2] وٱزدادت الأعداءُ عنه نُكولا
هل كان إلَّا الليثَ فارق غِيلَه فرأَيتَه في مَحمِل محمولا
لا يأمَن الأعداءُ من شدَّاته شدّاً يفصِّل هامَهم تفصيلا
ما عابه أن بُزَّ عنه لِباسُه فالسيفُ أهوَلُ ما يُرَى مسلولا
إن يُبتَذَلْ فالبدرُ لا يُزري به أن كان ليلةَ تِمِّه مبذولا
أو يَسلُبوه المالَ يُحرِنْ[3] فقدُه ضيفاً أَلَمَّ وطارقاً ونَزيلا
أو يَحبِسوه فليس يُحبَس سائرٌ مِن شعره يَدَعُ العزيزَ ذليلا
إن المصائب ما تعدّت دِينَه نِعَمٌ وإن صَعُبتْ عليه قليلا
واللَّهُ ليس بغافلٍ عن أمره وكَفى بربِّك ناصِراً ووكيلا
ولَتَعْلَمَنَّ إذا القلوبُ تكشَّفَتْ عنها الأكِنَّةُ مَن أَضَلُّ سبيلا

[الكامل]

كتب المتوكل لطاهر بإطلاقه فأطلقه فقال شعراً:

أَخبرني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال:

كتب المتوكِّل إلى طاهر بن عبد اللَّه بإطلاق عليّ بن الجَهم. فلمَّا أطلقه قال:

أَطاهِرُ إنِّي عن خُراسانَ راحلُ ومُستَخبَرٌ عنها فما أَنا قائلُ
أَأَصدُق أم أَكني عن الصِّدق أيُّما تَخَيَّرتَ أدّتهُ إليك المحافلُ
وسارت به الرُّكبانُ وٱصطَفَقَتْ به أَكُفُّ قِيانٍ وٱجتَبته القبائلُ
وإنّي بغالي الحمدِ والذَّمّ عالمٌ بما فيهما نامي الرَّمِيَّةِ ناضلُ
وحقّاً أقولُ الصِّدقَ إنّي لمائلٌ إليكَ وإن لم يَحظَ بالودّ مائلُ
أَلَا حُرمَةٌ تُرعى ألَا عَقْدُ ذمّةٍ لجارٍ أَلَا فِعلٌ لقولٍ مُشاكِلُ

(١) الشاذياخ: اسم نيْسَابور.
(٢) النكول: التنكيل به.
(٣) يُحْرِن: يستدرُّ جري النَّاقة.

أَلَا مُـنـصِـفٌ إن لـم نـجـد مـتـفـضِّـلاً عـلـيـنـا أَلَا قـاضٍ مـن الـنـاس عـادلُ
فـلا تَـقـطَـعَـنْ غـيـظـاً عـلـيّ أنـامـلاً فـقـبـلـك مـا عُـضَّـت عـلـيّ الأنـامـلُ
أطـاهِـرُ إن تُـحـسِـنْ فـإنِّـيَ مُـحـسِـنٌ إلـيـك وإن تَـبـخَـلْ فـإنِّـيَ بـاجـلُ
[الطويل]

فقال له طاهر: لا تقل إلَّا خيراً فإني لا أفعل بك إلَّا ما تحبّ؛ فوصَله وحمله وكساه.

جمَّش جارية فباعدته فقال شعراً فأجابته:

أَخبرني عمي قال حدثني محمد قال:

كان عليّ بن الجَهم في مجلس فيه قَينةٌ، فَعابَثَها وجَمَّشها، فباعَدتَه وأعرضت عنه، فقال فيها:

خَـفـي الـلَّـه فـيـمـن قـد تَـبَـلـت فـؤادَه وغـادَرتـه نِـضـواً[1] كـأنّ بـه وَقـرَا
دعـي الـبـخـل لا أسـمـع بـه مـنـك إنَّـمـا سألـتُـك أمـراً لـيـس يُـعـري لـكـم ظَـهـرَا
[الطويل]

فقالت له: صَدَقت يا أَبا الحسن، ليس يُعري لنا ظَهراً، ولكنه يملأ بطناً!!

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثنا إبراهيم بن المدبّر قال حدثنا علي بن الجَهم قال:

كان الحارثيّ يجيء إلى حُلوان[2] وأنا أتولّاها ـ وكان عليّ بن الجَهم على مظالِمها ـ فإذا وردها وقع الإرجاف[3]، فلم يَزَل متَّصِلاً حتى يخرج، فإذا خرج سكن الإرجاف. فأتاني مرَّةً وظهر كوكب الذَّنَب في تلك الليلة، فقلت:

لَـمَّـا بَـدا أيـقـنـتُ بـالـعَـطَـبِ[4] فـسـألـتُ ربّـي خـيـرَ مُـنـقَـلَـبِ
لـم يَـطـلُـعـا إلَّا لآبِـدةٍ[5] ألـحـارثـيُّ وكـوكـبُ الـذَّنَـبِ
[الكامل]

قال ابن المدبّر: وكان الحارثيّ أعور مُقَبَّح الوجه، وفيه يقول أَبو عليّ البصير:

يـا مَـعـشَـرَ الـبُـصَـراءِ لا تَـتَـطـرَّفـوا[6] جـيـشـي ولا تـتـعـرَّضـوا لـنَـكِـيـري

(١) النِّضو: المهزول، السقيم.
(٢) حلوان: منطقة بالعراق.
(٣) الإرجاف: الزلزلة.
(٤) العَطَب: الهلاك.
(٥) الآبدة: المصيبة والداهية الخالدة الذكر.
(٦) تتطرف: تأخذ الشيء من أطرافه.

رُدُّوا عـلـيَّ الـحـارِثـيَّ فـإنـه أَعـمـى يُـدَلِّـس نـفـسَـه فـي الـعُـورِ
[الكامل]

انتحل شعراً لإبراهيم بن العباس:

أَخبرني الحسن قال حدثنا ابن مَهرويه قال أنشدني إبراهيم بن المدبّر لعلي بن الجَهم وذكر أن عليّاً أنشده إيَّاه لنفسه:

أَمـيـلُ مـع الـذّمـام عـلـى ابـن أُمّـي وآخُـذ لـلـصَّـديـق مـن الـشَّـقـيـقِ
وإن ألـفَـيـتَـنـي حُـرّاً مُـطـاعـاً فـإنـك واجِـدي عَـبـدَ الـصـديـقِ
أُفَـرِّق بـيـن مـعـروفـي ومَـنّـي وأَجـمـعُ بـيـن مـالـي والـحـقـوقِ
[الوافر]

فقال إبراهيم: كذَب واللَّه عليُّ بن الجَهم وأَثِم. واللَّه لهذا الشعرُ أشهرُ بإبراهيم ابنِ العبَّاس من إبراهيم بالعباس أبيه.

قال المتوكل إنه كذاب وأثبت كذبه بكلامه له:

أَخبرني الحَسَن قال حدثني ابن مَهرويه قال حدثنا إبراهيم بن المدبّر قال: قال المتوكل:

عليّ بن الجَهم أكذَبُ خَلْقِ اللَّه. حَفِظتُ عليه أنَّه أَخبرني أنه أقام بخُراسان ثلاثين سنة، ثم مضت مدَّة أخرى وأُنسِيَ ما أخبرني به، فأخبرني أنه أقام بالثغور ثلاثين سنة، ثم مضت مدَّة أخرى وأُنسِيَ الحكايتين جميعاً، فأخبرني أنه أقام بالجبل ثلاثين سنة، ثم مضتْ مدّة أخرى فأخبرني أنه أقام بمصر والشام ثلاثين سنة، فيجب أن يكون عمره على هذا وعلى التقليل مائةً وخمسين سنة، وإنما يُزاهي سنُّه الخمسين سنةً. فليت شعري أيُّ فائدة له في هذا الكذب وما معناه فيه!!

عربد عليه بعض ولد علي بن هشام فهجاهم:

أخبرني محمد بن إبراهيم قال حدثنا عبد اللَّه بن المُعتزّ، وحدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال:

إجتمع عليّ بن الجهم مع قوم من ولد علي بن هشام في مجلس، فعَربَد عليه بعضهم، فغضِب وخرج من المجلس، واتّصل الشرُّ بينهم حتى تقاطعوا وهجروه وعابوه واغتابوه. فقال يهجوهم:

بَـنـي مُـتَـيِّـمَ هـل تَـدرون مـا الـخـبـرُ وكـيـف يُـسـتَـرُ أَمـرٌ لـيـس يَـسـتـتـرُ

حاجيتُكم: مَن أبوكم يا بني عُصَبٍ ... شَتَّى ولكنّما للعاهر الحَجَرُ
قد كان شَيخُكُمُ شيخاً له خَطَرٌ ... لكن أُمَّكُمُ في أمرها نَظَرُ
ولم تكن أُمُّكم ـ واللَّهُ يكلَؤُها ـ ... محجوبةً دونَها الحُرّاسُ والسُّتُرُ
كانت مغنِّيَةَ الفِتيانِ إن شَربوا ... وغيرَ ممنوعةٍ منهم إذا سَكِروا
وكان إخوانُه غُرّاً غَطارفةً[1] ... لا يُمكِن الشيخَ أن يَعصي إذا أَمروا
قومٌ أَعِفَّاءُ إلَّا في بيوتكمُ ... فإنَّ في مِثلها قد تُخلَعُ العُذُرُ
فأصبحتْ كمُراحِ[2] الشَّوْلِ[3] حافلةً ... من كلّ لاقحةٍ في بطنها دِرَرُ
فجئتُم عُصَباً من كلِّ ناحية ... نوعاً مَخانِيثَ في أعناقها الكَبَرُ[4]
فواحِدٌ كِسرَوِيٌّ في قَراطِقِهِ[5] ... وآخَرٌ قُرَشِيّ حين يُختَبَرُ
ما عِلمُ أُمّكمُ مَن حَلّ مِئزرَها ... ومَن رماها بكم يأيُّها القَذَرُ
قوم إذا نُسِبوا فالأمّ واحدةٌ ... واللَّه أعلم بالآباء إذ كَثروا
لم تَعرِفوا الطَّعْنَ إلَّا في أسافلكم ... وأنتمُ في المخازي فِتيَةٌ صُبُرُ
أَحببتُ إعلامَكم إنّي بأمركم ... وأَمرِ غيركمُ من أهلكم خَبِر
تَفَكَّهون بأعراض الكرام وما ... أَنتم وذِكرَكم الساداتِ يا عُرَرُ[6]
هذا الهجاء الذي تَبقى مياسِمُه[7] ... على جباهكم ما أَورق الشَّجَرُ

[البسيط]

سعى عند المتوكل بندمائه وبلغه أنه هجاه فحبسه:

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثني إبراهيم بن المدبّر قال:

كتب صاحب الخبر إلى المتوكل أن الحسن بن عبد الملك بن صالح ٱحترق فمات. فقال علي بن الجَهم: قد بلغني أنّ العامل قتَله وصانع صاحبَ الخبر حتى

(١) غطارفة: مفردها غِطراف وغطريف وهو السيِّد الشريف السَّخي.
(٢) المراح: المكان الذي يستريح فيه الإبل، هو مرتع الإبل.
(٣) الشَّول: هي النَّاقة التي خفَّ لبنها وارتفع ضرعها.
(٤) الكَبَر: كلمة معرَّبه معناها الطبل.
(٥) القراطقة: مفردها قُرطَق وهو اللباس، كلمة معَرَّبة.
(٦) العُرَر: مفردها عُرَّة وهو الرجل الذي عليه عيب وشين ومعرَّة.
(٧) مياسم: مفردها ميسم وهو أثر الوسم والجرح والحرق، وهو العلامة.

كتب بهذا. وكان يسعى بالجلساء إلى المتوكل فأبغضَه وأمره بأن يلزم بيته. ثم بلغه أنه هجاه فحبسه. وأحسنُ شعر قاله في الحبس قصيدتُه التي أوّلها:

قالت حُبستَ فقلت ليس بضائري ... حَبسي وأيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغمَدُ
أَوَ ما رأيت اللَّيْثَ يألَفُ غِيلَه[١] ... كِبراً وأوباشُ[٢] السِّباع تَرَدَّدُ
والشمسُ لولا أنَّها محجوبةٌ ... عن ناظِرَيك لما أضاء الفَرقَدُ
والبدرُ يُدرِكه السَّرارُ[٣] فتنجلي ... أيَّامُه وكأنَّه مُتَجَدِّدُ
والغيثُ يَحصُره الغمامُ فما يُرَى ... إلَّا ورَيِّقُه يَرُوع ويَرعُدُ
والزاعِبيَّةُ[٤] لا يُقيم كُعوبَها ... إلَّا الثِّقاف[٥] وَجذوَةٌ تَتَوقّدُ
والنارُ في أَحجارها مخبوءةٌ ... لا تُصطَلَى إن لم تُثِرْها الأزنُدُ
والحبس ما لم تغشَه لدَنِيَّةٍ ... شنعاءَ نِعمَ المنزِلُ المُتَوَرَّدُ[٦]
بيتٌ يجدِّدُ للكريم كرامةً ... ويُزار فيه ولا يزور ويُحمَدُ
لو لم يكن في الحبس إلَّا أنَّه ... لا يستذِلُّكَ بالحجاب الأعبُدُ
كم من عليل قد تخطَّاه الرَّدى ... فنجا ومات طبيبُه والعُوَّدُ
يا أحمدُ بنَ أَبي دُوادٍ إنَّما ... تُدعى لكلِّ عظيمة يا أحمدُ
أبلِغ أَميرَ المؤمنين فدونَه ... خَوْضُ الرَّدى ومخاوِفٌ لا تَنفَدُ
أنتم بنو عمّ النبيّ محمدٍ ... أولى بما شرَع النبيُّ محمدُ
ما كان من كرَمٍ فأنتم أهلُه ... كرُمَتْ مَغارِسُكم وطاب المَحتِدُ[٧]
أمِنَ السَّوِيَّةِ يا ابنَ عَمّ محمدٍ ... خَصمٌ تُقَرّبه وآخرُ تُبعِدُ
إنَّ الذين سَعَوْا إليك بباطل ... حُسَّادُ نعمتِك التي لا تُجحَدُ
شهِدوا وغِبنا عنهمُ فتحكَّموا ... فينا وليس كغائب مَن يَشهَدُ
لو يجمع الخُصماءَ عندك مجلسٌ ... يوماً لبان لك الطريقُ الأقصَدُ

(١) الغيل: الأجمة أو مأوى الأسد. (٢) الأوباش: الأخلاط والسَّفله.
(٣) السَّرار: آخر ثلاثة أيام من الشهر.
(٤) الزَّاعبيَّة: الرماح، وهي منسوبة إلى رجل يدعى ذاعب كان ماهراً في صنع الأسنَّة والرماح.
(٥) الثِّقاف: آلة خشبية تسوى بها الرماح.
(٦) المتورِّد: الذي يورد ويزار دوماً.
(٧) المحتِد: الأصل.

فـبـأيِّ جُـرْمٍ أَصـبَـحَـتْ أعـراضُـنـا نَـهـبـاً تَـقَـسَّـمـهـا الـلـئـيـمُ الأوْغَـدُ

[الكامل]

أَخبرني جعفر بن قُدامة قال حدثني حمَّاد بن إسحاق قال: قال لي أبو الفضل الرَّبَعيّ قال: قال لي علي بن الجَهم:

دخلت على المتوكِّل وقد بلغني أنَّه كلَّم قَبيحةَ جاريتَه فأجابته بشيء أغضبه، فرماها بمِخَدَّةٍ فأصابتْ عينَها فأثّرتْ فيها، فتأوَّهَتْ وبكتْ وبكى المعتزّ لبكائها؛ فخرج المتوكِّل وقد حُمَّ من الغمّ والغضب. فلما بَصُر بي دعاني وإذا الفتحُ[1] يُري بَختِيشوعَ[2] القارورة ويشاوره فيها. فقال لي: قل يا علي في عِلَّتي هذه شيئاً وصِفْ أنّ الطبيب ليس يَدري ما بي؛ فقلت:

تـنـكَّـر حـالَ عِـلَّـتـيَ الـطـبـيـبُ وقـال أرى بـجـسـمـك مـا يَـريـبُ

جَـسَـسْـتُ الـعِـرْق مـنـك فـدَلَّ جَـسِّـي عـلـى ألَـمٍ لـه خَـبَـرٌ عـجـيـبُ

فـمـا هـذا الـذي بـك هـاتِ قُـلْ لـي فـكـان جـوابَـه مِـنِّـي الـنَّـحـيـبُ

وقـلـت أَيـا طـبـيـبُ الـهـجـرُ دائـي وقـلـبـي يـا طـبـيـبُ هـو الـكـئـيـبُ

فـحـرَّك رأسَـه عَـجَـبـاً لـقـولـي وقـال الـحـب لـيـس لـه طـبـيـبُ

فـأعـجـبـنـي الـذي قـد قـال جِـدّاً وقـلـت بَـلَـى إذا رضِـي الـحـبـيـبُ

فـقـال هـو الـشـفـاءُ فـلا تُـقَـصِّـرْ فـقـلـت أجَـل ولـكـن لا يُـجـيـبُ

أَلَا هـل مُـسـعِـدٌ يـبـكـي لـشَـجْـوي فـإنّـي هـائـم فَـرْدٌ غـريـبُ

[الوافر]

فقال: أحسنتَ وحَياتي! يا غلام اسقِني قَدَحاً؛ فجاءه بقَدح فشرِب وسُقِيَتِ الجماعةُ مثلَه. وخرجتْ إليه فَضلُ الشاعرةُ بأبياتٍ أمرتْها قَبيحةُ أن تقولها عنها. فقرأها فإذا هي:

لَأكـتُـمـنّ الـذي فـي الـقـلـب مـن حُـرَقٍ حـتـى أمـوت ولـم يَـعـلَـم بـه الـنـاسُ

ولا يـقـال شَـكـا مَـن كـان يَـعـشَـقُـه إنَّ الـشَّـكـاة لـمـن تَـهـوى هـي الـيـاسُ

ولا أبـوح بـشـيءٍ كـنـت أكـتُـمـه عـنـد الـجـلـوس إذا مـا دارت الـكـاسُ

[البسيط]

---

(١) الفتح: هو وزير المتوكل الفتح بن خاقان.

(٢) بختيشوع: هو بختيشوع بن جبريل أحد كبار الأطباء.

فقال المتوكل: أحسنتِ يا فَضلُ. وأمر لها ولي بعشرين ألف درهم، ودخل إلى قبيحةَ فترضَّاها.

أَخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد قال:

خرج عليُّ بن الجهم إلى الشام في قافلة، فخرجتْ عليهم الأعراب في خُساف[١] فهرَب من كان في القافلة من المُقاتلة، وثبت علي بن الجهم فقاتلهم قتالاً شديداً، وثاب الناسُ إليه فدفعهم ولم يحظَوْا بشيء. فقال في ذلك:

صَبرتُ ومثلي صبرُه ليس يُنكَرُ ... وليس على تَرك التَّقَحُّم يُعذَرُ
غريزةُ حرٍّ لا ٱختلاقُ تَكَلُّفٍ ... إذا خام[٢] في يوم الوغى المُتَصَبِّرُ
ولمَّا رأيتُ الموت تَهفُو بُنودُه ... وبانتْ علاماتٌ له ليس تُنكَرُ
وأقبلتِ الأعرابُ من كلّ جانبٍ ... وثار عَجاجٌ[٣] أسودُ اللَّون أكدَرُ
بكلِّ مُشيح[٤] مستمِيتٍ مُشمِّرٍ ... يجول به طِرفٌ[٥] أَقبُّ[٦] مُشمِّرُ
بأرض خُسافٍ حين لم يكُ دافعٌ ... ولا مانعٌ إلَّا الصَّفيحُ[٧] المُذكَّرُ
فقلَّل في عينيّ عُظمَ جموعِهم ... عزيمةُ قلبٍ فيه ما جلّ يِصغُرُ
بمُعتَرَكٍ فيه المنايا حواسِرٌ[٨] ... ونارُ الوغى بالمَشرَفيَّة تُسعَرُ
فما صُنتُ وجهي عن ظُباتِ سُيوفِهم ... ولا ٱنحَزْتُ عنهم والقنا تَتَكَسَّرُ
ولم أَكُ في حرّ الكريهة مُحجِماً ... إذا لم يكن في الحرب للوِرْدِ مَصدَرُ
إذا ساعَدَ الطِّرفُ الفتى وجنانُه ... وأسمَرُ خَطِّيٌّ وأبيضُ مِبتَرُ
فذاك، وإن كان الكريمُ بنفسه ... إذا ٱصطكَّتِ الأبطال في النَّقع عَسكَرُ
مَنَعتُهمُ من أن ينالوا قُلامَةً ... وكنت شَجاهم والأسنَّةُ تَقطُرُ
وتلك سجايانا قديماً وحادثاً ... بها عُرِفَ الماضي وعَزّ المؤخَّرُ
أبَتْ لي قُرومٌ أنجبتنيَ أن أَرَى ... وإن جَلَّ خَطْبٌ خاشعاً أتضجَّرُ
أولئك آلُ اللَّه فِهرُ بن مالكٍ ... بهم يُجبَرُ العظمُ الكسيرُ ويُكسَرُ

---

(١) خُساف: بريَّة قرب حلب.
(٢) خام: جَبُن.
(٣) عَجاج: غبار.
(٤) مُشيح: مجِّدٌ في القِتال.
(٥) الطِّرف: الكريم من الخيل
(٦) أقبُّ: دقيق الخصر وضامر البطن.
(٧) الصَّفيح: وجه كل شيء عريض وأراد بها السَّيف.
(٨) حواسِر: مفردها حاسر، وهو الذي لا مغفر له ولا درع.

هـمُ الـمَـنـكِـبُ الـعـالـي عـلـى كـلِّ مَـنـكِـبٍ سـيـوفُـهـمُ تُـفـنـي وتُـغـنـي وتُـفـقِـرُ
[الطويل]

أَخبرني عيسى بن الحسين الورَّاق والحسن بن علي قالا جميعاً حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني عيسى بن أَبي حَرب قال حدثني علي بن الجهم قال:

حبسني أبي في الكُتَّاب، فكتبت إلى أُمّي:

يـا أُمَّـتـا أفـديـكِ مـن أُمّ أشـكـو إلـيـكِ فَـظـاظـةَ الـجَـهـمِ
قـد سُـرّح الـصِّـبـيـانُ كُـلُّـهُـمُ وبَـقـيـتُ مـحـصـوراً[1] بـلا جُـرْمِ
[الكامل]

قال: وهو أوّل شعر قلته وبعثت به إلى أُمي؛ فأرسلت إلى أَبي: واللَّه لئن لم تُطلقه لَأخرُجنَّ حاسرةً حتى أُطلِقَه. قال عيسى فحدّثت بهذا الخبر إبراهيم بن المدبّر فقال: عليُّ بن الجهم كذَّاب، وما يمنعه من أن يكون وَلَّدَ هذا الحديثَ، وقال هذا الشعر وله ستون سنة، ثم حدثكم أنه قاله وهو صغير، ليرفع من شأن نفسه!

أخبرني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال:

كان أحمد بن أَبي دُواد منحرفاً عن علي بن الجهم لاعتقاده مذهب الحشويَّة[2]. فلما حُبِس عليُّ بن الجهم مدح أحمدَ بن أَبي دُواد عدَّة مدائح، وسأله أَن يقوم بأمره ويَشفع فيه، فلم يفعل وقعد عنه. فمنها قوله:

يـا أحـمـدُ بـنَ أَبـي دُوادٍ إنَّـمـا تُـدعـى لـكـلّ عـظـيـمـةٍ يـا أحـمـدُ
أَبـلِـغ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـن ودونَـه خَـوضُ الـرَّدى ومَـخـاوِفٌ لا تَـنـفَـدُ
أنـتـم بـنـو عـمّ الـنـبـيّ مـحـمـد أولـى بـمـا شـرَع الـنـبـيُّ مـحـمـدُ
[الكامل]

وهذه الأبيات من قصيدته التي أولها:

قـالـت حُـبِـسـتَ فـقـلـتُ لـيـس بـضـائـري

فلمَّا نَفى المتوكِّل أحمد بن أَبي دُواد شَمِتَ به عليّ بن الجَهم وهجاه فقال:

---

(١) محصوراً: مسجوناً.

(٢) الحشويَّة: فرقة من المرجئة، يقولون إن حكم الأحاديث كلها واحد، ويقولون إن تارك النافلة كتارك الفريضة أي مرتكب لكبيرة.

يـا أحـمـدُ بـنَ أبـي دُوادٍ دعـوةً بـعـثـتْ إلـيـك جـنـادلاً[١] وحـديـدا
مـا هـذه الـبِـدَعُ الـتـي سـمَّـيـتَـهـا بـالـجـهـل مـنـك الـعـدل والـتـوحـيـدا
أفـسـدتَ أَمـرَ الـدّيـن حـيـن وَلـيـتَـه ورمَـيـتَـه بـأبـي الـولـيـد ولـيـدا
لا مُـحـكَـمـاً جَـزْلاً[٢] ولا مُـسـتَـطْـرَفـاً كـهْـلاً، ولا مُـسـتَـحـدَثـاً مَـعـمـودا
شَـرِهـاً، إذا ذُكـر الـمـكـارمُ والـعُـلَا ذَكـرَ الـقَـلايـا[٣] مُـبـدِئـاً ومُـعـيـدا
ويَـوَدُّ لـو مُـسِـخَـتْ ربـيـعـةُ كـلُّـهـا وبـنـو إيـادٍ صَـحـفَـةً وثَـريـدا
وإذا تـربَّـع فـي الـمـجـالـس خِـلـتَـه ضَـبُـعـاً وخِـلـتَ بـنـي أبـيـه قـرودا
وإذا تـبـسَّـمَ ضـاحـكـاً شـبَّـهـتَـه شَـرِقـاً تَـعَـجَّـلَ شُـربَـه مَـردودا
لا أصـبـحَـتْ بـالـخـيـر عـيـنٌ أبـصـرتْ تـلـك الـمـنـاخِـرَ والـثَّـنـايـا الـسُّـودا

[الكامل]

أخبرني عمي قال حدثنا محمد قال:

كتب علي بن الجهم إلى طاهر من الحبس:

إن كـان لـي ذَنـبٌ فـلـي حُـرمـةٌ والـحـقُّ لا يـدفـعـه الـبـاطـلُ
وحُـرمـتـي أعـظـمُ مـن زَلَّـتـي لـو نـالـنـي مـن عَـدلِـكـم نـائـلُ
ولـي حـقـوقٌ غـيـرُ مـجـهـولـةٍ يـعـرفـهـا الـعـاقـل والـجـاهـلُ
وكـلُّ إنـسـانٍ لـه مـذهـبٌ وأهـلُ مـا يـفـعـلـه الـفـاعـلُ
وسـيـرةُ الأمـلاك مـنـقـولـةٌ لا جـائـرٌ يَـخـفـى ولا عـادلُ
وقـد تـعـجَّـلـتَ الـذي خِـفـتُـه مـنـك ولـم يـأت الـذي آمُـلُ

[السريع]

حدثني عمي قال حدثنا محمد قال:

كان علي بن الجهم يعاشر جماعةً من فِتيان بغداد لمَّا أُطلِق من حبسه ورُدَّ من النفي، وكانوا يتقاينون[٤] ببغداد، ويلزمون منزل مُقَيِّنٍ بالكَرْخ[٥] يقال له المُفَضَّل. فقال فيه عليّ بن الجهم:

(١) جنادل: مفردها جندل، وهو ما يُقِلّه الرجل من الحجارة.
(٢) جَزْل: ذو الرأي الجيد والأصيل.
(٣) القلايا: اللحم الذي ينضج في المقلى.
(٤) يتقاينون: يجالسون القيَان والغانيات، يتنادمون الخمر.
(٥) الكرخ: محلَّة ببغداد.

نـزلـنـا بـبـاب الـكَـرْخ أطـيَـبَ مَـنـزلِ ... عـلـى مُـحـسِـنـاتٍ مـنَ قِـيـان الـمُـفَـضَّـلِ
فـلابـن سُـرَيـج والـغـريـضِ ومَـعـبَـدٍ ... بـدائـعُ فـي أسـمـاعـنـا لـم تُـبَـدَّلِ
أوانِـسُ مـا لـلـضَّـيـف مـنـهـنّ حِـشـمـةٌ ... ولا رَبُّـهُـنَّ بـالـجـلـيـل الـمُـبَـجَّـلِ
يُـسَـرُّ إذا مـا الـضَّـيـفُ قَـلَّ حـيـاؤُه ... ويَـغـفُـل عـنـه وهـو غـيـرُ مُـغَـفَّـلِ
ويُـكـثِـر مـن ذمِّ الـوقـار وأهـلـه ... إذا الـضَّـيـفُ لـم يَـأنَـس ولـم يَـتـبَـذَّلِ
ولا يـدفـع الأيـدي الـمُـريـبـةَ غَـيـرةً ... إذا نـال حَـظّـاً مـن لَـبُـوسٍ ومـأكـلِ
ويُـطـرِق إطـراقَ الـشُّـجـاع مَـهـابـةً ... لـيُـطـلِـق طَـرفَ الـنـاظـر الـمـتـأَمِّـلِ
أَشِـرْ بـيـدٍ واغـمِـزْ بـطَـرفٍ ولا تَـخَـفْ ... رَقـيـبـاً إذا مـا كـنـتَ غـيـر مُـبَـخَّـلِ
وأَعـرِض عـن الـمِـصـبـاح والـهَـجْ بـمـثـلـه ... فـإن خَـمَـد الـمِـصـبـاحُ فـالـدنُ وقَـبِّـلِ
وسَـلْ غـيـرَ مـمـنـوعٍ وقُـلْ غـيـرَ مُـسـكَـتٍ ... ونَـمْ غـيـرَ مَـذعـورٍ وقُـم غـيـرَ مُـعـجَـلِ
لـك الـبـيـتُ مـا دامـت هَـدايـاك جَـمَّـةً ... وكـنـتَ مـلـيّـاً بـالـنَّـبـيـذ الـمُـعَـسَّـلِ
فـبـادِرْ بـأيَّـام الـشَّـبـاب فـإنَّـهـا ... تَـقَـضَّـى وتَـفـنـى والـغـوايـةُ تَـنـجـلـي
ودَعْ عـنـك قـولَ الـنـاس أَتـلَـفَ مـالَـه ... فـلانٌ فـأَضـحـى مُـدبِـراً غـيـرَ مُـقـبِـلِ
هـل الـدهـرُ إلَّا لـيـلـةٌ طَـرَحَـتْ بـنـا ... أواخـرُهـا فـي يـوم لَـهْـوٍ مُـعَـجَّـلِ
سـقـى الـلَّـه بـابَ الـكَـرْخ مـن مُـتَـنَـزَّهٍ ... إلـى قَـصـرِ وَضَّـاح فـبِـرْكـةٍ زَلـزَلِ
مَـسـاحِـبُ أذيـال الـقِـيـان ومَـسـرَح الـ ... ـحِـسـان ومَـثـوَى كـلِّ خـرْقٍ[1] مُـعَـذَّلِ[2]
لَـوَ انّ امـرأ الـقـيـس بـن حُـجـرٍ يَـحُـلُّـهـا ... لأقـصَـرَ عـن ذِكـر الـدَّخـول[3] وحَـوْمَـلِ[4]
إذاً لـرأى أَن يَـمـنَـحَ الـوُدَّ شـادِنـاً ... مـقـصِّـرَ أذيـالِ الـقَـبَـا غـيـرَ مُـسـبِـلِ
إذا الـلـيـلُ أدنـى مَـضـجَـعـي مـنـه لـم يَـقُـلْ ... عَـقَـرتَ بَـعِـيـري يـا امـرأ الـقـيـس فـانـزِلِ

[الطويل]

حدثني الحسنُ بن علي قال حدثنا ابن مَهرويَه قال حدثني إبراهيم بن المدبّر قال أنشدني علي بن الجهم لنفسه:

وإذا جَـزَى الـلَّـه امـرأً بـفِـعـالـه ... فـجـزى أخـاً لـي مـاجِـداً سَـمـحَـا

---

(١) الخَرق: الكريم الذي يتوسع في كرمه لدرجة الإسراف.
(٢) المُعذَّل: الذي يلومه الناس على إسرافه في بذل المال.
(٣) الدَّخول: اسم موضع.
(٤) حومل: السيل الضَّافي.

ناديتُه عن كُربَةٍ فكأنَّما أطلعتُ عن ليلٍ به صُبحَا

[الكامل]

فقلت له: وَيلك! هذا لإبراهيم بن العبَّاس يقوله في محمد بن عبد الملك الزيَّات! فجحَدَني وكابر. فدخل يوماً علي بن الجهم إلى إبراهيم بن العبَّاس وأَنا عنده. فلمَّا رآني قال: إجتمع الإبراهيمان. فتركتُه ساعةً ثم أنشدتُ البيتين، وقلت لإبراهيم بن العبَّاس: إن هذا يزعُم أن هذين البيتين له. فقال: كذب، هذان لي في محمد بن عبد الملك الزيَّات. فقال له علي بن الجهم بقِحَةٍ: أَلم أنهَكَ أَن تَنتحل شعري! فغضِب إبراهيم وجعل يقول له بيده: سَوءَةً عليك سَوءةً لك! ما أوقحك! وهو لا يُنكِرُ في ذلك ولا يَخجَل. ثم التقينا بعد مدة فقال: أرأيتَ كيف أخزيتُ إبراهيم بن العباس!! فجعلت أَعجَبُ من صلابة وجهه.

شعر له في الفراق:

حدثني عمي قال أنشدنا محمد بن سَعد لعلي بن الجهم وفيه غِناء:

إعلَمي يا أحبَّ شيءٍ إليَّا أَنّ شوقي إليكِ قاضٍ عليَّا
إن قضى اللَّهُ لي رجوعاً إليكم لا ذكرتُ الفِراقَ ما دمتُ حيَّا
إنَّ حَرّ الفِراق أنحَلَ جسمي وكوى القلبَ منكِ بالشَّوق كيَّا

[الخفيف]

كان محمد بن عبد الملك الزيات منحرفاً عنه ويسبعه عند الخليفة فهجاه:

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سَعد قال:

كان محمد بن عبد الملك الزيَّات مُنحرفاً عن علي بن الجهم وكان يَسبِعُه عند الخليفة ويَعيبُه ويذكُره بكلّ قبيح. فقال فيه علي بن الجهم:

لَعائِنُ اللَّه مُتابَعاتِ مُصَبِّحاتٍ ومُهَجِّراتِ
على ابن عبد الملك الزيَّات عَرَّضَ شَملَ المُلكِ للشَّتاتِ
وأنفَذَ الأحكامَ جائراتِ على كتاب اللَّه ذارياتِ
وعن عقول الناس خارجاتِ يرمي الدواوينَ بتوقيعاتِ
مُعَقَّداتٍ كَرُقى الحيَّاتِ سبحانَ مَن جَلَّ عن الصِّفاتِ
بعد ركوب الطَّوْف[1] في الفُراتِ وبعد بَيعِ الزَّيت بالحَبَّاتِ

(١) الطَّوف: قِرب ينفخُ فيها، ويُشدُّ بعضها إلى بعض، كهيئة السطح، يركب عليها في الماء ويحمل عليها.

صـرتَ وزيـراً شـامـخَ الـثَّـبـاتِ هـارونُ يـابـنَ سَـيِّـدِ الـسَّـاداتِ
أَمـا تـرى الأمـورَ مُـهـمَـلاتِ تـشـكـو إلـيـك عَـدَمَ الـكُـفـاةِ
[الرجز]
فـعـاجِـلِ الـعِـلـجَ[1] بـمُـرهَـفـاتِ مـن بـعـد ألـفٍ صُـخَّـبِ الأصـواتِ
بـمُـثـمِـراتٍ غـيـرِ مُـورِقـاتِ تُـرى بـمَـتـنَـيـه مُـرَصَّـفـاتِ
تَـرصُّـفَ الأسـنـان فـي الـلِّـثـاتِ

أخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد قال:

كان علي بن الجهم سأل عمر بن الفرَج الرُّخَّجيّ معاونتَه، واسترفده في نكبته فلم يُعاوِنه ولم يُرفِده، ثم قُبِض على عمر بن الفرج وأُسلم إلى نجاح ليصادره. فقال علي بن الجهم له:

أَبْـلِـغ نَـجـاحـاً فـتـى الـفِـتـيـانِ مـألُـكَـةً تَـمـضـي بـهـا الـرِّيـحُ إصـداراً وإيـرادا
لـن يـخـرج الـمـالُ عـفـواً مـن يَـدَيْ عُـمَـرٍ أو يُـغـمَـدَ الـسَّـيـفُ فـي فَـودَيـه[2] إغـمـادا
ألـرُّخَـجِـيُّـون لا يُـوفـون مـا وَعَـدوا والـرُّخَّـجِـيَّـاتُ لا يُـخـلِـفـنَ مِـيـعـادا
[البسيط]

قال: وقال في عمر بن الفرَج أيضاً:

جـمـعـتَ أمـريـن ضـاع الـخـرمُ[3] بـيـنـهـمـا تـيـهَ الـمـلـوك وأفـعـالَ الـمـمـالـيـكِ
أردتَ شـكـراً بـلا بِـرٍّ ومَـرزِئـةٍ[4] لـقـد سـلـكـتَ طـريـقـاً غـيـرَ مـسـلـوكِ
ظـنـنـتَ عِـرضَـك لا يُـرمـى بـقـارعـةٍ ومـا أُراكَ عـلـى حـالٍ بـمـتـروكِ
[البسيط]

أَخبرني عمي قال حدثني الحسن بن الحسن بن رَجاء عن أبيه قال:

كان لسليمان بن وَهبٍ نديمٌ يأنَسُ به ويألفه، فعَربد عليه ليلةً من الليالي عَربَدةً قبيحةً، فاطَّرحه وجفاه مدَّة. فوقف له على الطريق. فلمَّا مَرَّ به وثب إليه فقال له: أَيها الوزير، أَلا تكون في أَمري كما قال علي بن الجهم:

ألـقـومُ إخـوانُ صِـدقٍ بـيـنـهـم نَـسَـبُ مـن الـمـودّة لـم يُـعـدَلْ بـهـا نَـسَـبُ

(١) العِلج: الواحد من كفار العجم جمعها علوج وأعلاج.
(٢) فوديه: ناحيتي رأسه. (٣) الخَرم: أنف الجبل.
(٤) مرزئة: مصيبة.

تـراضَـعـوا دِرَّة الـصَّـهـبـاء بـيـنـهـمُ فـأوجـبـوا لـرضـيـع الـكـأس مـا يَـجـبُ
لا تـحـفَـظَـنَّ عـلـى الـسَّـكـران زَلَّـتَـه ولا تَـريـبَـنْـك مـن أخـلاقـه رِيَـبُ
[البسيط]

فقال له سليمان: قد رضيتُ عنك رضاً صحيحاً، فَعُدْ إلى ما كنتَ عليه من ملازمتي. وأوَّل هذه الأبيات:

ألـوَرْدُ يـضـحـك والأوتـار تـصـطـخِـبُ والـنَّـاي يَـنـدُبُ أشـجـانـاً ويَـنـتَـحِـبُ
والـرَّاحُ تُـعـرَضُ فـي نَـور الـرَّبـيـع كـمـا تُـجـلـى الـعَـروسُ عـلـيـهـا الـدُّرُّ والـذهـبُ
والـلَّـهـو يُـلـحِـقُ مَـغـبـوقـاً بـمُـصـطَـبِـح والـدور سـيَّـان مـحـثـوثٌ ومُـنـتَـخَـبُ
وكـلُّـمـا ٱنـسـكـبـتْ فـي الـكـأس آونـةً أقـسـمـتُ أنّ شُـعـاع الـشَّـمـس يَـنـسـكـبُ
[البسيط]

أَخبرني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال حدثني أسلَم مولى عبد اللَّه بن طاهر قال:

دخل علي بن الجهم يوماً على عبد اللَّه بن طاهر في غُدوة من غُدواتِ الرَّبيع وفي السماء غَيم رقيق والمطرُ يجيء قليلاً ويسكن قليلاً، وقد كان عبد اللَّه عزَم على الصَّبوح. فغاضبتْه حَظِيَّةٌ له، فتنغَّص عليه عَزمُه وفتر فخُبِّر علي بن الجَهم بالخبر وقيل له: قُل في هذا المعنى شيئاً، لعله ينشَط للصَّبوح. فدخل عليه فأنشده:

صـــوت

أمّـا تـرى الـيـومَ مـا أحـلـى شـمـائـلـه صَـحـوٌ وغَـيـمٌ وإبـراقٌ وإرعـادُ
كـأنَّـه أنـت يـا مَـن لا شـبـيـهَ لـه وصَـلٌ وهَـجـرٌ وتَـقـريـبٌ وإبـعـادُ
فـبـاكِـرِ الـرّاح وٱشـرَبـهـا مُـعـتَّـقَـةً لـم يَـدَّخِـر مِـثـلَـهـا كِـسـرى ولا عـادُ
وٱشـرَبْ عـلـى الـرَّوض إذ لاحـت زخـارِفـه زَهْـرٌ ونَـوْرٌ وأَوراقٌ وأَورادُ
كـأنَّـمـا يـومُـنـا فِـعـلُ الـحـبـيـب بـنـا بَـذلٌ وبُـخـلٌ وإبـعـادٌ ومـيـعـادُ
ولـيـس يـذهـب عـنّـي كـلُّ فـعـلـكـمُ غَـيٌّ ورُشـدٌ وإصـلاحٌ وإفـسـادُ
[البسيط]

فٱستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار؛ وحمله وخلَع عليه، وأمر بأن يُغنَّى في الأبيات. الغناء لبَذْل الطاهريَّة، خفيفُ رمَلٍ. وفيه لغيرها هَزَجٌ.

جلس في المقابر بعد خروجه من السجن :

حدثني عمي قال حدثني محمد بن سعد قال حدثني رجلٌ من أهل خُراسان قال :

رأيت علي بن الجهم بعد ما أُطلِقَ من حَبسه جالساً في المقابر ؛ فقلت له : ويحك! ما يُجلسك هاهنا؟! فقال :

يشتاق كلُّ غريب عند غُربَتِه ... ويذكر الأهلَ والجيرانَ والوطنَا
وليس لي وطنٌ أمسَيتُ أذكره ... إلَّا المقابر إذ صارت لهم وطنَا

[البسيط]

حدثني عمي قال أنشدنا أحمد بن عُبَيد ومحمد بن سعد لعلي بن الجهم وفيه غناء :

صوت

لو تَنَصَّلْتَ إلينا ... لَوَهَبنا لك ذَنبَكْ
بأبي ما أبغضَ العيـ ... ـش إذا فارقتُ قُربَكْ
ليتني أملِك قلبي ... مِثلَ ما تَملك قلبَكْ
أيُّها الواثق باللَّـ ... ـه قد ناصحتَ ربَّكْ
ما رأى الناسُ إماماً ... أنهَبَ الأموالَ نَهبَكْ
أصبحتْ حُجَّتُك العُـ ... ـليا وحزبُ اللَّه حِزبَكْ

[مجزوء الرمل]

الغناء لعَريب رمَلٌ . وفيه لغيرها هَزَجٌ .

مدح أبا أحمد بن الرشيد فلم يعطه شيئاً فهجاه :

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سَعد قال :

كان علي بن الجهم قد مدح أَبا أحمد بن الرَّشيد فلم يُعطِه شيئاً فقال يهجوه :

يا أَبا أَحمدَ لا يُنـ ... ـجي من الشِّعر الفِرارُ
لبَني العبَّاس أحلا ... مٌ عِظامٌ ووقار
ولهم في الحرب إقدا ... مٌ ورأْيٌ وأَصطِبار
ولهم ألسِنةٌ تَبـ ... ـري كما تَبري الشِّفار

ووجـــوهٌ كـــنـــجـــوم الـــلَّـــيـــل تَـــهـــدي مـــن يَـــحـــار
ونَـــسـيـــمٌ كـــنـــسـيـــم الـــرَّوض جـــادتْـــه الـــقِـــطـــار
ولِـــعـــطـــفَـــيـــك عـــن الـــمـــجـــد شِـــمـــاسٌ وٱزورار
إن تـــكـــن مـــنـــهـــم بـــلا شـــ ـــكٍّ فـــلـــلـــعـــودِ قُـــتـــار[1]

[مجزوء الرمل]

رثى عبد اللَّه بن طاهر بشعر وأنشده ابنه يعزيه:

حدثني جَحظة وعمي قالا حدثنا عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر قال:

دخل إلينا علي بن الجهم بعقِب موت أبي والمجلسُ حافلٌ بالمعزّين، فمثَل قائماً وأَنشدَنا يرثيه:

أَيُّ ركـــن وَهَـــى مـــن الإســـلام أَيُّ يـــوم أخـــنـــى عـــلـــى الأيـــام
جَـــلَّ رُزْءُ الأمـــيـــر عـــن كـــلّ رُزءٍ أدركـــتُـــه خـــواطـــرُ الأوهـــام
سَـلَـبَـتـنـا الأيـامُ ظـلّاً ظَـلـيـلاً وأبـاحـتْ حِـمًـى عـزيـزَ الـمَـرام
يـا بَـنـي مُـصـعَـبٍ حَـلَـلـتـم مـن الـنَّـاس مَـحَـلَّ الأرواحِ فـي الأجـسـام
فـإذا رابَـكـم مـن الـدَّهـر ريَـبٌ عَـمَّ مـا خَـصَّـكـم جـمـيـعَ الأنـام
أنـظـروا هـل تَـرَونَ إلّا دمـوعـاً شـاهـداتٍ عـلـى قـلـوبٍ دوامـي
مَـن يُـداوي الـدُّنـيـا ومَـن يـكـلأ الـمُـلـكَ لـدى فـادحِ الـخـطـوبِ الـعِـظـام
نـحـن مُـتـنـا بـمـوتـه وأجـلُّ الـخـطـبِ مـوتُ الـسَّـاداتِ والأعـلام
لـم يَـمُـتْ والأمـيـرُ طـاهـرُ حَـيٌّ دائـمُ الانـتـقـام والإنـعـام
وهـو مـن بـعـده نـظـامُ الـمـعـالـي وقِـوامُ الـدنـيـا وسـيـفُ الإمـام

[الخفيف]

قال: فما أذكر أني بكيت أو رأيتُ في دُورنا باكياً أكثر من يومئذٍ.

حدثني عمي قال حدثنا أَبو الدِّهقانة النَّديمُ قال:

دخلنا يوماً إلى المعتزّ وهو مُصطَبِحٌ على صوتٍ اختاره واقترحه على عَريبَ، وأظُنُّ الصنعةَ لها، فلم يزل يشرب عليه بقيَّةَ يومِه، فلمَّا سَكِر أمر لها بثلاثين أَلف درهم، وفرَّق على الجلساء كلِّهم الجوائزَ والطِّيبَ والخلَع. والصوتُ:

(١) قُتار: ريح العود بعد حرقه.

ألـعـيـنُ بـعـدَك لـم تـنـظـر إلـى حَـسَـنِ والـنَّـفـسُ بـعـدَك لـم تـسـكُـن إلـى سَـكَـنِ
كـأنّ نـفـسـي إذا مـا غـبـتَ غـائـبـةٌ حـتـى إذا عُـدتَ لـي عـادت إلـى بَـدَنـي
[البسيط]

والشعرُ لعليّ بن الجَهم.

حدثني جَحظةُ ومحمد بن خَلَف وكيعٌ وعمي قالوا جميعاً حدثنا عُبَيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر قال:

لمَّا أَطلق أَبي طاهرٌ، علي بن الجهم من الحبس أَقام معه بالشاذِياخ مدةً. فخرجوا يوماً إلى الصيد، واتفق لهم مَرجٌ كثيرُ الطير والوحش، وكانت أيام الزَّعفَران، فاصطادوا صيداً كثيراً حسناً، وأَقاموا يشربون على الزّعفران. فقال علي بن الجهم يَصِف ذلك:

وطِـئـنـا ريـاضَ الـزَّعـفـران وأمـسَـكـتْ عـلـينا البزاةُ[١] البِيضُ حُمرَ الدّرارِج[٢]
ولـم تَـحـمِـهـا الأدغـالُ مـنَّـا وإنَّـمـا أَبَـحـنـا حِـمـاهـا بـالـكـلاب الـنـوابـج[٣]
بـمُـسـتَـرْوِحـاتٍ سـابـحـاتٍ بـطـونُـهـا عـلـى الأرض أَمـثـالَ الـسِّـهـام الـزَّوالـج[٤]
ومُـسـتَـشـرفـاتٍ بـالـهَـوادي[٥] كـأنـهـا ومـا عَـقَـفـتْ مـنـهـا رؤوس الـصَّـوالـج
ومِـن دالِـعـاتٍ ألـسُـنـاً فـكـأنـهـا لِـحًـى مـن رجـالٍ خـاضـعـيـن كـواسـج[٦]
فَـلَـيـنـا بـهـا الـغِـيـطـانَ فَـلـيـاً كـأَنـهـا أَنـامـلُ إحـدى الـغـانـيـات الـحـوالـج[٧]
فَـقُـلْ لـبُـغـاةِ الـصَّـيـد هـل مـن مـفـاخـرٍ بـصَـيْـدٍ وهـل مـن واصـفٍ أو مُـخـارج[٨]
قَـرَنَّـا بُـزاةً بـالـصُّـقـورِ وحَـوَّمَـتْ[٩] شـواهـيـنُـنـا مـن بـعـد صَـيـدِ الـزَّمـامـج[١٠]
[الطويل]

---

(١) البزاة: مفردها بازي، وهو ضرب من الصقور.
(٢) الدَّرارج: جمع دُرَّاج وهو طائر شبيه بالحجل.
(٣) النوابج: الشديدو الأصوات والكلب النبَّاج هو النبَّاح.
(٤) الزَّوالج: هي السهام التي تتزلج بسرعة عن القوس.
(٥) الهوادي: الأعناق.
(٦) كواسج: مفردها كوسج وهو خفيف شعر اللحية.
(٧) الحوالج: مفردها حالجة، وهي التي تقوم بندف القطن حتى يخلص الحَب منه.
(٨) مخارج: اسم للمصدر.
(٩) الشواهين: مفردها شاهين، وهو نوع من الطيور دون النسر.
(١٠) الزمامج: مفردها زُمَّج، وهو طائر يُصاد به.

كتب من حبسه إلى المتوكل شعراً:

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال:

كتب علي بن الجهم إلى المتوكل وهو محبوس:

صوت

أقِلني أَقالَكَ مَن لم يَزَلْ ... يَقيكَ ويَصرِفُ عنك الرَّدى
ويَغذوك بالنِّعم السابغاتِ ... وليداً وذا مَيعَةٍ أَمرَدا
وتَجري مقاديرُه باللذي ... تُحِبُّ إلى أَن بلغتَ المَدى
ويُعليكَ حتى لَوَ انّ السماء ... تُنالُ لجاوزتَها مُصعِدا
فما بين ربِّك جلّ اسمُه ... وبينَك إلَّا نبيّ الهُدى
فشكراً لأنعُمِه إنَّه ... إذا شُكِرتْ نعمةٌ جَدّدا
وعفوَك عن مُذنبٍ خاضعٍ ... قَرَنتَ المُقِيمَ به المُقعِدا
إذا ٱدَّرع الليلَ أَفضى به ... إلى الصُّبح من قبلِ أن يَرقُدا
عفا اللَّه عنك أَلَا حُرمةٌ ... تعوذ بفضلك أن أُبعَدا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أَعتمد ... لأنت أَجَلُّ وأعلى يَدا
أَلم تَرَ عَبداً عدا طَورَه ... ومولًى عفا ورشيداً هدى
ومُفسِدَ أمرٍ تلافَيتَه ... فعاد فأصلح ما أفسدا
فلا عُدتُ أعصيك فيما أمر ... تَ حتى أزور الثَّرى مُلحَدا
وإلَّا فخالفتُ ربَّ السماء ... وخُنتُ الصديقَ وعِفتُ الندى
وكنتُ كعَزُّونَ أو كابنِ عمرو ... مُبيحِ العيالِ لمن أَولدا
يكثِّر في البيت صِبيانَه ... يَغيظ بهم مَعشَراً حُسَّدا

[المتقارب]

حدثني عمي قال حدثنا محمد بن سعد قال:

لمَّا فُلجَ ابنُ أَبي دُواد شَمِت به علي بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه:

لم يَبقَ منك سوى خيالِك لامعاً ... فوق الفراش مُمَهَّداً بوسادِ
فَرِحَتْ بمصرَعِك البريَّةُ كلُّها ... مَن كان منهم مُوقِناً بمَعادِ

كـم مـجـلـسٍ لـلَّـه قـد عـطَّـلـتَـه ... كـي لا يُـحَـدَّث فـيـه بـالإِسـنـادِ
ولَـكَـمْ مـصـابـيـحٍ لـنـا أطـفـأتَـهـا ... حـتـى يـزول عـن الـطـريـق الـهـادي
ولَـكَـمْ كـريـمـةِ مَـعـشَـرٍ أَرمَـلـتَـهـا ... ومُـحَـدِّثٍ أَوثَـقـتَ فـي الأقـيـادِ
إن الأسـارى فـي الـسُّـجـون تَـفَـرَّجـوا ... لـمَّـا أتـتـك مـواكـبُ الـعُـوَّادِ
وغـدا لـمـصـرعِـك الـطـبـيـبُ فـلـم يـجـد ... شـيـئـاً لـدائـك حـيـلـةَ الـمُـرتـادِ
فـذُقِ الـهـوانَ مُـعَـجَّـلاً ومُـؤجَّـلاً ... والـلَّـهُ رَبُّ الـعـرشِ بـالـمِـرصـادِ
لا زال فـالِـجُـك الـذي بـك دائـبـاً ... وفُـجِـعْـتَ قـبـل الـمـوتِ بـالأولادِ

[الكامل]

شعر له غنت فيه عريب:

أنشدني عمي لابن الجهم وفيه غناء لعريب:

نَـطَـقَ الـهـوى بـجـوًى[1] هـو الـحـقُّ ... ومـلـكـتَـنـي فَـلـيَـهْـنِـكَ الـرِّقُّ
رِفـقـاً بـقـلـبـي يـا مـعـذِّبَـه ... رفـقـاً ولـيـس لـظـالـم رِفـقُ
وإذا رأيـتُـك لا تـكـلِّـمـنـي ... ضـاقـتْ عـلـيَّ الأرضُ والأُفـقُ

[الكامل]

وأنشدني له وفيه غناء أيضاً، ويقال إنه آخر شعر قاله:

يـا رحـمـةً لـلـغـريـب بـالـبـلـد الـنّـازحِ مـاذا بـنـفـسـه صَـنَـعَـا
فـارَقَ أحـبـابَـه فـمـا ٱنـتـفـعـوا ... بـالـعـيـش مـن بـعـده ومـا ٱنـتـفـعَـا

[المنسرح]

وقال لمغنٍّ حضر معه مَجلِساً وكان غيرَ طيِّب:

كـنـتُ فـي مـجـلـس فـقـال مُـغَـنِّـي الـقـوم كـم بـيـنـنـا وبـيـن الـشـتـاءِ
فـذَرَعْـتُ الـبـسـاط مِـنِّـي إلـيـه ... قـلـتُ هـذا الـمـقـدارُ قـبـل الـغـنـاءِ
فـإذا مـا عَـزَمـتَ أن تَـتَـغَـنّـى ... آذَنَ الـحَـرُّ كـلُّـه بـٱنـقـضـاءِ

[الخفيف]

أخبرني علي بن العبَّاس بن أَبي طَلحة قال حدثني عبد اللَّه بن المعتزّ قال:

لمَّا حبس أميرُ المؤمنين المتوكِّلُ علي بن الجهم، وأجمع الجلساءُ على عَداوته

(١) الجوى: الهوى الباطن المكتوم.

وإبلاغ الخليفة عنه كلَّ مكروه ووَصفِهم مساويَه، قال هذه القصيدةَ يمدحه ويذكِّره حقوقَه عليه، وهي:

عفا اللَّه عنك ألا حُرمةٌ تَعوذ بعفوك أن أبعَدا

[المتقارب]

ووجَّه بها إلى بَيدون الخادم، فدخل بها إلى قَبيحةَ. وقال لها: إنّ علي بن الجهم قد لاذ بكِ وليس له ناصرٌ سواكِ، وقد قصده هؤلاء النُّدماءُ والكتَّاب لأنه رجل من أهل السنَّة وهم روافضُ، فقد اجتمعوا على الإغراء بقتله. فدَعَتِ المُعتزَّ وقالت له: اذهب بهذه الرُّقعة يا بُنيَّ إلى سيِّدك وأوصِلها إليه، فجاء بها ووقف بين يَدَي أَبيه. فقال له: ما معكَ فديتُك؟ فدنا منه وقال: هذه رُقعة دَفَعَتْها إليَّ أُمّي. فقرأها المتوكِّل وضحِك. ثم أقبل عليهم فقال: أصبح أَبو عبد اللَّه ـ فديتُه ـ خَصمكم. هذه رقعة علي بن الجهم يستقيل[1]، وأَبو عبد اللَّه شفيعُه، وهو ممن لا يُرَدّ، وقرأها عليهم. فلمَّا بلغ إلى قوله:

فلا عُدتُ أعِصيكَ فيما أمرتَ إلى أَن أَحُلَّ الثرَى مُلحَدا
وإلَّا فخالفتُ رَبَّ السماء وخُنتُ الصَّديقَ وعِفتُ الندى
وكنتُ كعَزُّونَ أَو كابنِ عمرو مُبيحِ العيالِ لمن أَولَدا

[المتقارب]

وثَب ابن حَمدون وقال للمعتزّ: يا سيِّدي فمَنْ دفع هذه الرُّقعة إلى السيِّدة؟ قال بَيدون الخادم: أنا. فقالوا له: أحسنتَ! تُعادينا وتوصل رُقعةَ عدوِّنا في هجائنا!! فانْصرف بَيدون وقام المُعتزّ فانْصرف. واسْتلَب ابنُ حَمدون قوله:

وكنتُ كعَزُّونَ أَو كابن عمرو مُبيحِ العيالِ لمن أَولَدا

[المتقارب]

فجعل يُنشِدهم إيَّاه وهم يشتُمون ابن حَمدون ويَضِجُّون والمتوكِّل يضحك ويصفِّق ويشرَب حتى سكِر ونام، وسرقوا قصيدته من بين يَدَي المتوكل وانْصرفوا، ولم يوقِّع بإطلاقه ونَسِيَه. فقالوا لابن حَمدون: وَيلك! تُعيد هجاءنا وشَتمنا!! فقال: يا حمقى واللَّه لو لم أَفعل ذلك فيضحكَ ويَشرَبَ حتى يَسكَر وينام لوقَّع في إطلاقه ووقَعنا معه في كل ما نكره.

(١) يستقيل: يطلب إقالة العثرة، والعفو عن الذنب.

أَخبرني علي بن الحسين قال حدثني جعفر بن هارون بن زِياد قال حدثني أَحمد بن حَمدون قال:

لمَّا ٱفتُتِحت أرمينيةُ وقُتِل إسحاق بن إسماعيل دخل علي بن الجهم فأنشد المتوكِّلَ قصيدتَه التي يُهنِّيه فيها بالفتح ويمدحه، فقال فيها وأومأ بيده إلى الرسول الوارد بالفتح وبرأس إسحاق بن إسماعيل:

أَهـلاً وسَـهـلاً بـك مـن رسـولِ جـئـتَ بـمـا يَـشـفـي مـن الـغَـلـيـلِ
بـجـمـلـةٍ تُـغـنـي عـن الـتـفـصـيـل بـرأس إسـحـاقَ بـنِ إسـمـاعـيـلِ
قَـهـراً بـلا خَـتـلٍ ولا تـطـويـل

[الرجز]

فاستحسن جميعُ مَن حضَر ارتجاله هذا وابتداءه، وأمر له المتوكل بثلاثين ألف درهم، وتمم القصيدة. وفيها يقول:

جـاوز نَـهـرَ الـكُـرِّ بـالـخـيـولِ تَـردي بـفِـتـيـانٍ كـأسـدِ الـغِـيـلِ
مُـعَـوَّداتٍ طـلـبَ الـذُّحـولِ[١] خُـزْر[٢] الـعـيـون طـيـبـي الـنُّـصـولِ
شُـعـثٌ عـلـى شُـعـثٍ مـن الـفـحـولِ جـيـشٌ يَـلُـفُّ الـحَـزن بـالـسُّـهـولِ
كـأنـه مُـعـتَـلِـجُ[٣] الـسُّـيـولِ يَـسـوسُـه كَـهْـلٌ مـن الـكـهـولِ
لا يَـنـثـنـي لـلـصَّـعـب والـذَّلـولِ عـلـى أغَـرَّ واضـحِ الـحُـجـولِ[٤]
حـتـى إذا أَصـحَـر[٥] لـلـمـخـذولِ نـاجَـزَه بـصـارم صَـقـيـلِ
ضَـربـاً طِـلَـحْـفـاً[٦] لـيـس بـالـقـلـيـلِ ومَـنـجَـنـيـق[٧] مـثـلِ حَـلْـقِ الـفـيـلِ
تَـرفَـضُّ عـن خُـرطـومـه الـطـويـلِ صـواعـقٌ مـن حَـجَـر الـسِّـجِّـيـلِ[٨]
تـتـرك كـيْـدَ الـقـوم فـي تَـضـلـيـلِ مـا كـان إلَّا مِـثـل رَجـعِ الـقِـيـلِ
حـتـى ٱنـجـلـتْ عـن حـزبـه الـمـفـلـولِ[٩] وعـن نـسـاءٍ حُـسَّـرٍ ذُهـولِ

(١) الذحول: مفردها ذحل وهو الثأر.
(٢) خُزر: مفردها أخزر وواحدتها خزراء والخزر هو صغر العين.
(٣) مُعتلج: ملتطم.
(٤) الحجول: البياض في جبلة الفرس.
(٥) أصحر: برز.
(٦) طِلحفاً: شديداً.
(٧) منجنيق: آلة لرمي الحجارة والكلمة فارسية معرَّبة.
(٨) السِّجّيل: حجارة كالمدر والكلمة معرَّبة.
(٩) المفلول: المنهزم.

صوارخٍ يَعثُرْن في الذُّيولِ ثَواكلِ الأولاد والبُعُولِ
لا والذي يُعرَف بالعقولِ من غير تحديدٍ ولا تَمثيلِ
ما قام للَّه وللرسولِ بالدِّين والدُّنيا وبالتَّنزيلِ
خليفةٌ كجعفر المأمولِ

أخبرني علي بن العبَّاس قال حدثني محمد بن عبد السلام قال:

رأيتُ مع علي بن يحيى المنجِّم قصيدةَ علي بن الجهم يمدح المتوكل ويصف الهاروني، فقلت له: يا أَبا الحسن، ما هذه القصيدة معك؟ فضحِك وقال: قصيدةٌ لعلي بن الجهم سألني عَرضَها على أمير المؤمنين فعرَضتها. فلمَّا سمع قولَه:

وقُبَّةُ مُلكٍ كأنَّ النُّجو مَ تُصغي إليها بأَسرارها
تَخِرُّ الوفودُ لها سُجَّداً إذا ما تَجلَّتْ لأبصارها
وفَوَّارة ثأرُها في السماء فليست تُقَصِّرُ عن ثأرها
تَرُدُّ على المُزنِ ما أنزلتْ إلى الأرض من صَوب مِدرارها

[المتقارب]

تهلَّل وجهُه واستحسنها. فلمَّا انتهيتُ إلى قوله:

تَبَوَّأْتُ بعدَك قَعرَ السُّجون وقد كنتُ أَرثي لزوَّارها

[المتقارب]

غضِب وتربَّد وجهه وقال: هذا بما كسَبتْ يداه، ولم يسمع تمامَ القصيدة.

أَخبرني علي بن العباس قال حدثني الحسين بن موسى قال:

لمَّا شاع في الناس مذهب علي بن الجهم وشَرُّه وذِكرُه كلَّ أَحدٍ بسوءٍ من صديقه وعدوّه تحاماه الناسُ، فخرج عن بغداد إلى الشام، فاتَّفقنا في قافلةٍ إلى حلب. وخرج علينا نفرٌ من الأعراب، فتسرّع إليهم قومٌ من المُقاتلة، وخرج فيهم فقاتل قتالاً شديداً وهزَم الأعراب. فلمَّا كان من غدٍ خرج علينا منهم خَلقٌ كثير، فتسرَّعت إليهم المُقاتلةُ وخرج فيهم فأَصابَته طَعنةٌ قتلتْه، فجئنا به واحتملناه وهو يَنزِف دمُه. فلما رآني بكى وجعل يوصيني بما يريد. فقلت له: ليس عليك بأس. فلمَّا أمسينا قلِق قلقاً شديداً وأحسّ بالموت، فجعل يقول:

أَزيدَ في الليلِ ليلُ أَم سالَ بالصُّبح سَيلُ

ذكـــرتُ أَهـــلَ دُجَـــيـــلٍ[١] وأيـــن مِـــنِّـــي دُجَـــيـــلُ

[المجتث]

فأبكى كلّ من في القافلة، ومات مع السَّحَر، فدُفِن في ذلك المنزل على مرحلة من حَلَب.

* * *

ومن صنعة أبي عيسى بن المتوكِّل

صـوت

إنِ الـنـاسُ غَـطَّـونـي تَـغَـطَّـيـتُ عـنـهـمُ وإن بـحـثـوا عـنّـي فـفـيـهـم مَـبـاحـثُ

وإن حـفَـروا بـئـري حَـفَـرتُ بـئـارَهـم فـسـوف تَـرَى مـاذا تُـثـيـر الـنَّـبـائـث[٢]

[الطويل]

الشعر لأبي دُلامة. والغناء لأبي عيسى بن المتوكِّل، ولحنه ثقيلٌ أوّلُ عن المعتزّ.

* * *

(١) دجيل: نهر يخرج من بغداد بينها وبين تكريت.

(٢) النبائِث: مفردها نبيثة، هي تراب قعر البئر.

أخبار أبي دلامة ونسبه

نسبه وهو مولى لبني أسد وكان فاسد الدين متهتكاً:

أبو دُلامة زَند بن الجَون. وأَكثرُ الناس يُصَحِّف اسمه فيقول «زيد» بالياء، وذلك خطأ، وهو زَند بالنون. وهو كوفيٌّ أسودُ، مولًى لبني أَسَد. كان أبوه عبداً لرجل منهم يقال له فضافض فأعتقه. وأدرك آخرَ أيَّام بني أميَّة، ولم يكن له في أيَّامهم نباهة، ونبغ في أيَّام بني العبَّاس، وٱنقطع إلى أَبي عَبَّاس وأبي جعفر المنصور والمهدي، فكانوا يقدِّمونه ويَصِلونه ويستطيبون مجالستَه ونوادرَه. وقد كان ٱنقطع إلى رَوح بن حاتم المهلَّبي أَيضاً في بعض أَيامه. ولم يصِل إلى أَحدٍ من الشعراء ما وصل إلى أَبي دُلامة من المنصور خاصَّةً. وكان فاسدَ الدِّين، رديءَ المذهب، مرتكباً للمحارم، مُضَيِّعاً للفروض، مجاهراً بذلك، وكان يُعلَم هذا منه ويُعرَف به، فيتجافى عنه لِلُطفِ محلِّه. وكان أَوّلُ ما حُفِظ من شعره وأسنِيَتِ الجوائزُ له به قصيدةً مدح بها أَبا جعفر المنصور وذكر قَتْلَه أَبا مسلم. فأَخبرني أحمد بن عُبَيد اللَّه بن عَمَّار قال حدثني محمد بن داود بن الجَرَّاح عن محمد بن القاسم عن أَحمد بن حبيب قال: لمَّا قال أَبو دُلامةَ قصيدتَه في قتل أَبي مسلم التي يقول فيها:

أَبا مُسلِمٍ خَوَّفتَني القتلَ فٱنتحى ... عليك بما خوَّفتَني الأسدُ الوَردُ

أَبا مسلمٍ ما غيّر اللَّه نعمةً ... على عبده حتى يغيّرها العبدُ

[الطويل]

أَنشدها المنصورَ في مَحفِلٍ من الناس، فقال له: ٱحتكم. قال: عشرة آلاف درهم، فأَمر له بها. فلمَّا خلا به قال له: إِيهِ! أَمَا واللَّه لو تَعَدَّيتَها لقتلتُك.

أَخبرني أَحمد بن عُبَيد اللَّه بن عمَّار قال حدثني علي بن مُسلم عن أَبيه قال: سَمَّى لي أَبو دُلامة نفسه زَنداً (بالنون) ابنَ الجَون. واسم مولاه فضافِض، وله أيضاً شعر، وكان في الصَّحابة.

أَخبرني الحَرَمي بن أَبي العلاء قال حدثنا الزُّبير بن بَكَّار قال حدثني جعفر بن الحسين المهلَّبي قال:

كان أَبو جعفر المنصور قد أَمر أَصحابه بلُبس السَّواد وقَلانِسَ طِوالٍ تُدعَم بعِيدانٍ من داخلها، وأن يعلِّقوا السُّيوفَ في المناطق، ويكتبوا على ظهورهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. فدخل عليه أَبو دُلامة في هذا الزّيّ. فقال له أَبو جعفر: ما حالُك؟ قال: شرُّ حالٍ، وجهي في نِصفي، وسيفي في إستي، وكتابُ اللَّه وراءَ ظهري، وقد صبغت بالسَّواد ثيابي. فضحك منه وأَعفاه وحدَه من ذلك، وقال له: إيَّاك أَن يَسمَع هذا منك أحد.

ونسختُ من كتابٍ لابن النطَّاح فذكر مِثلَ هذه القصة سواءً وزاد فيها:

وكـنَّـا نـرجّـي مـن إمـام زيـادةً فـجـاد بـطُـولٍ زاده فـي الـقَـلانِـسِ
تَـراهـا عـلـى هـامِ الـرجـال كـأنـهـا دِنـانُ يـهـودٍ جُـلِّـلَـتْ بـالـبـرانـسِ
[الطويل]

فضحك منه وأعفاه.

أَخبرني علي بن سليمان الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد النحوي قال حدثني الجاحظ قال:

كان أَبو دُلامةَ بين يَدَيِ المنصور واقفاً ـ وأَخبرني إبراهيم بن أَيوب عن ابن قُتَيبة أَنه كان واقفاً بين يَدَيِ السفَّاح ـ فقال له: سَلْني حاجتَك. قال أَبو دُلامة: كلبٌ أَتصيَّد به. قال: أعطوه إيَّاه. قال ودابَّةٌ أَتصيّد عليها. قال: أَعطوه. قال: وغلامٌ يَصِيد بالكلب ويقوده. قال: أَعطوه غلاماً. قال: وجاريةٌ تُصلِح لنا الصيد وتُطعِمنا منه. قال: أَعطوه جاريةً. قال: هؤلاء يا أَمير المؤمنين عبيدُك فلا بُدَّ لهم من دارٍ يسكنونها. قال: أَعطوه داراً تجمعهم. قال: فإن لم تكنْ لهم ضَيعةٌ فمن أَين يعيشون! قال: قد أَعطيتُك مائةَ جَريب[1] عامرةً ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: ما لا نبات فيه. فقال: قد أقطعتُك أَنا يا أَمير المؤمنين خمسمائة ألف جَريب غامرةً من فَيافي[2] بني أَسَد. فضحك وقال: اجعلوها كلَّها عامرةً. قال: فأْذَن لي أَن أُقَبِّل يدَك. قال: أَمَّا هذه فدَعها. قال: واللَّه ما منعتَ عيالي شيئاً أقلّ ضرراً عليهم منها. قال الجاحظ: فانْظُر إلى حِذقه بالمسألة ولُطفِه فيها: ابتدأ بكلب فسهَّل القصة به، وجعل يأتي بما يليه على ترتيبٍ وفُكاهةٍ، حتى نال ما لو سأله بديهةً لمَا وصل إليه.

(١) جريب: ثلاثة آلاف وستمائة درع من مساحة الأرض.
(٢) فيافي: مفردها فيف وهي الأرض المستوية.

أَخبرني علي بن سليمانَ الأخفش قال حدثني السُكَّري عن محمد بن حَبيب قال:

اسم أَبي دُلامة زَندٌ بالنون، ومن الناس من يرويه بالياء، وكنّيَ أَبا دُلامة باسم جبلٍ بمكة يقال له أَبو دُلامة، كانت قريش تَئِدُ فيه البنات في الجاهليَّة؛ وهو بأعلى مكة.

وأَخبرني أَحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبَّة، وأَخبرني عمي قال حدثني الكُرانيّ عن العُمَريّ عن الهَيثم قال:

دخل أَبو دُلامة على المنصور فأنشده قصيدتَه التي يقول فيها:

إنَّ الخَليطَ أَجَدَّ البينَ فٱنتجعوا ... وزَوَّدوكَ خَبالاً بئس ما صنعوا
واللَّه يعلم أنْ كادت لِبيّنِهم ... يومَ الفراق حَصاةُ القلب تَنصَدعُ
عجِبتُ من صِبيتي يوماً وأُمِّهمُ ... أُمِّ الدُّلامةِ لمَّا هاجَها الجَزَعُ
لا بارك اللَّه فيها من مُنبِّهةٍ ... هَبَّتْ تَلوم عيالي بعد ما هَجعوا
ونحن مُشتبِهو الألوان أوجهُنا ... سُودٌ قِباحٌ وفي أسمائنا شَنَعُ
إذا تَشَكَّتْ إليَّ الجوعَ قلتُ لها ... ما هاج جُوعَكِ إلَّا الرّيُّ والشِّبَعُ

ـ ويُروَى وهو الجيِّد:

أَذابَكِ الجوعُ مُذ صارت عيالتُنا ... على الخليفة منه الرّيُّ والشِّبَعُ
لا والذي يا أمير المؤمنين قَضى ... لكَ الخلافةَ في أسبابها الرِّفَعُ
ما زِلتُ أُخلِصُها كسبي فتأكلُه ... دوني ودون عيالي ثم تضطجعُ
شَوهاءُ مَشنَأةٌ في بطنها ثَجَلُ[1] ... وفي المفاصل من أوصالها فَدَعُ[2]
ذكَرتُها بكتاب اللَّه حُرمتنا ... ولم تكن بكتاب اللَّه تَنتفعُ
فٱخرَنطَمَت[3] ثم قالت وهي مُغضَبَةٌ ... أأنت تتلو كتابَ اللَّه يا لُكَعُ[4]
أخرُج لِتَبْغِ لنا مالاً ومَزرَعَةً ... كما لجيراننا مالٌ ومُزدَرَعُ
وٱخدَع خليفَتَنا عنها بمسألةٍ ... إنّ الخليفة للسُّؤّال ينخدعُ

[البسيط]

(١) الثجل: عظم البطن واسترخاؤه. (٢) فدع: الإعوجاج والمَيل.
(٣) اخرنطمت: استكبرت وغضبت أشد الغضب.
(٤) لُكع: العبد والأحمق.

فضحك أَبو جعفر وقال: أَرضوها عنّي وٱكتبوا له بمائتي جَريب عامرة ومائتي جريب غامرة ـ وقال الهيثم: بستمائة جَريب عامرة وغامرة ـ فقال له: أَنا أُقطِعك يا أَمير المؤمنين أربعةَ آلاف جَريب غامرة فيما بين الحيرة والنَّجَف، وإن شئتَ زِدْتُك. فضحك وقال: اجعلوها كلَّها عامرة.

حدثني محمد بن أَحمد بن الطَّلَّاس قال حدثنا أَحمد بن الحارث الخرّاز عن المدائني قال:

شهِد أَبو دُلامة بشهادة لجارة له عندَ ابن أبي ليلى على أتانٍ نازعها فيها رجل. فلمَّا فرغ من الشهادة قال: اسمع ما قلتُ فيك قبل أن آتيَك ثم ٱقض ما شئتَ. قال: هات؛ فأنشده:

إن الـنـاسُ غَـطَّـوْنـي تـغـطَّـيـتُ عـنـهـمُ وإن بـحـثـوا عـنّـي فـفـيـهـم مَـبـاحِـثُ
وإن حـفَـروا بـئـري حـفـرتُ بـئـارَهـم لـيُـعـلـمَ يـومـاً كـيـف تـلـك الـنـبـائـثُ

[الطويل]

ثم أَقبل على المرأَة فقال: أَتَبيعينَني الأتان؟ قالت نعم. قال: بكم؟ قالت: بمائة درهم. قال: ادفعوها إليها ففعلوا. وأَقبل على الرجل فقال: قد وهبتُها لك، وقال لأبي دلامة: قد أمضَيتُ شهادتَك ولم أبحث عنك، وٱبتعتُ ممن شَهِدتَ له، ووهبتُ مِلكي لمن رأيتُ. أَرَضِيتَ؟ قال نعم، وٱنصرف.

أَخبرني الحسن بن علي الخفَّاف قال حدثنا أَبو بكر أَحمد بن أَبي خَيثَمة قال حدثنا محمد بن سلَّام عن علي بن إسماعيل قال:

كنتُ أَسقي أَبا دلامة والسيِّد، إذ خرجت بنتٌ لأبي دلامة، فقال فيها أَبو دلامة:

فـمـا ولـدتـكِ مـريـمُ أمُّ عـيـسـى ولا رَبَّـاكِ لُـقـمـانُ الـحـكـيـمُ

[الوافر]

أجِزْ يا أَبا هاشم، فقال السيِّد:

ولـكـن قـد تَـضُـمُّـكِ أُمُّ سَـوءٍ إلـى لَـبَّـاتـهـا وأبٌ لـئـيـمُ

[الوافر]

فضحك لذلك. ثم غدا أبو دلامة إلى المنصور فألفاه في الرَّحبة يُصلِح فيها شيئاً يريده، فأخبره بقصة بنته وأنشده البيتين، ثم ٱندفع فأنشده بعدهما:

لـو كـان يَـعـقُـد فـوق الـشـمـس مـن كـرَم قـومٌ لـقـيـل ٱقـعـدوا يـا آل عـبَّـاسِ
ثـم ٱرتـقُـوا فـي شُـعـاع الـشـمـس كـلُّـكُـمُ إلـى الـسـمـاء فـأنـتـم أظـهـرُ الـنـاسِ

وقدِّموا القائمَ المنصورَ رأسَكم فالعينُ والأنف والأذنان في الراسِ
[البسيط]

فٱستحسنها، وقال له: بأيّ شيء تحبُّ أن أُعِينَك على قُبح ابنتِك هذه؟ فأخرج خريطةً قد كان خاطها من الليل فقال: تملأ لي هذه دراهم، فمُلِئتْ فوسعتْ أربعةَ آلاف درهم.

وقد أَخبرني بهذا الخبر عمي قال حدثنا الكُرانيّ قال حدثنا العُمَريّ عن الهَيثم بن عدِيّ قال:

دخل أَبو عَطاء السِّنديّ يوماً إلى أَبي دلامة فٱحتبسه عنده، ودعا بطعام فأكلا وشبِعا، وخرجتْ إلى أَبي دلامة صبيَّةٌ له فحملها على كتفه، فبالت عليه فنبذها عن كتفه، ثم قال:

بَلَلتِ عليّ ـ لا حُيِّيتِ ـ ثوبي فبال عليكِ شيطانٌ رجيمُ
فما ولَدتك مريمُ أُمُّ عيسى ولا ربَّاكِ لُقمانُ الحكيمُ
[الوافر]

ثم التفت إلى أَبي عطاء فقال له: أجِزْ. فقال:

صدقتَ أبا دلامة لم تلِدها مُطَهَّرةٌ ولا فحلٌ كريمُ
ولكن قد حَوَتها أمُّ سَوء إلى لَبَّاتها وأبٌ لئيمُ
[الوافر]

فقال له أَبو دلامة: عليك لعنةُ اللَّه! ما حملكَ على أن بلغتَ بي هذا كلَّه! واللَّه لا أنازعك بيتَ شعرٍ أبداً. فقال أَبو عَطاء: لَأن يكونَ الهربُ من جهتك أحبُّ إليّ.

أَخبرني محمد بن يحيى قال حدثني عبد اللَّه بن المعتزّ قال حدثني أَبو مالك عبد اللَّه بن محمد قال حدثني أَبي قال:

لمَّا تُوفي أَبو العبَّاس السفَّاح دخل أَبو دلامة على المنصور والناس عنده يُعَزُّونه؛ فأنشأ أَبو دلامة يقول:

أمسَيتَ بالأنبار يابنَ محمدٍ لم تستطع عن عُقرها تحويلا
ويَلي عليك ووَيل أَهلي كلِّهم ويلاً وعَوْلاً في الحياة طويلا
فَلْتَبكِيَنَّ لك النساءُ بعَبرةٍ وليبكينَّ لك الرجال عَويلا
مات النَّدى إذ مُتَّ يابن محمد فجعلتَه لك في الثراء عديلا

إنّـي سـألـتُ الـنـاسَ بـعـدك كـلَّـهـم فـوجـدتُ أسـمـحَ مَـن سـألـتُ بـخـيـلا
أَلِـشِـقـوتـي أُخِّـرتُ بـعـدَك لـلـتـي تَـدَعُ الـعـزيـزَ مـن الـرجـال ذلـيـلا
فَـلأحـلِـفَـنَّ يـمـيـنَ حـقٍّ بَـرَّةً بـالـلَّـه مـا أُعـطِـيـتُ بـعـدَك سُـولا

[الكامل]

قال: فأَبكى الناسَ قولُه. فغضِب المنصورُ غضباً شديداً وقال: لئن سمعتُك تُنشِدُ هذه القصيدةَ لأقطعنّ لسانك. فقال أَبو دلامة: يا أَمير المؤمنين، إنَّ أَبا العبَّاس أميرَ المؤمنين كان لي مُكرِماً وهو الذي جاء بي من البَدْو كما جاء اللَّه بإِخوة يوسف إليه، فقل كما قال يوسف لإِخوته: (لا تَثريبَ عليكم اليومَ يَغفِرُ اللَّه لكم وهو أَرحمُ الرَّاحمين). فسُرّيَ عن المنصور وقال: قد أقلناك يا أَبا دلامة، فسَلْ حاجتَك. فقال: يا أَمير المؤمنين، قد كان أَبو العبَّاس أَمرَ لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبِضها. فقال المنصور: ومَن يعرِف هذا؟ فقال: هؤلاء، وأشار إلى جماعة ممن حضَر. فوثب سليمانُ بن مُجالد وأَبو الجهم فقالا: صدَق أَبو دلامة، نحن نعلم ذلك. فقال المنصور لأبي أيّوب الخازن وهو مَغيظ: يا سليمانُ ٱدفَعها إليه وسيِّرْه إلى هذا الطاغية (يعني عبد اللَّه بن علي، وقد كان خرج بناحية الشام، وأظهر الخلافَ). فوثب أَبو دلامة فقال: يا أمير المؤمنين، إني أُعيذُك باللَّه أَن أخرج معهم، فواللَّه إني لمشؤوم. فقال المنصور: امضِ فإن يُمني يَغلِب شُؤمَك فاخرُج. فقال: واللَّه يا أَمير المؤمنين ما أحِبُّ لك أَن تجرِّب ذلك منِّي على مثل هذا العسكر؛ فإني لا أَدري أيُّهما يَغلِب: أيُمنُك أم شؤمي، إلَّا أَني بنفسي أوثَقُ وأعرَفُ وأطولُ تجربةً. قال: دَعني من هذا فما لك من الخروج بدّ. فقال: إني أَصدُقُكَ الآن، شَهِدتُ واللَّه تسعةَ عشر عسكراً كلُّها هُزِمتْ؛ وكنتُ سببها. فإن شئتَ الآن على بَصيرةٍ أن يكون عسكرُك العشرين فافعَل. فٱستغرب أَبو جعفر ضحِكاً، وأَمره أَن يتخلَّف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

أَخبرني عمي قال حدثنا الكُرانيّ قال حدثني العُمَريِّ عن الهَيثم بن عَدِيّ قال:

لمَّا مات أَبو العبَّاس السفَّاح ووليَ المنصورُ، دخل عليه أَبو دلامةَ، فقال له أَبو جعفر: ألستَ القائلَ لأبي العبَّاس:

وكـنَّـا بـالـخـلـيـفـة قـد عَـقَـدنـا لِـواءَ الأمـر فـٱنـتَـقـض الـلـواءُ
فـنـحـن رَعِـيَّـةٌ هَـلَـكـتْ ضَـيـاعـاً تَـسـوق بـنـا إلـى الـفِـتَـن الـرّعـاءُ

[الوافر]

قال: ما قلت هذا يا أَمير المؤمنين. قال: كذبتَ واللَّه! أَفَلَستَ القائل:

هلَك النَّدى إذ بِنتَ يا ابن محمدٍ ... فجعلتَه لك في التراب عَديلا
ولقد سألتُ الناسَ بعدَك كلَّهم ... فوجدتُ أكرمَ مَن سألتُ بخيلا
ولقد حَلَفتُ على يمينٍ بَرَّةٍ ... باللَّه ما أُعطِيتُ بعدَك سُولا[1]

[الكامل]

فقال أَبو دلامة: إنَّ أَخاك صلَّى اللَّه عليه غلبني على صبري، وسلبني عزيمتي، وعَزَّني بإِحسانه إليّ وجزعي عليه، فقلت ما لم أتأمَّله، وإني أرغب في الثمن فاْستَقْرَهَ السِّلعة حيّاً وميِّتاً. فإن أعطَيتَ ما أعطى، أخذتَ ما أخذ. فأمر به فحُبِس ثلاثاً ثم خَلَّى سبيله ودعاه إليه فوصله، ثم عاد له إلى ما كان عليه.

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني أَحمد بن سعيد الدِّمَشقي قال حدثني أَبو دلامة قال:

أُتي بي المنصورُ أَو المهديُّ وأَنا سكران، فحَلف ليُخْرِجَنّي في بَعثِ حربٍ، فأَخرجني مع رَوح بن حاتم المهلَّبي لقتال الشُّراةِ. فلمَّا التقى الجمعان قلت لرَوح: أَمَا واللَّه لو أَنّ تحتي فرسك ومعي سلاحَك لآثرتُ في عدوّك اليوم أثراً ترتضيه. فضحك وقال: واللَّه العظيم لأدفعنّ ذلك إليك، ولآخذنّك بالوفاء بشرطك. ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إليَّ، ودعا بغيرهما فاستبدل به. فلمَّا حصَل ذلك في يدي وزالت عنّي حلاوة الطمع، قلت له: أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت بيتين فاسمعهما. قال: هاتِ، فأنشدتُه:

إني اْستجرتُك أن أُقدِّم في الوغى ... لِتَطاعُنٍ وتَنازُلٍ وضِرابِ
فهَبِ السُّيوفَ رأيتُها مشهورةً ... فتركتُها ومَضَيتُ في الهُرّابِ
ماذا تقول لما يجيء وما يُرى ... من واردات الموت في النُّشَّابِ

[الكامل]

فقال: دع عنك هذا وستعلم. وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة، فقال: اخرج إليه يا أَبا دلامة. فقلت: أَنشُدكَ اللَّهَ أَيُّها الأمير في دمي. قال: واللَّه لتَخرُجَنّ. فقلت: أيها الأمير فإنه أَوّل يوم من الآخرة وآخرُ يوم من الدنيا، وأَنا واللَّه جائع ما شَبِعَتْ منّي جارحةٌ من الجوع، فَمُرْ لي بشيءٍ آكله ثم أخرُج. فأمر لي برغيفين ودجاجة، فأَخذتُ ذلك وبرزتُ عن الصفّ. فلمَّا رآني الشاري أَقبل نحوي عليه فَروٌ

(١) السُّول: ما سُئل.

وقد أصابَه المطرُ فٱبتلّ، وأَصابته الشمس فٱقفَعلَّ وعيناه تَقِدان، فأسرع إليَّ. فقلت له: على رِسلك يا هذا كما أَنت، فوقف. فقلت: أتقتل مَن لا يُقاتلك؟ قال لا. قلت: أَتقتل رجلاً على دِينك؟ قال لا. قلت: أَفتستحِلُّ ذلك قبل أَن تدعو مَن تقاتله إلى دينك؟ قال: لا، فٱذهب عنّي إلى لعنة اللَّه. قلت: لا أفعل أَو تسمعَ منّي. قال: قل. قلت: هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو تِرَةٌ[1]، وتعرفُني بحالٍ تُحفِظك عليّ، أو تعلم بين أَهلي وأهلك وِتراً؟ قال: لا واللَّه. قلت: ولا أَنا واللَّه لك إلا جميل الرأي، وإني لأهواك وأنتحل مذهبك وأَدِين دينَك وأريد السُوءَ لمن أراد لك. قال: يا هذا جزاك اللَّه خيراً فٱنصرِف. قلت: إنَّ معي زاداً أُحِبُّ أن آكله معك، وأُحِبُّ مُواكلتَك لتتوكَّدَ المودَّةُ بيننا، ويرى أَهلُ العسكر هوانَهم علينا. قال: فٱفعل. فتقدّمتُ إليه حتى ٱختلفتْ أعناقُ دوابِّنا وجمعنا أرجلَنا على مَعارفها والناس قد غُلِبوا ضَحِكاً. فلمَّا ٱستوفَينا ودّعَني. ثم قلت له: إنَّ هذا الجاهلَ إن أَقمتَ على طلب المبارزة ندَبني إليك فتُتْعِبُني وتَتعَبُ. فإن رأيتَ ألَّا تبرُز اليوم فافعل. قال: قد فعلتُ، ثم ٱنصرف وٱنصرفتُ. فقلت لرَوح: أَمَّا أنا فقد كفَيتُك قِرْنِي فقل لغيري أَن يَكفِيَك قِرنَه كما كفَيتُك، فأمسك. وخرج آخر يدعو إلى البراز، فقال لي: اخرج إليه. فقلت:

إنـي أعُـوذُ بـرَوحٍ أَن يـقـدِّمـنـي ... إلـى الـبـراز فـتَـخـزى بـي بـنـو أَسَـدِ
إنَّ الـبـرازَ إلـى الأَقـران أعـلـمُـه ... مـمـا يـفـرّق بـيـن الـروح والـجـسـدِ
قـد حـالـفـتْك الـمـنـايـا إذ صَـمَـدْتَ لـهـا ... وأصـبـحـتْ لـجـمـيـع الـخـلـق بـالـرَّصَـدِ
إنَّ الـمـهـلَّـبَ حُـبُّ الـمـوت أورثَـكـم ... ومـا وَرِثـتُ ٱخـتـيـارَ الـمـوت عـن أحـدِ

[البسيط]

لـو أنّ لـي مـهـجـةً أخـرى لـجـدتُ بـهـا ... لـكـنـهـا خُـلِـقـتْ فَـرداً فـلـم أَجُـدِ

فضحك وأعفاني:

أَخبرني إبراهيم بن أيّوب عن ابن قُتَيبة قال: قال أَبو دلامة:

كنتُ في عسكر مروان[2] أيام زَحف إلى سِنانٍ الخارجيّ. فلمَّا التقى الزَّحفان خرج منهم رجلٌ فنادى: مَن يبارز! فلم يخرج إليه أحدٌ إلَّا أَعجله ولم يُنَهْنِهْه[3]. فغاظ ذلك مروانَ وجعل يندُب الناس على خمسمائة، فقُتِل أصحابُ الخمسمائة، فزاد

(١) التِّرة: الكُره.
(٢) مروان: هو آخر خلفاء بني أميَّة مروان بن محمّد الملقب بالحِمار.
(٣) ينهنهه: يزجره ويكفّه.

مروانُ وندبهم على ألفٍ، ولم يزل يَزيدهم حتى بلغ خمسةَ آلاف درهم. وكان تحتي فرس لا أخاف خَونَه؛ فلمَّا سمعتُ بالخمسة آلاف ترقّبته وٱقتحمتُ الصَّفَّ. فلمَّا نظرني الخارجيُّ علِم أني خرجتُ للطمع؛ فأقبل إليَّ مُتهيِّئاً وإذا عليه فَروٌ قد أصابه المطر فٱبتلّ، ثم أصابتْه الشمسُ فٱقفعلّ، وإذا عيناه تَقِدانِ كأنَّهما من غَورهما في وَقبَين[1]. فلمَّا دنا منّي أَنشأ يقول:

وخـارجٍ أخـرجـه حُـبُّ الـطَّـمَـعْ فَـرّ مـن الـمـوت وفـي الـمـوت وَقَـعْ
مَـن كـان يَـنـوي أهـلـه فـلا رَجـعْ

[الرجز]

فلمَّا وقَرتْ في أُذُني ٱنصرفتُ عنه هارباً. وجعل مروانُ يقول: مَن هذا الفاضحُ؟ ايتوني به، فدخلتُ في غِمار الناس فنجَوتُ.

أَخبرني الحسن بن علي قال حدثني أَحمد بن سعيد قال حدثنا الزُّبَير قال حدثنا جعفر بن الحُسين اللِّهْبيّ قال:

عزم موسى بن داود بن عليّ الهاشميّ على الحج. فقال لأبي دلامة: احجُج معي ولك عشرةُ آلاف درهم. فقال: هاتِها؛ فدُفعتْ إليه، فأخذها وهرب إلى السَّواد، فجعل يُنفِقها هناك ويَشرَب بها الخمر. فطلبه موسى فلم يقدِر عليه، وخشِي فَوتَ الحج فخرج. فلما شارف القادسيَّةَ إذا هو بأبي دلامة خارجاً من قرية إلى أخرى وهو سكرانُ، فأمر بأخذه وتَقييده وطَرحِه في مَحمِلٍ بين يديه ففُعِل ذلك به. فلمَّا سار غيرَ بعيد أقبل على موسى وناداه:

يـا أيُّـهـا الـنـاسُ قـولـوا أجـمـعـون مـعـاً صـلَّـى الإلٰـه عـلـى مـوسـى بـن داودِ
كـأنّ دِيـبـاجـتَـيْ خـدّيـه مـن ذهـبٍ إذا بـدا لـك فـي أثـوابـه الـسُّـودِ
إنّـي أَعـوذ بـداودٍ وأَعـظِـمُـه مـن أَن أُكَـلَّـف حَـجّـاً يـا ابـن داودِ
خُـبِّـرتُ أنَّ طـريـقَ الـحـجّ مَـعْـطَـشَـةٌ مـن الـشـراب ومـا شـربـي بـتَـصـريـدِ[2]
والـلَّـهِ مـا فـيَّ مـن أَجـرٍ فـتـطـلـبـه ولا الـثـنـاءُ عـلـى ديـنـي بـمـحـمـودِ

[البسيط]

فقال موسى: ألقُوه لعنه اللَّهُ عن المَحمِل ودعوه ينصرفُ، فأُلقيَ وعاد إلى قَصفه بالسَّواد، حتى نَفِدتِ العشرةُ آلافِ درهم.

(١) الوقب: نقب في الجبل يجتمع فيه الماء.
(٢) التصريد: القطع والهجر.

أَخبرني الحَرميّ بن أَبي العلاء قال حدثنا الزُّبَير عن جعفر بن الحسين اللِّهبيّ، وأَخبرني عمي عن الكُرانيّ عن العُمَري عن الهَيثم بن عَدِيّ قالا:

قال أَبو أيّوب المُورِيانيّ لأبي جعفر، وكان يَشنأ أَبا دلامةَ: إنَّ أَبا دلامة معتكفٌ على الخمر فما يحضُر صلاةً ولا مسجداً، وقد أفسد فِتيانَ العسكر. فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرتَ فيه وفي غيره من فِتيان عسكرك بقَطْعِه عنهم. فلمَّا دخل عليه أَبو دلامة قال له: يا ابنَ اللَّخناء، ما هذا المُجون الذي يبلغني عنك! قال أَبو دلامة: يا أَمير المؤمنين ما أَنا والمجونَ وقد شارفتُ بابَ قبري! قال: دعني من ٱستكانتك وتَضرُّعِك، وإيَّاك أَن تفوتَك صلاةُ الظهرِ والعصر في مسجدي. فلئن فاتتاكَ لأُحسِنَنَّ أدبَك ولأُطيلنَّ حَبسَك. فوقع في شرٍّ ولَزِم المسجدَ أيَّاماً، ثم كتب قِصَّتَه ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه، وكان فيها:

ألم تَعلَمَا أنّ الخليفةَ لَزَّني[1] بمسجده والقصر ما لي وللقصرِ!
أصَلّي به الأولى جميعاً وعصرَها فوَيلي من الأولى ووَيلي من العصرِ
أصَلِّيهما بالكَرْهِ في غير مسجدي فما ليَ في الأولى ولا العصرِ من أجرِ
لقد كان في قومي مساجدُ جَمَّةٌ سواه ولكن كان قَدراً من القَدرِ
يكلِّفني من بعد ما شِبتُ خُطَّةً يَحُطُّ بها عنّي الثقيلَ من الوِزْرِ
وما ضَرَّه واللَّه يغفر ذَنبه لَوَ ٱنّ ذنوبَ العالمين على ظهري

[الطويل]

قال: فلمَّا قرأ المنصور قصَّته ضحك وأعفاه من الحضور معه، وأحلَفه أن يُصلّيَ الصلاة في مسجد قبيلته.

أَخبرنا محمد بن العبَّاس اليزيدي قال حدثنا أَحمد بن سعيد عن الزُّبير عن عمه، ونسختُ من بعض الكتب عن نصر بن محمد الخَرّاز عن أَبيه عن الهَيثم بن عَدِيّ ورَوّانيه بعضُ من روى عن الزبير.

أَنّ أَبا جعفر كان يُحبُّ العَبَثَ بأبي دُلامة ـ وقال الآخر: إنَّ أَبا العبَّاس السَّفَّاح كان يحب ذلك ـ فكان يسأل عنه فيوجَد في بيوت الخَمَّارين لا فَضلَ فيه. فعاتبه على انقطاعه عنه؛ فقال: إنما أفعل ذلك خوفاً أن تَمَلَّني. فعلم أنه يُحاجِزُه[2]، فأمر الربيعَ أَن يوكِّل به من يحضِره الصلواتِ معه في جماعةٍ في الدار. فلمَّا طال ذلك عليه قال:

(١) لزَّني: جبرني وألزمني.
(٢) يحاجزه: يخترع الحجج، وينتحل المعاذير الكاذبة لانقطاعه عنه.

ألم تَرَيَا أنّ الخليفةَ لَزَّني ... بمسْجده والقصرِ ما لي وللقصر!
فقد صَدَّني عن مسجدٍ أستَلِذُّه ... أُعَلَّلُ فيه بالسَّماع وبالخمر
وكلَّفني الأولى جميعا وعصرَها ... فوَيلي من الأولى ووَولي من العصر
أُصَلِّيهما بالكَرهِ في غير مسجدي ... فما لي من الأولى ولا العصر من أجر
يكلِّفني من بعد ما شِبتُ تَوبَةً ... يَحُطُّ بها عنّي المثاقيل من وِزري
لقد كان في قومي مساجدُ جَمَّةٌ ... ولم ينشرح يوماً لغِشيانها صدري
ووالَّلهِ ما لي نِيَّةٌ في صلاته ... ولا البِرُّ والإحسانُ والخير من أَمري
وما ضَرَّه واللَّهُ يغفر ذنبَه ... لَوَ انّ ذنوبَ العالمين على ظَهري

[الطويل]

فبلغته الأبيات فقال: صدَق! ما يَضُرُّني ذلك، واللَّهِ لا يصلُح هذا أَبداً، فدَعوه يعمل ما يشاء. وقال الهَيثم في خبره: فقال له أَبو جعفر: قد أَعفَيناك من هذه الحال، ولكن على ألَّا تَدَعَ القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظلَّ[1]. فقال: أفعَلُ. قال: إنك إن تأَخَّرتَ لشُرْب الخمر عَلِمتُ ذلك. ووالَّلهِ لئن فعلتَ لأَحُدَّنَّك[2]. فقال أَبو دلامة: البليَّةُ في شهر أصلَحُ منها في طول الدهر، سمعاً وطاعةً. فلمَّا حضَر شهرُ رمضان لزم المسجدَ. وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حَرَسِيّاً يجيء به؛ فشَقَّ ذلك عليه، وفزع إلى الخَيزُران وأَبي عُبَيد اللَّه وكل مَن كان يلوذ بالمهدي ليشفَعوا له في الإعفاء من القيام، فلم يُجب بهم. فقال له أَبو عُبَيد اللَّه: الدَّالُّ على الخير كفاعله، فكيف شُكرُك؟ قال: أتمُّ شكر. قال: عليك برَيطةَ[3] فإنَّه لا يخالفها. قال: صدَقتَ واللَّه، ثم رفَع إليها رُقعةً يقول فيها:

أبلغا رَيطةَ أنّي ... كنتُ عبداً لأبيها
فمضى يرحمه اللَّـ ... ـه وأوصى بي إليها
وأراها نَسِيَتني ... مِثلَ نِسْيانِ أَخيها
جاء شهر الصَّوم يمشي ... مِشيَةً ما أَشتهيها
قائداً لي ليلةَ القَد ... رِ كأنّي أبتغيها
تَنطَحُ القِبلةَ شهراً ... جَبهَتي لا تأتليها

(١) أظلَّ: أقبل وأصبح مشرفاً.
(٢) أحُدَّنك: أضربك حدَّ الخمر.
(٣) ريطة: زوجة الخليفة المهدي وابنة الخليفة أبي العباس السفاح.

ولـقـد عـشـتُ زمـانـاً فـي فـيـافـيَّ وجـيـهـا
فـي لـيـالٍ مـن شـتـاءٍ كـنـت شـيـخـاً أصـطَـلـيـهـا
قـاعـداً أُوقِـدُ نـاراً لِـضِـبـابٍ أشـتَـويـهـا
وصَـبـوحٍ وغَـبـوقٍ فـي عِـلابٍ[1] أحـتَـسـيـهـا
مـا أبـالـي لـيـلـةَ الـقَـد ر ولا تُـسـمِـعُـنِـيـهـا
فـاْطـلـبـي لـي فـرجـاً مـنـ ـهـا وأَجـري لـكِ فـيـهـا

[مجزوء الرمل]

فلمَّا قرأتِ الرُّقعةَ ضحكت وأَرسلت إليه: اصطبر حتى تمضيَ ليلةُ القَدر. فكتب إليها: إني لم أَسألكِ أَن تكلِّميه في إعفائي عاماً قابلاً؛ وإذا مضت ليلة القدر فقد فَنِيَ الشهرُ. وكتب تحتها أَبياتاً:

خـافـي إلٰـهـكِ فـي نـفـسٍ قـد اْحـتُـضِـرَتْ قـامـت قـيـامـتـهـا بـيـن الـمـصـلِّـيـنـا
مـا لـيـلـةُ الـقَـدرِ مـن هَـمّـي فـأطـلُـبَـهـا إنـي أَخـاف الـمـنـايـا قـبـل عـشـريـنـا
يـا لـيـلـةَ الـقـدرِ قـد كَـسَّـرْتِ أَرجُـلـنـا يـا لـيـلـةَ الـقـدر حـقّـاً مـا تُـمَـنِّـيـنـا!؟
لا بـارك الـلَّـه فـي خـيـرٍ أؤمِّـلُـه فـي لـيـلـةٍ بـعـد مـا قـمـنـا ثـلاثـيـنـا

[البسيط]

فلمَّا قرأتِ الأبيات ضحكتْ، ودخلت إلى المهدي فشفَعتْ له إليه، وأَنشدته الشعرين، فضحك حتى اْستلقى، ودعا به وريطةُ معه في الحَجَلَة[2] فدخل؛ فأخرج رأسَه إليه وقال: قد شفَّعنا رَيطة فيك، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم. فقال: أمَّا شفاعةُ سيِّدتي فيَّ حتى أعفَيتَني فأعفاها اللَّه من النار. وأَمَّا السبعة الآلاف فما أعجبني ما فعلتَه؛ إمَّا أن تُتِمَّها بثلاثة آلاف فتصيرَ عشرة، أَو تَنقُصَني منها أَلفين فتصير خمسة آلاف، فإني لا أحسِنُ حسابَ السبعة. فقال: قد جعلتُها خمسة. قال: أعيذك باللَّه أَن تختار أدنى الحالين وأَنت أَنتَ. فعبِث به المهديُّ ساعةً ثم تكلَّمتْ فيه رَيطة فأتمها له عشرةَ آلافِ درهم.

أَخبرني الحسين بن علي عن حَمَّاد عن أَبيه قال:

مرَّ أَبو دلامة بنَخَّاس يَبيع الرقيقَ، فرأى عنده منهنّ من كل شيء حَسَن، فانصرف مهموماً، فدخل إلى المهدي فأنشده:

(١) العِلاب: مفردها علبة، وهي قدح ضخم من جلود الإبل أو من الخشب يحفظ فيها الخمر والعسل والخل...

(٢) الحَجَلة: بيت مزيَّن بالأسرَّة والستور.

إن كنتَ تَبغي العيشَ حُلْواً صافياً ... فالشعرَ أَعزِبه وكن نَخَّاسا[1]
تَنَلِ الطَّرائفَ من ظِراف نُهَّدٍ ... يُحدِثنَ كلَّ عَشِيَّةٍ أَعراسا
والربحُ فيما بين ذلك راهنٌ ... سَمْحاً يبيعك كنتَ أَو مكَّاسا[2]
دارتْ على الشعراء حِرْفةُ نَوبةٍ ... فتجرَّعوا من بعد كأسٍ كاسا
وتَسَربَلوا قُمُصَ الكَسادِ فحاوِلوا ... بالنَّخْس كَسباً يُذهِب الإفلاسا

[الكامل]

فجعل المهدي يضحك منه.

لفق رؤياً للمنصور وأخذ منه ثياباً:

نسختُ من كتاب ابن النطَّاح قال:

دخل أَبو دلامة على المنصور فأنشده:

رأيتُك في المنام كسوتَ جِلدي ... ثياباً جَمَّةً وقضَيْتَ دَيني
فكان بَنَفسَجيُّ الخَزِّ فيها ... وساجٌ[3] ناعمٌ فأتمَّ زَيني
فصدِّق يا فَدَتك النفس رؤيا ... رأتها في المنام كذاك عَيني

[الوافر]

فأمر له بذلك وقال له: لا تَعُدْ أَن تتحلَّم عليَّ ثانيةً، فأجعَلَ حُلمَك أضغاثاً ولا أُحَقِّقه.

حبسه المنصور لسكره فبعث له من الحبس شعراً فعفا عنه:

ثم خرج من عنده ومضى فشرب في بعض الحانات فسكِر وٱنصرف وهو يميل. فلقِيه العَسَسُ فأخذوه، وقيل له: من أَنت وما دينُك؟ فقال:

ديني على دين بني العبَّاسِ ... ما خُتِم الطينُ على القِرطاسِ
إنِّي ٱصطبحتُ أربعاً بالكاس ... فقد أدار شُربُها براسي
فهل بما قلتُ لكم من باسِ

[الرجز]

فأخذوه ومَضَوا، وخرقوا ثيابه وساجَه وأُتيَ به أَبو جعفر ـ وكان يؤتَى بكلِ مَن

(١) نخَّاساً: هو بيَّاع الدوابّ والرقيق.
(٢) مكَّاساً: صاحب المَكس، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية.
(٣) الساج: الطيلسان الأخضر.

أَخذه العَسَسُ[١] ـ فحبسه مع الدّجاج في بيت. فلمَّا أَفاق جعل ينادي غلامَه مرَّةً وجاريتَه أخرى فلا يجيبه أَحد، وهو في ذلك يسمع صوتَ الدَّجاج وزُقاءَ الدُّيوك. فلمَّا أكثر قال له السَّجَّان: ما شأنك؟ قال: ويَلك مَن أنتَ وأَين أَنا؟ قال: في الحبس، وأَنا فلان السَّجَّانُ. قال: ومَن حبَسني؟ قال: أَمير المؤمنين. قال: ومَن خرَقَ طَيلساني؟ قال: الحَرَس. فطلب منه أَن يأتيَه بنواةٍ وقِرطاس ففعل، فكتب إلى أَبي جعفر:

أَمِيرَ المُؤمنين فدَتك نفسي ... عَلامَ حبستَني وخَرَقتَ ساجي
أَمِنْ صَفراءَ صافيةِ المِزاجِ ... كأنّ شُعاعَها لَهَبُ السِّراجِ
وقد طُبِخَتْ بنار اللَّه حتى ... لقد صارت من النُّطَفِ النِّضاجِ
تَهَشُّ لها القلوب وتشتهيها ... إذا بَرَزَتْ تَرَقرَقُ في الزُّجاجِ
أُقاد إلى السُّجون بغير جُرْمٍ ... كأَنّي بعضُ عُمَّال الخَراجِ
ولو معهم حُبِستُ لكان سهلاً ... ولكنّي حُبِستُ مع الدَّجاجِ
وقد كانت تُخَبِّرُني ذنوبي ... بأني من عِقابك غيرُ ناجي
على أَنِّي وإن لاقيتُ شرّاً ... لخيرك بعد ذاك الشرِّ راجي

[الوافر]

فدَعا به وقال: أين حُبِستَ يا أَبا دلامة؟ قال: مع الدّجاج، قال: فما كنت تصنع؟ قال: أَقوقي معهنَّ حتى أصبحتُ. فضحِك وخَلَّى سبيله وأمر له بجائزة. فلمَّا خرج قال له الرَّبيع: إنه شرِب الخمرَ يا أمير المؤمنين. أَمَا سمعتَ قولَه «قد طبخت بنار اللَّه» (يعني الشمس). فأمر بردّه ثم قال: يا خبيث شربتَ الخمرَ؟ قال لا. قال: أَفلم تقل «طُبِختْ بنار اللَّه» تعني الشمس. قال: لا واللَّه ما عنَيتُ إلَّا نارَ اللَّه المُوقَدة التي تَطَّلِعُ على فؤاد الرَّبيع. فضحك وقال: خُذْها يا ربيع ولا تعاود التعرُّضَ.

لفّق رؤيا لتمَّار وأخذ منه تمراً:

قال ابن النطَّاح: ومَرَّ أبو دلامة بتَمَّار بالكوفة فقال له:

رأيتُك أطعمتني في المنامِ ... قَواصر[٢] من تمرِك البارحَهْ
فأمُّ العيال وصِبيانُها ... إلى الباب أعينُهم طامحَهْ

[المتقارب]

(١) العَسَسُ: مفردها عاسّ، وهو الحارس الليليّ.
(٢) قواصر: مفردها قوصرة، وهي وعاءٌ من قصب يرفع فيه التمر من البارية.

فأعطاه جُلَّتَيْ[١] تَمر وقال له: إن رأيتَ هذه الرؤيا ثانيةً لم يَصِحَّ تفسيرُها فأخذهما وٱنصرف.

وقال ابن النطَّاح:

لمَّا قدِم المهديّ من الرِّيِّ دخل عليه أبو دلامةَ فأنشأ يقول:

إني نذَرتُ لئن رأيتُك سالماً ... بقُرَى العراق وأنت ذو وَفْرِ
لتُصَلِّيَنَّ على النبيّ محمدٍ ... ولتملأنَّ دراهماً حِجري

[الكامل]

فقال ﷺ، وأمَّا الدراهم فلا. فقال له: أنت أكرمُ من أن تُفَرِّق بينهما ثم تختارَ أسهلهما. فأمر بأن يُملأ حِجرُه دراهم.

ومِثلُ هذا وإن لم يكن منه ما حدثني به الحسنُ بن عليّ عن أحمد بن الحارث عن المدائنيّ قال:

قدِم المُهلَّبُ من بعض غَزَواته، فَلَقِيَتْه عجوزٌ من الأزد فقالت: أيُّها الأمير، أسألك باللَّه والرَّحِم إلَّا وقفتَ فوقَف. فدنَتْ وقبَّلت يدَه وقالت: هذا نَذرٌ كان عليّ، إني نذرتُ عليّ للَّه أن أُقبِّل يدك إن قدِمتَ سالماً وتَهَبَ لي أربعمائة درهم وجاريةً صُغديَّةً[٢] تخدُمني. فضحك وقال: أمَّا نحن فقد وَفَّينا بنَذرِك؛ ادفعوا إليها ذلك، وإيَّاكِ يا أُمَّاه وهذه النُّذورَ؛ فليس كلُّ أحد يَفي لكِ بها ويَنشَط لتحليلكِ منها.

قال ابن النطَّاح:

وصام الناس في سنة شديدة الحرّ على عهد المهديّ، وكان أبو دلامة يتنجِّزُ جائزةً أمر له المهديّ بها. فكتب إليه أبو دلامة رُقعةً يشكو فيها أذى الحرّ والصوم وهي:

أدعوك بالرَّحِم التي هي جَمَّعَتْ ... في القُرب بين قَريبنا والأبعَدِ
إلَّا سمعتَ وأنت أكرمُ مَن مَشى ... من مُنشِدٍ يرجو جزاءَ المُنشِدِ
جاء الصيامُ فصُمتُه متعبِّداً ... أرجو رجاءَ الصائم المتعبِّدِ
ولَقيتُ من أَمر الصيام وحَرِّه ... أمرين قِيسا بالعذاب المؤصَدِ[٣]

(١) جُلَّتي تمر: قُفّتين كبيرتين من التّمر.
(٢) صُغديَّة: صُغد هو موضع بسمرقند، وهو موضع ببخارى، وصغدية نسبة إلى هذه المواضع.
(٣) المؤصَدِ: المطبق.

وسجدتُ حتى جَبهَتي مشجوجةٌ ... ممَّا يُناطحني الحَصَا في المسجدِ
فأمنُنْ بتسريحي بمطلِك بالذي ... أسلَفْتَنيهِ من البلاء المُرصَدِ
[الكامل]

فلمَّا قرأ المهدي رُقعَتَه غضب وقال: يا عاضَّ كذا من أمّه أيُّ قَرابةٍ بيني وبينكَ؟! قال: رَحِمُ آدمَ وحَوَّاء، أَنسيتَهما يا أَميرَ المؤمنين! فضحك وقال: لا واللَّه ما نسيتُهما؛ وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه. وأخبرني بهذا الخبر الحسن بن علي قال حدثنا الخُزاعيّ عن المدائنيّ وزاد فيه قال: وأنشده أيضاً في ذمِّ الصَّوم.

هل في البلاد لرزق اللَّه مُفتَرَشُ ... أم لا ففي جِلده من خُشنَةٍ بَرَشُ
[البسيط]

ـ يعني أنَّ جِلدَ الرّزق خَشِن المَلمَس فهو يُحترش[1] كما يُحترش الضَبُّ ـ الشِّعر:

أضحى الصيامُ مُنيخاً وَسطَ عَرْصتِنا ... ليت الصيامَ بأرض دونَها حَرَشُ[2]
إن صُمْتُ أوجَعَني بطني وأفلَقني ... بين الجوانح مَسُّ الجوع والعَطَشُ
وإن خرجتُ بليلٍ نحوَ مسجدهم ... أضرَّني بَصَرٌ قد خانه العَمَشُ[3]
[البسيط]

عزى أم سلمة بنت يعقوب في السفاح فأضحكها:

أَخبرني محمد بن العباس اليزيديّ عن أحمد بن زُهَير عن الزُّبير عن عمه، ونسخت من كتاب ابن النطَّاح قال اليزيديّ في خبره:

دخل أبو دلامةَ على ريَطةَ بعد وفاة المهدي، وقال ابن النطَّاح: دخل على أمِّ سَلَمةَ بنتِ يعقوب بن سَلمة بعد وفاة أبي العبَّاس، وهو الصحيح، فعزَّاها به وبكى وبكتْ معه، ثم أنشدها:

مَن مُجمِلٌ في الصبر عنكَ فلم يكن ... صبري عليكَ غَداةَ بِنتَ جميلا
يجدون أَبدالاً به وأنا امرؤٌ ... لو مُتُّ وَجداً ما وجدتُ بديلا
إنّي سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم ... فوجدتُ أجوَدَ مَن سَألتُ بخيلا
[الكامل]

---

(١) يُحترش: يُصاد.
(٢) حَرَش: الخشونة والغِلظة.
(٣) العمش: ضعف البصر مع سيلان الدّمع من العين في معظم الأوقات.

فقالت أمُّ سَلمة: لم أرَ أحداً أُصِيب به غيري وغيرَك يا أبا دلامة. فقال: ولا سَواءً يرحَمُكِ اللَّه، لك منه ولد وما ولدتُ أنا منه. فضحكتْ ـ ولم تكن منذ مات أبو العباس ضحِكتْ إلا ذلك الوقتَ ـ وقالت له: لو حدّثتَ الشيطانَ لأضحكتَه.

أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال حدثنا الغَلَابيّ قال حدثنا عبد اللَّه بن الضحَّاك قال:

دخل أبو دلامة على المهدي وهو يبكي. فقال له: مالك؟ قال: ماتت أمّ دلامة، وأنشده لنفسه فيها:

وكنَّا كزَوجٍ من قَطاً في مفَازةٍ ... لدى خَفضِ عَيشٍ ناعمٍ مُؤنِقٍ رَغدِ
فأفردني رَيبُ الزمانِ بصَرفه ... ولم أرَ شيئاً قطُّ أوحَشَ من فَردِ

[الطويل]

فأمر له بثيابٍ وطيبٍ ودنانير، وخرج. فدخلتْ أُمُّ دلامة على الخيزُران فأعلمتها أنَّ أَبا دلامة قد مات، فأعطتها مِثلَ ذلك، وخرجتْ. فلمَّا التقى المهدي والخَيزُران عَرَفا حيلتَهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجَبان منه.

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبَّة، ونسختُ أنا من كتاب ابن النطَّاح قال:

دخل أبو دلامة على المنصور وأنشده:

أمَا ورَبِّ العادياتِ[١] ضَبحَا[٢] ... حقّاً ورَبِّ المُورِياتِ قَدْحَا
إنّ المُغيراتِ عليَّ صُبحَا ... والناكئاتِ[٣] من فؤادي قَرحَا
عَشْرُ ليالٍ بينهن ضبحا ... يَجلُفن[٤] مالي كلَّ عامٍ صبحَا

[الرجز]

فقال له أبو جعفر: وكم تذبح يا أبا دلامة؟ قال: أربعاً وعشرين شاة. ففرض له على كل هاشميّ أربعةً وعشرين ديناراً، فكان يأخذها منهم. فأتى العباسَ بنَ محمد في عَشْر الأضحى يتنجَّزها[٥]. فقال: يا أبا دلامة، أليس قد مات ابنُك؟ قال بلى.

---

(١) العاديات: الخيل السريعة الجري.
(٢) الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت وهو دون الصهيل والحمحمة.
(٣) النَّاكئات: المخلفات العهد.
(٤) يَجلِفْن: يستأصلن.
(٥) يتنجّزها: يطلب الجائزة.

قال: ٱنقُصُوه دينارين. قال: أصلَح اللَّه الأميرَ لا تفعل، فإنه ترك عليّ ولدين. فأبى إلَّا أن يَنقُصَه. فخرج وهو يقول:

أخـطـاك مـا كـنـتَ تـرجـوه وتـأمُـلُـه ... فـاغـسِـلْ يـديـك مـن الـعـبـاس بـالـيـاسِ
وٱغـسِـلْ يـديـك بـأُشـنـانٍ[1] فـأنـقِـهـمـا ... مـمـا تـؤمِّـل مـن مـعـروف عـبَّـاسِ
جـزاك ربُّـك يـا عـبَّـاسُ عـن فَـرَجٍ ... جَـنَّـاتِ عَـدْنٍ وعـنّـي جُـرْزَتـيْ[2] آسِ

[البسيط]

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك، وٱغتاظ على العبَّاس، وأمره بأن يبعث إليه بأربعة وعشرين ديناراً أخرى. هذه رواية يزيد. وأمَّا ابنُ النطَّاح فإنه ذكر أن الذي نقصه الدينارين عليُّ بن صالح وقال له: إنما نَقَصتُك دينارين لموت ابنك دلامة. فحلف ألَّا يأخذ إلَّا خمسين ديناراً، ثم قام مُغضَباً؛ فأَتْبعه الرسولَ فأعطاه إيَّاها. فقال له: أَوْلى له. أمَّا ما سبق فلا حيلةَ فيه، والمستأنَفُ فقد أمِنه. وقد كان قال فيه:

لـعـلـيِّ بـن صـالـح بـن عـلـيٍّ ... نَـسَـبٌ لـو يُـعـيـنـه بـسَـمـاحِ
وبـنـو مـالـكٍ كـثـيـرٌ ولـكـن ... مـا لـنـا فـي بـقـائـهـم مـن فَـلَاحِ
غـيـرَ فَـضـلٍ فـإنَّ لـلـفـضـل فـضـلاً ... مـسـتـبـيـنـاً عـلـى قُـرَيـشِ الـبِـطـاحِ

[الخفيف]

أَخبرني محمد بن أحمد عن محمد بن العبَّاس اليزيديّ قال حدثنا أحمد بن الحارث الخرّاز عن المدائنيّ قال:

خاصم رجلٌ أبا دلامة في داره، فٱرتفعا إلى عافيةَ القاضي؛ فأنشأ أبو دُلامة يقول:

لـقـد خـاصـمـتْـنـي دُهـاةُ الـرجـالِ ... وخـاصـمـتُـهـا سـنـةً وافـيـهْ
فـمـا أَدحـض الـلَّـه لـي حُـجَّـةً ... ولا خـيَّـب الـلَّـه لـي قـافـيَـهْ
ومَـن خِـفـتُ مـن جَـوره فـي الـقـضـاء ... فـلـسـتُ أخـافُـك يـا عـافـيَـهْ

[المتقارب]

فقال له عافيةُ: أمَا واللَّهِ لأشكونَّك إلى أمير المؤمنين ولأُعلمنَّه أنك هَجَوتَني. قال: إذاً يَعزِلك. قال: ولِمَ؟ قال: لأنك لا تعرف المديح من الهجاء. فبلغ ذلك المنصورَ فضحك وأمر لأبي دلامة بجائزة.

(١) الأشنان: نوع من الغَسول للأيدي.
(٢) جُرْزتي آس: حزمتين من الريحان.

أمره المهدي بهجاء أحد الحضور فهجا نفسه:

أخبرني محمد بن أحمد عن أحمد بن الحارث عن المدائنيّ قال:

دخل أَبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعبَّاس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم. فقال له: أنا أعطي اللَّه عهداً لئن لم تَهْجُ واحداً ممن في البيت لأقطعنّ لسانك ـ ويقال إنه قال: لأضربنّ عُنُقك ـ فنظر إليه القوم، فكلَّما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه. قال أَبو دلامة: فعلمتُ أنّي قد وقعتُ وأنها عَزْمَةٌ من عَزَماته لا بدَّ منها، فلم أرَ أحداً أحقَّ بالهجاء منّي، ولا أَدعى إلى السلامة من هجاء نفسي، فقلت:

أَلَا أبـلِـغ إلـيـك أَبـا دُلامَـهْ ... فـلـيـس مـن الـكـرام ولا كـرامَـهْ
إذا لـبِـس الـعـمـامـةَ كـان قِـرداً ... وخِـنـزيـراً إذا نـزَع الـعِـمـامَـهْ
جـمـعـتَ دَمـامـةً وجـمـعـتَ لـؤماً ... كـذاك الـلُّـؤم تـتـبَـعـه الـدَّمـامَـهْ[1]
فـإن تـك قـد أصـبـتَ نـعـيـمَ دُنـيَـا ... فـلا تَـفـرَحْ فـقـد دنَـتِ الـقـيـامَـهْ

[الوافر]

فضحك القوم ولم يبق منهم أحدٌ إلَّا أجازه.

أَخبرني الحرميّ بن أبي العلاء قال حدثنا الزُّبير عن عمه قال:

خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصَّيد، فسنَح لهما قطيعٌ من ظِباء، فأُرسِلتِ الكلابُ وأُجريت الخيلُ، فرمى المهديُّ ظبياً بسهم فصرعه، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله. فقال أبو دلامة:

قـد رمـى الـمـهـديّ ظـبـيـاً ... شَـكَّ بـالـسـهـم فُـؤادَهْ
وعـلـيٌّ بـن سـلـيـمـان رمـى كـلـبـاً فـصـادَه
فـهـنـيـئـاً لـهـمـا كـلٌّ امـرئ يـأكـل زادَه

[مجزوء الرمل]

فضحك المهدي حتى كاد أن يسقط عن سَرجه، وقال: صدَق واللَّه أبو دلامة، وأمر له بجائزة سنيَّة. أخبرني بهذا الخبر عمي عن الكرانيّ عن العُمَريّ عن الهَيثم بن عَدِيّ فذكر مثلَ ما ذكره وقال فيه: فلُقِّب عليٌّ بن سليمان «صائد الكلب» وعَلِق به.

قال ابنُ النطَّاح: وأنشد أَبو دُلامة المنصورَ يوماً:

---

(١) الدَّمامة: الإساءة.

هـاتـيـك والـدتـي عـجـوزٌ هِـمَّـةٌ[١] مثلُ البليَّة درعُها في المِشْجَبِ[٢]
مهزولَةُ اللَّحيَيْن[٣] من يَرَها يَقُلْ أبصرتُ غُولاً أو خيالَ القُطرُبِ[٤]
ما إن تركتُ لها ولا لأبٍ لها مالاً يؤمَّل غيرَ بَكرٍ أجرَبِ[٥]
ودجائجاً خمساً يَرُحنَ إليهمُ لمَّا يَبِضْنَ وغيرَ عَيرٍ مُغرِبِ[٦]
كتبوا إليّ صحيفةً مطبوعةً جعلوا عليها طِينةً كالعَقرَبِ
فعلِمتُ أنَّ الشَّرَّ عند فَكاكِها ففكَكْتُها عن مِثلِ ريح الجَورَبِ
وإذا شبيهٌ بالأفاعي رُقِّشَتْ يُوعِدْنَني بتلمُّظٍ[٧] وتَثَؤُّبِ
يشكون أنَّ الجوعَ أهلك بعضَهم لَزَبا[٨] فهل لك في عيالٍ لُزَّبِ
لا يسألونك غيرَ طَلّ سَحابةٍ تغشاهمُ من سَيلِك المُتَحَلِّبِ
يا باذلَ الخيراتِ يابنَ بَذولها وابنَ الكرام وكلّ قَرْمٍ مُنجِبِ
أنتم بنو العبَّاس يُعلَم أنّكم قِدماً فوارسُ كلّ يومٍ أشهَبِ
أَحلاس[٩] خيلِ اللَّه وهي مُغيرةٌ يَخرُجنَ من خَلَلِ الغُبارِ الأكهَبِ[١٠]

[الكامل]

قال: فأمر له بدارٍ يسكنها وكُسوة ودراهم. وكانت الدار قريبةً من قصره، فأمر بأن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجة دعته إليها. فدخل عليه أبو دُلامة فأنشده قولَه:

يا ابنَ عمّ النبيِّ دعوة شيخ قد دنا هَدْمُ دارِه ودَمارُهْ
فهو كالماخض التي أعتادها الطَّلْقُ فقَرَّتْ وما يَقِرُّ قَرارُه
إن تَخُرْ عُسرَهُ بكفَّيكَ يوماً فبكفَّيكَ عُسرُه ويسارُهْ
أو تَدَعْه فللبَوارِ، وأنَّى ولماذا وأنت حَيٌّ بَوارُهْ
هل يخاف الهلاك شاعرُ قومٍ قَدُمتْ في مديحهم أشعارُهْ
لكمُ الأرضُ كلُّها فأعيروا شيخكم ما أحتوى عليه جِدارُهْ

(١) همَّة: العجوز الفانية.
(٢) المِشْجَب: خشبة توضع لنشر الثياب.
(٣) اللحيين: الحنكين.
(٤) القطرب: الصغير من الجن.
(٥) الأجرب: الذي أصابه داء الجرب.
(٦) مُغرب: الشديد البياض حتى ابيضت محاجره وأرفاغه.
(٧) التلمُّظ: هو تتبُّع الطعم والتذوّق.
(٨) اللَّزب: ضيق العيش وخشونته.
(٩) أحلاس: مفردها حِلْس، كساء على ظهر البعير تحت البرذعة.
(١٠) الأكهب: المغبَّر غبرة سوداء.

فكأنْ قد مضى وخلَّف فيكم ... ما أَعَرتُم وأَقفرتْ منه دارُهْ

[الخفيف]

فٱستعبر المنصور، وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله.

قال ابن النطَّاح:

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده مُحرز ومُقاتِل ابنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبه أبا دُلامة ويَعيبانه عنده. فقال أبو دلامة:

أَلَا أيُّها المهديّ هل أنت مُخبري ... وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلي

ألم تَرخَم اللَّحيَيْن من لِحْيتَيهما ... وكلتاهما في طولها غيرُ طائلِ

وإِن أَنت لَم تفعل فهل أنت مُكرمي ... بحلْقِهما من مُحرزٍ ومُقاتِلِ

فإن يأذَنِ المهديُّ لي فيهما أقُلْ ... مقالاً كوقع السيف بين المفاصلِ

وإلَّا تَدَعني والهموم تَنوبني ... وقلبي من العِلجَين جَمُّ البلابلِ

[الطويل]

فقال: أو آخُذُ لك منهما عشرةَ آلاف درهم يَفدِيان بها أعراضَهما منك؟ قال: ذلك إلى أَمير المؤمنين. فأخذها له منهما وأمسك عنهما.

قال ابن النطَّاح:

ودخل أَبو دلامة على سعيد بن دَعلج مولى بني تَميم فقال:

إذا جئتَ الأميرَ فقُل سلامٌ ... عليك ورحمةُ اللَّه الرحيمِ

وأمَّا بعد ذاك فلي غريمٌ ... من الأعراب قُبِّح من غريمِ

غريمٌ لازمٌ بفِناء بيتي ... لزوم الكلب أصحابَ الرَّقيمِ

له مائةٌ عليّ ونصفُ أُخرى ... ونِصفُ النِّصفِ في صَكٍّ قديمِ

دراهمُ ما ٱنتفعتُ بها ولكن ... وصلتُ بها شيوخَ بني تَميمِ

أتَوْني بالعَشيرة يسألوني ... ولم أكُ في العشيرة باللئيمِ

[الوافر]

فضحك وأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهماً وقال: ما أساء من أنصف، وقد كافأتك عن قومك وزدتُك مائةً.

داعب المنصور في جنازة بنت عمه حتى ضحك:

أخبرني الحَرَميّ قال حدثنا الزُّبَير عن جعفر بن الحسين اللّهبيّ عن عمه مُصعَب:

أنْ حَمَّادةَ بنت عيسى تُوفِّيَت وحضر المنصورُ جنازتَها. فلماً وقف على حُفرتها قال لأبي دلامة: ما أعددتَ لهذه الحفرة؟ قال: بنتَ عمّك يا أَمير المؤمنين حَمَّادةَ بنت عيسى يُجاء بها الساعةَ فتُدفَنُ فيها. فضحك المنصور حتى غُلِب فستر وجهه.

سأل الخيزران جارية فوعدته بها وأبطأت فاستنجزها بشعره:

أخبرني عمي رحمه اللَّه تعالى قال حدثنا محمد بن سعد الكرانيّ قال: قال أَبو عمر حَفص بن عمر العُمَريّ حدثنا الهيثم قال:

حَجَّت الخيزُران، فلمَّا خرجت صاح بها أَبو دلامة. قالت: سَلُوه ما أَمرُه. فقالوا له: ما أمرُك؟ فقال: أدنوني من مَحمِلها. قالتْ: أدنوه، فأدنيَ. فقال: أيّتها السيدة، إني شيخ كبير وأجرُكِ فيّ عظيم. قالت: فَمَهْ. قال: تَهَبينَ لي جاريةً من جواريكِ تؤنسني وترفُق بي وتُريحني من عجوز عندي، قد أكلتْ رِفدي[1]، وأطالت كدِّي، وقد عاف جلدي جلدَها، وتمنَّيتُ بُعدَها، وتشوَّقت فَقدَها. فضحكتِ الخَيزُرانُ وقالت: سوف آمرُ لك بما سألتَ. فلما رجعتْ تلقَّاها وذكَّرها، وخرج معها إلى بغداد فأقام حتى غَرِض[2]. ثم دخل على أُمِّ عَبيدة حاضنةِ موسى وهارون، فدفَع إليها رُقعةً قد كتبها إلى الخَيزُران فيها:

أَبـلـغـي سـيِّـدتـي بـالـلَّـه ... يـا أُمَّ عَـبِـيـدَهْ
أنـهـا أرشـدهـا الـلَّـ ... ـه وإن كـانـت رشـيـدهْ
وَعَـدَتـنـي قـبـل أن تـخـ ... ـرج لـلـحـجِّ وَلـيـدهْ
فـتـأنَّـيـتُ وأرسـلـ ... ـتُ بـعـشـريـن قـصـيـدهْ
كـلـمـا أَخـلَـفـنَ أَخـلَـفـ ... ـتُ لـهـا أخـرى جـديـدهْ
لـيـس فـي بـيـتـي لـتـمـهـيـ ... ـد فِـراشـي مـن قَـعـيـدهْ
غـيـرُ عَـجـفـاءَ عَـجـوزٍ ... سـاقُـهـا مِـثـلُ الـقـديـدهْ
وجـهُـهـا أقـبـحُ مـن حُـو ... تٍ طَـرِيٍّ فـي عَـصـيـدهْ
مـا حـيـاةٌ مَـعَ أنـثـى ... مِـثـلِ عِـرسـي بـسـعـيـدهْ

[مجزوء الرمل]

فلمَّا قرئتْ عليها الأبياتُ ضحكت واستعادتها منه لقوله «حوت طَرِيّ في عصيده» وجعلت تضحك، ودعت بجارية من جواريها فائقةٍ فقالت لها: خُذِي كل ما

(١) الرِّفد: العطاء والصِّلة. (٢) غرِض: سأم وضجر.

لَكِ في قصري ففعلتْ، ثم دعت ببعض الخدم وقالت له: سَلِّمها إلى أبي دلامة. فٱنطلق الخادم بها فلم يصادفه في منزله. فقال لامرأته: إذا رجَع فٱدفعيها إليه، وقولي له: تقول لك السيِّدة: أحسِن صحبَةَ هذه الجارية فقد آثرتُك بها؛ فقالت له نعم. فلما خرج دخل ابنُها دُلامة فوجد أُمَّه تبكي. فسألها عن خبرها فأخبرتْه وقالت: إن أردتَ أَن تَبَرَّني يوماً من الدهر فاليوم. فقال: قولي ما شئتِ فإني أفعله. قالت: تدخل عليها فتُعلِمُها أنك مالِكُها وتَطَؤها فتحرمُ عليه، وإلَّا ذهبتْ بعقله وجفاني وجفاك. ففعل ودخل إلى الجارية فوطِئها ووافقها ذلك منه، وخرج. ثم دخل أبو دلامة فقال لامرأته: أين الجارية؟ قالت: في ذلك البيت. فدخل إليها شيخٌ محطَّمٌ ذاهبٌ، فمدَّ يدَه إليها وذهب ليقبِّلها. فقالت له: ما لَك ويَلك! تَنَحَّ وإلَّا لطمتُك لَطمةً دَقَقْتُ منها أنفَك. فقال لها: أبهذا أوصَتْكِ السيِّدة! فقالت: إنها قد بعثتْ بي إلى فتًى من حاله وهيئته كيت وكيت، وقد كان عندي آنفاً، ونال منّي حاجته. فعلِم أنه قد دُهِيَ من أُمِّ دلامة وابنها. فخرج إليه أبو دلامة فلطمه ولَبَّبه[1] وحلف ألَّا يفارقه إلَّا عند المهدي. فمضى به مُلَبَّباً حتى وقف على باب المهدي. فعُرِّف خبره وأنه قد جاء بابنه على تلك الحالة فأمر بإدخاله. فلمَّا دخل قال له: ما لك ويَلك؟! قال: عَمِل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمل ولدٌ بأبيه، ولا تُرضيني إلَّا أن تقتله. فقال له: ويَلك فما فعل؟ فأخبره الخبرَ. فضحك حتى استلقى ثم جلس. فقال له أَبو دلامة: أعجبك فعلُه فتضحَكَ منه؟ فقال: عليَّ بالسيف والنِّطع. فقال له دلامة: قد سمعتَ حُجَّتَه يا أمير المؤمنين فاسمعْ حُجَّتي. قال: هاتِ. قال: هذا الشيخُ أصفَقُ الناسِ وجهاً، يَنيك أُمّي منذ أربعين سنة ما غَضِبتُ، ونِكتُ جاريتَه مرَّة واحدة فغضب وصنع بي ما تَرى! فضحك المهدي أكثر من ضحكه الأول، ثم قال: دَعْها له يا أَبا دلامة وأنا أُعطيك خيراً منها. قال: على أن تَخبأها لي بين السماء والأرض، وإلَّا ناكها واللَّه كما ناك هذه. فتقدّم إلى دلامة ألَّا يُعاوِد بمثل فعله، وحلَف أنه إن عاود قتَله، ووهب له جاريةً أخرى كما وَعَده.

وقال ابن النطَّاح:

دخل أَبو دلامة على المهدي وعنده شاعرٌ يُنشده. فقال له: ما تَرى فيه؟ قال: إنه قد جَهَد نفسَه لك فٱجهَد نفسَك له. فقال له المهدي: وأبيك إنها لكلِمةٌ عَذراءُ منك، أحسَبك تعرفه! قال: لا واللَّه ما عرفتُه ولا قلت أَنا إلَّا حقّاً. فأمر للشاعر بجائزة، ولأبي دلامة بمثلها لحسن مَحضره.

(١) لبَّبه: أخذ بتلبيبه، والتلبيب هو جمع الثياب عند الصدر أو النحر في الخصومة مع الجر العنيف.

قال ابن النطَّاح وحدثني أَبو عبد اللَّه العُقَيليّ قال:

رأيتُ على أَبي دُلامة فَرْوَةً في الصَّيف، فقلتُ له: أَلَا تَمَلُّ هذه الفروةَ! قال: بلى، وربَّ مملول لا يُستطاع فِراقُه. فنزعتُ فاضلَ ثيابي في موضعي ودفعتُها إليه.

فزع من رؤية الفيل:

قال: وأُهدِيَ للمهديّ فيلٌ، فرآه أَبو دلامة فولّى هارباً وقال:

يا قوم إني رأيتُ الفيلَ بعدَكم ... لا بارك اللَّهُ لي في رؤية الفيلِ
أبصرتُ قصراً له عينٌ يقلِّبها ... فكِدتُ أرمي بسَلْحي في سَراويلي

[البسيط]

قال ابنُ النطاح:

ودخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة:

أتاني بَغلةً يَستام[1] مِنّي ... عريقٌ في الخسارة والضَّلالِ
فقال تبيعها؟ قلت ٱرتَبِطها ... بحكمك إن بيعي غيرُ غالي
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً ... وقال أراك سَمحاً ذا جَمالِ
هَلُمَّ إليّ يخلو بي خِداعاً ... وما يَدري الشَّقيُّ بمن يُخالي
فقلتُ بأربعين فقال أحسِن ... إليَّ فإِن مِثلك ذو سِجالِ[2]
فأترُكُ خمسةً منها لعلمي ... بما فيه يصير من الخَبالِ

[الوافر]

فقال المهديّ: لقد أفلتَّ من بَلاءٍ عظيم. قال: واللَّه يا أَمير المؤمنين لقد مكثت شهراً أتوقَّع صاحبَها أن يَرُدَّها. قال: ثم أنشده:

فأبْدِلني بها يا ربِّ طِرفاً[3] ... يكون جَمالُ مَركبِه جَمالي

[الوافر]

فقال لصاحب دوابّه: خَيِّرْه من الإِصطبل مَركبيْن. قال: يا أمير المؤمنين إِن كان الاختيارُ لي وقعتُ في شرٍّ من البغلة، ولكن مُرْه أَن يختار لي، فقال: ٱختَرْ له. وأَخبرني به عمي عن الكرانيّ عن العُمَريّ عن الهَيثم بن عَدِيّ، وخبرُه أتمّ.

---

(١) يستام: يطلب تعيين الثمن.
(٢) السِّجَال: المساجلة والمساومة.
(٣) الطِّرف: الكريم من الخيل.

إحتال على العباس بن محمد بشعر وأخذ منه ألفي درهم وكان راهن المهدي على ذلك فأخذ منه ستة آلاف.

وأَخبرني محمد بن خلف عن أحمد بن الهَيثم عن العُمَريّ عن الهَيثم بن عَدِيّ قال:

دخل أَبو دلامة يوماً على المهدي، فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له: هل بقي أحدٌ من أهلي لم يَصِلْك؟ قال: إن أمَّنتَني أخبرتُك، وإن أعفَيتني فهو أحبّ إليّ. قال: بل تُخبرني وأنت آمِنٌ. قال: كلُّهم قد وصَلني إلَّا حاتمَ بني العبَّاس. قال: ومن هو؟ قال: عمك العباس بن محمد. فالتفت إلى خادم على رأسه وقال: جَأ[1] عُنُقَ العاضِّ بَظْر أُمّه. فلما دنا منه صاح به أَبو دلامة: تَنَحَّ يا عبدَ السَّوْء لا تُحنِث مولاك وتَنكُث عهده وأمانه. فضحك المهدي وأمر الخادمَ فتنحَّى عنه، ثم قال لأبي دلامة: ويَلك! واللَّه عمي أبخلُ الناس فقال أَبو دلامة: بل هو أَسخى الناس. فقال له المهديّ: واللَّه لو مُتَّ ما أَعطاك شيئاً. قال: فإن أَنا أتيته فأجارني؟ قال: لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثةُ دراهم. فانصرف أَبو دلامة فحبَّر للعبَّاس قصيدةً ثم غدا بها عليه وأنشدَه:

قِفْ بالديار وأَيَّ الدهرِ لم تَقِفِ ... على المنازل بين الظَّهر والنَّجَفِ
وما وُقوفُك في أطلالِ مَنزِلَةٍ ... لولا الذي ٱستدرجتْ من قلبك الكَلفِ
إن كنتَ أصبحتَ مشغوفاً بساكنها ... فلا وربِّك لا تَشفيك من شَغَفِ
دَعْ ذا وقُلْ في الذي قد فاز من مُضَرٍ ... بالمَكرُمات وعِزٍّ غيرِ مُقتَرَفِ
هذي رسالةُ شيخ من بَني أَسَدٍ ... يُهدي السلام إلى العبَّاس في الصُّحُفِ
تَخُطُّها من جَواري المِصرِ كاتبةٌ ... قد طالما ضَرَبَتْ في اللام والألِفِ
وطالما ٱختلفت صَيفاً وشاتِيةً ... إلى معلِّمها باللَّوح والكتِفِ
حتى إذا نَهَد الثَّديانِ وٱمتلأا ... منها وخِيفَتْ على الإسراف والقَرفِ[2]
صينتْ ثلاثَ سِنينٍ ما تَرى أَحداً ... كما يصون تِجارٌ دُرَّةَ الصَّدَفِ
فبينما الشيخُ يَهوي نحو مَجلِسه ... مبادراً لصلاة الصُّبح بالسَّدَفِ[3]
حانت له لمحةٌ منها فأبصرها ... مُطِلَّةً بين سَجفَيها من الغُرَفِ

(١) جَأ: إقطع.
(٢) القرف: الذنب المقترف، التهمة.
(٣) السَّدَف: الظلام.

فـخـرَّ والـلَّـه مـا يَـدري غَـداتَـئـذٍ أَخَـرَّ مُـنـكـشِـفـاً أم غـيـر مـنـكـشـفِ
وجـاءه الـنـاسُ أفـواجـاً بـمـائـهـمُ لـيـغـسـلـوا الـرجـل الـمَـغـشِـيَّ بـالـنُّـطَـفِ
ووَسـوسـوا بـقُـرانٍ فـي مـسـامـعـه مَـخـافَـةَ الـجِـنِّ والإِنـسـانُ لـم يَـخـفِ
شـيـئـاً ولـكـنَّـه مـن حُـبِّ جـاريـةٍ أمسى وأصبح موقوفاً على التَّلَفِ
قالوا: لك الويلُ ما أبصرتَ؟ قلتُ لهم تطلَّعتْ من أعالي القَصر ذي الشُّرَفِ
فـقـلـتُ أيُّـكُـمُ والـلَّـهُ يـأجُـرُه يُـعـيـن قُـوَّتَـه فـيـهـا عـلـى ضَـعَـفِ
فـقـام شـيـخٌ بـهـيٌّ مـن رجـالـهـمُ قـد طـالـمـا خـدَع الأقـوامَ بـالـحَـلِـفِ
فـابـتـاعـهـا لـي بـألـفَـيْ درهـمٍ فـأتـى بـهـا إلـيَّ فـألـقـاهـا عـلـى كَـتـفـي
فـبِـتُّ ألـثِـمُـهـا طَـوراً وألـزَمُـهـا طوراً وأصنع بعضَ الشيء في اللُّحُفِ
فـبـيـن ذاك كـذا إذ جـاء صـاحـبُـهـا يَـبغي الدراهمَ بالميزان ذي الكِفَفِ
وذِكَـر حـقٍّ عـلـى زَنـدٍ وصـاحـبِـه والـحـقُّ فـي طَـرَفٍ والـطـيـنُ فـي طَـرَفِ
وبـيـن ذاك شـهـود لا يَـضُـرُّهـمُ أكـنـتُ مـعـتـرفـاً أم غـيـر مـعـتـرفِ
فـإن يـكـن مـنـك شـيءٌ فـهـو حـقُّـهـمُ أو لَا فـإنِّـيَ مـدفـوعٌ إلـى الـتَّـلَـفِ

[البسيط]

قال: فضحك العبَّاس وقال: وَيحك أصادقٌ أنت؟ قال: نعم واللَّه. قال: يا غلام ٱدفع إليه ألفَي درهم ثمنها. قال: فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القِصَّة وما ٱحتال له به. فأمر له المهديُّ بستة آلاف درهم. وقال له المهدي: كيف لا يضرّهم ذلك؟ قال: لأني مُعدِم لا شيء عندي. وقال عمي في خبره: فقال له العبَّاس بن محمد شاركني في هذه الجارية. قال: أفعلُ ولكن على شريطةٍ. قال: وما هي؟ قال: الشَّركةُ لا تكون إلَّا مفاوضةً، فاشترِ معها أخرى، ليبعثَ كلّ واحدٍ منا إلى صاحبه ما عنده ويأخذ الأخرى مكانَها ليلةً وليلةً. فقال له العبَّاس: قَبَّحك اللَّه وقَبَّح ما جئتَ به! خذ الدراهمَ لا بارك اللَّه لك فيها وٱنصرِف.

أَخبرني الحسن بن عليّ قال حدثني محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني العَبسيّ قال:

كان أَبو دلامة مع أَبي مسلم في بعض حروبه مع بني أمَيَّة. فدعا رجلٌ إلى البراز؛ فقال له أَبو مسلم: ابرُز إليه. فأنشأ يقول:

أَلَا لا تَـلُـمـنـي إن فَـرَرتُ فـإنّـنـي أخـاف عـلـى فُـخَّـارتـي أن تَـحـطَّـمَـا

فلو أنني في السُّوق أبتاع مِثلها وجَدِّك ما باليتُ أن أَتقدَّمَا

[الطويل]

فضحك وأعفاه.

ونسخت من كتاب ابن النطَّاح:

أَنَّ رَيطةَ وَعدت أَبا دلامة جاريةً فمطَلته حتى ٱمتدَحَها بعدَّة قصائد، كلُّ ذلك لا تَفي له، ثم خرجت إلى مكة ورجعت. وكانت لها جاريةٌ يقال لها أمُّ عَبِيدةَ تخرج وتُكلِّم الرجالَ وتبلِّغ عنها الرسائل. فقال أَبو دلامة لأمّ عَبيدةَ حين عِيلَ صبرُه:

أبلغي سيِّدتي إن شِئتِ يا أُمَّ عَبِيدَهْ
أنَّها أرشدها اللَّـ ـهُ وإن كانت رشيدهْ
وعدتني قبلَ أن تخـ ـرج للحجِّ وَلِيدهْ
فتنظَّرتُ وأرسلـ ـتُ بعشرين قصيدهْ
كلَّما تخلَقُ أُولى بُدِّلَتْ أُخرى جديدهْ
إنّني شيخٌ كبيرٌ ليس في بيتي قَعِيدهْ
غيرُ مِثلِ الغُول عندي ذاتِ أوصالٍ مَديدهْ
وجهُها أسمجُ من حُـ ـتٍ طَرِيٍّ في عَصيدهْ
ذاتِ رِجلٍ ويدٍ كلـ ـتاهما مِثلُ القَديدهْ

[مجزوء الرمل]

فدخلتْ على ريَطةَ فٱنشدتها الشعرَ، فأمرتْ له بجارية ومائتي دينار للنفقة عليها.

أَخبرني الحسين بن يحيى نسختُ من كتاب إسحاق الموصليّ حدثني أَبي عن جدّي:

أَنَّ أَبا دلامة نزل بالكوفة، فأتاه أضيافٌ فغدّاهم، ثم بعث إلى سِندِيَّةٍ نَبَّاذة يقال لها دَومةُ، فبعثت إليهم جَرَّةً من نَبيذ فشربوها، ثم أَعاد فبعثتْ إليهم بأخرى، ثم جاءت تتقاضى الثمنَ. فقال: ليس عندي الثمن، ولكني أمدحك بما هو خيرٌ من نبيذكِ. فقال:

أَلَا يا دَومُ دام لكِ النَّعيمُ وأحمَرُ مِلْءُ كَفِّكِ مستقيمُ
شديدُ الأصل يَنبِذُ حالِباه يَئنُّ كأنه رجلٌ سقيم

[الوافر]

وهذا الخبر يُروى عن الأَقَيْشِر أَيضاً.

قال شعراً في الجنيد النخاس يذمه ويمدح جارية له:

قال إسحاق وحدثني أَبي:

أنَّ أَبا دلامة كان كثير الزيارة للجُنَيد النخَّاس، وكان يتعشَّق جاريةً له ويُبغضه. فجاءه يوماً فقال: أخرِج لي فلانةً. فقال: إلى متى تخرج إليك ولستَ بمشترٍ!! قال: فإن لم أكن مشترياً فإنِي أخٌ يمدح ويُطري. قال: ما أنا بمخرجها إليك أَو تقول فيها شعراً. قال: فاحلِفْ بعِتْقها أَن تروِّيَها إيَّاه وتأمُرَها بإنشاده مَن أَتاك يعترِضها ولا تحجُبَها. فحلف لا يحجُبها. فقال أَبو دلامة:

إنِّي لأحسَبُ أَن سَأمسي ميّتاً ... أَو سوف أُصبح ثم لا أُمسي
من حبّ جارية الجُنَيدِ وبُغضِه ... وكلاهما قاضٍ على نفسي
فكلامُها يُشفى به سَقَمي ... فإذا تكلَّم عاد لي نَكسي

[الكامل]

أَخبرني عمي قال حدثنا الكرانيّ قال حدثنا العُمَريّ عن الهَيثم بن عَدِيّ قال:

دخل أَبو دلامة على إسحاقَ الأزرقِ يَعوده، وكان إسحاق قد مرِض مرضاً شديداً، ثم تعافى منه وأَفاق، فكان من ذلك ضعيفاً، وعند إسحاق طبيبٌ يَصِفُ له أدويةً تقوّي بدنَه. فقال أَبو دلامة للطبيب: يابنَ الكافرة! أَتَصِفُ هذه الأدويةَ لرجل أضعفه المرض! ما أَردتَ واللَّه إلَّا قَتله. ثم التفت إلى إسحاق فقال: اسمعْ أَيها الأمير منّي. قال: هات ما عندك يا أَبا دلامة. فأنشأ يقول:

نَحِّ عنك الطبيبَ واسمعْ لنعتي ... إنّني ناصحٌ من النُّصَّاحِ
ذو تجاريبَ قد تقلَّبتُ في الصحَّـ ... ـة دهراً وفي السَّقام المُتاحِ
غادِ هذا الكَبابَ كلَّ صباحٍ ... من مُتُون الفَتِيَّةِ السُّحَّاحِ[1]
فإذا ما عَطِشتَ فاشرَب ثلاثاً ... من عتيقٍ في الشمّ كالتُّفَّاحِ
ثم عند المساء فاعكُفْ على ذا ... وعلى ذا بأعظم الأقداحِ
فتقوّي ذا الضعفَ منك وتُلفَى ... عن ليالٍ أصحَّ هذي الصِّحاحِ
ذا شفاءٌ ودَعْ مقالةَ هذا ... ناك ذا أُمَّه بأيرِ رِبَاحِ[2]

[الخفيف]

فضحك إسحاق وعُوَّادُه، وأَمر لأبي دلامة بخمسمائة درهم. وكان الطبيب

(١) السُّحاح: السِّمان. (٢) رباح: اسم من أسماء القِرد.

نصرانيّاً فقال: أعوذ باللَّه من شَرّك يا رَكُل (يريد يا رجل). وقال الطبيب: ٱقبَلْ منّي أصلحك اللَّه ولا تسألني عن شيء قدَّامه. فقال أَبو دلامة: أَمَّا وقد أخذتُ أُجرَةَ صَفقَتي وقَضَيتُ الحقَّ في نُصح صديقي، فٱنعَتْ له الآن أَنت ما أحببتَ.

أخبرني الحسن بن عليّ قال حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدثني أَبو الشِّبل عاصم بن وَهب البُرْجُميّ قال:

دخل أَبو دلامة على المهدي وبين يديه سَلمةُ الوصيف واقفاً، فقال: إنّي أهدَيتُ إليك يا أَمير المؤمنين مُهراً ليس لأحد مثلُه. فإن رأيتَ أَن تُشَرّفَني بقبوله. فأمره فإدخاله إليه. فخرج وأدخل إليه دابَّته التي كانت تحته، فإذا به بِرذَونٌ مُحطَّمٌ أَعجَفُ هَرِمٌ. فقال له المهديّ: أيُّ شيءٍ هذا ويَلك! ألم تزعم أنه مهر! فقال له: أَوَ ليس هذا سَلَمةَ الوصيفَ بين يديك قائماً تسمِّيه الوصيفَ وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيفٌ! فإن كان سلمةُ وَصيفاً فهذا مُهرٌ. فجعل سلمةُ يشتُمه والمهديّ يضحك. ثم قال لسلمة: ويَلك، إنَّ لهذه منه أخوات، وإن أتى بها في مَحفِلٍ فضَحَكَ. فقال أَبو دلامة: واللَّه لأفضحنَّه يا أَمير المؤمنين؛ فليس من مواليك أحدٌ إلَّا وقد وصَلني غيرُه، فإني ما شربت له الماء قطّ. قال: فقد حكمتُ عليه أَن يشتري نفسه منك بألفي درهم حتى يتخلَّص من يدك. قال: قد فعلتُ على أَن لا يُعاود. فقال له: ما ترى؟ قال: أَفعَلُ؟ فلولا أَنّي ما أَخذت منه شيئاً قطّ ما فعلتُ معه مِثلَ هذه. فمضى سَلمةُ فحملها إليه.

عبث به ابنه فأراد أن يخصيه فحكم زوجته:

أَخبرني عمي قال حدثني محمد بن سعد الكرانيّ قال حدثني الخليل بن أَسَد عن عبد الرحمن بن صالح قال:

جاء ابن أبي دُلامة يوماً إلى أبيه وهو في مَحفِلٍ من جيرانه وعَشيرته جالس، فجلس بين يديه، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم: إنَّ شيخي، كما ترون، قد كَبرَتْ سنُّه، ورَقَّ جلده، ودقَّ عظمُه، وبِنا إلى حياته حاجة شديدة، فلا أزال أُشير عليه بالشيء يُمسِك رَمَقَه ويُبقي قُوّته، فيخالفني فيه. وأنا أَسألكم أن تسألوه قضاءَ حاجة لي أذكرها بحضرتكم، فيها صلاحٌ لجسمه، وبقاءٌ لحياته، فأسعفوني بمسألته. فقالوا: نفعلُ حُبّاً وكرامة. ثم أقبلوا على أبي دُلامة بألسنتهم وتناولوه بالعتاب حتى رضي وهو ساكت، فقال قولوا للخبيث فليقُل ما يُريد، فستعلمون أنه لم يأتِ إلَّا ببليَّة. فقالوا له: قل. فقال: إنَّ أَبي إنما يقتله كثرةُ الجماع، فتُعاونوني عليه حتى أخصيَه، فلن يقطعَه

عن ذلك غيرُ الخِصاء، فيكونَ أصحّ لجسمه وأَطول لعمره. فعَجبوا من ذلك وعلموا أنه إنما أراد أن يعبَث بأبيه ويخجِّله حتى يَشيعَ ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر، فضحكوا منه: ثم قالوا لأبي دُلامة: قد سمِعت فأجِب. قال: قد سمعتم أنتم وعرّفتكم أنه لن يأتي بخير. قالوا: فما عندك في هذا؟ قال: قد جعلتُ أمّه حَكَماً بيني وبينه فقوموا بنا إليها. فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها، وقصّ أَبو دُلامة القصَّة عليها، وقال لها: قد حكَّمتُكِ. فأقبلت على الجماعة فقالت: إنَّ ابني ـ أصلحه اللَّه ـ قد نصح أَباه وبَرَّه ولم يألُ جُهداً، وما أَنا إلى بقاء أَبيه بأحوج مني إلى بقائه، وهذا أمرٌ لم تقع به تجربةٌ منَّا، ولا جرتْ بمثله عادةٌ لنا، وما أشكُّ في معرفته بذلك. فَلْيبدأ بنفسه فلْيخصها؛ فإذا عوفيَ ورأينا ذلك قد أَثّر عليه أثراً محموداً استعمله أَبوه. فنعر[1] أبوه وجعل يضحك به، وخجِل ابنه، وٱنصرف القوم يضحكون ويعجبون من خُبْثهم جميعاً واتّفاقهم في ذلك المذهب.

أَخبرني عمِّي قال حدثنا مَيمون بن هارون عن أَحمد بن إبراهيم بن إِسماعيل عن أَبيه قال:

كان عند المهديّ رجل من بني مَروان، فدخل إليه وسلَّم عليه. فأتى المهديُّ بِعِلْج[2] فأمر المَروانيَّ بضرب عُنُقِه، فأخذ السيفَ وقام فضربه فنَبَا السيفُ عنه، فرمَى به المروانيّ وقال: لو كان من سيوفنا ما نَبَا. فسمع المهديّ الكلام فغاظه حتى تغيّر لونه وبان فيه. فقام يَقطِينٌ فأخذ السيفَ وحسر عن ذراعيه ثم ضرب العِلْجَ فرمى برأسه، ثم قال: يا أَمير المؤمنين، إنَّ هذه سيوف الطاعة لا تعمل إلَّا في أيدي الأولياء ولا تعمل في أَيدي أَهل المعصية. ثم قام أَبو دُلامة فقال: يا أَمير المؤمنين، قد حضرَني بيتان أفأقولهما؟ قال: قل. فأنشده:

أَيُّهذَا الإمامُ سيفُك ماضٍ ... وبكفِّ الوليّ غيرُ كَهامِ[3]
فإذا ما نبَا بكفٍّ عِلمنا ... أنّها كفّ مُبْغِضٍ للإمام

[الخفيف]

قال: فسُرِّي عن المهديّ وقام من مجلسه، وأمر حُجَّابه بقتل الرجل المرواني فقُتل.

* * *

(١) نَعَر: صاح وأصدر صوتاً من خَيشومه.
(٢) العِلج: هو الرجل من كفار العجم جمعها علوج وأعلاج.
(٣) كهام: السيف الكليل الذي لا يقطع.

أخبار عبد اللّه بن المعتزّ

وممن صنع من أَولاد الخلفاءِ فأجاد وأَحسن وبرَع وتقدّم جميعَ أَهل عصره فضلاً وشرفاً وأَدباً وشعراً وظرفاً وتصرّفاً في سائر الآداب أبو العبَّاس عبد اللّه ابن المُعتزّ باللّه.

أدبه وشعره ومذهبه في الأدب:

وأَمرُه، مع قرب عهده بعصرنا هذا، مشهور في فضائله وآدابه شهرةً تُشرِكُ في أكثر فضائله الخاصّ والعامّ. وشعرُه وإن كان فيه رِقةُ الملوكية وغزَلُ الظُّرفاء وهلهلة المُحدَثين، فإن فيه أَشياء كثيرةً تجري في أسلوب المُجيدين ولا تقصُر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفةً من أَشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبَّه فيها بفحول الجاهلية. فليس يمكن واصفاً لصَبوح، في مجلس شَكِلٍ ظريف، بين ندامى وقِيان، وعلى ميادين من النّوْر والبنفسج والنرجس ومنضودٍ من أمثال ذلك، إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفُرُش ومختار الآلات، ورِقّة الخَدَم، أن يَعدِل بذلك عما يُشبهه من الكلام السَّبْط[١] الرقيق الذي يفهمه كل مَن حضر، إلى جَعد الكلام ووَحشِيِّه، وإلى وصف البِيد والمَهامه والظَّبي والظَّليم[٢] والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة؛ ولا إذا عدَل عن ذلك وأَحسن قيل له مُسِيء، ولا أَن يُغمَطَ حقُّه كلُّه إذا أحسن الكثيرَ وتوسّط في البعض وقصَّر في اليسير، ويُنسَبَ إلى التقصير في الجميع، لنشر المقابح وطيِّ المحاسن. فلو شاء أَن يفعل هذا كل أَحدٍ بمن تقدّم لوجد مَساغاً. ولو أَنَّ قائلاً أَراد الطعن على صدور الشعراء، لقد رأَى أَن يطعَن على الأعشى ـ وهو أحدُ مَن يقدِّمه الأوائل على سائر الشعراء ـ بقوله: «فأصاب حَبَّةَ قلبه وطِحالها». وبقوله:

ويـأمـر لـلـيَـحـمـوم[٣] كـل عَـشِـيَّـةٍ بقَـتٍّ[٤] وتـعـلـيـقٍ[٥] فـقـد كـاد يَـسـنَـقُ[٦]

[الطويل]

(١) السبط: السهل الليّن.
(٢) الظليم: ذَكَر النّعام.
(٣) اليحموم: اسم الفرس.
(٤) القَتّ: حب بري يعلف بها الخيل والبعير.
(٥) التعليق: هو علف الدابّة من شعير وغيره.
(٦) يسْنَق: يأكل بنهم حتى يصيبه كالبشم.

وأَمثالٍ لهذا كثيرةٍ. وإنما على الإنسان أَن يحفظ من الشيء أحسنه، ويلغيَ ما لم يستحسنه، فليس مأخوذاً به. ولكنّ أَقواماً أَرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة، ويُشيدوا بذكرهم الخامل، ويُعلُوا أَقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدْح فيهم، فلا يزدادون بذلكَ إلَّا ضَعَةً، ولا يزداد الآخر إلَّا ارتفاعاً. أَلَا ترى إلى ابن المعتزّ قد قُتل أَسوأَ قِتْلة، ودرَج فلم يبق له خلَفٌ يقرّظه ولا عَقِبٌ يرفع منه، وما يزداد بأدبه وشعرِه وفضله وحُسنِ أخباره وتصرُّفِه في كل فنٍّ من العلوم إلَّا رِفعةً وعُلُوّاً. ولا نُظِر إلى أَضداده كلَّما أَزدادوا في طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مِثْلَهم في ثَلْبه والطعن عليه، زادوها سقوطاً وضَعةً، وكلَّما وصفوا أَشعارهم وقرّظوا آدابهم، زادوا بها ثِقلاً ومقتاً. فإذا وقع عليهم المُحصِّل الموافق، عدَلوا عن ثلْبه في الآداب، إلى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبي طالب، وهم أَوّل من فعل ذلك وشنَّع به على آل أبي طالب عند المُكتَفي حتى نهاهم عنه، فعدَلوا عن عَيب أَنفسهم بذلك إلى عيبه، وٱرتكبوا أَكثر منه. وأَنا أَذكر ذلك بعقب أَخبار عبد اللَّه، مُصَرِّحاً به على شرحٍ إن شاءَ اللَّه تعالى.

وكان عبد اللَّه حسن العلم بصناعة الموسيقى، والكلام على النغم وعِللها. وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتبٌ مشهورةٌ، ومراسلاتٌ جَرَت بينه وبين عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر وبين بني حَمدون وغيرهم، تدلّ على فضله وغزارة علمه وأَدبه.

ولقد قرأتُ بخطِّ عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر رُقعة إليه بخطّه، وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حَمدون في أَنه يجوِّز ولا يُنكِر أن يغيِّر الإنسانُ بعضَ نَغَم الغناء القديم، ويعدِل بها إلى ما يحسُن في حَلقه ومذهبه. وهي رسالةٌ طويلةٌ، وشاوره فيها. فكتب إليه عبيد اللَّه: «قرأتُ ـ أَيّدك اللَّه ـ الرسالة الفاضلةَ البارعة الموفَّقة. فأنا واللَّه أقرؤها إلى آخرها، ثم أعود إلى أَوَّلها مبتهجاً، وأَتأمَّل وأَدعو مبتهلاً، وعينُ اللَّه التي لا تنام عليك وعلى نعمه عندك. فإنها ـ علِم اللَّه ـ النعمةُ المعدومة المِثل. ولقد تمثَّلت وأَنا أُكرِر نظري فيها قول القائل في سيِّدنا وابن سيِّدنا عبد اللَّه بن العبَّاس.

كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع لذي إربةٍ في القول جِدّاً ولا هَزلا

[الطويل]

ولا واللَّه ما رأيتُ جِدّاً في هزلٍ، ولا هزلاً في جِدٍّ يُشْبه هذا الكلام في بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة برهانه وجزالة ألفاظه. ولقد خُيِّل إليَّ أن لسان جَدِّك العباسِ عليه السلام ينقسم على أجزاء، تلك ـ أعزك اللَّه ـ نصفها، والنصف الآخر مقسوم بين

أبَي جعفر المنصور والمأمون رحمة اللّه عليهما. ولو أن هذه الرسالة جَبهت الإبراهيمَيْن إبراهيم بن المهديّ وإبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق وهم مجتمعون لبُهِت منهم الناظر، وأُخرِس الناطق، ولأقرُّوا لك بالفضل في السَّبق، وظهور حُجَّةِ الصِّدقِ، ثم كان قولُك لهم فَرقاً بين الحقّ والباطل، والخطأ والصواب. وواللّه ما تأخذ في فنٍّ من الفنون، إلَّا بَرَّزت فيه تبريز الجواد الرائع، المُغبِّر في وجه كل حِصان تابع. عَضد اللّه الشرفَ ببقائك، وأَحيا الأدب بحياتك، وجَمل الدنيا وأهلها بطول عمرك».

هذا كلام العقلاء وذوي الفضل في مِثْله، لا كلام الثقلاء وذوي الجهل. والإطالةُ في هذا المعنى مُستَغْنًى عنها. والمشهور عنه وعن أضداده وما يأتي من أَخباره بعد ذلك ففي معنى ما شَرَطتُه من جنس ما هو المَقصِد في كتابي هذا.

فمن صنعة عبد اللّه بن المعتزّ في شعره على أنّ أكثرها هذه سبيلُه فيها:

صـــوت

هل تَرجِعنَّ ليالٍ قد مَضَينَ لنا ... والدارُ جامعةٌ أزمانَ أزمانَا

[البسيط]

صَنعَتُه في بيتٍ واحد، ولحنُه ثقيلٌ أَوَّل.

ومن صنعته في الثقيل الأوّل أَيضاً ـ وفيه لَعَلّويه رَمَلٌ قديم، وما لحنُه بدون لحن عَلّويه ـ:

صـــوت

سَقى جانبَ القَصرَين فالدَّيرَ فالحِمى ... إلى الشجر المحفوفِ بالطِّين والمَدَرْ

[الطويل]

ومن صنعته الظَّريفةِ الشَكِلَة مع جودتها:

صـــوت

وابلائي من مَحضَرٍ ومَغيبِ ... وحبيبٍ منّي بعيدٍ قريبِ

لم تَرِد ماءَ وجهه العينُ إلَّا ... شَرِقَتْ قبل رِيّها برقيبِ

[الخفيف]

خفيفُ ثقيلٍ، ابتداؤه نشيد.

زارته زرياب في يوم الشعانين وغناها:

ومن صنعته، وله خبر أَخبرني به علي بن هارون بن المنجِّم عن زِرياب قالت: زرتُ عبد اللَّه بن المعتزّ في يوم السَّعانين[١]، فسُرَّ بورودي وصنع من وقته لحناً في شعر عبد اللَّه بن العبَّاس الرَّبيعيّ الذي له فيه هَزَجٌ وهو:

صـوت

أنـا فـي قـلـبـي مـن الـظَّـبـي كـلـومُ فـدعِ الـلَّـوْمَ فـإنّ الـلَّـومَ لـومُ
حـبَّـذا يـومُ الـسَّـعـانـيـن ومـا نِـلـتُ فـيـه مـن سـرورٍ لـو يَـدوم

[الرمل]

ـ الشعر لعبد اللَّه بن العبَّاس، ولحنه فيه هزَجٌ ـ قالت: فصنع عبدُ اللَّه بن المعتزّ في البيت الثاني، وبعده بيتٌ أضافه إليه، هزَجاً وهو:

زارنـي مـولايَ فـيـه سـاعـةً لـيـتَـه واللَّـه مـا عِـشـتُ يُـقـيـمُ

[الرمل]

ولحنُ ابن المعتزّ في «حبذا يوم السَّعانين» وهذا البيت خفيفُ رمَلٍ، وهو من نهايات الأغاني التي صنعها.

ومن صنعته التي تَظارفَ فيها ومَلُح:

زاحـمَ كـمِّـي كـمَّـه فـالْـتَـوَيـا وافـق قـلـبـي قـلـبـه فـاسْـتـويَـا
وطـالـمـا ذاقـا الـهـوى فـأكـتـويـا يـا قُـرَّةَ الـعـيـن ويـا هَـمّـي ويـا

[الرجز]

أراد هنا بقوله «ويا» ما يقوله الناس في حكاية الشيء الذي يخاطبون به الإنسان من جميل أَو قبيح، فيقولون: قلتُ له يا سيِّدي ويا مولاي ويا ويا، وكذلك ضدَّه ليُستغنى بالإشارة بهذا النِّداء عن الشرح. ولحنُ ابن المعتزّ في هذا هزجٌ.

حدثني جعفر بن قُدامة قال:

كنَّا عند ابن المعتزّ يوماً وعنده نَشرُ وكان يحبها ويَهيم بها، فخرجتْ علينا من صدر البستان في زمن الربيع، وعليها غِلالةٌ[٢] مُعَصفَرة[٣] وفي يديها جنَّابى[٤] باكورة

(١) السعانين والمشهور فيه: هو عيد عند النصارى، ترفع فيه التسابيح وهو سابع يوم أحد من أيام الصيام عندهم.
(٢) غِلالة: ضرب من الثياب. (٣) معصفرة: مزركشة ومصبوغة.
(٤) جنَّابى: لعبة يلعبها الصبيان بحيث يتجانب الغلامان فيعتصم كل واحد منهما من الآخر.

باقِلًا. فقالت له: يا سيِّدي تلعبُ معي جنَّابى؟ فالتفت إلينا وقال على بديهته غيرَ متوقّفٍ ولا مفكِّر:

فدَيتُ مَن مَرَّ يمشي في مُعصفَرةٍ عَشِيَّةً فَسَقاني ثم حيَّاني
وقال تلعبُ جنَّابى فقلت له مَن جاد بالوصل لم يلعب بهجرانِ

[البسيط]

وأمر فغُنّيَ فيه. غنَّت فيما أرى فيه هَزارُ لحناً، وهو رمَلٌ مُطلق.

حدثني جعفر قال:

كان لعبد اللّه بن المعتزّ غلامٌ يحبه، وكان يغنّي غناءً صالحاً، يقال له «نَشوانُ». فَجُدِر[1] وجزع عبدُ اللّه لذلك جزعاً شديداً، ثم عُوفيَ ولم يؤثّر الجُدريُّ في وجهه أثراً قبيحاً. فدخلتُ إليه ذات يوم فقال لي: يا أَبا القاسم، قد عُوفيَ فلانٌ بعدَك، وخرج أحسنَ مما كان، وقلت فيه بيتين وغنَّت زِريابُ فيهما رمَلاً ظريفاً، فاسمعهما إنشاداً إلى أَن تسمعهما غِناءً. فقلت: يتفضَّل الأمير، أيَّده اللّه تعالى، بإنشادي إيَّاهما. فأنشدني:

لي قمرٌ جُدِّرَ لمَّا ٱستوى فزاده حُسناً فزادتْ هموم
أظنُّه غَنَّى لشمس الضُّحى فنقَّطته طَرَباً بالنجوم

[السريع]

فقلت: أحسنتَ واللّه أيّها الأمير. فقال لي: لو سمعته من زِرياب كنتَ أشدَّ ٱستحساناً له. وخرجتْ زِرياب فغنَّته لنا في طريقةِ الرَّمَل في أحسن غِناء، فشربنا عليه عامَّة يومنا.

غضب عليه غلامه نشوان فقال شعراً يترضاه به:

حدثني جعفر قال:

غضِب هذا الغلام على عبد اللّه بن المعتزّ؛ فجهد في أَن يترضَّاه، فلم تكن له فيه حيلة، فدخلتُ إليه فأنشدني فيه:

بأبي أَنت قد تما ديتَ في الهجر والغضبْ
وٱصطباري على صدو دِك يوماً من العَجَبْ
ليس لي إن فقَدْتُ وجـ ـهَك في العيش من أَرَبْ[2]

(١) جُدِر: أصيب بمرض الجُدَري. (٢) الأرب: الحاجة.

رحِـــم الـــلَّـــه مَـــن أعـــا ن عـلـى الـصـلـح واحـتـسـبْ

[مجزوء الخفيف]

قال: فمضيتُ إلى الغلام؛ ولم أزل أُداريه وأرفُقُ به حتى ترضَّيتُه وجئتُه به، فمرَّ لنا يومئذٍ أطيبُ يومٍ وأحسنُه، وغنَّتنا هَزارُ في هذا الشعر رملاً عجيباً.

أخبرني الحسين بن القاسم الكاتب قال حدثني إبراهيم بن خليلَ الهاشميّ قال:

دخلتُ يوماً إلى أَبي عيسى بن المتوكِّل، فوجدتُ عبدَ اللَّه بن المعتزّ وقد جاءه مُسلِّماً، وسِنُّه يومئذٍ دون عشرين سنة، إذ دخل عليُّ بن محمد بن أَبي الشَّوارب القاضي، فأكرمه أَبو عيسى ونهض إليه. فلما ٱستقرّ به المجلس قال لأبي عيسى: قد احتجتُ إلى معونتك في أمر دُفعتُ إليه لم أَستغنِ فيه عن تكليفك المعاونةَ. قال: وما هو؟ قال: زوَّجتُ بنتاً من بناتنا رجلاً من أَهلنا، فخرج عن مذاهبنا، وأساء عِشرة أهله، وجعل منزل عيسى بن هارون أكثر مَظانّه وأوطانه، ويهدّدنا ويُوعِدنا بشرّه، حتى لقد نالنا من عيسى بَسطٌ ليده ولسانه فينا بالقبيح والقول السيئ، وكثرة معاونته له على ما يُزري بدينه ونسبه. وقد توَّعدنا بأنه يكشف وجهه لنا في معاونة صِهرنا هذا الغاوي علينا. ولولا نسبه الذي فخرُه لنا وعارُه علينا، لانتصفنا منه بالحقّ دون التعدّي، إلَّا أنّي أستعيذك منه. فقال له أَبو عيسى: أَنا أُوَجِّه إليه بعد انصرافك، وأُراسله بما أَنا المتكفِّل بعده بألَّا يعود إلى عِشرته، والضامن أَن أَرُدّ هذا الصِّهرَ إلى حيث تحبّ ويَقَعُ بموافقتك. فشكره ودعا له وانصرف. فقال أَبو عيسى: أَلَا تَرَون إلى هذا الرجل النَّبيه الفاضل السريّ الشريف يُدفَع إلى مِثل هذا! طُوبى لمن لم تكن له بنت. فقال عبدُ اللَّه بن المعتزّ: أَيّها الأمير إنَّ لولدك في هذا المعنى شيئاً قاله ٱستحسنه جماعةٌ ممن يعلم ويقول الشعر. فقال: هاتِه فِداك عمُّك. فأنشده لنفسه:

وبِـكـرٍ قـلـتُ مـوتـي قـبـل بـعـلٍ وإن أَثـرى وعُـدَّ مـن الـصَّـمـيـمِ

أأمـزُج بـالـلِّـئـام دَمـي ولـحـمـي فـمـا عُـذري إلـى الـنَّـسَـبِ الـكـريـمِ

[الوافر]

فقال له أَبو عيسى: أمتعَ اللَّه أَهلك ببقائك، وأحسن إليهم في زيادة إحسانه إليك، وجَمَّلَهم بكمال محاسنك، ولا أرانا شرّاً فيك.

أَخبرني الحسين بن القاسم قال حدثني عبدُ اللَّه بن موسى الكاتب قال:

دخلت على عبد اللَّه بن المعتزّ وفي داره طبقاتٌ من الصُّنَّاع، وهو يبني داره

ويُبيِّضُها. فقلت: ما هذه الغرامةُ الحادثة؟ فقال: ذلك السَّيلُ الذي جاء مُذْ ليالٍ أَحدَث في داري ما أحوَج إلى الغرامة والكُلفة، وقال:

أَلَا مَن لنفسٍ وأحزانِها ودارٍ تَداعى بحيطانِها
أظَلُّ نهاريَ في شمسها شقيّاً مُعَنًّى ببنيانِها
أسَوِّد وجهي بتبييضها وأهدِم كيسي بعُمرانِها

[المتقارب]

حدثني جعفر بن قُدامة قال:

كنت عند عبد اللّه بن المعتزّ ومعنا النُّمَيريّ، وحَضرَتِ الصلاةُ، فقام النُّمَيريّ فصلَّى صلاةً خفيفةً جدّاً، ثم دعا بعد ٱنقضاء صلاته وسجد سجدةً طويلةً جدّاً، حتى ٱستثقله جميعُ مَن حَضر بسببها، وعبدُ اللّه ينظُر إليه متعجِّباً ثم قال:

صلاتُك بين الوَرى نَقرَةٌ كما اختلس الجَرعةَ الوالغُ
وتسجُد من بعدها سَجدةً كما خُتم المِزوَد[1] الفارغُ

[المتقارب]

أَخبرني الحسين بن القاسم قال حدثني عبيد اللّه بن موسى الكاتب قال:

كانت بنت الكراعة تألَف عبدَ اللّه بن المعتزّ، وكان يحب غناءها ويستظرفها ويحبُّها ويواصل إحضارها، ثم ٱنقطعت عنه فقال:

ليتَ شِعري بمن تَشاغلْتِ بَعدي وهو لا شكّ جاهلٌ مغرورُ
هكذا كنتُ مِثلَه في سرورٍ وغَداً في الهموم مِثلي يَصيرُ

[الخفيف]

حدثني جعفر بن قُدامة قال:

كنَّا عند ابن المعتزّ يوماً ومعنا النُّمَيريّ، وعنده جاريةٌ لبعض بنات المغنِّين تغنِّيه، وكانت مُحسِنة إلَّا أَنها كانت في غايةٍ من القُبح، فجعل عبدُ اللّه يُجمِّشُها ويتعلَّق بها. فلمَّا قامت قال له النُّمَيريّ: أيّها الأمير، سألتُك باللّه أتتعشَّق هذه التي ما رأيتُ قطّ أقبحَ منها؟ فقال عبدُ اللّه وهو يضحك:

قلبي وثَّابٌ إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباهُ
يَهيمُ بالحُسن كما ينبغي ويرحَم القُبحَ فيهواه

[الخفيف]

(١) المِزوَد: الوعاء الذي يوضع فيه الزَّاد.

أَخبرنا الحسين بن القاسم قال حدثني أَبو الحسن الأمويّ قال حدثني عبد اللَّه بن المعتزّ قال:

كانت خُزامَى جاريةُ الضبط المغنّي تُنادمني وأَنا حدَثٌ ثم تركتِ النبيذ. وكانت مُغَنِّية مُحسنةً شاعرةً ظريفةً. فراسلتُها مراراً فتأخّرتْ عنّي، فكتبت إليها:

رأيتُكِ قد أظهرتِ زُهداً وتوبةً ... فقد سَمُجتْ من بعد توبتكِ الخمرُ
فأهدَيتُ وَرداً كي يُذَكِّر عِيشةً ... لمن لم يُمتِّعنا ببهجتها الدّهرُ

[الطويل]

فأجابت:

أَتاني قريضٌ[1] يا أَميري مُحَبَّرٌ ... حَكى ليَ نظمَ الدُّرِّ فُصِّلَ بالشَّذْرِ[2]
أأنكرتَ يا ابن الأكرمين إنابتي ... وقد أَفصحتْ لي ألسُن الدهر بالزَّجْرِ
وآذَنني شَرْخُ الشَّباب ببَينِه ... فيا ليتَ شعري بعد ذلك ما عُذري

[الطويل]

حدثني جعفر بن قُدامة قال:

كنت أَسرَح مع عبد اللَّه بن المعتزّ في يومٍ من أَيَّام الربيع بالعبَّاسيَّة والدنيا كالجنَّة المُزَخرَفة. فقال عبد اللَّه:

حَبَّذا آذارُ شهراً ... فيه للنَّوْر ٱنتشارُ
ينقُص الليلُ إذا جا ... ء ويمتدُّ النهارُ
وعلى الأرض ٱخضرارٌ ... وٱصفرارٌ وٱحمرارُ
فكأنّ الرَّوضَ وشَيٌ ... بالغتْ فيه التِّجارُ
نَقشُه آسٌ ونِسرين[3] ... ووَردٌ وبَهارُ[4]

[مجزوء الرمل]

أخبرني محمد بن يحيى الصُّوليّ قال:

كتب عبدُ اللَّه بن المعتزّ إلى عُبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن طاهر وقد ٱستخلَف مؤنسٌ ابنه محمد بن عُبيد اللَّه على الشُّرطة ببغداد:

---

(١) قريضٌ: القريض هو الشِّعر.
(٢) الشَّذر: خرزٌ صغار يفصل بها بين الجواهر في نظمها.
(٣) نسرين: نوع من الورد، أبيض اللون صغير الحجم، رائحته عطرية فوَّاحة.
(٤) بهار: نبت طيب الريح، ينبت أيام فصل الربيع ويستعمل كمطيِّب من مطيبات الطعام.

فَرحتُ بما أضعافُه دون قدركم ... وقلتُ عسى قد هبَّ من نومه الدَّهرُ
فترجِعَ فينا دولةٌ طاهريةٌ ... كما بدأتْ، والأمرُ من بعده الأمرُ
عسى اللَّه، إنَّ اللَّه ليس بغافلٍ ... ولا بدّ من يُسرٍ إذا ما ٱنتهى العُسرُ
[الطويل]

فكتب إليه عُبيد اللَّه قصيدةً منها:

ونحن إذا ما نالنا مَسُّ جَفوةٍ ... فمِنَّا على لَأوائها الصَّبر والعذرُ
وإن رجعتْ من نعمة اللَّه دولةٌ ... إلينا فمِنَّا عندها الحمدُ والشكرُ
[الطويل]

قال: وجاءه محمد بن عُبيد اللَّه بعَقِب هذا شاكراً لتهنئته، ثم لم يَعد إليه مدةً طويلة. فكتب إليه عبدُ اللَّه بن المعتزّ:

قد جئتنا مرةً ولم تَعد ... ولم تَزُر بعدها ولم تَعِدِ
لستُ أَرى واجداً بنا عِوَضاً ... فأطْلُب وجرِّب وٱستَقْص وٱجتهدِ
ناولَني حبلَ وَصلهِ بيدٍ ... وهجرَه جاذباً له بيدِ
فلم يكن بين ذا وذا أَمدٌ ... إلَّا كما بين ليلةٍ وغدِ
[المنسرح]

* * *

صوت

أَمِن أُمِّ أَوفى دِمنةٌ لم تَكلَّم ... بَحوْمانةِ الدرَّاج فالمُتَثَلَّم
بها العِيْنُ والآرام[1] يَمشِين خلْفةً ... وأَطلاؤها[2] يَنهَضنَ من كل مَجثَم
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجةً ... فلأْياً عَرفت الدار بعد توهُّم
فلمَّا عرفتُ الدارَ قلتُ لرَبعها ... أَلا عِمْ صباحاً أَيُّها الرّبع وٱسْلم
ومَن يعَصِ أَطرافَ الزّجاج فإنّه ... يُطيع العوالي رُكِّبت كلَّ لَهذَم
ومَن هاب أَسباب المنيَّة يَلقها ... ولو رام أَسبابَ السماءِ بسُلَّم
[الطويل]

(١) الآرام: الظِّباء البيضاء، الخالصة البياض.
(٢) الأطلاء: مفردها طلا وهو ولد البقرة.

عرُوضه من الطويل. الحَوْمانة، فيما ذكر الأصمعي، الأرضُ الغليظة، وجمعُها حَوامينُ. وقال غيرُه: الحَوْمانة: ما كان دون الرّمل. والدَّرَّاجُ والمتثَلَّم: موضعان. وروى أَبو عمرو عن بعض ولدِ زُهير «الدُّراج» مضمومةَ الدال. والعِينُ: البقَرُ. والآرام تسكن الجبال. خِلْفةً: يذهب فَوجٌ ويجيء فوجٌ يخلُفه مكانَه. ويُروى: مَجثَم ومَجثِم. فمن قال مجثَم قال: جَثَم يجثُم جُثوماً، ومن قال مَجثِم قال: جَثَم يَجثِم جَثْماً، واللأْيُ: البطء. الزّجاجُ: جمع زُجٍّ. قال: وأَصله أَن القوم كانوا إذا أَرادوا صلحاً قلبوا زِجاج الرماح إلى فوق، فإِن أَبَوْا إِلَّا الحربَ قلَبوا الأَسِنَّة. واللَّهذَم: السِّنان المحدَّد؛ يقال رمح لَهذَمٌ وسِنانٌ لَهذَمٌ: حادّ. وأُم أَوْفَى: امرأَة كانت لزُهير فطلَّقها. وله في ذلك خبرٌ يُذكر بعد هذا.

الشعر لزهير بن أبي سُلْمى. والغناء للغريض، ثاني ثقيل بإِطلاق الوتر في مجرى البِنصر عن إسحاق في الأوّل والثاني من الأبيات. وفيها لبَذْل الكبيرة ثقيلٌ أَوّل بالبِنصر. ولعلَّويه في الثالث والرابع ثقيل أَوّل. ولإِبراهيم ثاني ثقيل بالوسطى في الخامس والسادس. وفيهما ثقيل أَوَّل يقال إنه ليزيد حَوْراءَ.

* * *

نسب زهير وأخباره

هو زهير بن أَبي سُلمى. واسم أَبي سُلمى ربيعة بن رياح بن قُرَّةَ بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن الأصمّ بن عثمان بن عمرو بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مُضر بن نِزار. ومُزَينةُ أُمُّ عمرو بن أُدّ هي بنت كلب بن وَبرة.

وهو أَحدُ الثلاثة المُقدّمين على سائر الشعراء، وإنما ٱختُلف في تقديم أَحد الثلاثة على صاحبيه. فأمَّا الثلاثة فلا ٱختلاف فيهم، وهم امرؤ القيس وزُهير والنَّابغة الذُّبيانيّ.

قال جرير هو شاعر الجاهلية:

أَخبرني أَبو خليفة عن محمد بن سلَّام عن أَبي قيس عن عِكرِمة بن جرير عن أَبيه قال: شاعر أَهل الجاهلية زُهير.

قال عمر لابن عباس إنه شاعر الشعراء:

أَخبرني أَحمد بن عبد العزيز الجَوهريّ قال حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثنا هارون بن عمر قال حدثنا أَيوب بن سُويد قال حدثنا يحيى بن يزيد عن عمر بن عبد اللَّه اللَّيثيّ عن ابن عباس قال:

قال عمر بن الخطاب ليلة مَسيره إلى الجابية[1]: أَين ابن عباس؟ فأتيته؛ فشكا تخلُّف عليّ بن أَبي طالب رضي اللَّه عنه. فقلت: أَو لم يعتذر إليك؟ قال بَلى، قلت: فهو ما اعتذَر به. ثم قال: أَول مَن ريّثكم عن هذا الأمر أَبو بكر. إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوَّة ـ ثم ذكر قصَّةً طويلةً ليست من هذا الباب فتركتها أَنا ـ ثم قال: هل تروي لشاعر الشعراء؟ قلت: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولو أَنّ حمداً يُخلِدُ الناس أَخْلدوا ولكنّ حَمدَ الناس ليس بمُخلدِ

[الطويل]

قلت: ذاك زُهير. قال: فذاك شاعرُ الشعراء. قلت: وبِمَ كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه كان لا يُعاظِل في الكلام وكان يتجنَّب وحشيّ الشعر، ولم يمدح أَحداً إلَّا

(١) الجابية: قرية قرب دمشق وهي تقع شمال حوران.

بما فيه. قال الأصمعيّ: يعاظل[1] بين الكلام: يداخل فيه. ويقال: يتَّبع حُوشيّ الكلام، ووحْشيّ الكلام، والمعنى واحد.

كان قدامة بن موسى يقدّمه على سائر الشعراء:

أَخبرنا أَبو خليفة قال: قال ابن سَلَّام وأخبرني عمر بن موسى الجُمَحيُّ عن أَخيه قُدامةَ بن موسى ـ وكان من أَهل العلم ـ: إنه كان يُقدّم زُهيراً. قلت: فأي شيء كان أعجب إليه؟ قال: الذي يقول فيه:

قد جعل المبتغون الخيرَ من هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقَا

[البسيط]

قال جرير هو أَشعر أَهل الجاهلية:

قال ابن سلَّام وأَخبرني أبو قيس العَنبريّ ـ ولم أَرَ بدويّاً يَفي به ـ عن عِكرِمة ابن جرير قال:

قلتُ لأبي: يا أبتِ مَن أَشعرُ الناس؟ قال: أعن الجاهليَّة تسألني أم عن الإسلام؟ قلت. ما أَردتُ إلَّا الإسلام. فإذ ذكرتَ الجاهلية فأخبرني عن أَهلها. قال: زُهير أشعرُ أهلها. قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق نَبْعةُ الشعر. قلت: فالأخطل؟ قال: يُجيد مَدح الملوك ويُصيب وصفَ الخمر. قلت: فما تركتَ لنفسك؟ قال: نَحرتُ الشعرَ نَحراً.

قال عنه الأحنف بن قيس هو أشعر الشعراء:

أَخبرني الحسن بن علي قال أَخبرنا الحارث بن محمد عن المدائنيّ عن عيسى بن يزيد قال.

سأل معاوية الأحنفَ بن قَيس عن أَشعر الشعراء، فقال: زهير. قال: وكيف؟ قال: ألقى عن المادحين فضولَ الكلام. قال: مِثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

فما يَكُ من خيرٍ أَتَوْه فإنما تَوَارثَه آباءُ آبائهم قَبلُ

[الطويل]

مدح عمر بن الخطاب شعره:

أَخبرني أَحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثنا عبدُ اللَّه بن عمرو القيسيّ قال حدثنا خارجةُ بن عبد اللَّه بن سليمان عن زيد بن ثابت عن عبد اللَّه بن أَبي سُفيان عن أَبيه عن ابن عباس، قال: وحدّثنيه غيرُه وهو أَتم من حديثه، قال: قال ابن عباس:

(١) يعاظل بين الكلام: يداخل فيه.

خرجتُ مع عمر في أَوّل غَزاةٍ غزاها. فقال لي ذات ليلة: يا ابن عباس أَنشدني لشاعر الشعراء. قلتُ: ومن هو يا أَمير المؤمنين؟ قال: ابن أَبي سُلمى. قلت: وبمَ صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتَّبع حُوشي الكلام، ولا يُعاظِل من المنطق، ولا يقول إلَّا ما يعرف، ولا يمتدح الرجلَ إلَّا بما يكون فيه. أَليس الذي يقول:

إذا ٱبتدرَت قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً من المجدِ من يسبِق إليها يُسوّدِ
سبقتَ إليها كلّ طلقٍ مُبرّزٍ سبُوق إلى الغايات غير مُزَنَّدِ
كفعل جوادٍ يَسبِقُ الخيلَ عفوُه السِّراع وإن يجهد ويَجهدْن يَبعُدِ
ولو كان حَمدٌ يُخلِد الناس لم تَمتْ ولكنّ حَمدَ الناس ليس بمُخلِدِ

[الطويل]

أَنشدني له، فأنشدته حتى بَرق الفجرُ. فقال: حسبك الآن، اقرأ القرآن، قلت: وما أقرأ؟ قال: اقرأ الواقعة، فقرأتُها ونزل فأذّن وصلَّى.

أخبرني محمد بن القاسم الأنباريّ قال حدثني أبي قال حدّثنا أحمد بن عُبيد قال أخبرنا أَبو عُبيدة عن عيسى بن يزيد بن بكر قال: قال ابن عباس: خرجت مع عمر، ثم ذكر الحديثَ نحوَ هذا.

إستعاذ منه النبيّ ﷺ فما قال شعراً حتى مات:

وجدتُ في بعض الكتب عن عبد اللَّه بن شَبِيب عن الزُّبَير بن بكَّار عن حُميد بن محمد بن عبد العزيز الزُّهريّ عن أَخيه إبراهيم بن محمد يرفَعه:

أنّ رسول اللَّه ﷺ نظر إلى زهير بن أَبي سُلمى وله مائة سنة فقال: «**اللَّهم أعِذني من شيطانه**» فما لاك[1] بيتاً حتى مات.

قال ابن الأعرابيّ وأَبو عمرو الشَّيباني:

كان من حديث زهير وأهلِ بيته أنهم كانوا من مُزينة، وكان بنو عبد اللَّه ابن غَطَفان جيرانَهم، وقِدْماً ولدتْهم بنو مُرّة. وكان من أمرِ أَبي سُلمى أنه خرج وخالَه أَسعد بنَ الغدِير بن مُرّة بن عَوف بن سعد بن ذُبيان بن بغِيض وابنه كعبَ بن أسعد في ناس من بني مُرّة يُغيرون على طيء، فأصابوا نَعماً كثيرة وأموالاً فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم. فقال أبو سُلمى لخاله أسعد وابن خاله كعب: أَفْردا لي سَهمي، فأبيا عليه ومنعاه حقَّه، فكفّ عنهما؛ حتى إذا كان الليلُ أتى أمَّه فقال: والذي أحلِف به لَتَقُومِنّ إلى بعيرٍ من هذه الإبل فلتَقعُدِنَّ عليه أَو لأضربَنّ بسيفي تحت قُرطَيكِ.

(١) لاكَ: أي ذكر أعراض الناس، وأراد هنا أنه لم يتكلم بالشعر من حينها حتى موته.

فقامت أُمُّه إلى بعير منها فٱعتنقت سَنامه، وساق بها أَبو سُلمى وهو يرتجز ويقول:

ويْـلٌ لأجـمـال الـعـجـوز مـنِّـي إذا دنـوتُ ودنـونَ مـنِّـي
كـأنّـنـي سَـمَـعـمـعٌ مـن جِـنِّ

[الرجز]

ـ سَمَعمعٌ: لطيفُ الجسم قليلُ اللحم ـ وساقَ الإِبلَ وأُمّه حتى ٱنتهى إلى قومه مُزينةَ. فذلك حيث يقول:

ولـتَـغـدُوَن إبِـلٌ مـجـنَّـبـةٌ مـن عـنـد أَسـعـد وابـنـه كـعـبِ

ـ مُجنَّبة: مجنوبة ـ

ألآكـلـيـن صَـريـح قـومِـهـمـا أكـلَ الـحُـبـارَى[1] بُـرعُـمَ الـرُّطْـبِ[2]

[الكامل]

ـ البُرعم: شجرة ولها نَورٌ ـ قال: فلبِث فيهم حيناً، ثم أَقبل بمُزَينة مُغِيراً على بني ذُبيان. حتى إذا مُزَينةُ أسهلتْ وخلَّفتْ بلادها ونظروا إلى أرض غَطَفان، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحده. فذلك حيث يقول:

مَـن يـشـتـري فـرسـاً لـخـيـرٍ غَـزوُهـا وأَبَـتْ عَـشِـيـرةُ ربِّـهـا أن تُـسْـهِـلا

[الكامل]

يعني أن تنزل السهلَ. قال: وأقبل حين رأى ذلك من مُزَينة حتى دخل في أَخواله بني مُرَّة. فلم يزل هو وولده في بني عبد اللَّه بن غَطَفان إلى اليوم.

وقصيدة زُهَير هذه أَعني:

أَمِـنْ أُمِّ أَوفـى دِمـنـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ

قالها زُهير في قَتل وَرْد بن حابِس العَبْسيّ هَرمَ بن ضَمضَمَ المُرِّيّ الذي يقول فيه عَنتَرَة وفي أخيه:

ولـقـد خَـشِـيـتُ بـأن أمـوت ولـم تَـدُر لـلـحـرب دائـرةٌ عـلـى ابـنَـيْ ضـمـضَـم

ويمدح بها هَرمَ بن سِنان والحارثَ بن عَوف بن سعد بن ذُبيان المُرِّيين لأنهما ٱحتملا دِيته في مالهما؛ وذلك قول زُهير:

سَـعَـى سـاعـيـا غَـيْـظِ بـن مُـرّةَ بـعـدمـا تَـبَـزّل مـا بـيـن الـعَـشـيـرة بـالـدّم

[الطويل]

---

(١) الحبارى: سبق تخريجها. (٢) الرُّطب: الأخضر الغضّ من الشجر والعشب والبقل.

يعني بني غَيظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان.

قال الأثرم أَبو الحسن حدثني أَبو عُبيدة قال:

كان وَرد بن حابس العبسيّ قتل هَرمَ بن ضَمضم المُرِّي، فتشاجر عَبسٌ وذُبيان قبل الصلح، وحلف حُصَين بن ضمضم ألَّا يغسِل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلاً من بني عبس ثم من بني غالب، ولم يُطلِع على ذلك أحداً، وقد حَمل الحمَالة[1] الحارثُ بن عوف بن أَبي حارثة، وقيل بل أخوه حارثة بن سِنان. فأقبل رجلٌ من بني عَبس ثم أحدُ بني مخزوم، حتى نزل بحُصين بن ضمضم. فقال له حُصين: مَن أنتَ أيُّها الرجل؟ قال: عَبْسيٌّ. قال: من أَيّ عبس؟ فلم يزل يَنتسب حتى ٱنتسب إلى بني غالب، فقتله حُصين. وبلغ ذلك الحارثَ بنَ عَوف وهَرم بنَ سِنان فاشتدّ عليهما، وبلغ بني عبسٍ فركبوا نحو الحارث. فلمَّا بلغه ركوبُهم إليه وما قد ٱشتدّ عليهم من قَتل صاحبِهم وأنّهم يريدون قتل الحارث، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنُه، وقال للرسول: قل لهم: الإبلُ أحبُّ إليكم أم أَنفسكم؟ فأقبل الرسول حتى قال لهم ذلك. فقال لهم الرّبيع بن زِياد: يا قوم إنَّ أخاكم قد أَرسل إليكم: «**الإبلُ أحبُّ إليكم أم ابني تَقتلونه مكانَ قتيلكم**». فقالوا نأخذ الإبل ونصالح قومَنا، ونُتِمُّ الصُّلحَ. فذلك حين يقول زهير يمدح الحارث وهَرماً:

أمِـــن أمِّ أَوفَـــى دِمـــنـــةٌ لـــم تَـــكَـــلَّـــمِ

وهي أول قصيدة مدح بها هَرماً، ثم تابع ذلك بعدُ.

قصة زواج الحارث بن عوف ببهيسة بنت أوس:

وقد أَخبرني الحسن بن علي بهذه القصة، وروايته أتمُّ من هذه، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال حدثنا عبد اللَّه بن أَبي سعد قال حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبيّ قال حدثني إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن عَوف عن أَبيه قال:

قال الحارثُ بن عَوف بن أَبي حارثة: أتُراني أَخطب إلى أَحد فيردّني؟ قال: نعم. قال: ومَن ذاك؟ قال: أَوسُ بنُ حارثة بن لَأْم الطَّائيّ. فقال الحارث لغلامه: ٱرحَلْ بنا، ففعل. فركبا حتى أتيا أوسَ بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله. فلمَّا رأى الحارثَ بن عَوفٍ قال: مرحباً بك يا حارِ. قال: وبك. قال: ما جاء بك يا حارِ؟ قال: جئتُك خاطباً. قال: لستَ هناك. فٱنصرف ولم يكلِّمه.. ودخل أوسٌ على امرأته مُغضَباً وكانت من عَبس

(١) حمل الحمالة: تحمَّل دفع الدّية، وأخذها على عاتقه.

فقالت: مَن رَجُلٌ وقفَ عليك فلم يُطِل ولم تكلِّمه؟ قال: ذاك سيِّد العرب الحارث بن عوف بن أَبي حارثة المُرّيّ. قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استمق[١]. قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً. قالت: أفتريد أن تزوّج بناتك؟ قال: نعم. قالت: فإذا لم تُزَوِّج سيِّدَ العرب فمنْ؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارَك ما كان منك. قال: بماذا؟ قالت: تَلحَقُه فتردُّه. قال: وكيف وقد فَرَط منّي ما فَرَط إليه؟ قالت: تقول له: إنك لَقِيتَني مُغضَباً بأمرٍ لم تقدِّم فيه قولاً، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعتَ، فانصرِفْ ولك عندي كلُّ ما أحببتَ فإنه سيفعل. فركبَ في أثَرِهما. قال خارجةُ بن سِنان: فواللَّه إني لأسيرُ إذا حانت منّي ٱلتفاتةٌ فرأيته، فأقبلتُ على الحارث وما يُكلِّمني غَمّاً فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أَثرنا. قال: وما نصنع به! امضِ! فلمَّا رآنا لا نقِف عليه صاح: يا حار اربَعْ عليَّ ساعةً. فوقفنا له فكلّمه بذلك الكلام فرجع مسروراً. فبلغني أن أوساً لمَّا دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانة (الأكبر بناته) فأتته، فقال: يا بُنيَّة، هذا الحارث بن عَوف سيِّدٌ من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردتُ أَن أُزوِّجَك منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولِمَ؟ قالت: لأني امرأة في وجهي ردَّة[٢]، وفي خُلُقي بعضُ العُهدة[٣]، ولستُ بابنة عمّه فيرعى رَحمي، وليس بجارِك في البلد فيستحي منك، ولا آمنُ أَن يرى منّي ما يَكره فيطلِّقني فيكون عليّ في ذلك ما فيه. قال: قُومي بارك اللَّه عليك. ادعي لي فلانة (لابنته الوُسطى)؛ فدعتها، ثم قال لها مِثلَ قوله لأختها؛ فأجابته بمثل جوابها وقالت: إني خَرقاءُ وليست بيدي صِناعة، ولا آمن أَن يرى منّي ما يكره فيطلِّقَني فيكونَ عليّ في ذلك ما تعلم. وليس بابنِ عمي فيرعى حقِّي، ولا جارِكَ في بلدك فيَستَحيِيَك. قال: قومي بارك اللَّه عليكِ. ادعي لي بُهَيسةَ (يعني الصغرى)، فأتِيَ بها فقال لها كما قال لهما. فقالت: أنت وذاك. فقال لها: إني قد عرضت ذلك على أُختيكِ فأبَتاه. فقالت ـ ولم يذكر لها مقالتَيهما ـ لكنّي واللَّه الجميلةُ وجهاً، الصَّناعُ يداً، الرفيعةُ خُلْقاً، الحسيبةُ أباً، فإن طلَّقني فلا أَخلَف اللَّهُ عليه بخير. فقال: بارك اللَّه عليكِ. ثم خرج إلينا فقال: قد زوَّجتُك يا حارثُ بُهَيسةَ بنتَ أَوس. قال: قد قَبِلتُ. فأمر أُمَّها أَن تُهَيِّئها وتُصلِح من شأنها، ثم أمر ببيت فضُرِب له، وأنزله إيَّاه. فلمَّا هُيِّئتْ بعث بها إليه. فلمَّا أُدخِلت إليه لبِث هُنَيهةً ثم خرج إليّ. فقلت: أفَرَغتَ من شأنك؟ قال: لا واللَّه. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لمَّا مَدَدتُ يدي إليها قالت: مَهْ! أعند أَبي وإخوتي!! هذا واللَّه ما لا يكون. قال: فأمر بالرّحلة

(١) إستمق: بمعنى جهل واستحمق. (٢) الردة: القبح القليل.

(٣) العهدة: الضعفُ في الخُلُق، أي الحِدَّة.

فٱرتحلنا ورحلنا بها معنا، فسِرنا ما شاء اللَّه. ثم قال لي: تقدّمْ فتقدمتُ، وعدّل بها عن الطريق، فما لبِثَ أَن لحق بي. فقلت: أَفَرَغتَ؟ قال: لا واللَّه. قلت: ولِمَ؟ قال: قالت لي: أكما يُفعَل بالأمَةِ الجَليبةِ أَو السَّبِيَّة الأخيذة! لا واللَّه حتى تنحَرَ الجُزُرَ، وتذبح الغنمَ، وتدعُوَ العربَ، وتعمَلَ ما يعمل لمثلي. قلتُ: واللَّه إني لأرى هِمَّةً وعقلاً، وأرجو أَن تكون المرأة مُنجبةً إن شاء اللَّه. فرحلنا حتى جئنا بلادَنا، فأحضَرَ الإبلَ والغنم، ثم دخل عليها وخرج إليّ. فقلت: أفَرَغتَ؟ قال لا. قلت: ولِمَ؟ قال: دخلتُ عليها أُريدها، وقلتُ لها قد أحضَرنا من المال ما قد تَرَين، فقالت: واللَّه لقد ذكرتَ لي من الشرف ما لا أَراه فيك. قلت: وكيف؟ قالت: أتفرُغ لنكاح النساء والعربُ تقتل بعضها! (وذلك في أيام حرب عَبس وذُبيان). قلت: فيكون ماذا؟ قالت: ٱخرُج إلى هؤلاء القوم فأصلِح بينهم، ثم ارجِع إلى أهلك فلن يفوتك. فقلت: واللَّه إني لأرى هِمَّةً وعقلاً، ولقد قالت قولاً. قال: فٱخرُج بنا. فخرجنا حتى أَتينا القومَ فمشَينا فيما بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أَن يحتَسِبوا القتلى؛ فيؤخذَ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الدّياتِ، فكانت ثلاثةَ آلاف بعير في ثلاث سنين، فٱنصرفنا بأجمل الذّكر. قال محمد بن عبد العزيز: فمُدِحوا بذلك، وقال فيه زُهَير بن أَبي سُلمى قصيدتَه:

أمِــنْ أُمِّ أَوفــى دِمــنــةٌ لــم تَــكَــلَّــمِ

فذكرهما فيها فقال:

تـدارَكـتـمـا عَـبـسـاً وذُبـيـانَ بـعـد مـا تـفـانَـوْا ودَقُّـوا بـيـنـهـم عِـطـرَ مَـنـشَـمِ[1]
فـأصـبـح يـجـري فـيـهـمُ مـن تِـلادكـم[2] مَـغـانـمُ شَـتـى مـن إفـالِ[3] الـمُـزَنَّـمِ
يُـنَـجِّـمُـهـا[4] قـومٌ لـقـومٍ غـرامـةً ولـم يُـهَـريـقـوا بـيـنـهـم مِـلْءَ مِـحـجَـمِ

[الطويل]

وذكر قيامهم في ذلك فقال:

«صحا القلبُ عن سَلمى وقد كاد لا يسلو»

وهي قصيدة يقول فيها:

تـدارَكـتـمـا الأحـلاف قـد ثُـلَّ[5] عـرشُـهـا وذُبـيـانَ قـد زلَّـتْ بـأقـدامِـهـا الـنَّـعـلُ

[الطويل]

---

(١) مَنْشَم: يقال إنه اسم امرأة عطّارة. (٢) تلادكم: أموالكم الموروثة.
(٣) الإفال: مفردها إفل وهو الصغير من الإبل. (٤) ينجِّمها: يجعلها أقساطاً.
(٥) ثلَّ عرشها: أصابَه الضعف مما أدى إلى زواله.

وهذه لهم شرفٌ إلى الآن. ورجع فدخل بها، فولدَت له بنين وبنات.

ومما مدح به هَرِماً وأَباه وإخوتَه وغُنِّيَ فيه قولُه:

صـوت

إنَّ الـخـلـيـطَ[1] أَجَـدَّ الـبـيـنَ فـانـفـرقـا ... وعُـلِّـق الـقَـلْـبُ مـن أَسـمـاء مـا عَـلِـقَـا

وأخـلـفـتْـكَ ابـنـةُ الـبَـكـريّ مـا وعـدتْ ... فـأصـبـح الـحـبـلُ مـنـهـا واهـنـاً خَـلَـقَـا

قـامـت تَـبَـدَّى بـذي ضـالٍ لِـتَـحـزُنَـنـي ... ولا مـحـالـة أن يـشـتـاقَ مَـن عَـشِـقَـا

بـجـيـدِ مُـغـزِلَـةٍ أَدمـاءَ خـاذِلَـةٍ ... مـن الـظـبـاء تُـراعـي شـادنـاً خَـرِقَـا

[البسيط]

إنفرق: إنفعل، من الفُرقة. وأجَدَّ وجَدَّ بمعنًى واحد، من الجِدِّ خلاف اللّعب. والواهن والواهي واحد. والحبل: السببُ في المودّة. والضَّال: السِّدْرُ الصغارُ، واحدتُها ضالَة. والجيد: العُنُق. والمُغزِلةُ: الظبية التي لها غزال. والأدماء: البيضاء. والخاذلة: المقيمة على ولَدِها ولا تتبع الظباء. والشَّادِنُ: الذي قد شدَن أَي تحرّك ولم يَقوَ بعدُ. والخَرق: الدَّهِشُ.

غَنَّى مالك في الأوّل والثاني من الأبيات خفيف رملٍ بالوسطى، وقيل إنه لابن جامع، وقيل بل لحنُ ابن جامع بالبِنصر. وفي الثالث والرابع لابن المكيّ رمَلٌ صحيحٌ من روايتَيْ بَذْل والهشاميّ.

وفي هذه القصيدة يقول يمدح هَرِماً:

قـد جـعـل الـمـبـتـغـون الـخـيـرَ مـن هَـرِم ... والـسـائـلـون إلـى أَبـوابـه طُـرُقَـا

مـن يَـلـقَ يـومـاً عـلـى عِـلَّاتـه هَـرِمـاً ... يَـلـقَ الـسـمـاحـةَ مـنـه والـنَّـدى خُـلُـقَـا

لـيـثٌ بـعَـثَّـرَ يـصـطـاد الـلُّـيـوثَ إذا ... مـا الـلَّـيـثُ كـذَّب عـن أَقـرانـه صَـدَقَـا

يـطـعَـنُـهُـمْ مـا ارتَـمـوْا حـتـى إذا ٱطَّـعـنـوا ... ضـاربَ حـتـى إذا مـا ضـارَبـوا ٱعـتـنـقَـا

[البسيط]

خرف سنان بن أبي حارثة ثم مات فرثاه:

ومن مدائحه إيَّاهم قوله يمدح أَبا هَرِم سِنان بن أَبي حارثةَ. وذكر ابن

(١) الخليط: المخالِط.

الكلبيّ أَنه هوي امرأةً فٱستُهيم بها؛ وتَفاقم به ذلك حتى فُقِد فلم يُعرَف له خبر. فتزعم بنو مُرَّة أَنّ الجنّ ٱستطارتْه فأَدخلتْه بلادَها، وٱستعجلتْه لكَرَمه. وذكر أَبو عُبَيدة أَنَّه قد كان هَرِم حتى بلغ مائةً وخمسين سنة؛ فهام على وجهه خَرَفاً ففُقِد. قال: فزعم لي شيخٌ من علماء بني مُرَّة أَنه خرج لحاجته بالليل فأَبعد، فلمَّا رجع ضَلَّ فهام طولَ ليلته حتى سقط فمات، وتبع قومُه أثرَه فوجدوه ميتاً. فرثاه زُهَير بقوله:

إنّ الـرَّزِيَّـةَ لا رَزِيّـةَ مِـثـلُـهـا ... مـا تَـبـتـغـي غَـطَـفـانُ يـومَ أَضَـلَّـتِ
إنّ الـركـاب لـتَـبـتَـغـي ذا مِـرَّةٍ ... بـجَـنُـوب نَـجـدَ إذا الـشـهـورُ أَحَـلَّـتِ
يَـنـعَـيـنَ خـيـرَ الـنـاس عـنـد شـديـدة ... عَـظُـمـتْ مـصـيـبـتُـه هـنـاك وجَـلَّـتِ
ومُـدَفَّـعٍ ذاقَ الـهَـوَانَ مُـلَـعَّـنٍ ... راخـيـتَ عُـقـدةَ حَـبـلـه فـٱنـحـلَّـتِ
ولـنِـعـمَ حـشـوُ الـدّرعِ كـان إذا سَـطـا ... نَـهِـلَـتْ مـن الـعَـلَـقِ الـرَّمـاحُ وعَـلَّـتِ

[الكامل]

والذي فيه غِناء من مدائح زُهير قولُه:

أمِـن أُمِّ سَـلـمـى عـرَفـتَ الـطُّـلـولَا ... بـذي حُـرُضٍ مـاثـلاتٍ مُـثُـولَا
بَـلِـيـنَ وتـحـسَـبُ آيـاتِـهـن ... عـلـى فَـرطِ حَـولَـيـن رَقَّـا مُـحـيـلَا

[المتقارب]

الماثل هاهنا: اللاطِئُ بالأرض، وفي موضع آخر: المُنتَصِبُ القائم. وذو حُرُضٍ: موضعٌ. والحُرُضُ: الأشنان. وآياتُهنّ: علاماتُهنّ. وفَرطُ حَولَين: تقدُّمُ حولين، والفارِط: المتقدّم.

غنَّى في هذين البيتين إسحاق، وله فيهما لحنان: أحدهما ثاني ثقيلٍ بإطلاق الوتَر في مجرى البِنصر، من كتابه. والآخر ماخُوريٌّ من مجموع غِنائه، وروايته عن الهِشاميّ. وفيهما للزُّبَير بن دَحمانَ خفيفُ ثقيلٍ أوّل بالبِنصر عن عمرو. يقول فيها:

إلـيـك سِـنـانُ الـغَـداةَ الـرَّحـيـلُ أَعـصـي الـنُّـهـاةَ وأُمـضـي الـفُـؤولَا

[المتقارب]

جمع فأل، أي لا أتطيَّر.

فـلا تـأمَـنـي غَـزْوَ أَفـراسِـه ... بَـنـي وائـلٍ وٱحـذَريـه جَـديـلَا
وكـيـف ٱتـقـاءُ امـرىءٍ لا يـؤو ... ب بـالـقـوم فـي الـغَـزوِ حـتـى يُـطـيـلَا

[المتقارب]

ومن الغناء في مدائح هَرِم قولُه:

صـوت

قِفْ بالدّيار التي لم يَعفُها القِدَمُ بَلى وغيّرها الأرواحُ والدِّيَمُ
كأنّ عيني وقد سال السَّليلُ بهم وعَبرَةٌ ما هُمُ لو أنَّهم أُمَمُ
غَرْبٌ على بَكرة أَو لؤلؤٌ قَلِقٌ في السِّلك خان به ربَّاته النُّظُمُ

[البسيط]

الدِّيَمُ: جمع دِيمة، وهو المطر الذي يدوم يوماً أو يومين مع سكون. سال السَّليل بهم: أي ساروا فيه سيراً سريعاً. والسَّليلُ: وادٍ. وقولُه وعَبرةٌ ما هُمُ أَي هم عَبرةٌ، وما هاهنا صِلةٌ. لو أنهم أَمَم أَي قَصدٌ كنتُ أزوهم. والأمَمُ: بين القريب والبعيد. والقَلِقُ: الذي لم يستقرّ لِما ٱنقطع الخَيط. والنُّظُمُ: جَمعٌ واحدها نِظام، شبَّه دموعَه بلؤلؤ ٱنقطع سِلكُه، وبماءٍ سال من الغرب.

الغناءُ في هذه الأبيات رمَلٌ لابن المكيّ بالوسطى عن عمرو. وذكر عمرو أن لإسحاق فيها لحناً أيضاً. وذكر يونس أَن فيها لحناً لمالك.

صـوت

لمن الدّيارُ بقُنَّةِ الحَجرِ أقوَينَ مُذ حِجَجٍ ومُذ دَهرِ
لَعب الرِّياحُ بها وغيّرها بَعدي سَوافي الرّيح والقَطرِ
دَع ذا وعَدِّ القول في هَرِمٍ خيرِ الكُهول وسيِّدِ الحَضرِ
لو كنتَ من شيءٍ سوى بَشَرٍ كنتَ المُنَوِّرَ ليلةَ البَدرِ

[الكامل]

القُنَّةُ: الجبل الذي ليس بمنتشر. أقوَينَ: خَلَوْنَ. والسَّوافي: ما تَسفي الرياح. قال: والقطرُ مخفوضةٌ بنَسقه على الريح، والقَطرُ لا سَوافيَ له. وهذا تفعله العرب في المجاورة، وهو مثل قولهم: جُحرُ ضَبٍّ خَربٍ.

غنَّى في هذه الأبيات سائب خاثر من رواية حَمَّاد عن أَبيه، ولم يجنِّسه. وفيه ثقيلٌ أوَّل بالبنصر نسبه عمرو بن بانة إلى مَعبَد، ونسبه غيرُه إلى سائب، وإلى الأوسِيَّة مما ذكر حَبَشٌ. قال: وهي من قِيان الحِجاز القدائم مولاةٌ للأوس.

ومنها قولُه يمدح سِنانَ بن أَبي حارثة:

صـــوت

صَحا القلبُ عن سَلمى وقد كاد لا يَسلو ... وأَقفَرَ من سَلمى التَّعانيقُ فالثِّقلُ
وقد كنتُ من سَلمى سنينَ ثمانياً ... على صِيرِ أَمرٍ ما يمرُّ وما يَحلو
وكنتُ إذا ما جئتُ يوماً لحاجة ... مَضَتْ وأجَمَّتْ حاجةُ الغَدِ ما تَخلو
وكلُّ محبٍّ أَحدَثَ النَّأيُ عنده ... سُلُوَّ فؤادٍ غيرَ حُبِّكِ ما يَسلو
تأوَّبَني ذِكرُ الأحِبَّةِ بعدَ ما ... هَجَعتُ ودوني قُلَّةُ الحَزن فالرَّملُ
فأقسمتُ جَهداً بالمنازل من مِنًى ... وما سُحِفَتْ فيه المَقاديمُ والقَملُ
لأرتَحِلَنْ بالفجر ثم لأَدأَبَنْ ... إلى الليل إلَّا أَن يُعَرِّجَني طِفلُ
وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلَّا وَشيجُه ... وتُغرَسُ إلَّا في مَنابتها النَّخلُ

[الطويل]

التَّعانيق والثِّقل: موضعان. ويُروى: فالنَّخل. وقولُه على صِير أمرٍ: أي على شرَف أمر. وأجَمَّت: دنت. وتأوّبني: أتاني ليلاً. والتأويب: سَيرُ يوم إلى الليل. سُحِفَتْ: حُلِقَت، يقال سَحَف رأسه وسَبَتَه وجَلطَه: حلقه. وقولُه «يُعَرِّجني طِفلٌ» قال: يقال الطِّفل: الليل، ويقال الطِّفل: مَغيبُ الشمس، وقال أَبو عُبيدة: الطفل: الحَزنُ، وإيقادُه نار[1] التَّحيير. والخَطِّيُّ: رِماحٌ نَسَبَها إلى الخطّ وهي من جزيرة بالبحرين تُرفَأ إليه سُفُنُ الرماح. والوَشيج: القَنا واحدها وَشيجةٌ. والوُشوج: دخول الشيء بعضِه في بعض.

غَنَّى إبراهيمُ المَوصِليّ في الأول والثاني ثقيلاً أَول بالبِنصر من رواية الهشاميّ وعمرو. وغَنَّى إبراهيم أَيضاً في السادس والسابع والثامن خفيفَ ثقيلٍ. وفي الثالث لمعبَد خفيفُ ثقيلٍ. ولعَلّويه في السابع والثامن خفيفُ رمَلٍ. وذكر حَبشٌ أن لإبراهيم في الثامن لحناً ماخُورِيّاً.

ومن الغناء في مدائحه هَرِماً قولُه:

صـــوت

لمن طَلَلٌ برامةَ لا يَريمُ ... عَفَا وأحالَه عَهدٌ قديمُ

(١) نار التحيير: هي النار التي توقد في الصحراء ليهتدي بها الحائر أو التائه.

تَـطـالَـعُـنـي خـيـالاتٌ لـسَـلـمَـى كـمـا يَـتَـطـالـعُ الـدَّيـن الـغـريـمُ

[الوافر]

غَنَّاه دَحمان ثاني ثقيلٍ بالبِنصر عن عمرو. وعَفا: درس هاهنا، وفي موضع آخر: كثُر، وهو من الأضداد. وخيالاتٌ: جمع خيال.

أَخبرني أَحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المُهَلَّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبَّة، وقال المُهَلَّبيّ في خبرٍ له عن الأصمعيّ قال:

أُنشِد عمرُ بن الخطَّاب قولَ زُهَير في هَرِم بن سِنان يمدحه:

دَعْ ذا وعَـدِّ الـقـول فـي هَـرِمٍ خـيـرِ الـكـهـول وسـيِّـدِ الـحَـضـرِ

لـو كـنـتَ مـن شـيءٍ سـوى بَـشَـرٍ كـنـتَ الـمـنـوِّرَ لـيـلـةَ الـبـدرِ

ولَأنـت أَوصَـلُ مَـن سَـمـعـتُ بـه لِـشَـوابِـكِ الأرحـام والـصِّـهـرِ

ولَـنِـعْـمَ حَـشـوُ الـدّرعِ أَنـتَ إذا دُعِـيَـتْ نَـزالِ ولُـجَّ فـي الـذُّعـرِ

وأراك تَـفـري مـا خَـلَـقْـتَ وبـعـ ـضُ الـقـومِ يـخـلُـق ثـم لا يَـفـري

أُثـنـي عـلـيـكَ بـمـا عـلـمـتُ ومـا أَسـلـفـتَ فـي الـنَّـجَـداتِ مـن ذِكـرِ

والـسِّـتـرُ دون الـفـاحـشـات ولا يـلـقـاكَ دون الـخـيـرِ مـن سِـتـرِ

[الكامل]

فقال عمر: ذلك رسولُ اللَّه ﷺ.

قال: وقال عمر لبعض ولَدِ هَرِم: أنشدني بعضَ مَدح زُهَيرٍ أباك، فأنشده: فقال عمر: إن كان لَيُحسن فيكم القولَ. قال: ونحن واللَّه إن كنَّا لنُحسن له العطاءَ. فقال: قد ذهب ما أعطيتموه وبَقِيَ ما أعطاكم.

قال: وبلغني أنّ هَرِماً كان قد حلف ألَّا يمدحه زُهير إلَّا أعطاه، ولا يسأَلَه إلَّا أَعطاه، ولا يسلِّم عليه إلَّا أَعطاه: عَبداً أَو وليدة أو فرساً. فٱستحيا زهيرٌ مما كان يقبَل منه، فكان إذا رآه في ملإٍ قال: عِمُوا صباحاً غيرَ هَرِمٍ، وخيركم ٱستثنيتُ. وروى المُهَلَّبيّ: وخيركم تركتُ.

أَخبرني الجَوهَريّ والمهلَّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبَّة قال:

قال عمر لابن زُهير: ما فعلتِ الحُلَلُ التي كساها هَرِمٌ أباك؟ قال: أبلاها الدهر.

قال: لكنَّ الحُلَلَ التي كساها أبوك هَرِماً لم يُبلِها الدهر. وقد ذكر الهَيثمُ بن عَدِيّ أن عائشةَ خاطبتْ بهذه المقالةِ بعضَ بناتِ زهَير.

وقال أَبو زيد عمر بن شبَّة: ومما سَبَق فيه زُهَير في مَدح هرمٍ ولم يَسبِقه إليه أحد قولُه:

قد جعل المبتغون الخيرَ من هَرِمٍ والسائلون إلى أَبوابه طُرُقَا
مَن يَلقَ يوماً على عِلَّاته هَرِماً يَلقَ السَّماحةَ منه والنَّدى خُلُقَا
يطلب شأْوَ امرَأَين قَدَّما حَسَباً بَذَّا المملوكَ وبَذَّا هذه السُّوَقَا
هو الجوادُ فإن يَلحَق بشأوهما على تكاليفه فمِثلُه لَحِقَا
أو يسبقاه على ما كان من مَهَلٍ فمثلُ ما قَدّما من صالحٍ سَبقَا

[البسيط]

مدح عبد الملك بن مروان شعره:

أَخبرني الجوهريّ والمهلَّبيّ قالا حدثنا عمر بن شبَّة قال: قال المدائنيّ:

قال عبد الملك بن مروان: ما يضرُّ مَن مُدحَ بما مَدَح به زهَيرٌ آل أَبي حارثةَ من قوله:

على مُكثِريهم رِزقُ مَن يَعتَريهُمُ وعند المقلِّين السماحة والبَذْلُ

[البسيط]

ألّا يملك أمورَ الناس (يعني الخلافة). قال ثم قال: ما ترك منهم زهَير غنِياً ولا فقيراً إلَّا وصفه ومدحه.

مدح عثمان بن عفان شعراً له:

قال ابن الأعرابيّ قال أَبو زِياد الكلابيّ: أنشِد عثمان بن عَفَّانَ قولَ زهير:

ومهما تكن عند امرىءٍ من خَليقةٍ وإن خالها تخفى على النَّاس تُعلَم

[الطويل]

فقال: أحسن زُهَير وصدَق، لو أنَّ رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدَّث به الناس. قال: وقال النبيّ ﷺ: **«لا تَعمَلْ عملاً تَكرَهُ أَن يُتَحَدَّثَ عنك به»**.

قال: وقال عليّ بن محمد المدائنيّ حدثني ابن جَعدويه:

أنَّ عُروةَ بن الزُّبَير لَحِقَ بعبد الملك بن مروان بعد قَتلِ أخيه عبد اللَّه بن الزُّبَير. فكان إذا دخل إليه منفرداً أكرمه، وإذا دخل عليه وعنده أَهل الشام ٱستخفَّ به.

فقال له يوماً: يا أَمير المؤمنين، بئس المَزورُ أنت؛ تُكرم ضيفَك في الخَلَا، وتُهينه في المَلَا، وقال: للَّه دَرّ زُهَير حيث يقول:

فـقَـرّي فـي بـلادك إنَّ قـومـاً مـتـى يَـدَعُـوا بـلادَهُـمُ يَـهـونـوا

[الوافر]

ثم ٱستأذنه في الرُّجوع إلى المدينة، فقضَى حوائجه وأذِن له. وهذا البيت من قصيدة لزُهَير قالها في بني تميم، وقد بلغه أنها حَشَدَتْ لغزو غَطَفان؛ أوَّلها:

ألا أبـلِـغ لـديـك بـنـي تَـمـيـمٍ وقـد يـأتـيـك بـالـخـبـر الـظَّـنـونُ

[الوافر]

الظَّنون: الذي لستَ منه على ثقة. والظنين: المُتَّهَم.

وقال ابن الأعرابي:

شعره في الحارث بن ورقاء وقد أخذ إبله وغلامه:

كان الحارث بن ورقاء الصَّيْداوي من بني أَسد أَغار على بني عبد اللَّه بن غَطفان فغَنِم فٱستاق إبل زُهير وراعيَه يساراً. فقال زُهير:

بان الـخـلـيـطُ[1] ولـم يـأْوُوا[2] لـمـن تـركـوا وزوّدوك ٱشـتـيـاقـاً أيَّـةً سَـلَـكـوا

[البسيط]

وهي طويلة يقول فيها:

لـئـن حـلـلـتَ بـجـوٍّ فـي بـنـي أسـدٍ فـي دِيـن عـمـرو وحـالـت بـيـنـنـا فَـدكُ
لَـيـأتِـيَـنَّـك مـنـي مَـنـطـقٌ قَـذَعٌ بـاقٍ كـمـا دَنَّـسَ الـقُـبْـطـيَّـة الـوَدَكُ[3]
فـٱردُد يـسـاراً ولا تـعـنُـف عـلـيـه ولا تـمـعَـكْ بِـعـرضِـك إن الـغـادر الـمَـعـكُ
ولا تـكـونـن كـأقـوامٍ عَـلِـمْـتُـهـمُ يَـلْـوُون مـا عـنـدهـم حـتـى إذا نُـهـكـوا[4]
طـابـت نـفـوسـهـمُ عـن حـقِّ خَـصـمِـهـمُ مـخـافـةَ الـشَّـرّ وٱرتـدُّوا لـمـا تَـرَكـوا

[البسيط]

---

(١) الخليط: الأصحاب المخالطون.
(٢) يأووا: يرحموا وترّق قلوبهم.
(٣) الوَدك: الدَّسَم.
(٤) نُهِكوا: شُتِموا وانتهكت أعراضهم وبولغ في هجائهم.

وفي هذه القصيدة مما يغنّى فيه:

صــوت

أَهْـوَى لـهـا أَسـفَـعُ الـخـدّيـن مُـطَّـرِقٌ ... رِيـشَ الـقـوادم لـم يُـنـصَـبْ لـه شَـرَكُ
وقـد أَكـون أَمـام الـحـيّ تـحـمِـلُـنـي ... جَـرداءُ لا فـحـجٌ فـيـهـا ولا صَـكَـكُ

[البسيط]

أَهوى لها ـ يَعني القطاة تقدّم وصفُه إياها ـ صقرٌ. ورواه الأصمعيّ: «هوى لها» وقال: هوى: ٱنقضَّ، وأهوى: أوفى. ومُطَّرِقٌ: ريشُه بعضُه على بعض ليس بمنتشر، وهو أَعتقُ له. وقوله لم يُنصَب له شَركٌ: أَي لم يُصطَد ولم يُذلَّل. والقوادِم: العشرُ المتقدّماتُ. والفحجُ: تباعُدُ ما بين الفخذين. والصَّككُ: ٱصطكاك العُرْقوبين في الدواب، وفي الناس الركبتين. قال: فلمَّا أُنشد الحارثُ هذا الشعر بعث بالغلام إلى زُهير. وقيل: بل أُنشد قول زُهير:

تـعـلَّـم أن شـرّ الـنـاس حـيٌّ ... يُـنـادى فـي شـعـارهـم يَـسـارُ
ولـولا عَـسـبُـه لـردَدتُـمـوه ... وشـرُّ مَـنـيـحَـة أَيـرٌ مُـعـارُ
إذا جَـمـحـتْ نـسـاؤكـمُ إلـيـه ... أشـظّ كـأنـه مَـسَـدٌ مُـغـارُ
يُـبـربـرُ حـيـن يـعـدو مـن بـعـيـدٍ ... إلـيـهـا وهـو قَـبـقـابٌ قُـطَـارُ

[الوافر]

فردّه عليه. فلامه قومه وقالوا له: اقتله ولا ترسل به إليه، فأبى عليهم. فقال زهير عند ذلك:

أَبـلـغ لـديـك بـنـي الـصَّـيـداء كـلَّـهُـم ... أن يَـسـاراً أَتـانـا غـيـرَ مَـغـلـولِ
ولا مُـهـانٍ ولـكـن عـنـد ذي كـرمٍ ... وفـي حـبـال وفـيٍّ الـعَـهـد مـأمـولِ

[البسيط]

وهي قصيدة. فقال الحارث لقومه: أيُّما أصلحُ: ما فعلتُ أو ما أردتُم؟ قالوا: بل ما فعلتَ.

قال ابن الأعرابي وحدثني أَبو زياد الكِلابي:

أن زهيراً وأباه وولدَه كانوا في بني عبد اللَّه بن غَطَفان، ومنزُلهم اليوم

بالحاجِر، وكانوا فيه في الجاهلية. وكان أَبو سُلمى تزوج إلى رجل من بني فهر بن مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبيان يقال له الغَدير ـ والغدير هو أَبو بَشامة الشاعر ـ فولدت له زُهيراً وأَوساً، ووُلد لزهير من امرأة من بني سُحيم. وكان زُهير يذكر في شعره بني مُرَّة وغَطَفان ويمدحهم. وكان زهير في الجاهلية سيِّداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع.

قال وحدثني حَمَّاد الراوية عن سعيد الراوية عن سعيد بن عمرو بن سعيد:

أنه بلغه أن زُهيراً هجا آلَ بيتٍ من كلب من بني عُلَيم بن جَناب، وكان بلغه عنهم شيءٌ من وَرَاءَ وَرَاءَ، وكان رجل من بني عبد اللَّه بن غَطَفان أتى بني علَيم، وأكرموه لمَّا نزل بهم وأحسنوا جِواره، وكان رجلاً مولعاً بالقمار فنهَوه عنه، فأبى إلَّا المقامرةَ. قُمِرَ مرةً فردّوا عليه؛ ثم قُمر أُخرى فردّوا عليه، ثم قُمر الثالثة فلم يردُّوا عليه، فترحّل عنهم وشكا ما صُنِع به إلى زهير، والعربُ حينئذٍ يتَّقُون الشعراء اتّقاءً شديداً. فقال: ما خرجتُ في ليلة ظلماءَ إلَّا خِفتُ أَن يُصِيبني اللَّه بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتُهم. قال والذي هجاهم به قوله:

عَفَا من آل فاطمةَ الجِواءُ ... فيُمنٌ فالقوادمُ فالحِساءُ[1]

فذُو هاشٍ[2] فمِيثُ عُرَيتِناتٍ[3] ... عفَتْها الرِّيحُ بعدَك والسماءُ

جَرتْ سُنُحاً فقلتُ لها أَجيزي ... نَوًى مَشمولةً فمتى اللِّقاءُ

كأنّ أَوابِد الثِّيران فيها ... هجائنُ في مغابِنها الطِّلاءُ

لقد طالبتُها ولكلِّ شيءٍ ... وإن طالت لَجاجتُه انتهاءُ

وقد أغدو على شربٍ كرام ... نشَاوَى واجدين لما نشاءُ

لهم طاس ورَاووقٌ ومِسكٌ ... تُعَلُّ به جلودُهمُ وماءُ

[الوافر]

الجِواءُ: أرض. ويُمنٌ والقوادمُ في بلاد غَطَفان. والمِيثُ: جمع مَيثاء. قال أَبو عمرو: إذا كان مَسيل الماء مثل نصف الوادي أو ثُلْثَيه فهي مَيثاء. والسماء هاهنا: المطر. والسَّانح: ما أَقبلَ من شِمالك يريد يمينك. والبارِحُ: ضِدُّه. وقال أَبو عُبيدة:

(١) يُمن والقوادم والحِساء: مواضع في بلاد غطفان.
(٢) ذو هاش: موضع في بلاد غطفان. (٣) عُريتنات: واد يدعى عريتنات.

سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح فقال: السانح: ما ولّاك ميامِنَه. والبارح: ما ولّاك مشائمه. وأجيزي: أنفُذي: قال الأصمعيّ: يقال أجزتُ الوادي إذا قطعته وخلَّفتُه، وجُزتُه: إذا سرتَ فيه فتجاوزتَه. والأوابِدُ: الوحشية. والهجائن: إبلٌ بِيضٌ. والمغابِن: الأرفاغ، واحدها مَغبِنٌ. ومشمولةٌ: سريعة الانكشاف. أخذه من الريح الشَّمال إذا كانت مع السحاب لم يلبث أن يذهب. وجعل مشمولة هاهنا في النوى لأن نيَّتهم كانت سريعة، فأجرى ذلك مَجرى الذَّمّ، فهذه السُّنُح.

غنّى في الأول والثاني والسابع مَعبدٌ ثقيلاً أَول بالسبَّابة في مجرى الوسطى عن إسحاق. وذكر علي بن يحيى أن للغريض فيها خفيفَ ثقيلٍ. وذكر حَبَشٌ أَن فيه للهُذَلي ثاني ثقيلٍ بالوسطى. وفي الثالث والرابع مع بيت ليس لزهير أُضيف إلى الشعر وهو:

بنفسي مَن تذكُّره سَقامٌ أعالجه ومطلَبُه عَناءُ

[الوافر]

في هذه الأبيات الثلاثة خفيفُ ثقيل أول بالوسطى في مَجراها، ذكر إسحاق أَنه للغريض، وغيرُه ينسُبه إلى ابن سُريج وإلى ابن عائشة. وفي الرابع والخامس لعَلَّويه رَمَلٌ لا يُشكّ فيه من غِنائه.

وقال ابن الأعرابي حدثني أَبو زِياد، وذكر بعضَ هذا الخبر إسحاق الموصلي عن حَمَّاد الراوية وعن ابن الكلبي عن أَبيه قال:

وكان بشامةُ بن الغَدير خالَ زهير بن أَبي سُلمى، وكان زهير منقطعاً إليه وكان مُعجباً بشعره. وكان بشامةُ رجلاً مُقعَداً ولم يكن له ولد، وكان مُكثِراً من المال، ومن أَجل ذلك نزل إلى هذا البيت في غَطَفان لخُؤلتهم. وكان بشامةُ أحزم الناس رأياً، وكانت غَطَفان إذا أَرادوا أَن يغزوا أتَوه فاستشاروه وصدَروا عن رأيه، فإذا رجعوا قسموا له مِثل ما يَقسمون لأفضلهم، فمن أجل ذلك كثُر ماله. وكان أَسعد غَطفان في زمانه. فلما حَضره الموتُ جعل يَقسم مالَه في أَهل بيته وبين بني إخوته. فأتاه زهيرٌ فقال: يا خالاه لو قسمتَ لي من مالك!! فقال: واللَّه يابن أُختي لقد قسمتُ لك أفضلَ ذلك وأجزلَه. قال: وما هو؟ قال: شعري ورَثتنيه. وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعرَ، وقد كان أوَّل ما قال. فقال له زهير: الشعر شيءٌ ما قلته فكيف تعتدّ به عليّ؟ فقال بَشامةُ: ومن

أَين جئتَ بهذا الشعر! لعلك ترى أَنَّك جئت به من مُزَينةَ، وقد عَلِمت العرب أَن حَصاتَها وعين مائها في الشعر لهذا الحيّ من غَطَفان ثم لي منهم، وقد رَوَيتَه عني. وأحذاه نصيباً من ماله ومات:

بشامة خاله شاعر مجيد وشيء من شعره:

وبشامةُ شاعر مُجيد وهو الذي يقول:

صـــوت

أَلَا تَـريْـن وقـد قـطَّـعـتِـنـي قِـطـعـاً ... مـاذا مـن الـفَـوتِ بـيـن الـبـخـل والـجـودِ

إلّا يـــكـــن ورَقٌ يـــومـــاً أراحُ بـــه ... لـلـخـابـطـيـن فـإِنـي لـيّـنُ الـعُـودِ

[البسيط]

الغناء لإِسحاق ثقيلٌ أوّل بالبنصر، وقيل: إنه لإِبراهيم.

طلق زوجته أم أوفى ثم ندم فقال شعراً:

قال ابن الأعرابي:

أُمُّ أوْفى التي ذكرها زُهيرٌ في شعره كانت امرأته، فولَدتْ منه أولاداً ماتوا، ثم تزوّج بعد ذلك امرأةً أخرى، وهي أمُّ ابنَيه كعب وبُجير؛ فغارت من ذلك وأذته، فطلَّقها ثم نَدِم فقال فيها:

لَـعَـمـرك والـخـطـوبُ مُـغَـيّـراتٌ ... وفـي طـول الـمـعـاشـرة الـتَّـقـالـي

لـقـد بـالـيـتُ مَـظـعَـنَ أُمّ أَوفـى ... ولـكـن أُمُّ أوفـى مـا تُـبـالـي

فـأمـا إذا نـأيـتِ فـلا تـقـولـي ... لـذي صِـهـرٍ أذِلـتُ ولـم تُـذالـي[1]

أصـبـتُ بـنـيّ مـنـك ونِـلْـتِ مـنـي ... مـن الـلَّـذات والـحُـلَـلِ الـغـوالـي

[الوافر]

وقال ابن الأعرابي:

عانت امرأة ابنه سالماً فمات فرثاه:

كان لزهير ابنٌ يقال له سالم، جميل الوجه حسن الشَعر. فأهدى رجلٌ إلى زهير

(١) أذال المرأة: أهانها وأساء إليها.

بُردَين[1]، فلبسهما الفتى وركب فرساً له، فمرَّ بامرأةٍ من العرب بماء يقال له النُّتاءة، فقالت: ما رأيتُ كاليوم قطّ رجلاً ولا بُردَين ولا فرساً، فعثر به الفرسُ فٱندقَّت عُنُقُه وعُنُقُ الفرس وٱنشقَّ البردان. فقال زهير يرثيه:

رأتْ رجلاً لاقى من العيش غِبطةً ... وأخطأه فيها الأمورُ العظائمُ
وشَبَّ له فيها بَنون وتُوبِعتْ ... سلامةُ أعوامٍ له وغنائمُ
فأصبح مَحبوراً يُنَظِّر حوله ... بغِبطته لو أنّ ذلك دائمُ
وعندي من الأيام ما ليس عنده ... فقلت تَعَلَّمْ إنّما أنت حالمُ
لعلَّكِ يوماً أن تُراعي بفاجعٍ ... كما راعني يوم النُّتاءةِ سالمُ

[الطويل]

قال ابن الأعرابيّ:

كان لزهيرٍ في الشعر ما لم يكن لغيره، وكان أبوه شاعراً، وخالُه شاعراً، وأُختُه سُلمى شاعرةً، وابناه كعبٌ وبُجَير شاعرين، وأُخته الخنساء شاعرةً، وهي القائلة ترثيه:

وما يُغني تَوَقِّي الموتِ شيئاً ... ولا عَقدُ التَّميم ولا الغَضارُ

[الوافر]

ـ والغضار: كان أحدهم إذا خَشِيَ على نفسه يعلِّق في عُنقه خَزَفاً أخضر ـ:

إذا لاقى مَنِيَّتَه فأمسى ... يُساق به وقد حَقَّ الجِذارُ
ولاقاهُ من الأيام يومٌ ... كما من قَبلُ لم يَخلُد قُدارُ

[الوافر]

وابنُ ابنه المُضَرِّب بن كعب بن زهير شاعرٌ، وهو القائل:

إني لأحبِسُ نفسي وهي صاديةٌ ... عن مُصعَبٍ ولقد بانت ليَ الطُّرُقُ
رُعْوَى عليه كما أَرعى على هَرِمٍ ... جَدّي زهيرٌ وفينا ذلك الخُلُقُ
مَدْحُ الملوك وسَعيٌ في مَسرَّتهم ... ثم الغِنى ويدُ الممدوح تنطلقُ

[البسيط]

(١) بُردين: البُرد هو نوع من اللّباس.

أَخبرني أَبو خليفة عن محمد بن سَلَّام قال:

مَن قَدَّم زهيراً ٱحتجّ بأنه كان أحسنهم شعراً، وأبعدَهم من سُخفٍ، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليلٍ من الألفاظِ، وأشدَّهم مبالغةً في المدح، وأكثرَهم أمثالاً في شعره.

مرثية ابنه سالم:

أَخبرني الحسين بن يحيى عن حمَّاد عن أَبيه عن الأصمعيّ قال:

كان لزهير ابنٌ يقال له سالم، وكان من أُمِّ كعب بن زهير؛ فمات أو قُتل، فجزِع عليه كعب جزعاً شديداً، فلامته امرأته وقالت: كأنه لم يُصَبْ غيرُك من الناس! فقال:

رأتْ رجلاً لاقى من العيش غبطةً ... وأخطأه فيها الأمورُ العظائمُ
وشَبَّ له فيها بَنونَ وتُوبعتْ ... سلامةُ أعوامٍ له وغنائمُ
فأصبح محبوراً ينظِّر حوله ... بغبطته لو أنّ ذلك دائمُ
وعندي من الأيام ما ليس عنده ... فقلت له مهلاً فإنك حالمُ
لعلَّكِ يوماً أن تُراعي بفاجعٍ ... كما راعني يوم النُّتاءةِ سالمُ

[الطويل]

* * *

صوت

عَزَفتَ ولم تَصرِم وأَنت صَرومُ ... وكيف تَصابي مَن يقال حليمُ
صَددتَ فأطوَلتَ الصدودَ ولا أرى ... وِصالاً على طول الصُّدود يدومُ

[الطويل]

عَروضُه من الطويل. عزفت عن الشيء: إذا تركتَه وأَبَته نفسك. قال ابن الأعرابيّ: يقول لم تَصرِم صُرمَ بَتاتٍ؛ ولكن صَرَمتَ صُرمَ دَلالٍ. وأطوَلتَ الصدودَ أَي أطلته. وإنما قال هذا ضرورةً. الشعر للمرّار بن سَعيد الفَقْعَسِيّ. والغناء لإِسحاق رمَل.

* * *

ذكر المرار وخبره ونسبه

نسبه وكان قصيراً ضئيل الجسم:

هو المَرّار بن سَعيد بن حبيب بن خالد بن نَضلة بن الأشيَم بن جَحوان بن فَقْعَس بن طَريف بن عمرو بن قُعَين بن الحارث بن ثَعلبةَ بن ذُودان بن أَسَد بن خُزَيمة بن مُدركة بن الياس بن مُضَر بن نِزارٍ. وأمُّ المَرّار بنتُ مَروان بن مُنقِذ الذي أغار على بني عامر بثَهلان فقتل منهم مائةً بحبيب بن مُنقِذ عمّه، وكانوا قتلوه.

وكان المَرّار قصيراً مُفرِطَ القِصَرِ ضئيلَ الجسم. وفي ذلك يقول:

عَدُّونيَ الثعلبَ عند العَددِ حتى ٱستثاروا بيَ إحدى الإِحَدِ[1]
لَيثاً هِزَبراً ذا سلاحٍ مُعتَدي يَرمي بطَرْفٍ كالحريق المُوقَدِ
[الرجز]

كان يهاجي المساور بن هند:

وكان يُهاجي المُساور بن هند بن قيس بن زهير بن جَذيمةَ العَبسيّ. وفيه يقول المَرّار:

شَقِيَتْ بنو سَعدٍ بشِعرِ مُساوِرٍ إنّ الشقيَّ بكلّ حبل يُخنَقُ
[الكامل]

والمُساور القائل فيه:

ما سرَّني أَنَّ أُمّي من بني أَسَدٍ وأنَّ ربيّ يُنجيني من النارِ
أو أنَّهم زوّجوني من بناتهمُ وأنّ لي كلَّ يومٍ ألفَ دينارِ
[البسيط]

والمَرَّار من مُخَضرَمي الدولتين. وقد قيل: إنَّه لم يُدرك الدولة العبَّاسيَّة.

---

(١) الإحد: الأمر الكبير المنكر.

وقال هذه القصيدة وهو محبوس. ذكر محمد بن حبيب عن ابن الأعرابيّ عن المُفَضَّل والكوفيّين.

أنَّ المرّار بن سعيد كان أتى حُصَين بن بَرَّاق من بني عَبس، فوقف على بيوتهم فجعل يحدّث نساءهم ويُنشدهنَّ الشعرَ. فنظروا إليه وهم مجتمعون على الماء فظنُّوا أنه يَعِظهُنَّ. ثم ٱنصرف من عند النساء حتى وقف على الرجال. فقال له بعضهم: أنت يا مَرَّارُ تَقِفُ على أبياتنا وتُنشد النساء الشعر! فقال: إنَّما كنتُ أسألهن. فجرى بينه وبينهم كلامٌ غليظ، فوثبوا عليه وضربوه وعقَّروا بعيره؛ فٱنصرف من عندهم إلى بني فَقعَس فأخبرهم الخبرَ، فركبوا معه حتى أَتَوْا بَني عَبس فقاتلوهم فهزموهم، وفقأتْ بنو فَقعَس من بني عَبس عيناً وقتلوا رجلاً ثم ٱنصرفوا. فحمل أَبو شدَّاد النَّصريّ لبني عَبسٍ مائتي بعيرٍ وغلَّظوا عليهم في الدّية. ثم إن بدر بن سعيد أخا المَرَّار قال: قد ٱستوفت عَبسٌ حقَّها، فعلامَ أترك ضربَ أَخي وعَقرَ جمله! فخرج حتى أتى جِمالاً لبني عَبس في المَرعى فرمى بعضها فعقَرها ثم ٱنصرف. فقال للمرَّار: إنه واللَّه ما يُقنَعُ بهذا ولكن اخرُج بنا. فخرجا حتى أغارا على إبلٍ لبني عَبس فطرداها وتوجها بها نحوَ تَيماء. فلمَّا كانا في بعض الطريق ٱنقطع بطانُ راحلة بدر فندر[1] عن رحله. فقال له المرَّار: يا أَخي أطِعني وٱنصرف ودَعْ هذه الإبل في النار، فأبى عليه. ثم سارا، فلمَّا كانا في بعض الطريق عرَض لهما ظبيٌ أعضَب[2] أحدِ القرنين. فقال المرّار لبدر: قد تطيّرتُ من هذا السفر، ولا واللَّه ما نرجع من هذا السفر أَبداً، فأَبى عليه بدرٌ. فتفرّقت عَبسٌ فِرقتين في طلب الإبل، فعمدت فرقةٌ إلى وادي القُرى، وفرقةٌ إلى تَيماء؛ فصادفوا الإبل بتَيماء تُباع، فأخذوا المرّار وبَدراً فرفعوهما إلى الوالي. وعُرِفتْ سِماتُ عَبسٍ على الإبل فدُفعتْ إليهم، ورُفع المرَّار وأخوه إلى المدينة فضُرِبا وحُبِسا، فمات بدرٌ في الحبس. فكلَّمتْ عِدَّةٌ من قريش زيادَ بن عبد اللَّه النَّصريّ في المرّار فخَلَّاه. وقال في حبسه:

صَـــرَمـــتَ ولـــم تَـــصـــرِم وأَنـــتَ صَـــرومُ

وهي طويلة.

---

(١) ندر: سقط ووقع.

(٢) الأعضب: المكسور.

مات أخوه بدر في الحبس فرثاه:

وقال يرثي أخاه بدراً:

أَلَا يا لَقومِي للتَّجَلُّدِ والصّبْرِ ... وللْقَدَرِ السَّاري إليك وما تَدري
وللشيء تَنساه وتذكُرُ غيرَه ... وللشيء لا تَنساه إلَّا على ذُكرِ
وما لكما بالغيب عِلمٌ فتُخبِرَا ... وما لكما في أمر عثمانَ من أمرِ

[الطويل]

وهي طويلة، يقول فيها:

أَلَا قاتل اللَّهُ المقاديرَ والمُنى ... وطيراً جَرَتْ بين السُّعافات والحِبرِ
وقاتلَ تكذيبي العِيافةَ بعد ما ... زجرتُ فما أغنى ٱعتيافي ولا زَجري
تَرَوَّحْ فقد طال الثَّواءُ وقُضِّيَتْ ... مَشاريطُ كانت نحوَ غايتها تجري

[الطويل]

ـ المشاريط: العلامات والأمارات ـ

وما لقُفُولٍ بعد بدرٍ بشاشةٌ ... ولا الحيِّ آتيهم ولا أوبةِ السَّفرِ
تُذَكِّرني بدراً زعازعُ جَحْرةٍ ... إذا عَصَفَتْ إحدى عَشِيَّاتها الغُبرِ

[الطويل]

ـ الزعازعُ: الشديدةُ الهُبوب. والجَحرة: السنة الشديدة ـ

إذا شَولُنا[1] لم نُؤتَ منها بمحلَبٍ ... قَرَى الضَّيفَ منها بالمهنَّد ذي الأثرِ
وأضيافُنا إن نبَّهونا ذكرتُه ... فكيف إذاً أنساه غابرةَ الدهرِ
إذا سَلَّم السَّاري تهلَّلَ وجهُه ... على كل حالٍ من يَسارٍ ومن عُسرِ
تذكَّرتُ بدراً بعد ما قيل عارفٌ ... لما نابَه يا لَهفَ نفسي على بدرِ
إذا خطرتْ منه على النفس خَطرةٌ ... مَرَتْ[2] دمعَ عيني فٱستهلَّ على نَحري
وما كنتُ بَكَّاءً ولكن يَهيجُ لي ... على ذِكره طيبُ الخلائق والحُبرِ
أعينَيَّ إني شاكرٌ ما فعلتما ... وحُقَّ لما أَبلَيتُمانيَ بالشكرِ

(١) الشول: مفردها شائلة، وهي الإبل التي خفَّ لبنها وارتفع ضرعها.
(٢) مَرَت: أرسلت.

سـألـتُـكـمـا أن تُـسـعِـداني فـجُـدتُـمـا عَـوانَـيـن[1] بـالـتَّـسـجـام بـاقِـيَـتـيْ قَـطـرِ
فـلـمَّـا شـفـانـي الـيـأسُ عـنـه بـسَـلـوةٍ وأَعـذرتُـمـا لا بـل أَجَـلّ مـن الـعـذرِ
نَـهَـيْـتُـكـمـا أن تُـسـهِـرانـي فـكـنـتـمـا صَـبُـورَيـن بـعـد الـيـأس طـاويَـتَـيْ غُـبـرِ
[الطويل]

يقول: طويتما أغبارَ دمعكما. والأغبار: البقايا كأغبار اللَّبن.

خرج حاجاً وأضافه قرشيّ بالأبطح:

أَخبرني الحُسَين بن يحيى عن حمَّاد عن أَبيه قال حدثني رجل عن واصل بن زكريَّا بن المرَّار أن المرّار قال:

خرجتُ حاجّاً فأَنختُ بناحية الأبطح، فجاء قوم فنَحَّوني عن موضعي وضربوا فيه قُبَّةً لرجل من قُرَيش. فلمَّا جاء وجلس أتيته فقلتُ:

هـذا قَـعـودي بـارِكـاً بـالأبـطَـحِ عـلـيـه عِـكْـمـا[2] أكْـمُـرٍ[3] لـم تُـفـتَـحِ
[الرجز]

فقال: وما قصَّتك؟ فأخبرتُه. فقال: واللَّه لا تفتحُ منهما شيئاً حتى تنصرفَ، فأَقِمْ معنا، يدُك مع أيدينا، وقَعُودُك مع أَباعِرِنا. فواللَّه ما فتحتُ العِدلَين حتى ٱنصرفتُ بهما إلى أهلي. فما هجاني أحد قطُّ هِجاءه.

حبس هو وأخوه بدر، وشعره في الحبس:

أَخبرني هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال حدثنا أَبو غسَّان دَماذ عن أَبي عُبَيدة قال أَخبرني أَبو مَوهَبٍ رُتَيلٌ الزُّبَيريّ أَحدُ بَني زُبَير بن عمرو بن قُعَين قال:

كان المرّار بن سعيد وأخوه بدرٌ لِصَّين، وكان بدرٌ أشهرَ منه بالسرقة وأكثرَ غاراتٍ على الناس. فأغار بدر على ذَودٍ لبعض بني غَنم بن ذُودان فطردها، فأُخِذ ورُفِع إلى عثمانَ بن حَيَّانَ المُرّي، وهو يومئذٍ على المدينة فحبسه. وطرد المرَّارُ طَريدةً فأُخِذ معها وهو يبيعها بوادي القُرى أَو ببِرْمة، فرُفِع إلى عثمانَ بن حَيَّان فحبسه. قال: فٱجتمعا ومكثا في السجن مدَّةً؛ ثم أَفلَت المرَّارُ وبقيَ بدرٌ في السجن حتى مات محبوساً مقيَّداً. فقال المرّار وهو في الحبس:

---

(١) العوان: نصف السن من كل شيء. (٢) العِكم: العِدْل أو الغرارة.
(٣) الأكْمُر: مفردها كَمْر، وهو ما لم يرطب على نخله ولكنه سقط فتحول إلى رطب على الأرض.

أنارٌ بَدَتْ من كُوَّةٍ السجن ضوؤُها عشيَّة حَلَّ الحَيُّ بالجَرَعِ[١] العُفرِ
عَشيَّة حَلَّ الحيُّ أَرضاً خَصيبةً يَطيبُ بها مَسُّ الجنائبِ[٢] والقَطرِ
فيا ويلتا سجن اليمامة أطلِقا أسيركما يَنظُر إلى البرق ما يَفري[٣]
فإن تفعلا أَحمدْكما ولقد أرَى بأنكما لا ينبغي لكما شكري
ولو فارقتْ رجلي القيودُ وجدتُني رفيقاً بنَصّ العِيسِ[٤] في البلد القَفْرِ
جديراً إذا أُمسي بأرضٍ مَضَلَّةٍ بتقويمها حتى يُرَى وَضحُ الفجرِ

[الطويل]

وقال أَبو عمرو الشَّيبانيّ:

كان بين المرَّار بن سعيد وبين رجل من قومه لحاءٌ، فتقاذفا وتسابَّا، ثم صارا إلى الضرب بالعصا؛ فقال في ذلك:

صوت

ألم تَربَعْ فتُخبرَكَ المَغاني فكيف وهُنَّ مُذْ حِجَجٍ ثَمانِ
بَرِئتُ من المنازلِ غيرَ شَوقٍ إلى الدارِ التي بِلوَى أَبانِ

[الوافر]

لإِسحاقَ في هذين البيتين هزجٌ بالخنصر في مجرى البنصر من كتاب ابن المَكِّيّ.

كان أخوه بدر شاعراً، وشيء من شعره:

وكان بدر بن سعيد أخو المرَّار شاعراً وهو الذي يقول:

صوت

يا حَبَّذا حين تُمسي الريح باردةً وادي أُشَيٍّ وفِتيانٌ به هُضُمُ[٥]

(١) الجرع: هي الرمال السهلة التي لا وعورة فيها.
(٢) الجنائب: الرياح الآتية من جهة الجنوب.
(٣) يفري: يشق ويقطع، وأراد البرق الذي يقطع الظلام.
(٤) نصّ العيس: اسحثاث الإبل واستقصاء آخر ما عندها من السير.
(٥) هُضُم: يهضمون المال أي يضيّعونه وينفقونه في غير موضعه.

مُـخَـدَّمُـونَ كِـرامٌ فـي مـجـالـسـهـم وفـي الـرِّحـال إذا لاقـيـتَـهـم خَـدَمُ
ومـا أُصـاحِـبُ مـن قـوم فـأذكـرهـم إلَّا يَـزيـدُهُـمُ حُـبّـاً إلـيّ هُـمُ
[البسيط]

الغناء لابن مُحرزٍ ثاني ثقيل بالخِنصر والبنصر عن ابن المكيّ. وفيه لمتيَّم خفيف رمَلٍ. وذكر حَبشٌ، أن الثقيل للهُذَليّ. وفيه لمحمد بن الحارث بن بُسخُنَّر ثقيلٌ أوَّلُ عن الهِشاميّ.

* * *

صوت ابن صاحب الوضوء في شعر النابغة:

صـوت

خَـطـاطـيـفُ حُـجـنٌ فـي حِـبـالٍ مَـتـيـنـةٍ تَـمُـدُّ بـهـا أَيـدٍ إلـيـكَ نَـوازعُ
فـإن كـنـتَ لاذا الـضِّـغـنِ عـنّـي مـكـذّبـاً ولا حـلِـفـي عـنـد الـبـراءةِ نـافـعُ
فـإنـك كـالـلـيـل الـذي هـو مُـدركـي وإن خِـلـتُ أن الـمُـنـتَـأى عـنـك واسـعُ
[الطويل]

عروضه من الطويل. يقول: أنا في قَبضتِك متى شئتَ قدَرتَ عليّ كأني في خَطاطيفَ تجذِبُني إليك ولا أقدِر على الهَرَبِ منك. ويُروى «وإن خلتُ أَن المُنتَوَى» أي الموضع الذي انتَوي قصدَه. والمُنتَأى: المُفتعل من النأي. والحُجن: المُعوجَّةُ. والنوازع: الجواذِب. والضِّغن: الحقد.

الشعر للنابغة الذُّبيانيّ. والغناءُ لابن صاحب الوضوء من رواية إِسحاق وعمرو ماخورِيٍّ بالبنصر.

فهرس المحتويات

أخبار دريد بن الصمة ونسبه ٥
إخوته: ٥
ابنه وبنته شاعران: ٥
تمثل عليّ عليه السلام بشعره: ٩
عاتبته زوجته أم معبد على بكائه أخاه فطلقها: ١٠
حارب غطفان يوم الغدير طلباً بثأر أخيه: ١١
أخوه قيس بن الصمة ومقتله: ١٢
خبر الحرب بين بني عامر وبني جشم وبين أسد وغطفان: ١٣
خالد بن الصمة ومقتله: ١٥
يوم ثيل: ١٦
قصة زواجه بامرأة وجدها ثيّباً: ١٧
ما جرى بينه وبين عياض الثعلبي: ١٧
هجا عبد اللّه بن جدعان ثم مدحه: ١٨
تغزل في الخنساء وخطبها فامتنعت وتهاجيا: ١٩
آخر أيامه وشعره بعد أن أسن وضعف جسمه: ٢١
قتلت بنو يربوع الصمة أباه فغزاهم: ٢٢
كان أبوه شاعراً: ٢٣
استحثه قومه على الأخذ بثأر أخيه: ٢٧
قصته مع مسهر بن يزيد الحارثي وشعره: ٣١
أخبار المعتضد في صنعة هذا اللحن وغيره من الأغاني ٣٤
أخبار إبراهيم بن العباس ونسبه ٣٦
قصة عشقه لقينة وانكماشه لتأخرها: ٣٨
أجازه دعبل في شعر: ٣٩

رثاؤه لابنه: ٤١
أرسل ابن الزيات أبا الجهم للنكاية به: ٤٣
نادرته في ثقيل: ٤٤
كتابه في شفاعة لرجل إلى بعض إِخوانه: ٤٤
مدحه عبيد اللَّه بن يحيى عند المتوكل: ٤٥
كان يستثقل ابن أخيه: ٤٦
استعطافه محمد بن عبد الملك الزيات: ٤٧
هجا محمد بن عبد الملك: ٤٨
تمادح هو وأبو تمام: ٤٨
سرق ابن دريد وابن الرومي من شعره: ٤٩
قال ثعلب إِنه كان أشعر المحدثين: ٥٠
مدح الحسن بن سهل: ٥٠
شعره في قصر الليل: ٥١
مسح المداد بكم ثوبه وشعره في ذلك: ٥٢
إتهمه المأمون بإِفشاء سر مقتل الفضل بن سهل: ٥٢
مدح الفضل بن سهل: ٥٣
مدح المتوكل وولاة العهود فأجازوه: ٥٤
مدح المعتز بشعر: ٥٦
ومن أخبار المعتضد باللَّه الجاريةِ مجرى هذا الكتاب ٥٧
المعتضد وغلامه بدر: ٥٧
صنعة أولاد الخلفاء الذكور منهم والإناث ٥٩
أخبار مروان بن أبي حفصة ونسبه ٦١
نسبه وشيء من أخبار آبائه: ٦١
جرير يودع ابنه يحيى بن أبي حفصة: ٦٣
يهنئ الوليد بن عبد الملك ويعزيه: ٦٤
فضّل خلف الأحمر شعراً له على شعر للأعشى: ٦٩
عرض شعراً له على يونس فمدحه وفضله على شعر للأعشى: ٧٠

مدح المهدي في الرصافة فأجازه: ٧٥
مدح المهدي وذم عنده يعقوب بن داود فأجازه من خالص ماله: ٧٥
مدح معناً فأعطاه عطايا سنية لم يستكثرها عليه ابن الأعرابي: ٧٦
رمى محرز معناً بالظلم فرد عليه بما أخجله: ٧٧
تزوجت امرأة من أهله في بني مطر فلم يرضهم: ٧٨
تهكم بالجِنِّيّ الشاعر فهجاه: ٧٨
مدح عمرو بن مسعدة في مرضه: ٧٩
رأى الغول في بعض سفراته ففزع: ٨٠
لازمه صالح بن عطية الأضجم أياماً ثم قتله: ٨١
بعض أخبار إبراهيم بن المهدي ٨٢
نشأته ونسب أمه شكلة: ٨٢
كلمة لإبراهيم بن المهدي عن نفسه في صنعة الغناء: ٨٣
غنّى الرشيد وعنده سليمان بن أبي جعفر وجعفر بن يحيى: ٨٤
نسبة هذين الصوتين، منهما ٨٥
والآخر من الصوتين: ٨٥
غنّى صوتاً على أربع طبقات: ٨٦
غنّى صوتاً لمبعد: ٨٦
نسبة ما في هذا الخبر من الغناء ٨٨
طلبت إليه أخته أسماء سماع غنائه: ٨٨
غضب عليه الأمين ثم رضي عنه: ٨٩
طارح أخته عليّة فأطربا المأمون وأحمد بن الرشيد: ٨٩
إتخذ لنفسه حراقة بحذاء داره: ٩١
ثناء ابن أبي ظبية عليه: ٩٢
غنّى الأمين فأطربه: ٩٣
غضب عليه المأمون وسجنه فاستعطفه حتى عفا عنه: ٩٨
فضَّل المأمون غناءه على غناء إسحاق في شعر للأخطل: ١٠٢
علمه إسحاق لحناً فطرب له الأمين: ١٠٢

حج مع الرشيد، وقصته مع جارية رآها: ١٠٣
حواره مع المأمون: ١٠٥
غضب عليه الأمين فاستعطفه: ١٠٥
صالح جاريته صدوف: ١٠٦
قيل له تب واحرق دفاتر الغناء: ١٠٦
رأى عليّاً في النوم: ١٠٦
غنّى للأمين لحناً فطرب وطلب إليه أن يلقنه إحدى جواريه: ١٠٧
قال بيتاً يكيد به لدعبل: ١١٠
غنّى المأمون لحناً عرّض فيه بالحسن بن سهل: ١١١
فضّله مخارق على نفسه وعلى إبراهيم الموصلي وابن جامع: ١١٢
نسخة جواب إبراهيم بعد ما ذهب منه ١٢١
أخبار أبي النجم ونسبه ١٢٦
أصله ونسبه: ١٢٦
ترتيب الرجاز في رأي بعض الرواة: ١٢٨
ناجز العجَّاج حتى هرب منه: ١٢٨
غلب الشعراء عند عبد الملك بن مروان وظفر منه بجارية: ١٢٩
وصف جارية لخالد بن عبد اللَّه القسري لساعته فوهبها له: ١٢٩
غضب عليه هشام ثم سمر معه ليلة فرضي عنه: ١٣٠
كان أسرع الناس بديهة: ١٣٢
سأله هشام بن عبد الملك عن رأيه في النساء فأجابه: ١٣٢
حدث هشام بن عبد الملك عن نفسه فأضحكه: ١٣٣
ذكر فتاة في شعره فتزوجت: ١٣٤
أخطأ في أشياء أخذت عليه: ١٣٥
أخبار عليَّة بنت المهدي ونسبها ونتف من أحاديثها ١٣٦
بعض صفاتها: ١٣٦
كانت لا تشرب ولا تغني إلا أيام حيضها: ١٣٦
لم يجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناء منها ومن أخيها: ١٣٧

كانت تحب المكاتبة بالشعر: ١٣٧
حجب عنها طَلٌّ فقالت فيه شعراً: ١٣٨
هجت طغيان حين وشت بها إلى رشأ: ١٤٠
نسبة الصوت الذي أُخذ منه ١٥١
أمرها الرشيد بالغناء فنظمت فيه شعراً وغنته به فطرب: ١٥٢
إشتاقها الرشيد وهو بالرّقة فطلبها فجاءته: ١٥٣
كانت مع الرشيد في الري فحنت إلى العراق بشعر فردها: ١٥٣
غنت الرشيد في يوم فطر: ١٥٤
تركت الغناء لموت الرشيد فألح عليها الأمين فغنته: ١٥٤
توفيت ولها خمسون سنة: ١٥٦
أخبار أبي عيسى بن الرشيد ونسبه ١٥٨
كان جميل الوجه: ١٥٨
كان إذا ركب جلس له الناس لرؤية حسنه: ١٥٨
مدحت عريب حسنه وغناءه: ١٥٨
سخط من رؤية هلال شهر رمضان: ١٥٩
مدح إبراهيم بن المهدي غناءه: ١٥٩
عرّض بيعقوب بن المهدي فضحك المأمون ونهاه: ١٦٠
كان المأمون يحبه ويتمنى أن يلي الأمر بعده: ١٦٠
عزاء محمد بن عباد، المأمون فيه: ١٦١
مات سنة تسع ومائتين: ١٦١
وجد عليه المأمون وجداً شديداً: ١٦١
بكاه المأمون: ١٦١
طلب المأمون من أبي العتاهية أن يسليه عنه: ١٦٢
عبد اللّه بن موسى الهادي ١٦٥
كان كريماً ممدحاً: ١٦٧
غنّى بشعر لعمر بن أبي ربيعة: ١٦٧
عربد على المأمون فحبسه ثم سمه فمات: ١٦٧

وممن رويت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد اللَّه بن محمد الأمين ١٦٨
أخبار عبد اللَّه بن محمد ونسبه ١٦٩
كان صديقاً لأبي نهشل فأحب جارية اشتراها أخوه: ١٦٩
خرج إلى ضيعته وتكاتب هو ونديمه أبو نهشل بشعر: ١٧٠
نادم الواثق والخلفاء من بعده إلى المعتمد: ١٧١
وممن صنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن المتوكِّل ١٧٢
أخبار علي بن الجهم ونسبه ١٧٣
كان شاعراً فصيحاً اختص بالمتوكل وهجا عليًّا وشيعته: ١٧٤
قال أبو الشبل شعره في الحبس كشعر عديّ بن زيد: ١٧٦
كتب المتوكل لطاهر بإطلاقه فأطلقه فقال شعراً: ١٧٧
جمَّش جارية فباعدته فقال شعراً فأجابته: ١٧٨
انتحل شعراً لإبراهيم بن العباس: ١٧٩
قال المتوكل إنه كذاب وأثبت كذبه بكلامه له: ١٧٩
عربد عليه بعض ولد علي بن هشام فهجاهم: ١٧٩
سعى عند المتوكل بندمائه وبلغه أنه هجاه فحبسه: ١٨٠
شعر له في الفراق: ١٨٧
كان محمد بن عبد الملك الزيات منحرفاً عنه ويسبعه عند الخليفة فهجاه: ١٨٧
جلس في المقابر بعد خروجه من السجن: ١٩٠
مدح أبا أحمد بن الرشيد فلم يعطه شيئاً فهجاه: ١٩٠
رثى عبد اللَّه بن طاهر بشعر وأنشده ابنه يعزيه: ١٩١
كتب من حبسه إلى المتوكل شعراً: ١٩٣
شعر له غنت فيه عريب: ١٩٤
ومن صنعة أبي عيسى بن المتوكِّل ١٩٨
أخبار أبي دلامة ونسبه ١٩٩
نسبه وهو مولى لبني أسد وكان فاسد الدين متهتكاً: ١٩٩
لفق رؤياً للمنصور وأخذ منه ثياباً: ٢١١
حبسه المنصور لسكره فبعث له من الحبس شعراً فعفا عنه: ٢١١

لفّق رؤيا لتمَّار وأخذ منه تمراً: ٢١٢
عزى أم سلمة بنت يعقوب في السفاح فأضحكها: ٢١٤
أمره المهدي بهجاء أحد الحضور فهجا نفسه: ٢١٧
داعب المنصور في جنازة بنت عمه حتى ضحك: ٢١٩
سأل الخيزران جارية فوعدته بها وأبطأت فاستنجزها بشعره: ٢٢٠
فزع من رؤية الفيل: ٢٢٢
قال شعراً في الجنيد النخاس يذمه ويمدح جارية له: ٢٢٦
عبث به ابنه فأراد أن يخصيه فحكم زوجته: ٢٢٧
أخبار عبد اللَّه بن المعتزّ ٢٢٩
أدبه وشعره ومذهبه في الأدب: ٢٢٩
زارته زرياب في يوم الشعانين وغناها: ٢٣٢
غضب عليه غلامه نشوان فقال شعراً يترضاه به: ٢٣٣
نسب زهير وأخباره ٢٣٩
قال جرير هو شاعر الجاهلية: ٢٣٩
قال عمر لابن عباس إنه شاعر الشعراء: ٢٣٩
كان قدامة بن موسى يقدّمه على سائر الشعراء: ٢٤٠
قال جرير هو أَشعر أَهل الجاهلية: ٢٤٠
قال عنه الأحنف بن قيس هو أشعر الشعراء: ٢٤٠
مدح عمر بن الخطاب شعره: ٢٤٠
إستعاذ منه النبيّ ﷺ فما قال شعراً حتى مات: ٢٤١
قصة زواج الحارث بن عوف ببهيسة بنت أوس: ٢٤٣
مدح عبد الملك بن مروان شعره: ٢٥١
مدح عثمان بن عفان شعراً له: ٢٥١
شعره في الحارث بن ورقاء وقد أخذ إبله وغلامه: ٢٥٢
بشامة خاله شاعر مجيد وشيء من شعره: ٢٥٦
طلق زوجته أم أوفى ثم ندم فقال شعراً: ٢٥٦
عانت امرأة ابنه سالماً فمات فرثاه: ٢٥٦

مرثية ابنه سالم: ٢٥٨
ذكر المرار وخبره ونسبه ٢٥٩
نسبه وكان قصيراً ضئيل الجسم: ٢٥٩
كان يهاجي المساور بن هند: ٢٥٩
مات أخوه بدر في الحبس فرثاه: ٢٦١
وهي طويلة، يقول فيها: ٢٦١
خرج حاجاً وأضافه قرشيّ بالأبطح: ٢٦٢
حبس هو وأخوه بدر، وشعره في الحبس: ٢٦٢
كان أخوه بدر شاعراً، وشيء من شعره: ٢٦٣
صوت ابن صاحب الوضوء في شعر النابغة: ٢٦٤